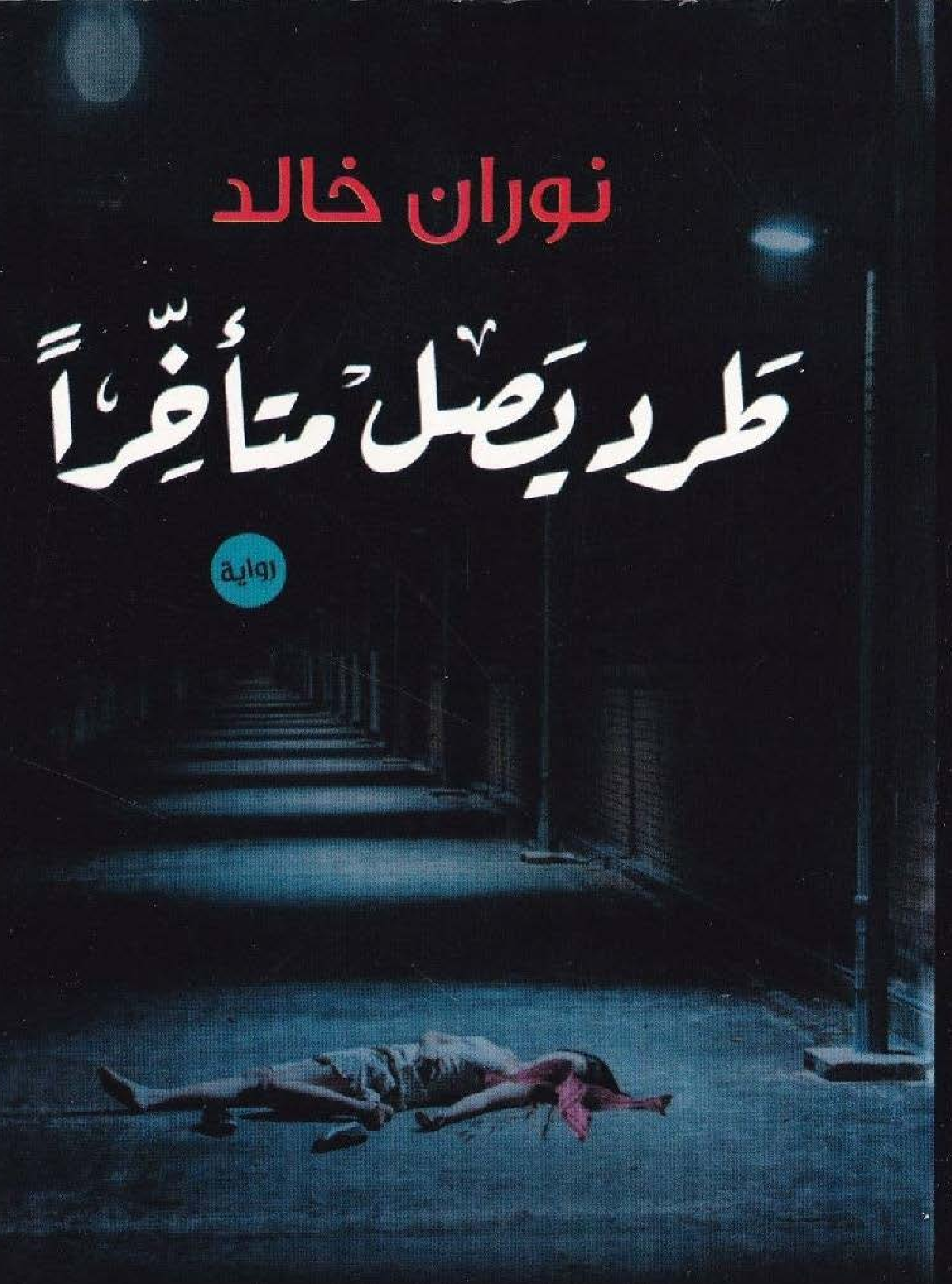
نوران خالد
طرد يصل متأخراً
رواية

طرد يصل متأخرًا

لمزيد من الكتب العصرية

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٦
رقم الإيداع: ٢٦٠١٧/ ٢٠١٥
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٢٦-٩٤-٨
تصحيح لغوي: مصطفى السيد سمير
تصميم الغلاف: كريم آدم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
©دار دَوّن

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

لمزيد من الكتب العصرية

# طرد يصل متأخرًا

نوران خالد

رواية

دَوّن
للنشر و التوزيع
دار دَوّن للنشر والتوزيع

لمزيد من الكتب العصرية

# إهداء

أكتب الآن وقد انتهيت من كتابة القصة منذ عدة أشهر بينما لم يتبق سوى تفاصيل صغيرة أعكف عليها لإنهائها حتى تكتمل الرواية، أكتب ولم يمض سوى بضعة أيام على أول رفض تتلقاه تلك الرواية من أول دار نشر تقدمت لها، أكتب ولم يمض سوى عدة ساعات على رحيل "رضوى عاشور". عندما قرأت الخبر البارحة على صفحتك على ال"Facebook" أحسست أنني أبذل مجهودا كبيرا لأصدقه، هل حقا رحلت قبل أن ألقاك ولو لمرة واحدة؟! أخذت أنتقل بين الصفحات المختلفة في جنون لعلي أجد من يكذب الخبر، صفحة تميم البرغوثي أو مريد أو أي صفحة أخرى تكذب هذا الخبر وتؤكد على أنك تتماثلين للشفاء وأن صحتك في تحسن، وعندما تأكدت من الخبر من إحدى الصفحات الموثوق بها وجدتني أبكي، نعم بكيت، ظننت أنه بكاء عابر سينتهي وإن بقي الحزن في القلب، ولكنني تفاجأت بنفسي أعود للبكاء مرة أخرى، ظللت أبكي في صمت حتى غفوت، وعندما استيقظت أول ما فعلته هو أن عدت للبكاء مرة أخرى، اندهشت من نفسي، لقد اعتدت عدم البكاء في غربتي ماعدا مواقف قليلة، مرة أو مرتين كل فترة دراسية يشتد الحال وتقسو الغربة فأبكي قليلا وينتهي الأمر، ولم أتخيل أن المرة التي سأبكي فيها خلال الفترة الدراسية الثالثة ستكون على فراقك، لم ألتق بك من قبل إلا من خلال كلماتك لكنني بكيتك كما لم أبك أحدا من قبل، بلى لم أبك أحدا من قبل بتلك الطريقة ولم أحسب نفسي قادرة على أن أذرف الدموع هكذا بتلك السهولة والكثرة بسبب الفقدان، لكنني في تلك اللحظات أشعر أنني المعنية بالأمر، أريدهم أن يواسوني، أن يقدموا لي العزاء فيك! كل من يعرفونني يعرفون كم أحبك يا سيدة راء، يعرفون أنك كنت دائما وستظلين مثلي الأعلى وقدوتي التي أحلم أن أكون مثلها أو مشابهة لها، ألا يحق للمرء أن يتقبل العزاء في مثله الأعلى حتى لو لم يلتق به أو يعرفه معرفة شخصية؟ ألا يحق لي أن يتفهم ولو ثلاثة أو أربعة أشخاص هذه الخسارة وهذا الفقدان اللذين أشعر بهما الآن فيواسوني ويقدموا لي العزاء؟ قد تبدو كلماتي غريبة ودموعي أغرب، قد يهيأ للبعض

لمزيد من الكتب العصرية

أن الأمر أبسط مما أصفه. لكنني أشعر أنني لست بحاجة إلى تبرير ما أشعر به وأقوله. لست بحاجة إلا إلى أن أبكيك وأظهر حزني عليك لأنك تستحقين أن نحزن على رحيلك، تستحقين أن ندعو لك بالرحمة وأن يبدلك الله دارا خيرا من دارك وأهلا خيرا من أهلك حتى إن انتابت دارك وأهلك وانتابتنا معهم الوحشة بدونك. لو كنت أعرف كيف تنظم الأشعار كنت سأرثيك لكنني لا أحسن سوى النثر فكتبت ما أشعر به دون ترتيب. فقط شعرت أنني في حاجة ماسة إلى الكتابة. أرأيت كم تلهمينني؟ في حياتك وأيضا في رحيلك.

عزيزتي السيدة "رضوى عاشور"، لا أملك سوى ما أسطر من كلمات في مؤلفاتي وأنت تعلمين أنه لا يوجد ما هو أغلى عند الكاتب من كلمات سطرها بمشاعره وبهذا الشغف الداخلي الذي لا يعرفه إلا من جربه من قبل.

عزيزتي السيدة "رضوى عاشور"، كنت قد قررت من قبل أن تظل تلك القصة بلا إهداء، ويعلم الله كم سيمضي من الوقت حتى تنشر تلك الرواية وهل سيكتب لها أن تنشر أم لا. لكنني في تلك اللحظة التي لا أشعر فيها بشيء سوى بفراغ موحش خلّفه رحيلك لا أجد عندي ما أهو أغلى من تلك الرواية لأهديه إلى روحك الصافية وأن أدعو لك. وأنا أعلم أنهم في تلك اللحظة التي أكتب فيها الآن قد أنهوا الصلاة عليك في القاهرة وأودعوك مثواك الأخير أو يوشكون على ذلك. عسى الله أن يتقبل مني فيغفر لك ويرحمك، بحق ما خلفته من علم لطلابك ومن أدب وفن وسيرة طيبة رقيقة وقوية في آن واحد لكل من سيسمع عنك أو سيقرأ لك.

وبحق صورتك الملهمة وتفاصيلها الوديعة التي تحتل في قلبي مكانة يعلم الله قدرها وأعجز عن أن أوفيها حقها.

أهديك هذا الكتاب وهو أعز ما أملك الآن وأتركك لتستريحي وتهنئي في مثواك الأخير. فلتظلي مبتسمة حتى وأنت على الجانب الآخر. فأنت الوحيدة التي لا تشعر بالوحشة مثلما نشعر كلنا الآن لأنه "لا وحشة في قبر رضوى".

الأول من ديسمبر ٢٠١٤ الساعة الثالثة وخمس دقائق

فرايبورج - ألمانيا

استيقظ عندما هبط الظلام ثقيلا على مدينة الضباب. لم ينقبض صدره من الوحشة التي زحفت على البيت قادمة من الشوارع الخالية التي امتزج ظلامها بالموجات الباردة مما زاد تلك الوحشة ثقلا وكآبة لم تستطع بالرغم من شدتها أن تؤثر فيه، شأنه في ذلك شأن كل من اعتاد الحياة والسكن في شوارع العاصمة البريطانية.

خرج من غرفة النوم يجر قدميه وهو لا يكاد يرى ما أمامه من خلال عينيه نصف المغمضتين وجفونه التي أثقلها الصداع، فمضى معتمدا على معرفته بأروقة المنزل، حتى وصل إلى القطعة الرخامية السوداء التي تفصل الصالة الخارجية عن المطبخ المتصل بباقي الشقة على الطراز الأمريكي الحديث. تناول تفاحة لم يميز لونها في الظلمة الحالكة وتقدم في تباطؤ نحو النافذة العريضة وهو يقضم ويمضغ التفاحة دون توقف حيث مد رأسه محاولا التقاط أي حركة في الشارع، فقد بدا لخاطره أنه ربما إن ركز كل بصره وحواسه على أي حركة، ربما أطار ذلك النوم من عينيه وأعاد إليه يقظته، ولكن خاب أمله بعدما وجد الشارع ساكنًا وموحشًا كالجثة الشاحبة.

رفع بصره باحثا عن غايته في أي نافذة من نوافذ الأبنية المحيطة. لم يطل بحثه حيث وجد حركة ما فوق سطح البناء المواجه لمنزله. انتشى قلبه بسعادة ساذجة لمرأى تلك الحركة ثم بدأ بتنفيذ ما اعتزمه، وأخذ يركز بصره ويفتح عينيه عن آخرهما ليرى ما يحدث أمامه.

كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص، لم يستطع أن يميز الخيالات التي انتابتها حركة سريعة عنيفة لا تليق بالخطورة المرتبطة بوقفتهم عند حافة سطح عال، لم يبال بذلك، كل ما كان يهمه هو ألا تنتهي تلك الحركة حتى يكون قد حقق غايته وأفاق من هذا النوم اللعين الذي يأبى أن يترك جفنيه.

فجأة، حدث ما أراده، طار النوم من عينيه، اختفى الصداع كأن لم يكن، سقطت التفاحة من يده بعدما تنبهت كل حواسه انتباهة غمرت قلبه بالذعر وعقله بالدهشة وجسده بقشعريرة كاملة ملأت كل أوصاله.

لمزيد من الكتب العصرية

حدث كل ذلك في اللحظة التي أعقبت رؤيته لثلاث من تلك الخيالات يرفعون الرابع ويلقون به من فوق السطح كما لو كانوا يلقون كيسا من الدقيق أو الورق، تبعتها صرخة مدوية شقت عنان السماء وطغت بضراوة على سكون الشارع وانتهت بصوت ارتطام قوي انقطعت على أعقابه صوت الصرخة.

حدث كل ذلك في ثانيتين، ثانية رأى فيها كل ما حدث وثانية انتابه فيها خليط المشاعر المتناقضة التي أطارت النوم من عينيه. وعندما أفاق من دهشته، رفع عينيه باحثا فوق السطح فلم يجد أحدا، لم يجد أي أثر لتلك الأشباح التي كانت منذ ثانيتين تتحرك مسرعة فوق هذا السطح.

جن جنونه، تملكه للحظة إحساس بأن كل ما حدث كان وهما صوره له خياله نصف النائم. ولكن لا، كيف يكون كل ذلك تهيؤات أو خيالات. لقد حدث بالفعل، حدث أمام عينيه، حتى وإن كانتا نصف مغمضتين!

اندفع كالمجنون نحو الشرفة، فتحها في أصابع أرعشتها السرعة واندفع إلى الخارج غير عابئ بالبرد الذي ارتطم بجسده الدافئ من أثر النوم، نظر إلى الشارع وما لبث أن وقعت عيناه على ما طمأنه إلى أنه لم يكن يحلم أو يتخيل، ولكن سرعان ما انقلبت تلك الطمأنينة إلى إحساس بالأسى والحزن عندما رأى على أرض الشارع جثة فتاة انسالت حول رأسها بقعة من السائل الأحمر.

(١)

لم يكن قد مضى الكثير من ساعات العمل عندما دخل عليها غرفة الاستقبال الواسعة مرتديا بذلة رمادية أنيقة، ارتمى في إعياء على المقعد المواجه لمكتبها، زفر وقد غطت وجهه أمارات الضيق دون أن ينبس بكلمة واحدة.

تركت ما في يدها من أوراق وقد بدا لها أن أفضل ما تفعله هو أن تداعبه كما تفعل دائما، مستخدمة دعاباتها تلك لتخفي الرعشة التي تصيب قلبها كلما رأته، والتي يبدو أنه لا يلتفت إليها بالمرة. قالت في نبرة ساخرة وشفاه مبتسمة، وقد أسندت رأسها ذات الشعر البني القصير والوجه الأبيض الرقيق على راحة يدها:

- صباح النور يا مستر رأفت. آه أنا الحمد لله كويسة جدا، شكرا على سؤالك!

فما زادته تلك المداعبة إلا ضيقا وقال في نفاد صبر:

- ليديا، أنا مش ناقصك خالص النهارده.

فعادت نبرة الجدية إلى صوتها وهي تتساءل في انزعاج:

- مالك يا رأفت؟

فصمت قليلا قبل أن يقول:

- كنت الصبح في الخارجية.

- آه ما أنا عارفة إن مستر شفيق بعتك النهارده عشان شغل.

- أيوه، وأنا هناك قالوا لي خبر زي الزفت.

فاعتدلت وهي تتساءل في قلق:

- خير؟

فصمت برهة كأنه يهيئها لتلقي الصدمة:

- ربما، انتحرت.

ندت عنها صرخة مكتومة أخفتها بيدها، وتراجعت بالمقعد للخلف من أثر الصدمة التي هوت على رأسها كمطرقة عقدت الدهشة لسانها وبصعوبة استطاعت أن تستجمع قوتها وتقول بنبرة خافتة

- يا نهار أسود! انتحرت؟! إنت متأكد يا رأفت؟ الحاجات دي مافيهاش هزار.

لمزيد من الكتب العصرية

فانتابته عصبية وهو يقول منفعلا:

- هزار إيه؟! باقول لك قالوا لي في الوزارة. رمت نفسها من سطح العمارة اللي هي ساكنة فيها في لندن.

فنظرت في قلق نحو الباب الخشبي الكبير وهي تقول منزعجة:

- وطي صوتك. مستر منصور عنده اجتماع جوا.

فهدأ انفعاله قليلا، بينما عاودت ليديا حديثها قائلة في توجس:

- طب وإيه؟ هتدخل تقول له؟

فعاد رأفت إلى انفعاله وهو يقول:

- إنتي اتجننتي؟! عاوزاني أنا أكون أول واحد يقول له خبر زي ده؟

- قلت لك وطي صوتك.

قالتها في عصبية. لم تكن حقا متضايقة من أن صوته عال، لكنها اتخذت من ذلك سببا لتحتج على انفعاله عليها لأنها لم تجد في نفسها الجرأة الكافية لتعلنها صراحة.

سيطر عليهما صمت ثقيل قطعه رأفت قائلا في نبرة مترددة:

- طب ما تقولي له إنتي.

فانتفضت في ذعر ونظرت إليه بعينين ملأتهما الدهشة وهي تقول:

- نعم؟! عاوزني أنا أقول له؟! طب أقول له إيه؟ بنتك الوحيدة ماتت.

لم يستطع أن يجيبها، كان يعلم أن هذا هو أسوأ موقف يمكن أن يوضع فيه. ألم يشفق هو على نفسه من أن يكون أول من يخبره بتلك الفاجعة، ألم ينهرها منذ دقائق عندما اقترحت عليه هذا الاقتراح المرعب، كيف يتخيل نفسه واقفا بين يدي منصور بك، بكل عظمته وهيبته ويقول له بكل بساطة "وحيدتك انتحرت، ماتت، لم تعد موجودة في هذه الدنيا." انتابته رعشة عندما تخيل ذلك، قطع جرس الهاتف حبل أفكاره التي خرج منها على ليديا وهي تجيب في صوت حاولت أن تكسبه الطبيعية:

- ألو، أيوه هنا مكتب منصور أبو بلاط. نقول له مين يا فندم؟

ثم التفتت نحو رأفت وقالت وقد عاد القلق إلى وجهها:

- وزارة الخارجية؟ حاضر يا فندم.

ضغطت على زر وانتظرت قليلا قبل أن تقول:

- أنا آسفة مستر منصور، بس فيه تليفون مهم من وزارة الخارجية. حاضر يا فندم.

ثم ضغطت على زر آخر لتحول المكالمة قبل أن تغلق السماعة في هدوء وتقول كأنها مستسلمة الأمر الواقع:

- خلاص، هما اللي هيقولوا له بنفسهم.

فلوح رأفت بيده وهو يقول في ارتياح:

- هما متعودين على الحاجات دي.

مرت الدقائق التالية بطيئة ثقيلة، تتابعت دقات قلبيهما وهما يرهفان السمع نحو الباب الخشبي المغلق منتظرين في أي لحظة صوت صراخ، بكاء، نحيب، أن يهرع أحدهم طالبا النجدة، أو طبيب لينقذ منصور بك.

لكن بدلا من كل ذلك، فتح الباب في هدوء، وخرج كل من كانوا في الاجتماع دون أن يبدو على وجوههم أي انزعاج أو قلق، دون أن يحدث أي شيء مما توقعاه.

نظر أحدهما للآخر بدهشة سرعان ما قطعها صوت منصور بك عبر جهاز النداء بجانب ليديا قائلا:

- ليديا.

- أيوه يا فندم.

- قولي للجراج يجهزوا العربية عشان رايح وزارة الخارجية حالا.

- حاضر يا فندم.

رفعت السماعة وضغطت الزر وهي تقول:

- شكلهم استدعوه في التليفون وهيقولوا له الخبر وجها لوجه.

فقال رأفت في ارتياح مضاعف:

- يكون أحسن.

وجهت حديثها إلى السماعة وهي تقول:

- جهزوا عربية مستر منصور بسرعة عشان رايح وزارة الخارجية بعد خمس دقايق.

وبعدما وضعت السماعة نظرت إليه في تعجب وقالت:

- إنت إيه اللي مقعدك هنا؟! قوم استخبى في أي حتة.

فتساءل مستنكرا:

- أستخبى؟! ليه؟

- افرض مستر منصور كان عارف إن مستر شفيق بعتك النهارده الخارجية. لو شافك وهو خارج هيسألك هما عاوزينه ليه. ساعتها هتقول له إيه بقى يا ذكي؟

فانتفض رأفت واقفا كالملسوع وقال في ذعر:

- تصدقي صح! طب أنا هاطير دلوقتي ولما الجو يهدا ابقي كلميني. بأمانة ربنا أنا مش عارف كنت هاعمل من غيرك إيه. ربنا يخليكي لبا يا لولو.

وانطلق خارجا من الغرفة كالسهم تاركا إياها كما يتركها دائما وقد امتلكت قلبها رعشة لذيذة ملأتها أماني وأحلاما ارتسمت في شكل ابتسامة حالمة على شفتيها لم تستطع أن تمنعها على الرغم من التأنيب الشديد الذي تقرع به نفسها في كل مرة تسعد فيها بكلمة يقولها لها.

أفاقت على صوت الباب وهو يفتح، فوقفت في احترام لهذا الذي لا يسع أحدا في حضرته أن يفعل شيئا سوى أن يحترمه. هيبته تطغى على كل من حوله، هيبة مبعثها كل شيء فيه، جسده الضخم الذي يتوجه شعر أسود فاحم تتخلله شعيرات بيضاء تزيده هيبة فوق هيبته، وعينان عسليتان تشعان ذكاء وحيوية، أناقته، عطره الراقي الذي يملأ الأنوف، ولكن فوق هذا وذاك، حضوره الطاغي، حضوره الذي يستمتع الناس فيه بحسن حديثه ولباقته وذكائه وعلمهم بهذا النجاح الساحق الذي وصل إليه بفضل عمله وكفاحه واجتهاده.

مر أمامها في خيلاء من يعرف قدر نفسه دون أن يسمح لها أن تصل إلى درجة الغرور، والتفت إليها وقال في أدب اعتاد أن يعامل به كل من يعملون لديه حتى أصغر عامل في مصنع من مصانعه:

- لو سمحتي يا ليديا أجلي كل مواعيدي بس ماتلغيهاش. أنا مش هاتأخر.

فأومأت برأسها دون أن تواتها الشجاعة لتتحدث، وعندما خرج من الغرفة لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام في مرارة لأنها كانت تعلم أن كل مواعيد اليوم وغدا وربما الشهر القادم بأكمله، ملغاة مقدما.

لمزيد من الكتب العصرية

## (٢)

لم يكن يختلف كثيرا عن منصور بك، احترامه، لباقته، ذكاؤه، حتى سواد شعره وطوله الفارع. كان شبيها جدا به، لم يختلف عنه إلا في شيئين، في المظهر، لم يكن ضخما مثل منصور بك بل كان ممشوق القوام مما جعله يبدو أصغر سنا منه على الرغم من أنه في نفس عمره تقريبا، وفي الجوهر، كان يفتقد إلى تلك الهيبة الطاغية التي تمتاز بها شخصية الملياردير ورجل الأعمال المعروف منصور أبو بلاط، كان يستطيع أن يفرض على الناس احترامه ولكنه كان غير قادر على إحاطة نفسه بتلك الهالة التي تكتم الأنفاس وترتفع بالقلوب حتى تبلغ الحناجر مثلما يفعل منصور بك. كان هذا التشابه - على الرغم من عدم اكتماله - خليقا بأن يجعل منه نائبا ومديرا لأعمال منصور بك، بل أيضا صديقه ومستودع أسراره في كل شيء في حياته العامة والخاصة لمدة تزيد عن الخمسة وعشرين عاما، أثبت فيهم أنه جدير بتلك الثقة وأنه لا يقل عن منصور نفسه كفاءة في إدارة أعماله بحكمة وذكاء.

دارت كل تلك المقارنات في رأس المهندس المكلف باصطحاب شفيق الشناوي في جولة بأحد مصانع مؤسسة أبو بلاط، مما أعطاه الفرصة ليكون قريبا جدا من ثاني أهم رجال المجموعة بأكملها.

انقطع تفكيره عندما رأى أحد زملائه قادما في شبه هرولة حتى أصبح بجانبهما تماما فاعتدل في وقفته وقال:

- أستاذ شفيق، تليفون لحضرتك.

فالتفت شفيق إليه وفي نظرته دهشة حاول أن يخفيها وتساءل متعجبا:

- تليفون ليا أنا؟!

- أيوه يا فندم، من مكتب منصور بيه.

عقد شفيق حاجبيه في دهشة شديدة، ليس من المتوقع أبدا أن يتصل به منصور بك أثناء تلك الجولة التي يقوم بها، يبدو أنه أمر خطير هذا الذي لم يستطع الانتظار حتى آخر النهار ليبلغه به.

كان يفكر في ذلك وهو يصعد الدرج المؤدي إلى الغرفة الصغيرة الملحقة بالمصنع، والتي كان يوجد بها مكاتب المهندسين والتليفون الوحيد الموجود داخل المصنع نفسه. دخلها واتجه نحو التليفون،

لمزيد من الكتب العصرية

•

التقط السماعة وأخذ نفسا ليسترد هدوءه وهو ينظر إلى المصنع من خلال زجاج الغرفة ثم قال في اتزان وهدوء:

- آلو.

سمع على الناحية الأخرى صوت ليديا وهي تهتف قائلة:

- أيوه يا مستر شفيق.

- أيوه يا ليديا، خير فيه إيه؟

- أستاذ يحيى صالح من الخارجية بيكلم حضرتك على الموبايل بس يظهر إن حضرتك مش سامعه، عشان كده هو قال لي أحاول أوصل لحضرتك بأي طريقة وأقول لحضرتك إن منصور بيه تعب وهو عنده النهارده الصبح في الوزارة ونقلوه المستشفى وإن هو معاه دلوقتي.

تقلصت ملامح شفيق من أثر كل تلك المفاجآت التي تلقاها دفعة واحدة كطلقات الرصاص، ازدحمت التساؤلات وعلامات الاستفهام في رأسه، واستطاع بصعوبة أن يخرج من حالة الذهول بفضل هدوئه المعتاد ورزانته وتساءل في نبرة مستنكرة:

- وهو عنده إزاي؟! مستر منصور ماكانش عنده النهارده أي مواعيد في الخارجية.

فأسرعت ليديا لتقول موضحة:

- ما هو من حوالي تلات ساعات جاله تليفون من الخارجية. بعدها طلب تجهيز العربية وقال إنه رايح على هناك.

فازدادت دهشة شفيق عند سماع هذا الكلام، وقال في نبرة ملأتها الحيرة:

- غريبة قوي! لو كان فيه حاجة كانوا هيقولوها لرأفت النهارده الصبح وهو هناك، إنتي ماشفتيش رأفت النهارده؟

انقبض صدرها عند سماع اسم رأفت، إن قالت له إنها رأته ربما يصيبه أذى إن علم شفيق أنه جاء إلى الشركة دون أن يتحدث إليه ويبلغه بما علم، وعلى الرغم من أنها تكره الكذب ولا تجيده إلا أن خوفها على رأفت دفعها لأن تقول في نبرة مترددة:

- لأ، ماشفتوش النهارده.

فصمت ثواني مفكرا قبل أن يقول:

- طيب، لو جه خليه يكلمني وأنا هاروح المستشفى دلوقتي. هو قال لك مستشفى إيه؟

- أستاذ يحيى قال إنهم طلبوا له هليكوبتر نقلته من الوزارة للمركز الطبي العالمي في طريق الإسماعيلية.

- ماشي، شكرا يا ليديا.

ثم قال متذكرا قبل أن يضع السماعة:

- آه ليديا، اوعي أي حد مهما كان يعرف أي حاجة خالص، والغي كل مواعيد منصور بيه النهارده.

اعتذر عن تكملة الجولة وخرج مسرعا من المصنع وهو يحاول الاتصال برأفت على هاتفه المحمول دون أي فائدة. ظل الجرس يرن في أذنه دون أن يجيب أحد، مما دفع شفيق إلى مزيد من القلق والعصبية وهو يطلب من السائق أن ينطلق به نحو المستشفى. حاول الاتصال به مرة أخرى دون فائدة. هتف محدثا نفسه في عصبية "ماشي يا رأفت الزفت". ثم حاول الاتصال بيحيى صالح، ولكنه أيضا لم يجبه. ازداد توتره وأخذ يحث السائق ليزيد من سرعته حتى وصلت السيارة أمام باب المستشفى، قفز منها مسرعا واتجه نحو موظفة الاستقبال، ولكن قبل أن يتم جملته وجد أن أحدهم كان ينتظره في استقبال المستشفى، فاصطحبه بين أروقتها حتى رأى يحيى واقفا أمام إحدى غرف الفحص الطبي، والذي ما إن رآه حتى أقبل نحوه متلهفا وقال:

- إنت فين يا أستاذ شفيق؟

- أنا آسف بس ماكنتش في المكتب. خير يا أستاذ يحيى إيه اللي حصل؟

فزفر يحيى في ضيق وقال:

- منصور بيه تعب جدا وأغمى عليه وهو عندي النهارده في المكتب. سيادة الوزير طلب له الإسعاف الطائر وأصر إننا نجيبه هنا عشان دي أقرب مستشفى فيها مهبط طيارات للمطار، يعني احتياطي في حالة إن الدكاترة شافوا إنه محتاج يسافر برا يكون من السهل نقله للمطار، وأنا فضلت إني آجي وأفضل معاه لحد أما حضرتك تيجي بنفسك عشان أي حد يبقى جنبه.

فقال شفيق في امتنان:

- أنا متشكر جدا يا أستاذ يحيى، وأنا هابقى أشكر معالي الوزير بنفسي.

- العفو على إيه. المهم إن إحنا نتطمن على منصور بيه.

فأومأ شفيق برأسه موافقا ولكنه تذكر السؤال الذي يلح عليه منذ أن اتصلت به ليديا فالتفت نحوه وتساءل في حيرة:

- بس، هو إيه اللي خلى منصور بيه يروح الخارجية النهارده؟!

أحس يحيى بالضيق من حرج موقفه وهو يقول:

- فيه خبر وحش كان لازم أبلغه بيه بنفسي.

فتساءل شفيق في توجس:

- خبر إيه؟

فصمت يحيى لحظة ليستجمع قواه قبل أن يقول:

- ريما بنت منصور بيه، اتوفت إمبارح بالليل.

اتسعت حدقتا شفيق في دهشة شديدة عند سماعه آخر خبر كان يمكن أن يخطر له على بال، على الرغم من هدوء أعصابه المعتاد وجمود مشاعره الذي دائما ما يمنعه من إبداء أي خلجة من خلجات نفسه واضحة على صفحة وجهه، إلا أنه لم يستطع أن يمنع أثر انقباض قلبه من أن يظهر على ملامحه وفوق لسانه وهو يقول متلجلجا:

- ريما! ماتت!

فمط يحيى شفتيه في حسرة وهو يقول:

- أيوه للأسف، رمت نفسها من فوق سطح العمارة اللي هي كانت ساكنة فيها.

فالتفت إليه في ذعر وتساءل وقد ازدادت دهشته حدة:

- انتحرت؟!

فأومأ يحيى برأسه وقد بلغ حرجه مداه، بينما دفن شفيق عينيه في راحة يده اليمنى قبل أن يمسح بها كل وجهه في محاولة لامتصاص صدمته، وهو يتساءل وهو يعلم الإجابة مسبقا:

- عشان كده منصور بيه حصلت له الأزمة دي؟

- أيوه، ماستحملش الخبر.

ثم صمت قليلا ليعطي شفيق فرصة لاستيعاب الموقف، ولنفسه فرصة ليستعد لقول كلام في غير مقامه ولكن لا بد منه، بدأ حديثه في نبرة تقطر اعتذارا قائلا:

لمزيد من الكتب المصرية

- أستاذ شفيق أنا عارف إن لا الوقت ولا المكان مناسبين، بس، ده واجبي ولازم أقوم به، إن ما كانش عشان شغلي يبقى عشان الصداقة اللي كانت بين منصور بيه ووالدي الله يرحمه.

التفت شفيق نحوه وقال وهو يستميت لاسترجاع رزانته وسيطرته الكاملة على نفسه وكل ما يحدث حوله:

- خير يا أستاذ يحيى؟

فازدرد ريقه قبل أن يقول:

-أنا قررت إن أنا أبقى مسؤول عن متابعة كل حاجة بنفسي، وكان المفروض إني أتفق مع منصور بيه على كل الإجراءات اللازمة بعد ما أقول له على الخبر، ونشوف إذا كنا هندفن ربما هناك ولا هنجيبها ندفنها هنا، وإنه يسافر طبعا لندن عشان وجوده هناك ضروري دلوقتي، لكن الأزمة اللي جات له قبل حتى ما أقول له على أي تفاصيل حطتني في موقف محرج جدا، خصوصا وإن ربما كانت لوحدها هناك، والدتها سيرين هانم سافرت عند أهلها في لبنان إمبارح الظهر.

فصمت شفيق دقائق مفكرا ثم قال في بساطة:

- هي مشكلة فعلا بس ليها حل، حضرتك ممكن تبعت لسيرين هانم في لبنان تسألها وتطلب منها إنها تسافر لندن بسرعة عشان تحل محل منصور بيه دلوقتي، بما إن إحنا مش ضامنين إذا كان هيقدر يسافر قريب أو حتى يتعرض لموقف زي ده.

فتساءل يحيى على الرغم من أنه قد بدا عليه الاقتناع:

- يعني هو ده رأي حضرتك؟

- حضرتك شايف حل تاني؟

- الصراحة، لأ.

ثم استطرد في تسليم:

- خلاص، أنا هاعمل اتصالاتي مع سفارتنا في لبنان عشان تتصل بسيرين هانم، وهابقى أبلغ حضرتك بأي جديد وحضرتك كمان ابقى طمني، بس أنا آسف بجد لأني لازم أرجع الوزارة دلوقتي عشان أنا سبت الشغل فجأة وجيت مع منصور بيه.

فقال شفيق متفهما:

- أنا مقدر طبعا يا أستاذ يحيى. كان الله في عونك، وشكرا على كل اللي عملته معانا.

فأجابه مبتسما:

- العفو يا أستاذ شفيق. بعد إذنك.

انتهى جو المجاملات المقيت، والتفت يحيى خارجا من المستشفى وهو يدق بكعب حذائه الإيطالي الأنيق على البلاط ثم على أسفلت الشارع، حتى وصل إلى السيارة التي أرسلتها إليه الوزارة لتقله عائدة إلى مقرها على كورنيش ماسبيرو. بدا في بذلته وأناقته جديرا بالإعجاب والاحترام. شابا لم يتجاوز الثلاثين بعد، أبيض البشرة، بني الشعر والعينين بطريقة تجعل الناس تشك قليلا في مصريته أو أصله العربي الخالص. اعتاد السفر إلى أوروبا منذ أن كان طفلا صغيرا، حيث كان والده يعمل في السفارات والقنصليات المصرية. تلقى تعليمه الجامعي في إنجلترا ثم تخرج ليدخل السلك الدبلوماسي من أوسع أبوابه، معتمدا في البداية –فقط - على أبيه ثم على عمله واجتهاده ولباقته. بعدما اجتاز مرحلة الاختبار والتدريب الدبلوماسي سافر في أول بعثة دبلوماسية له إلى جنوب أفريقيا، حيث قضى أربع سنوات في أجواء وثقافات تختلف عن تلك التي اعتادها في أوروبا واستطاع أن ينخرط بسهولة مع أناس يختلفون تماما عن هؤلاء الذين اعتاد العمل والحياة معهم منذ صغره، فأصبح ملما بشؤونهم كما لو كان إنجليزيا مثلهم. فأثبت بجدارة أنه يمتلك تلك الموهبة الفريدة في التأقلم مع العقليات والثقافات والطبائع المتباينة، خاصة وأنه كان يحظى بقدر مماثل من الحب والاحترام بين أصدقائه المصريين والعرب. كان خليقا بأن يدعى بهذا اللقب الدارج الذي بدا كأنه صمم خصيصا من أجله، "ابن ناس". ليس فقط لأن أسرته تتمتع بالثراء والرقي منذ زمن بعيد، ولكن أيضا لأنه اكتسب من محاسن تلك الطبقة أكثر من مساوئها. اكتسب أخلاقا حسنة في التعامل مع الناس، كل الناس، أبرزها التواضع الشديد وإن لم يخل من قوة شخصية وحزم فضل أن يظهرهما أمام الجميع بهدوء من يمتاز بثقة شديدة بالنفس. كما اكتسب عادات دينية لم يبرحها على الرغم من قلتها وأنها بالكاد تتفق مع ما يعتبر متواضعا بالنسبة لمسلم متدين.

وصلت السيارة أمام مقر الوزارة فترجل منها وصعد مسرعا إلى حجرة مكتبه، ارتمى على مقعده محاولا نفض كل الأحداث التي حدثت له في الساعات الماضية عن عقله والاستعداد لعمل شاق لا يعلم متى سينتهي.. رفع السماعة وطلب توصيله بالسفارة المصرية في لبنان بأسرع ما يمكن.

(٣)

تقدمت ليديا في دهليز المستشفى من الحائط الذي استند عليه رأفت بجوار شفيق، وقد بدا التعب والإرهاق الشديدان على وجههما. كان رأفت قد تلقى من شفيق تقريعا شديدا منذ قليل لأنه علم بالخبر في الصباح وتعمد الاختباء والهروب منه حتى لا يكون أول المبلغين بهذا النبأ المشؤوم. وعلى الرغم من اقتناع شفيق بقوة حجته والإشفاق الذي شعر به نحوه عندما تخيله وهو يبلغ منصور بك الذي يتهاوى ساقطا غارقا في تلك الأزمة الصحية بين يديه، علي الرغم من ذلك لم يتوان شفيق في تقريعه لأنه لولاه ما تلقى الخبر من الخارج وما تأخرت سيطرته عليه وعلى توابعه، وأيضا حتى لا يعود رأفت إلى إخفاء شيء عنه مرة أخرى.

و لكن ما لبث شفيق أن عاد إلى هدوئه المعهود، مركزا كل حواسه وتفكيره في تلك الكارثة التي وقعت فوق رأسه وحده دون سابق إنذار، مما جعله يلتزم الصمت أثناء وقوفه بجانب رأفت الذي صمت هو الآخر احتراما لصمته وخوفا من أن يقول كلمة تثيره فيعود إلى تقريعه مرة أخرى.

وقبل أن تصل ليديا إليهما خرج طبيب من غرفة العناية المركزة التي يرقد بها منصور بك، وتحدث هامسا إلى شفيق الذي تنحى به بعيدا حتى يتحدث معه في حرية بينما التفت رأفت من الموضع الذي كانا يقفان فيه ونظر إلى ليديا في دهشة قائلا:

- إنتي إيه اللي جابك دلوقتي؟

- جبت لكوا سندوتشات تاكلوها، أنا عارفة إنكم ماكلتوش من الصبح.

فمد رأفت بصره في الحقيبة التي تحملها كالأطفال وهو يقول:

- صحيح؟ طب هاتي هاتي أنا فعلا جعان قوي يا لولو.

فأخرجت كيسا بلاستيكيا من حقيبتها وأعطته إياه، ولكنه لم يكتف به بل مد بصره في حقيبتها متطفلا وهو يتساءل:

- أمال إيه الكيس التاني ده؟

فأبعدت حقيبتها عن عينيه بحركة لا إرادية وهي تقول:

- لأ دي كفتة بتاعة مستر شفيق. إنت عندك سندوتشات مربى وحلاوة وفول.

فقلب شفتيه ممتعضا وهو ينظر إلى الكيس الذي بين يديه وقال بنبرة احتجاج طفولية:

- فول؟ إشمعنى يعني مستر شفيق عاملة له كفتة وأنا لأ؟

فقالت مذكرة إياه في نبرة معاتبة:

- عشان إحنا في صيام دلوقتي يا سي رأفت.

فانقلب امتعاضه غيظا وهو يقول متوعدا في قلة حيلة:

- ماشي، ماشي يا ليديا، والله لأوريكي.

ضحكت ضحكة خافتة وهو يفتح الكيس في عصبية ويقضم الساندوتش في غيظ. كانت تعلم أنه سيحتج ويغضب، لكنها لم تتردد ثانية واحدة في فعل ذلك. ليس فقط لحرصها على الحفاظ على الواجبات الدينية، ولكن أيضا لرغبة خفية في نفسها في أن تعذبه مثلما يعذبها بعدم شعوره بها حتى إن كان هذا العذاب هو حرمانه من الكفتة.

في تلك اللحظة انضم إليهما شفيق بعد أن أنهى حديثه مع الطبيب، وتوجه بحديثه نحو ليديا متسائلا في دهشة:

- إيه اللي جابك يا ليديا دلوقتي؟ دي الساعة عدت واحدة الصبح يا بنتي؟

فأعطته الكيس البلاستيكي وهي تقول:

- جيت أجيب لكوا أكل يا مستر شفيق. اتفضل.

فجاهد ليبتسم وقد ملأ الإجهاد والهم وجهه وهو يقول:

- شكرا يا ليديا. والله إنتي بنت جدعة قوي.

ابتسمت شاكرة وقد طرب قلبها لهذا الإطراء الذي أثنى به عليها، خاصة وأنه كان أمام رأفت الذي بدا وكأنه لم يتنبه لأي شيء مما يحدث حوله، لكنه التفت نحو شفيق وتساءل في قلق وهو يزدرد الطعام:

- خير يا مستر شفيق؟ هو الدكتور قال لك إيه؟

فزفر شفيق في ضيق وقال وهو يعبث بأصابعه في الكيس:

- منصور بيه مريض ضغط زي ما انتوا عارفين، لما سمع الخبر ماستحملش، ضغطه علي فجأة وجت له جلطة في المخ دخلته في غيبوبة الله أعلم هيفوق إمتى منها.

هبط صمت ثقيل على ثلاثتهم بعد هذا الكلام، كأن الدنيا كلها قد انهدمت فوق رؤوسهم، وكان شفيق أكثرهم شعورا بتلك المصيبة لأنه بمجرد دخول منصور بك في تلك الغيبوبة أصبح مسؤولا عن كل شيء، مثل الأيام التي يكون مسؤولا فيها عندما يسافر منصور بك. ولكن في تلك الأيام، الموقف مختلف، لأن في حالة السفر كان منصور بك ينظم معه كل شيء وكان شفيق يعلم متى سيعود، ولكن الآن، لا يوجد شيء منظم ولا أحد يعلم متى سيعود منصور بك، خرج شفيق من الصمت موجها حديثه إلى ليديا قائلا:

- ليديا، بكرة الصبح أول حاجة تعمليها تحجزي نعي ياخد صفحة كاملة في الأهرام، دي بنت منصور أبو بلاط مش أي حد يعني.

فقالت ليديا في ابتسامة هازئة:

- هو حضرتك فاكر إن الجرايد مستنيانا؟! دي الجرايد المسائية كلها والمواقع الإخبارية نشرت عن الموضوع والصحفيين واقفين قدام باب الشركة وزمانهم جايين على هنا.

فضغط شفيق على شفتيه في ضيق شديد قبل أن يقول:

- ده شيء متوقع يا ليديا، بس ده مايمنعش إننا ننشر النعي، وكمان عاوزك تحجزي في عمر مكرم عشان العزا.

فتساءل رأفت في تعجب:

- هنعمل عزا من غير دفنة؟! طب مين هياخد العزا ومنصور بيه في الحالة دي؟

فقال شفيق في صبر نافد وكأن كلام رأفت يزيد همومه:

- لو سيرين هانم ماجاتش تاخد العزا، مصطفى أخو منصور بيه ياخده، ولو هو ماجاش أنا هابقى آخد العزا يا سيدي، ربما برضو كانت زي بنتي.

- طب والدفنة؟

- لسه مش عارفين يا رأفت إذا كانت سيرين هانم هتطلب دفنها هنا ولا هناك ولا إيه اللي هيحصل، والإجراءات هتاخد وقت قد إيه، بس بغض النظر عن إيه اللي هيحصل إحنا هنا لازم نعمل عزا، إنت ناسي اللي ماتت دي تبقى بنت مين؟

ثم التفت نحو ليديا وقال:

- اعملي اللي قلت لك عليه يا ليديا أول ما توصلي بكرة الشركة.

- حاضر يا فندم.

وهم شفيق بإكمال كلامه، لكنه صمت وهدأ نفسه عندما رأى يحيى قادما من آخر الدهليز، ثم قال منهيا الحديث:

- يلا يا ليديا روحي الوقت اتأخر، رأفت وصلها لحد العربية تحت في الجراج وخلي السواق يوصلها لحد باب بيتها واطلع لي تاني.

- حاضر يا مستر شفيق.

سارت ليديا بجانب رأفت تاركة شفيق خلفها وهو يتحدث مع يحيى، مولية كل تفكيرها نحو هذا الذي يسير بجانبها، هذا الذي يوصلها فقط لأن شفيق أمره بذلك وليس لأنه يخاف عليها حقا. كم تمنت أن يتشاجر معها ويعنفها عندما يراها أمامه في تلك الساعة المتأخرة، أن يكون حنقه وغيظه بسبب خوفه عليها وليس بسبب أنها لم تصنع له سندوتشات كفتة مثل شفيق.

دخلت المصعد معه وهي تحاول بكل جهدها أن تخفي مشاعرها لكنها لم تستطع أن تمنع التجهم الذي ملأ وجهها وهي تنظر شاردة والباب يغلق أمامها نحو شفيق ويحيى.

كانا جالسين على أريكة قريبة من العناية المركزة، بدأ شفيق الحديث متسائلا وهو يعلم أن ما جعل يحيى يأتي إليه في تلك الساعة المتأخرة هو بالتأكيد أمر خطير:

- خير يا أستاذ يحيى؟

ضغط يحيى شفتيه وقال محاولا إضفاء بعض المرح ليقلل من تعقد الموقف:

- شكله كده مش خير يا أستاذ شفيق.

- ليه بس؟! هو حضرتك اتصلت بسيرين هانم في لبنان؟

- أيوه، اتصلت بالسفارة المصرية هناك وهي بعتت لها مندوب.

- وإيه اللي حصل؟

- للأسف سيرين هانم هي كمان الخبر كان شديد عليها قوي، وجات لها أزمة ودخلت العناية المركزة والزيارة ممنوعة عنها تماما، وتقريبا هي كمان مش هتخرج من المستشفى ولا حتى هيتسمح لها بالزيارة قريب.

فصمت شفيق لحظات مفكرا ثم تساءل:

- طب وبعدين يا أستاذ يحيى؟ المفروض بيحصل إيه في الظروف اللي زي دي؟

مط يحيى شفتيه قبل أن يقول في ضيق:

- مش عارف، الموقف معقد جدا، أخت سيرين هانم قالت للمندوب إن سيرين هانم قبل ما تتعب قالت إنها عاوزة تدفن ربما في مصر، بس عشان ده يحصل كان لازم هي أو منصور بيه يسافروا لندن عشان يقدموا طلب شحن الجثمان ويتابعوا الإجراءات، أو على الأقل حد فيهم يعمل توكيل لأي حد متواجد في لندن عشان يقدم الطلب ويتابع الإجراءات بالنيابة عنهم. وكل ده طبعا مستحيل إنه يحصل وهما الاتنين في حالتهم دي.

فنظر شفيق نحوه متسائلا في دهشة:

هي كل حاجة متعطلة تماماً بسبب الظروف دي؟ مافيش أي حاجة من الإجراءات تمت خالص؟

- الإجراءات العادية زي تقرير المشرحة والبوليس وشهادة الوفاة والتصديق عليها في القنصلية وإلغاء الباسبور كلها شغالين فيها، إنما غير كده الدنيا متعطلة تماما بسبب غيبوبة منصور بيه وتعب سيرين هانم.

فدعك شفيق ذقنه مفكرا وقد شرد ببصره نحو قطع البلاط المتراصة تحت قدميه ثم قال:

- مافيش بقى غير إني أكلم مصطفى أبو بلاط أخو منصور بيه وعم ربما الله يرحمها في كندا، وأطلب منه يسافر لندن أو على الأقل يعمل التوكيل ده من القنصلية هناك عشان الإجراءات ماتتعطلش لحد أما هو ينزل مصر ويستلم الجثمان.

صمت يحيى قليلا قبل أن يقول في حرج:

هو قانونا كان المفروض إن منصور بيه أو سيرين هانم هما اللي يقوموا بالخطوة دي بس أنا هاحاول أعمل استثناء نظرا للظرف الطارئ ده.

فتنهد شفيق قبل أن يتساءل:

- هو مين اللي بيبقى مسؤول عن الإجراءات في حالة وفاة مصري في الخارج؟

- عادة نائب القنصل.

رفع شفيق حاجبيه قائلا في تعجب:

لمزيد من الكتب العصرية

- الأستاذ محمد جابر؟

- أيوه.

- عظيم، ده صديق منصور بيه وماعتقدش هيبقى فيه مشكلة لو خلينا مصطفى بيه يعمل له التوكيل ده عشان كل حاجة تبقى تحت تصرفه. على العموم أنا هاكلم مصطفى بيه وأشرح له الموقف كله.

فنهض يحيى استعدادا للرحيل وقال لشفيق الذي نهض هو الآخر ليحييه:

- وأنا هابقى أكلم حضرتك بكرة عشان أعرف إيه اللي حصل.

نهض شفيق وهو يقول في شبه رجاء:

- أستاذ يحيى، أنا باكلمك دلوقتي مش بصفتك الرسمية إنما بصفتك ابن مراد صالح الله يرحمه اللي كان صديق منصور بيه وكان بيعتبره أكتر من أخوه. أرجوك تتابع الموضوع ده بنفسك وتهتم بيه جدا عشان خاطر منصور بيه اللي كان بيعتبرك زي ابنه واكتر.

ابتسم يحيى وهو يقول محاولا التغلب على الإجهاد الذي يشعر به:

- ماتقلقش يا أستاذ شفيق، من غير ما تقول والله العظيم أنا متابع الموضوع ده بنفسي مع الشؤون القنصلية عندنا في الوزارة، حتى الإخطار اللي كان المفروض يوصل لمنصور بيه لسه موجود في درج مكتبي لأني أصريت إني أبلغه الخبر بنفسي عشان أساعده على تحمل الصدمة. والحمد لله إني عملت كده وكنت جنبه ولحقته لما الأزمة حصلت له، ده غير إن سيادة الوزير شبه مكلفني بمتابعة الموضوع بنفسي، ماتقلقش يا أستاذ شفيق حتى لو ده مش شغلي فأنا مش هاسيبكوا لحد لما ربنا الله يرحمها توصل وتتدفن وآخد عزاها بنفسي كمان.

ابتسم شفيق قائلا في امتنان حقيقي:

- أنا عاجز عن الشكر.

- العفو يا أستاذ شفيق ده واجبي.

قالها يحيى ثم مد يده وصافح شفيق قبل أن يرحل عائدا إلى منزله بعد يوم امتلأ بالإرهاق الشديد.

(٤)

عندما وقفت السيارة السوداء أمام باب المؤسسة تهافت الصحفيون على رأفت الذي وجد نفسه محاطا بأسئلة لا قبل له بإجابتها ولا حتى فهمها، اتجه بخطوات مسرعة نحو الباب الزجاجي الذي ما إن وصل عنده حتى اعترض رجال الأمن الصحفيين ومنعوهم من الدخول خلف رأفت، الذي وقف ليلتقط أنفاسه بعدما شعر بالراحة عندما رآهم يعودون أدراجهم بعيدا عن الباب، قرر أن يخرج من الباب الخلفي عندما ينهي مهمته حتى لا يتعرض لهذا الموقف ثانية.

عندما دخل حجرة الاستقبال كانت ليديا تبدو منشغلة بطريقة جعلتها لا تلتفت لوجوده، كانت تتحدث في التليفون والمكتب أمامها يدل على أنها لم تكف عن فتح ملفات وتسجيل ملاحظات خلال أول ساعتين من هذا اليوم، الذي بدا أنه سيكون شاقا أكثر من المتوقع.

وضعت السماعة ونظرت نحوه نظرة مقتضبة قبل أن تعود إلى أوراقها وهي تتساءل في قلة اكتراث مبعثها - إلى جانب انشغالها - الحنق الذي كانت لا تزال تشعر به نحوه منذ البارحة:

- خير؟

فقال وهو يفرك عينيه في إرهاق واضح:

- جاي لمستر شفيق، هو جوا؟

- أيوه، ربنا يكون في عونه.

- ليه؟

- الدنيا كلها فوق دماغه، أسعار الأسهم في النازل من الصبح، مجلس الإدارة، وموضوع المرحومة ده اللي مش عاوز يخلص.

فتساءل متعجبا:

- مش عاوز يخلص ليه؟ هو مش كلم عمها عشان ييجي من كندا؟ يبقى إيه المشكلة؟

فرفعت عينيها عن الورق ونظرت إليه وهي تقول ساخرة:

- لو جدع اسأله بنفسك.

فمط شفتيه وكأن مجرد الفكرة تلذعه وهو يقول:

- لا وعلى إيه؟ أنا هادخل أخلص المصلحة اللي أنا جاي لها وربنا يستر.

اتجه نحو الباب الخشبي الكبير محاولا تهدئة نفسه، حتى يستطيع أن يمتص ما سيلاقيه عندما يدخل ويراه شفيق أمامه في تلك الساعة المبكرة المزدحمة بالمشاكل المعقدة. فتح الباب واقترب من مكتب منصور بك في هدوء، كان شفيق جالسا خلف المكتب مركزا كل حواسه في شاشة اللاب توب وعلى وجهه ما ينذر بما في داخله من ضيق وما فوق رأسه من مصائب. التفت في عصبية بعدما شعر بوجود أحد في الغرفة وما إن رأى رأفت أمامه حتى انتفض وقال في عصبية لم يعهدها أحد منه من قبل:

- إنت إيه اللي جابك؟ أنا مش قلت لك تفضل في المستشفى وماتمشيش منها مهما حصل؟ افرض صحفي عرف يتسلل وياخد صورة لمنصور بيه يبقى إيه موقفنا دلوقتي؟

فقال رأفت مدافعا عن نفسه:

- ماتخافش يا مستر شفيق، المستشفى حاسة بخطورة الموقف وهي نفسها بتحرس منصور بيه يمكن أكتر مننا.

فزفر شفيق قبل أن يقول في صبر نافد:

- ماشي ماشي، إيه اللي جابك طيب؟

- طلبوا مبلغ تحت الحساب في المستشفى فجيت آخد فلوس.

أغمض شفيق عينيه وهو يرفع سماعة التليفون، ضغط على الزر قبل أن يقول:

- ليديا، وصليني بالحسابات.

انتظر دقيقة قبل أن يعود للحديث قائلا:

- أيوه يا حلمي، رأفت هييجي لك دلوقتي إدي له المبلغ اللي يطلبه.

استمع قليلا قبل أن يعود إلى عصبيته وهو يقول في صوت مرتفع:

- الأرقام هابقى أظبطها لك بعدين يا حلمي، اعمل اللي باقول لك عليه وخلاص، أنا مش فاضي لك.

أغلق السماعة في عنف وقال لرأفت مقتضبا دون أن يرفع عينيه من اللاب توب:

- تروح الحسابات تاخد الفلوس وتطلع على المستشفى، تفضل قاعد هناك ماتتحركش إلا بأمر مني أنا شخصيا.

فقال رأفت مؤثرا السلامة في اقتضاب:

- حاضر.

التفت واتجه مسرعا نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الثقيل، اصطدم بليديا التي كانت تستعد للدخول في نفس الوقت الذي كان يفتح فيه باب الغرفة، لفت انتباهها امتقاع وجهه والجو المشحون الذي امتلأت به الغرفة، إلا أنها لم تستطع أن تستفسر منه وهما يقفان على باب الغرفة التي يجلس فيها شفيق، وهو في حالة من الغضب لم يعهدها أحد منه من قبل، لذا تركته يذهب وأغلقت الباب في هدوء حاولت أن تتمسك به قدر الإمكان وهي تخطو نحو المكتب حتى تتجنب أي انفعال يصدر من شفيق ضدها، ولكن شفيق كان قد استعاد هدوءه بعد خروج رأفت من الغرفة فتساءل في نبرة حاول أن يكسبها طبيعية دون أن يرفع عينيه من الشاشة التي أمامه:

- فيه حاجة يا ليديا؟

- أستاذ هاشم اتصل وسأل تاني عن اجتماع مجلس الإدارة.

كبت شفيق الانفعال الذي أصابه وهو يقول في حسم:

- قولي له مافيش اجتماعات لحد أما المرحومة توصل مصر وتتدفن، وأحسن له مايسألش تاني عن الموضوع ده لحد ما أنا اللي أفتحه بنفسي.

فازدردت ريقها وهي تقول:

- حاضر.

- حاجة تاني؟

- أيوه أستاذ يحيى صالح على الخط التاني.

رفع شفيق يده من على الأزرار وقد ازداد الضيق على وجهه وبلغ منتهاه، كان يعلم أن تلك المكالمة قادمة لا محالة لكنه كان يتمنى أن تتأخر قدر الإمكان، على الأقل حتى ينهي بعضا من مشاكله حتى يستطيع أن يتفرغ للمصيبة الكبيرة التي لم يستطع أن يجد لها حلا حتى الآن.

أشار لليديا حتى تنصرف، وأخذ نفسا عميقا حتى يستطيع أن يبدو طبيعيا وهادئا، فهو وإن كان يمكن له أن ينفعل على موظفي الشركة فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك مع رجال الدولة والخارجية وخاصة يحيى صالح.

لمزيد من الكتب العصرية

رفع السماعة ووضعها على أذنه وهو يقول في هدوء:

- صباح الخير يا أستاذ يحيى.

فجاء صوت يحيى هادئا مهذبا كعادته وهو يقول:

- صباح النور يا أستاذ شفيق. إزي حضرتك؟

- الحمد لله.

- ومنصور بيه مافيش أخبار عنه؟

- والله لسه حالته حرجة. ادعي له.

- طب الدكاترة ماقالوش إنه ممكن يسافر يتعالج برا؟

- لا لا بالعكس دول قالوا إن المستشفى فيها كل اللي هو محتاجه، ومافيش حاجة أكتر من كده ممكن تتعمل غير المتابعة لحد أما يفوق من الغيبوبة.

- ربنا يطمننا عليه.

ثم صمت يحيى لثوانٍ قبل أن يقول بعدما لم يجد من شفيق أي بادرة لبدء الحديث المتوقع:

- حضرتك كلمت مصطفى بيه في كندا زي ما اتفقنا؟

فزفر شفيق قبل أن يقول:

- أيوه، بس للأسف، مصطفى بيه عنده مشاكل كتيرة في شركته اللي هناك وقال لي إنه مش هيقدر يطلع برا كندا إلا لما كل المشاكل دي تتصفى. وده مش هيحصل قبل ست شهور.

فهتف يحيى منزعجا:

- ست شهور؟ مستحيل!

استطرد شفيق في ضيق:

- أيوه للأسف، حتى مش هيقدر يروح يعمل التوكيل للأستاذ محمد جابر لأنه قاعد في فانكوفر ومش هيقدر حتى يسيبها ويسافر للقنصلية في مونتريال.

هبط صمت ثقيل على المكالمة قبل أن يعاود يحيى حديثه كأنه يخاطب نفسه في نبرة ساخطة:

- معقولة؟ حتى الحل النص قانوني اللي بذلت فيه كل المجهود ده عشان أعمل فيه استثناء مايتفعش! مش كفاية إننا تجاوزنا شرط إن لازم اللي يتابع الإجراءات ويستلم الجثة ويعمل التوكيل يكون من أقارب الدرجة الأولى؟

عندئذ، مرقت في رأس شفيق فكرة لم يعلم كيف لم يفكر فيها من قبل! كيف استطاع أن يتناساها كل هذا الوقت! إنه حل مناسب جدا لهذا الموقف السيء، بل إنه الحل المثالي، لمعت الفكرة أمام عينيه وتبلورت في الثواني التي أعقبت كلمات يحيى الذي استطاع بسؤاله الساخط أن يلهم شفيق هذا الحل العبقري.

- أستاذ يحيى أنا تقريبا لقيت الحل.

فقال يحيى غير مصدق:

- معقولة؟ إيه هو؟

هم شفيق أن يقول له، لكنه تراجع في آخر لحظة، خاف أن يقول له ثم يفشل مسعاه في هذا الحل فيكون قد أفشى السر بلا فائدة، لولا هذا الموقف العصيب ما كان ليقدم على فعل ذلك أبدا، كان سيحفظ لمنصور بك سره حتى آخر يوم في عمره مهما حدث، لكنه وجد نفسه مكتوف الأيدي أمام هذا الطريق المسدود ووجد نفسه مضطرا لفعل ذلك.

- أنا آسف يا أستاذ يحيى، مش هاقدر أقول لحضرتك أي حاجة إلا لما أتأكد.

اندهش يحيى من تلك الإجابة غير المتوقعة، لكنه أخفى اندهاشه وقال في نبرة متفهمة:

- مافيش مشكلة يا أستاذ شفيق، بس أرجوك لازم بكرة بالكتير شخص مؤهل لاستلام المرحومة ريما والإشراف على دفنها في مدافن عيلة أبو بلاط يكون عندي في مكتبي عشان أنسق معاه كل الإجراءات.

- حاضر يا أستاذ يحيى، إن شاء الله، مع السلامة.

- مع السلامة.

أغلق السماعة وقد انتشر الحماس في جسده كله، كأنه غريق وجد أملا يتعلق به وينقذه، مد يده وأخذ ورقة وقلما، ثم بدأ يعتصر عقله ليتذكر، إنه يعلم العنوان، لقد ذهب إلى هناك من قبل من أربع أو خمس سنوات، لكنه يجد صعوبة في تذكره، لقد كان عقارا فخما في مصر

الجديدة، كتب مصر الجديدة، ثم بدأ يتذكر اسم الشارع، إنه يشعر أن الاسم قريب جدا من سطح ذاكرته، يحتاج فقط إلى بعض المجهود ليقفز إلى عقله، نعم، عبد العزيز فهمي، شارع عبد العزيز فهمي، كتب اسم الشارع وقلبه يتراقص فرحا وهو يقترب نحو حل تلك المشكلة، لكنه لا يتذكر رقم العقار، لا يهم حتما سيتذكر شكله عندما يصل إلى هناك.

نهض مسرعا وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه استعدادا للرحيل، عندما دخلت ليديا وفي يدها ملف مدته نحوه وهي تقول:

- أستاذ شفيق، العملية دي واقفة ولازم...

لكنه قاطعها وهو يخرج من خلف المكتب قائلا:

- لا عمليات ولا ملفات دلوقتي، أنا مش فاضي يا ليديا، كلمي الجراج وقولي لهم يحضروا العربية حالا.

قالها وهو يمرق مسرعا خارج الغرفة تاركا ليديا غارقة في اندهاشها.

(٥)

دق كعبها العالي فوق سلالم الوزارة، على الرغم من أنها خريجة الجامعة الأمريكية وأنها تعمل في شركة أجنبية وتتعامل مع أجانب كثيرين لكن تلك هي المرة الأولى التي تخطو فيها داخل جهة حكومية ذات هيبة ومكانة استثنائية مثل وزارة الخارجية.

علي الرغم من الموقف المهيب لكن خطواتها لم تفقد الثقة والرصانة وهي تتبع الرجل الذي يقوم باصطحابها داخل أروقة الوزارة، في ملابسها السوداء الأنيقة التي ارتدتها لتناسب هذا الموقف العجيب، وقد تركت شعرها الأسود ينسدل حتى بلغ كتفيها فصنع مع ملابسها ونظارتها هالة سوداء رقيقة حول وجهها ذي البشرة البيضاء.. توقف الرجل عند إحدى الغرف ودق الباب في أدب شديد، قبل أن يفتحه ويقول لمن في الداخل إن الآنسة من طرف شفيق بك الشناوي، ثم افسح لها لتدخل وأغلق الباب خلفها.

وجدت نفسها في غرفة مكتب صغيرة لم تستطع أن تتأملها مليا، لأن يحيى كان قد أقبل نحوها مسرعا وهو يغلق أزرار سترته، ثم قال مبتسما في ترحيب شديد وهو يشد على يدها:

- أهلا وسهلا.

فقالت في نبرة رقيقة:

- أهلا يا فندم.

ثم قال بعد أن أزال الابتسامة من وجهه:

- البقاء لله يا هانم.

فأجابت في نفس النبرة الرقيقة وإن لم تفارق الابتسامة شفتيها:

- شكرا يا أستاذ يحيى.

دعاها للجلوس في الصالون الصغير الموجود بمكتبه والذي كان دائما ما يستقبل فيه ضيوفه.

شعر بشيء من الحرج وهو يسأل:

- أنا أسف بس، ممكن أتشرف بمعرفة حضرتك.

وضعت حاوية نظارتها في الحقيبة في هدوء شديد، اعتادت تلقي هذا السؤال، لذا كانت تتمتع بهدوء بحار اعتاد العواصف حتى ألفها، واعتادت رؤية عاصفة من الدهشة تجتاح وجوه كل من

يستمع إلى إجابتها وشرحها المرهق. لذا كانت تتمتع بهدوء الطبيب الذي اعتاد إبلاغ أهل المريض بأنه توفي.

أغلقت حقيبتها والتفتت نحوه وقالت في ثقة مثبتة عينيها المسلتين في عينيه:

- يارا منصور أبو بلاط.

لم تتحرك خلجة من خلجات وجهه، لم يقابلها بعاصفة الدهشة التي توقعتها. لم يستطع حتى أن يستوعب ما سمع. ظن أنه لم يسمعها جيدا أو لم يفهم ما قالت. لذا تساءل والابتسامة لا تزال على وجهه:

- أفندم؟

فقالت مؤكدة وقد أبطأت من نبرتها حتى يتأكد مما يسمعه:

- يارا.. منصور.. أبو بلاط.

بصعوبة شديدة بدأ يستوعب ما يسمعه، فتح فمه ليتحدث ولكن الدهشة عقدت لسانه. كيف له أن يستوعب ذلك؟ وجد نفسه يتساءل محاولا إيجاد تفسير لكلامها غير هذا الذي يرفضه عقله:

- قصد حضرتك إنك تبقي بنت أخو منصور بيه؟!

ابتسمت، لأول مرة ترى رد فعل كهذا من أحد. الناس عادة ما يصمتون عند سماع ذلك ليتحاشوا التورط في أمور عائلية أو ينهالون عليها بالأسئلة ليجدوا تفسيرا منطقيا. أما أن تجد من يصر على إيجاد تفسير مضاد، فهو حقا شيء غريب. أجابت ولا تزال الابتسامة على شفتيها:

- لأ، أبقى بنته.

لم يسعه إلا أن يبتسم عندما وجدها تبتسم في وجهه تلك الابتسامة الوديعة. حرك يديه وهو يتساءل في اندهاش:

- طب إزاي؟ اللي أنا عارفه إن منصور بيه ماعندوش غير بنت واحدة بس، هي ربنا الله يرحمها.

فهزت رأسها نافية وهي تقول:

- ده اللي كل الناس عارفاه، بس هو للأسف غلط. منصور أبو بلاط عنده بنتين، أنا الكبيرة وريما الصغيرة. وعشان حضرتك تتأكد، اتفضل بطاقتي أهي.

فتحت حقيبتها وأخرجت البطاقة الشخصية وأعطتها له، تناولها ونظر فيها وهو غير مصدق، ثم

لمزيد من الكتب المصرية

سمعها تقول:

- ممكن كمان تكلم أستاذ شفيق وتسأله وتتأكد.

ناولها البطاقة وهو يتساءل كأنه يتأكد لآخر مرة:

- يعني حضرتك تبقي أخت ريما؟

- أيوه.

في الظروف العادية كانت ستكتفي بما قالت وتتجنب الخوض في شرح مفصل، لكن تلك الحالة مختلفة تماما. ليس لأنها في وزارة، تتحدث مع مسؤول فيها وتحتاج إلى إثبات هويتها أمامه بالأدلة، ولكن لأنها أحست فيه شيئا مختلفا. فهو لم يستطع أن يصمت تماما ويتجاهل المفاجأة مثلما يفعل البعض معها. كما أن أخلاقه لم تسمح له بالتطفل وطرح أسئلة عميقة أو طلب شرح واف - على الرغم من أن هذا من حقه - لما سمعه. لذا وقف أمامها حائرا بين رغبته الجامحة في معرفة المزيد وبين الحياء الذي منعه من السعي لذلك. أشفقت عليه من ذلك كله. لذا استكملت حديثها موضحة:

- أختي من الأب بس، من حوالي تمانية وعشرين سنة، كان لسه منصور بيه مغامر صغير في السوق، ماكانش لسه كون الثروة الضخمة دي واشتهر. ساعتها اتجوز واحدة متوسطة زيه هي والدتي الله يرحمها. بعد سنتين جواز خلفوني ولما بقى عندي حوالي تلات سنين انفصلوا واتطلقوا. بعدها هو دخل مجال البيزنس وبقى من أشهر رجال الأعمال في مصر واتجوز الست اللبنانية اللي بيتهيأ لي إنها لسه مراته لحد دلوقتي وخلف منها ريما. وكانت هي دي الأسرة اللي بيظهر بيها في كل وسائل الإعلام وقدام كل الناس. قليلين قوي اللي يعرفوا حكاية عيلة منصور أبو بلاط الأولانية لأنه انقطع عننا تماما بعدها.

خف الاندهاش من على وجهه وإن لم يزل تماما وهو يقول:

- أنا بقى لي سنين أعرف منصور بيه ووالدي الله يرحمه ووالدتي كانوا أصدقاؤه، إنما، عمري بصراحة ما سمعت عن الحكاية دي خالص، أنا بيتهيأ لي لو سألت والدتي هالاقيها هي كمان مش عارفة. فابتسمت ابتسامة حاولت أن تداري بها مرارتها وهي تقول:

- ما هو واضح إنه كان بيتعمد مايجيبش السيرة دي خالص.

لمزيد من الكتب العصرية

ولكنها عادت ونفضت عنها كل مظهر يعبر عن مشاعرها وقالت في جدية:

- المهم يا أستاذ يحي، إيه المطلوب مني بالضبط.

فكسا هو الآخر نبرته وتعبيراته بجدية العمل، وهو يشرح لها كل الاجراءات وكل ما هو مطلوب منها وختم كلامه قائلا:

- بمجرد ما التوكيل يوصل القنصلية هيتمموا كل الإجراءات ويجهزوا الجثمان ويشحنوه على مصر في أسرع وقت ممكن، وهنبقى نخطرك بمعاد وصول الطيارة. وإن شاء الله فيه عربية من الوزارة هتيجي لحضرتك تحت البيت قبل المعاد بحوالي ساعتين عشان لازم تبقي في المطار بدري عن معاد الطيارة عشان الإجراءات. وإن شاء الله هتلاقيني هناك أول ما توصلي. وبالنسبة لترتيبات الدفن وتجهيز المدفن دي هيقوم بيها الأستاذ شفيق صح؟

فأومأت وهي تقول:

- آه، بالضبط كده.

- تمام وأنا هاتابع معاه كل حاجة وهاكون حلقة الوصل بينه وبين القنصلية هناك. بس ممكن تسيبي لي نمرة تليفونك احتياطي؟

- آه طبعا.

أخرجت قلما ودفترا صغيرا من حقيبتها وأخذت تكتب في إحدى أوراقه ثم جذبتها وأعطتها له وهي تقول:

- أنا كتبت لحضرتك نمرة موبايلي والبيت والشغل كمان.

نظر إلى اسم الشركة التي تعمل بها، ابتسم ولم يستطع أن يمنع نفسه على الرغم من عدم اعتياده ذلك من أن يسألها:

- هو حضرتك بتشتغلي؟

فابتسمت وقد بدأ الحديث يأخذ منعطفا وديا وهي تقول:

- أيوه في الmarketing، أنا أصلا خريجة بيزنس AUC.

فرفع حاجبيه في دهشة امتزجت بإعجاب ثم قال متحدثا عن نفسه هو الآخر:

- أنا بقى درست علوم سياسية في لندن.

رفعت حاجبيها محاكية إياه وهي تقول:

- يادا لندن مرة واحدة؟

شعر باضطراب بسيط من كلماتها، لكنه أخفى هذا الشعور ومضى يشرح مبتسما:

- أصل أنا قضيت فترة الsecondary school في إنجلترا، عشان والدي الله يرحمه كان شغال في السلك الدبلوماسي في أوروبا وبالتالي ماكانش صعب إني أدخل الجامعة هناك. وبعد ما اتخرجت اشتغلت في الخارجية وبعد ما خلصت المعهد الدبلوماسي سافرت أربع سنين ملحق دبلوماسي في جنوب أفريقيا وبعدين رجعت القاهرة سنتين قبل ما أسافر تاني.

فقالت مداعبة وهي تنهض استعدادا للرحيل:

- تشرفنا يا حضرة السفير.

فأجاب مداعبها مبتسما وهو ينهض:

- الشرف لينا يا فندم.

وصلها حتى باب المصعد ثم عاد إلى غرفته والدهشة لا تزال تتملكه، دهشة من تلك الحكاية الغريبة التي سمعها، من أن يكون لمنصور بك ابنة غير ربما من الأصل، أن تكون تلك الابنة فتاة عادية تعمل وتمزح وتعيش حياتها بلا أب كما يبدو من حديثها، وأيضا دهشة من تباسطه معها في الحديث على الرغم من أنه لم يعتد ذلك أثناء العمل، ثم إنه لم يكتف بما حكته عن نفسها، إنه يريد معرفة المزيد عنها، لماذا لم يتنازل أكثر ويطل حديثه معها؟ على العموم فهو بالتأكيد سيحرص على حضور استلام جثمان ربما وسيراها مرة أخرى في المطار.

حاول أن يعود إلى عمله ويركز فيه كل حواسه كما اعتاد، لكنه أحس أنه يريد أن يتحدث في هذا الأمر الغريب مع شخص آخر، أن يقص ويصف هذا اللقاء ويسمع تعليقات ويتحاور فيها ويعيد الحديث عن تلك الشخصية الفريدة مرات ومرات.. ترك الأوراق من يده ورفع سماعة التليفون وطلب الرقم الوحيد الذي استطاعت ذاكرته أن تحفظه، وانتظر قليلا حتى سمع صوتا على الجانب الآخر فأجاب مبتسما:

- أيوه يا ماما، صباح الخير، إزيك؟ باقول لك يا ماما، هو إنتي تعرفي إن منصور أبو بلاط كان متجوز واحدة تانية زمان قبل سيرين هانم دي وإنه مخلف منها بنت اسمها يارا؟

## (٦)

كانت الطرقات كلها مزدحمة. منذ أن خرجت من الوزارة بسيارتها الحمراء وهي لا تلبث أن تسير ثانيتين ثم تتوقف دقيقة تباعا دون أي بارقة أمل في انتهاء هذا الازدحام. ومما زاد الطينة بلة هذه الحرارة الخانقة التي ملأت السيارة وأرغمتها على فتح النوافذ حتى آخرها، ولعنت هذا الميكانيكي الذي كان السبب في العطل الذي أصاب مكيف الهواء. بدأ الملل يصيبها. الطريق طويل جدا ولن تصل إلى منزلها قبل ساعتين على الأقل، ساعتين من الحر والازدحام والملل. مجرد التفكير في ذلك يصيبها بسخط شديد لم يلبث أن هدأ قليلا وتحول إلى ضيق مستسلم مستكين اعتادته مع مرور الوقت وتناسته حتى نسيته. ووجدت نفسها تفكر في هذا الذي يحدث لها منذ البارحة. أخذت تتذكره وتعيده في ذهنها كشريط سينمائي ذي مشاهد متتالية. مشاهد بدأت في اليوم السابق حين كانت تستعد في عجالة للذهاب إلى عملها عندما سمعت صوت جرس الباب. انتابتها دهشة شديدة. من يمكن أن يزورها في تلك الساعة المبكرة من الصباح؟ بل من يمكن أن يزورها من الأساس؟ خطت نحو باب الشقة في هدوء دون أن تستطيع أن تمنع إحساسا خفيا بالحذر والقلق أصابها. فتحت الباب بعد أن تظاهرت بالثبات وتغلبت على هذا الخوف الذي شعرت به. رأت أمامها شخصا لا تعرفه وإن أحست أنها رأته من قبل ولكن أين؟ لم تجد متسعا من الوقت لتعتصر ذاكرتها. اضطرت أن تسأل مسرعة:

- أي خدمة؟

فابتسم وقال في تودد ظاهر:

- إيه يا يارا؟ مش فاكراني؟

اندهشت عندما وجدته يعرف اسمها. لكنها تمالكت نفسها وقالت مسرعة:

- هو حضرتك تعرفني؟

فقال وابتسامته تتسع:

- أنا أونكل شفيق. صاحب بابا ومدير أعماله. مش ممكن تكوني مش فاكراني.

تذكرته. نعم. إنه هو هذا الشخص الذي أرسله أبوها من أربع سنوات ليكون بجانبها أثناء إجراءات دفن وعزاء والدتها. أبوها. وقع الكلمة غريب على أذنها. اسمه منصور. منصور أبو بلاط.

لمزيد من الكتب العصرية

ابتسمت ابتسامة صفراء وهي تقول محاولة إخفاء ضيقها:

- آه، أهلا يا فندم، اتفضل.

دخل في خطوات رزينة متئدة، لم يتغير منذ أربع سنوات، حتى مظهره لم يتغير فيه شيء سوى بضع شعرات بيضاء ظهرت في فوديه. جلس على أقرب مقعد وجلست أمامه، مستميتة لتخفي توترها وتبدو قوية هادئة غير عابئة به وبوجوده المفاجئ أمامها في هذا الوقت الغريب.

سأل محاولا بدء حديث ودي معها:

- شكلك كنتي خارجة وأنا عطلتك؟

- كنت رايحة الشغل.

- ومبسوطة في شغلك بقى؟

- الحمد لله.

كان يسأل في تودد وكانت تجيب في برود مما جعله يشعر بصعوبة مهمته، صمت لحظات ثم وجد أنه من الحكمة أن يبدأ حديثه وينهيه ليتخلص من هذا الموقف المحرج. تساءل محتفظا بهدوئه:

- طبعا إنتي عرفتي اللي حصل؟

عقدت حاجبيها ومطت شفتيها في استنكار، لم تكن تعلم ما هذا الذي يتحدث عنه ويتوقع أن تكون هي على علم به. منذ متى وهي تعلم أي شيء عن منصور بك؟

تساءل متعجبا:

- ده مافيش جرنان ولا موقع ماكتبش عن اللي حصل، إزاي ماعرفتيش؟

قالت في بساطة:

- أنا ماباقراش جرايد ولا أخبار يا أستاذ شفيق.

فأومأ برأسه متفهما وهو يتساءل ممهدا لما سيقول:

- طبعا إنتي عارفة إن ليكي أخت اسمها ربما عايشة ما بين لندن ولبنان؟

- أيوه.

- للأسف أختك ربما اتوفت من يومين.

اتسعت حدقتاها في دهشة طغت على هذا البرود الذي كانت تتعمده منذ بداية الحديث. علي الرغم من أنها لم تكن تعلم أختها تلك ولم ترها ولا حتى مرة واحدة في حياتها لكنها لم تستطع أن تمنع تلك الرجفة التي تصيبنا عندما نسمع نبأ وفاة أي شخص مهما كانت درجة معرفتنا به خاصة إن كان هذا الشخص صغيرا في السن.

قالت في نبرة ملؤها أسف حقيقي شعرت به من داخل قلبها:

- لا إله إلا الله! هي كان عندها كام سنة؟

فزفر قبل أن يقول:

- عشرين سنة.

- معقولة؟! طب هي اتوفت إزاي؟

- انتحرت، رمت نفسها من فوق العمارة اللي هي ساكنة فيها في لندن.

شعرت بنغزة من الألم في قلبها الذي لم يتحمل فكرة موت فتاة في ربيع عمرها وبتلك الطريقة المؤلمة. يا ترى ما الذي دفع فتاة في مثل عمرها إلى أن تلقي بنفسها من فوق مبنى عال لتسقط مهشمة الرأس سائلة الدماء في بلد غريب عن بلد أمها وأبيها؟ ربما قصة حب فاشلة أو شجار مع والدتها. يا لها من صغيرة لا تعلم حقيقة تلك الحياة. لا تعلم أنه لا يوجد شيء في تلك الدنيا يستحق أن تخسر حياتها من أجله.

أفاقت على صوت شفيق وهو يقول:

- بس مش هي دي المشكلة يا آنسة يارا. أنا جاي النهارده عشان حاجة تانية خالص.

صمت لحظة ليتأكد من أنها منتبهة إليه قبل أن يقول:

- منصور بيه لما عرف الخبر ماقدرش يستحمل، ضغطه علي وجات له جلطة في المخ دخلته في غيبوبة ماحدش يعرف إمتى هيفوق منها.

حقا! أزمة وغيبوبة! بالطبع. هذا أقل ما يمكن أن يحدث لمنصور بك عندما يعلم أن من يعتبرها ابنته الوحيدة رحلت عن تلك الدنيا. يا ترى لو كنت أنا التي توفيت هل كنت ستدخل في غيبوبة وأزمة يا منصور بك؟ أم كنت ستكتفي بإرسال شفيق لتلقي العزاء بينما تعقد انت الصفقات المربحة في أنحاء أوروبا مثلما فعلت عندما توفيت أمي؟

قالت محاولة إخفاء السخرية المريرة التي ملأت أفكارها:

- وحضرتك جاي تقول لي عشان أروح أزوره يعني؟

تراجع إلى الخلف واستند على ظهر المقعد وهو يقول في هدوء:

- والله تزوريه أو ماتزوريهوش، دي مسألة شخصية أنا ماليش دعوة بيها. أنا جاي عشان حاجة تانية خالص، مشكلة ماحدش هيقدر يحلها غير حضرتك.

قالت في اندهاش:

- أنا؟!

منذ متى وأنا أعلم أي شيء عن منصور بك وأسرته الكريمة؟ كيف يأتي يوم تكون هي فيه الوحيدة القادرة على حل إحدى مشاكلهم؟ استمعت في هدوء لم يخل من دهشة إلى كل المشكلة التي يعاني منها شفيق منذ أيام والتي أصبحت اليوم فوق عاتقها هي.

صمتت لتستوعب كل تلك التفاصيل التي سردها ثم تساءلت مستنكرة:

- حضرتك عاوزني أستلم المرحومة من المطار وآخدها لحد مدفن عيلة أبو بلاط وأشرف على دفنها بنفسي؟

فأومأ برأسه مؤكدا وهو يقول:

- وتاخدي العزا في نفس اليوم بالليل في عمر مكرم، وقبل كل ده تروحي تعملي توكيل لنائب القنصل في لندن بصفتك الوحيدة من أقارب ربما من الدرجة الأولى القادرة على تفويض أي شخص لإنجاز إجراءات تجهيز وشحن الجثمان.

يا للسخرية! إن كل هؤلاء لم يعرفوا عنها شيئا يوما، لم يسعوا إليها أو يسألوا عنها طيلة الثلاثة وعشرين عاما الماضين، هذا الأب الذي لم يشعر بوجودها واعتبر أنه لم ينجب في تلك الحياة سوى فتاة واحدة فقط، يأتي اليوم الذي يحتاجون إليها فيه أكثر من أي شيء، الذي تكون هي فيه المفتاح لحل أعقد مشكلة لديهم ولا أحد غيرها يمكن أن يفعل ذلك، هذا هو اليوم الذي يسعون فيه إليها طامعين في رضاها عنهم لتحل لهم مشكلتهم.

أخرجت نفسها من خواطرها، ليس هذا وقت تذكر كل هذا الذي حدث ولا يزال يحدث لها، ستكون أفضل منهم كلهم، كما ربتها والدتها، ستحل لهم مشكلتهم على الرغم من أنهم كانوا سبب كل مشاكلها.

قالت في هدوء بعد صمت دام دقائق أحس شفيق أنهم سنوات:

- حاضر يا أستاذ شفيق، أنا هاعمل كل اللي إنتوا محتاجيني أعمله.

ابتسم شفيق في ارتياح، كان يخشى أن ترفض يارا ويعود إلى الدوامة التي كان فيها. شكرها شكرا عميقا قلما يشكره لأحد وذهب بعدما ذكرها بموعدها اليوم التالي في وزارة الخارجية.

أغلقت الباب خلفه وعادت إلى الصالون حيث جلست على مقعدها مرة أخرى وأسندت رأسها إلى الخلف، أغمضت عينيها وزفرت في محاولة مستميتة لاحتواء كل تلك المشاعر التي استيقظت فجأة بداخلها وأخذت تزدحم وتستعر بعدما ظلت أربع سنوات منذ وفاة والدتها لا تشعر بأي من تلك المشاعر المؤلمة.

- سامحك الله يا ريما، لقد نكأت جروحا ظلت ملتئمة سنوات.

تحركت السيارات متقدمة أمامها فأفاقت من أفكارها وتحركت بسيارتها بضعة أمتار حتى توقفت السيارات مرة أخرى منتظرة الإشارة الحمراء، توقفت وعادت برأسها إلى الخلف حيث أسندتها لتريحها قليلا مما يثقلها.

تذكرت الرهبة التي شعرت بها عندما فكرت المساء الماضي في تلك الزيارة الفريدة التي ستقوم بها لوزارة الخارجية، كانت تظن أنها ستلتقي دبلوماسيا كهلا باردا ثقيلا، سيعاملها بغرور ليتخلص منها، لكنها عادت وتذكرت أن شفيق قد أخبرها بأنها ستلتقي هناك شابا اسمه يحيى صالح، دبلوماسيا بالإدارة الأفريقية.

و يحيى هذا، كم هو غريب، شخصية فريدة لم تلتق مثلها من قبل، يبدو أنه على صلة وثيقة بمنصور بك وإلا ما حرص على متابعة هذا الشأن البعيد عن مجال عمله، كما يبدو أنه مجتهد وناجح وإلا ما أصبح في هذا المنصب المتميز، يبدو أنه لم يعتمد تماما على والده الذي كان يعمل في السلك الدبلوماسي.

كانت تعلم أن من يعملون في الخارجية لا بد أن يكونوا لبقين ومتحدثين، وهو كذلك بالفعل، ولكن كان هناك شيء آخر في حديثه، كان حديثا تلقائيا كأنه يعرفها منذ سنوات.

وهنا التفتت إلى شيء لم تلق له بالا منذ أن خرجت من مكتب أستاذ يحيى، شيء أدهشها، إنها المرة الأولى التي تقص فيها حكاية والدها ووالدتها ببساطة وهي مبتسمة دون أن تشعر بضيق في صدرها أو سخط على هذا الذي ضغط عليها لترضي فضوله وتقص عليه هذا السر الذي تكتنفه حياتها أو يكتنف حياتها.

ابتسمت عندما تذكرت شكله وهو مرتبك، حائر بين رغبته في معرفة المزيد وبين حيائه من أن يضغط عليها لتخبره.

أضيئت الإشارة الخضراء وبدأت السيارات تتحرك من حولها، ضغطت بقدمها على مكبح الوقود وانطلقت تطوي الطريق بسيارتها بعدما خف الازدحام قليلا ولا تزال الابتسامة عالقة فوق شفتيها.

لمزيد من الكتب المصرية

## (٧)

وقفت سيارة الخارجية أمام بوابة قرية البضائع بمطار القاهرة الدولي حيث كان يحيى واقفا في انتظارها، فتح لها الباب في احترام لم يخل من ابتسامة احتلت شفتيه. ابتسامة لم يكن ليظهرها في مثل هذه المواقف ولا يعلم ماذا دفعه لأن يرسمها على شفتيه. لكنه تشجع عندما وجدها تبادله ابتسامته وهي تقول في رقة:

- صباح الخير يا أستاذ يحيى.

- صباح النور يا يارا هانم.

أشار لها لتتقدمه فخطت نحو الباب وهو خلفها حيث قضيا نحو ساعة ونصف في إنهاء الإجراءات اللازمة قبل وصول الطائرة التي ستعود بجثمان الفتاة الصغيرة الجميلة إلى بلدها. بلدها الذي لم تأخذ فرصتها لتحيا فيه وتراه وتتمتع به كما يجب.

التفت إليها محاولا إخفاء السعادة التي شعر بها عندما انتهت كل الإجراءات قبل موعد وصول الطائرة بنحو نصف ساعة وقال مبتسما:

- لسه فاضل نص ساعة على وصول الطيارة. تسمحي لي أعزمك على قهوة؟

اندهشت من طلبه لكنها قالت مبتسمة في هدوء:

- مافيش مانع.

لم يكد يخطو خطوة بجانبها حتى سمع صوت أحدهم يناديه ويطلب منه أن يحضر لعدة دقائق. أخفي ضيقه وغيظه واستأذنها قائلا وهو يشفق من أن تعتذر كلية بعد ما حدث:

- أنا آسف. ثانية واحدة.

fb.com/Sa7er.Elkotob/

- اتفضل يا فندم.

شعر بالارتياح لأنها لم تعتذر وذهب مسرعا بينما تركها تنتظره. شعرت هي الأخرى بضيق عندما ناداه هذا الشخص واضطر ليستأذن. كانت في حاجة شديدة إلى الجلوس واحتساء القهوة لتهدئ أعصابها التي بدأت تضطرب بشدة بعدما بدأت تستوعب أن ميعاد الطائرة اقترب وأن تلك اللحظة التي تؤرقها منذ أن جاءها شفيق قد أزفت.

كانت في حاجة شديدة إلى تلك الجلسة التي عرضها عليها يحيى، يحيى، كيف أدرك أنها في حاجة الآن إلى ما يهدئ أعصابها؟ لقد جاءت دعوته في موعدها، وليست الدعوة فقط هي ما أشعرها بارتياح، لكنها أيضا أحست منذ زيارتها له في مكتبه أنه من القلائل الذين استطاعت أن تشعر بالتلقائية الشديدة وهي تتحدث معهم، دون تكلف أو ضيق كما اعتادت ما يفرضه الناس عليها أثناء حديثها معهم. من أجل هذا وذاك شعرت بارتياح عندما دعاها وشعرت بضيق عندما تعطلت تلك الدعوة.

أفاقت فجأة على صوت أحدهم يناديها من الخلف، صوت تعرفه لكنها لم تسمعه منذ فترة، التفتت والصوت يقترب منها وهو ينادي مرة أخرى:

- يارا، يارا.

اتسعت عيناها العسليتان في دهشة، آخر من كانت تتوقع أن تراه في هذا المكان وهذا اليوم، بل إنها لم يخطر لها على بال أنها يمكن أن تلقاه ثانية بعد خمس سنوات، هتفت وهي تبتسم ابتسامة متعجبة:

- كريم؟

اتسعت ابتسامته وقد استقر به المقام أمامها مباشرة وهو يهتف في سعادة:

- يارا! إزيك؟ واحشاني.

- الحمد لله أنا كويسة، إنت عامل إيه؟

- الحمد لله، إنتي إيه اللي جابك المطار؟ مسافرة ولا لسه واصلة؟ أصلا إيه اللي جايبك قرية البضايع؟

فزفرت وهي تقول ولا تزال الابتسامة على شفتيها:

- لا مسافرة ولا واصلة، أنا جاية أستلم جثة أختي عشان أدفنها.

فنظر إليها في دهشة وفزع وهو يتساءل:

- أختك؟!

ثم قال وكأنه تذكر شيئا:

- أيوه صحيح، إنتي كان ليكي أخت أصغر منك، بس إنتي ماكانش ليكي أي علاقة بيها مش كده؟

- آه.

- أمال ليه إنتي اللي جاية تستلميها؟

أبصرت يحيى وشفيق قادمين نحوهما فقالت له في عجالة لتنهي الحديث:

- هابقى أفهمك بعدين عشان مافيش وقت دلوقتي.

وقف يحيى أمامهما مباشرة وهو يسرق نظرات مرتابة نحو كريم لكنه تظاهر بالطبيعية وهو يقول لها:

- آنسة يارا، الطيارة وصلت بدري.

فقال شفيق متمما كلامه:

- والعربية اللي هتاخد المرحومة لحد المدافن وصلت برا.

ازدردت ريقها بعد أن جف حلقها وقالت ووجيب قلبها يتصاعد:

- حاضر، أنا جاهزة.

ثم التفتت نحو كريم وقالت مستأذنة:

- معلش يا كريم أنا لازم أمشي دلوقتي.

فقال لها في نبرة مندهشة:

- إنتي جاية لوحدك ولا إيه؟ طنط ماجاتش معاكي ليه؟

فأجابته وهي تبتسم ابتسامة صفراء:

- ماما اتوفت من أربع سنين يا كريم.

فقال معتذرا في حرج:

- أنا آسف.

ثم استدرك في حماس:

- خلاص أنا هاجي معاكي.

نظرت إليه وتساءلت مندهشة:

- تيجي فين؟!

- معاكي، ما أنا أكيد مش هاسيبك لوحدك في موقف زي ده. أنا سبت شنطي مع السواق وهاكلمه أخليه يروحهم البيت. ماتقلقيش.

انطلقوا معا، كريم ويارا في الخلف وشفيق ويحيى في المقدمة. خطا يحيى في هدوء وثبات وثقة في مظهره الذي اعتاده جميع الناس، ولكن في داخله كان هناك شعور غريب، شعور لو لم يسيطر عليه لكان الآن ملتفتا نحو كريم ويارا مراقبا لهما ليعلم من هذا الشخص وماذا يقول لها. شعور ليس بالغيظ ولا بالضيق، إنه خليط منهما معا. لم يشعر بمثل هذا الشعور من قبل، والأغرب أنه يشعر به مرتبطا بشخص، بفتاة، فتاة لم يعرفها إلا منذ يومين فقط!

لكنه استطاع بالطبع أن يتغلب عليه ولو ظاهريا فقط حتى يحافظ على مظهره كما اعتاد دائما طوال عمله الدبلوماسي.

لم يطل انتظارهم كثيرا قبل أن يخرج الصندوق الخشبي أمامهم. حيث انشغل يحيى وشفيق وبعض الموظفين في مراجعة بوليصة الشحن وإنهاء الإجراءات بسرعة وإتقان يتناسبان مع النفوذ الذي يصاحب اسم منصور أبو بلاط حتى لو كان صاحبه شخصيا غارقا في غيبوبة. انزوت يارا بعيدا محاولة تمالك أعصابها التي اضطربت منذ أن رأت الصندوق يخرج أمامها حتى تنتهي الإجراءات ويتم نقل الصندوق إلى السيارة المنتظرة بالخارج. ولكن بدلا من ذلك أحست بشيء من الاضطراب يسري في حديث يدور بين شفيق ويحيى والموظف المسؤول فوجئت بعده بثلاثة عمال يحملون الصندوق ويذهبون به في الاتجاه الآخر إلى داخل إحدى الغرف القريبة. اقتربت يارا من يحيى ثم تساءلت في تردد:

- هو فيه إيه؟ هما واخدين الصندوق جوا تاني ليه؟

نظر يحيى نحو شفيق الذي تركهم وذهب خلف الصندوق ثم نظر نحوها وهو يقول في اقتضاب:

- أستاذ شفيق عاوز يبص بصة على ربما.

اتسعت حدقتاها وهي تهتف في دهشة:

- إزاي؟! هو ينفع إننا نفتح الصندوق أصلا؟ مش هو متشمع بالشمع الأحمر؟

- آه متشمع ومش المفروض طبعا إن الصندوق يتفتح. بس الأستاذ شفيق مصمم وطبعا ماحدش هنا يقدر يرفض له طلب.

- طب هو ليه عاوز يفتحه؟

- بيقول إنه عاوزكم تشوفوها لآخر مرة.

دق قلبها بعنف. همت بالاعتراض عندما أتاها صوت شفيق الذي هتف قبل أن يدخل الغرفة في حزم:

- يلا يا يارا.

أحست ببرودة تسري في أطرافها. ودت لو ركضت مبتعدة لتهرب من الموقف برمته. ولكن بالرغم من الخوف الرهيب الذي اعتراها لكنها وجدت نفسها تنصاع لأمر شفيق وتتجه نحو باب الغرفة التي يرقد بها الصندوق. أي شيطان هذا جعلها تفعل ما يلح عقلها ومنطقها بعكسه تماما؟ كان يجب أن تعتذر وتنتظره بالخارج حتى يقوم بتنفيذ هذا الطلب العجيب الذي طلبه. ولكنها بدلا من ذلك وجدت شيئا غريبا لا تعلم ما هو يدفعها للاقتراب من حيث ستلتقي وجه أخت اكتشفت فجأة أنها لا تعلم كيف يجب أن تشعر نحوها؟ توقفت لدقائق أمام باب الغرفة محاولة التقاط أنفاسها ودفع نفسها للقدوم على أول خطوة نحو الداخل. اقترب يحيى منها وقال مبتسما لتشجيعها في رقة:

- اتفضلي يا آنسة يارا. هي دقيقة واحدة مش أكتر. وجود المسؤولة عن الاستلام هيمنع وجود أي حرج في فتح الصندوق.

كانت تستميت لتسيطر على قلبها المرتجف. لماذا تشعر بكل هذا الخوف؟! ربما لأن تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها ميتا؟ أو ربما لأن الموقف كله يبعث على الرهبة؟ لا تعلم. لكنها أحست أنها يجب أن تبذل مجهودا جبارا لتحافظ على ثبات خطواتها عندما دخلت الغرفة ولمحت في آخرها الصندوق الخشبي الأنيق الذي ترقد بداخله ريما وهو مفتوح. في البداية لم تر أي شيء من بعيد. لكن كلما تقدمت خطوة ازدادت حافة الصندوق انخفاضا واتضح ما خلفها شيئا فشيئا. الشعر الأسود الفاحم الذي ورثته مثلها عن أبيهما كما ورثت الوجه البيضاوي أبيض البشرة والذي ازداد بياضه بسبب شحوب الموت. لم تستطع أن ترى عينيها بالطبع لأنهما كانتا مغمضتين لكنها أحست أن خلف هذين الجفنين عينين عسليتين مثل عينيها. لا تعلم لماذا انتابها هذا الإحساس الذي اختلط مع مائة إحساس آخر طفوا عليها في تلك اللحظة. إحساس بخوف رهيب وهي ترى أمامها ميتا لأول مرة في حياتها - حتى أمها لم تستطع أن تلقي عليها نظرة أخيرة بعد وفاتها. إحساس مؤلم

بأن أول مرة ترى فيها أختها تكون هي آخر مرة وتكون بتلك الطريقة. وإحساس بشفقة عجيبة على ريما التي بدت في ثوبها الأبيض الرقيق كملاك عذب اغتالته الحياة ووضعته في هذا الصندوق الخانق لتمعن في ظلمه.

أفاقت من كل تلك الأحاسيس وتمالكت أعصابها. يجب أن تتماسك فاليوم طويل وما زال في بدايته.

خرجت من الغرفة وهي تحاول السيطرة على ترنحها قدر الإمكان. كانت نظرات يحي المشفقة هي أول ما رأته ولكن كريم كان أسرع منه حيث أقبل عليها يسألها عن حالها. فطمأنته بكلمات مقتضبة قبل أن تستدير مسرعة نحو يحي وشفيق الذي كان قد سبقها بالخروج قائلة في نبرة متضايقة:

- للأسف فيه مشكلة.

فقطب يحي حاجبيه وتساءل مستنكرا:

- مشكلة إيه؟

- واضح إن ريما اتجهزت عشان تتدفن تبعا للطقوس المسيحية ومدفن عيلة أبو بلاط مدفن إسلامي.

فقال يحي والتقطيبة لم تترك وجهه بعد:

- مش ممكن؟! إزاي الناس هناك يغلطوا غلطة زي دي؟ المفروض إن الجثمان بيتغسل وبيتكفن تبعا لديانة المتوفى الرسمية، والمفروض إن ريما مسلمة زي والدها. مش كده يا أستاذ شفيق؟

فمط شفيق شفتيه وقال في حيرة:

- قانونا ده صحيح. إنما ريما كانت والدتها مسيحية وهي كانت عايشة معاها معظم الوقت. عشان كده أنا مش عارف هي كانت بتؤمن بإيه بالظبط. ومش عارف هما ليه جهزوها في القنصلية تبعا للطقوس المسيحية؟ يمكن عشان كانوا بيشوفوها ساعات وهي رايحة الكنيسة مع سيرين هانم؟

طغى صمت احتلت فيه الحيرة نظراتهم للحظات قبل أن تتحدث يارا محاولة إيجاد حل سريعا:

- أستاذ شفيق إنت لازم تتصرف. أنا ماعرفش ريما كانت بتؤمن بإيه بس مادام هي لابسة اللبس ده يبقى مستحيل تتدفن في مدافن مسلمين. لازم تدفنها في مدافن مسيحيين.

فضحك شفيق نصف ضحكة أخرج بها زفيرا ساخرا ليخفي حرج الموقف وهو يقول في حيرة:

- وأنا هاجيب مدافن مسيحين إزاي؟ هو الموضوع بالساهل كده؟

فتساءل يحيى في محاولة لإيجاد حل:

- ماينفعش تخلي رأفت يساعدنا؟

- يعني عاوزني أروح أقول له إيه؟ لو سمحت ادفن لنا ربما في مدافن عيلتك؟! وبعدين دي تبقى ربما منصور أبو بلاط. إزاي تتدفن في مدفن عيلة موظف بيشتغل عند والدها؟ ده غير إن تصريح الدفن طالع على أساس مدفن أبو بلاط.

بدا أن الأمر قد ازداد تعقيدا بعد هذا الحوار فمطت يارا شفتيها وقالت في عناد:

- وأنا مش هاوافق إنها تتدفن غلط.

بدت آثار التفكير على وجه شفيق الذي زم شفتيه قبل أن يقول بعد أن اهتدى للحل المناسب:

- خلاص، يلا بينا على المدافن دلوقتي وأنا هاحل الموضوع كله.

فتساءلت يارا في حيرة:

- هتحله إزاي يا أستاذ شفيق؟

- هتعرفوا لما نوصل، ماتقلقيش يا يارا. ربما مش هاتتدفن غلط. بس أرجوكم يلا بينا عشان كده هنتأخر على الناس اللي مستنيانا هناك.

لم يملكوا أمام كلمات شفيق المطمئنة سوى أن يستسلموا ويتركوا الأمر كله في يده، واتجهوا جميعا نحو صف السيارات السوداء التي كانت تنتظرهم أمام الباب خلف السيارة الكبيرة التي تم وضع الصندوق بداخلها.

التفتت يارا نحو يحيى وقالت مستأذنة:

- ممكن كريم يركب معايا العربية يا أستاذ يحيى عشان هو مش عاوز يسيبني لوحدي في الظروف دي؟

بوغت بطلبها هذا، جمد وجهه للحظة تدارك بعدها مسرعا وهو يقول في تباسط:

- آه طبعا، اعتبري العربية بتاعتك.

لمزيد من الكتب العصرية

شكرته مبتسمة ثم اتجهت نحو السيارة فركبتها وركب كريم بجانبها، بينما اتجه يحيى ليركب مع شفيق في سيارة أخرى وانطلقت كل السيارات خلف السيارة التي تحمل الصندوق وربما بداخله. صف سيارات سوداء أنيقة لامعة تتطلع نحوها الأعين في انبهار وفضول.

منذ أن تحركت السيارات وشفيق يتحدث في هاتفه المحمول بكلمات لم يفهم يحيى منها شيئا. كانت هناك كلمات أخرى تشغله. كلمات يتحدث بها إلى نفسه وتحدثه نفسه بها. لماذا لم يركب في السيارة الأخرى؟ كان ينوي أن يفعل ذلك لكنه تراجع عندما وجد هذا الشخص الغريب الذي ألقته الصدفة عليهم اليوم يركب مع يارا. وماذا في ذلك؟ كان يستطيع أن يركب في المقدمة بجانب السائق وكان الأمر سيبدو طبيعيا. لكنه لم يفعل لأنه يعلم أنه إن ركب معهم سيسترق السمع إلى ما يقولانه وهو ما يكرهه ويأباه على أخلاقه وكرامته. لذا وعلى الرغم من رغبته الشديدة في معرفة من هو كريم هذا لكنه استقل سيارة أخرى ليتجنب كل موقف قد يدفعه إلى فعل ما لم يتربى عليه. وأحس بدهشة شديدة تنتابه مما يفكر فيه. لماذا يريد أن يعلم ما سيقولانه؟ لماذا تضايق عندما لم تتم دعوته لها على فنجان القهوة؟ لماذا يريد أن يعرف من هو كريم هذا وما علاقته بيارا؟ لماذا يفكر في يارا من الأساس؟ ولماذا هذا الإحساس الذي بداخله الآن؟ شعور بأن كل حواسه منطلقة خلف السيارة الأخرى بلا أي سبب. إن كل ما مر به من مواقف في عمله الدبلوماسي ظن فيها أنه استطاع أن يكون بارعا في ضبط نفسه لا تساوي واحدا على مائة من المجهود الذي يبذله الآن ليضبط نفسه ويبدو طبيعيا. وظل نفس السؤال يلح عليه. لماذا؟ لماذا يحدث له كل ذلك؟ لماذا؟

fb.com/Sa7er.Elkotob/

توقف عن التفكير عندما توقفت السيارة أمام باب المدفن حيث كان ينتظرهم عدد من موظفي وأعضاء مجلس إدارة مجموعة أبو بلاط في أزياء رسمية أنيقة بجانب سياراتهم السوداء الفارهة. كان باب المدفن مفتوحا ومعدا. وأمامه كان يقف الحانوتي في جلبابه وعباءته الأنيقة في كامل أبهته حتى أنه بدا أكثر وقارا من الموظفين أنفسهم. هبط الجميع من سياراتهم واتجه شفيق نحو الحانوتي فحياه في ود وتحدث معه قليلا حديثا ذهب الحانوتي على أثره فأتى ببعض الرجال الذين فتحوا باب السيارة الكبيرة وأخرجوا منها الصندوق واتجهوا به نحو حجرة تبعد خطوات عن المدفن. عندئذ أحست يارا بالقلق يساورها. أحست أن قلبها منجذب نحو الصندوق الذي يحوي

بداخله تلك الأخت التي ما شعرت لها بأي إحساس مثلما تشعر الآن، اتجهت مسرعة نحو شفيق وتعلقت بذراعه كالمستنجدة وهي تسأل في نبرات قلقة وصوت مفزوع:

- هما واخدينها فين يا أستاذ شفيق؟

فقال لها مطمئنا:

- ماتقلقيش، مش إنتي عاوزة إنها تتدفن صح؟

- أيوه.

- خلاص، أنا هانفذ لك اللي إنتي عاوزاه.

فتساءلت وقد بدأ صبرها ينفد:

- إزاي؟

- الحاج عبده الحانوتي هيخلي الستات يغسلوها ويكفنوها زي الشرع قدر الإمكان عشان الجثة أصلا بتتحنط قبل ما تتشحن. إنما هنحاول قد ما نقدر بس عشان نعرف ندفنها في مدافن عيلة أبو بلاط .

علي الرغم من أن المدة لم تكن طويلة لكن الانتظار كان مرهقا تحت شمس أول أيام الربيع وهوائه الساخن الذي ازدادت وطأته بسبب رهبة المكان الذي يقفون فيه وما هم منتظرينه. كان الصمت مطبقا، لم يحاول أحد أن يتحدث أو حتى يهمس حتى بدت سيدة في زي أسود فضفاض أشارت للرجال فأسرعوا إلى الداخل وخرجوا بعد دقائق حاملين الصندوق، حيث عبروا به الطريق ودخلوا المدفن وخلفهم الحانوتي وصبيانه والمقرئ الذي علا صوته من الداخل بآيات قرآنية ملأت المكان رهبة وخشية أحس بها حتى من اختاروا أن يقفوا بالخارج دون أن يشهدوا الدفن.

كأن ما يحدث حولها حلم أو وهم، وقفت مشدوهة من هذا الموقف الذي لم تتخيل قط أنها يمكن أن توضع فيه، مستندة على أحد الحوائط وقد خبأت عينيها خلف النظارة السوداء، مطرقة نحو الأرض وهي تبذل مجهودا خارقا لكبت دموعها، دموع لم تعرف لها سببا، إنها لا تعرف ربما ولم ترها من قبل، لذا من الصعب أن تصدق أنها حزينة عليها، ولكنها الحقيقة، إنها حزينة ليس على ربما ولكن على الأخت التي لم تستطع أن تراها وتعيش معها مثل كل الأخوات، حزينة على حياتها

التي تعيشها بمفردها منذ أن توفيت والدتها وحتى قبل أن تتوفى والدتها. حزينة من تلك الدنيا التي حرمتها حتى حق البكاء على ذكريات مع أختها الصغيرة.

أفاقت على صوت شفيق الذي خرج من المدفن وقال لها في تأثر:

- اتفضلي يا آنسة يارا.

تقدمت في خطوات ثابتة وسط نظرات كل من يحيطون بها. نظرات اختلط فيها الفضول بالتأثر. معظم من أتوا اليوم كانوا لا يعرفون أن لمنصور بك ابنة أخرى غير ريما ومعظمهم أيضا كانوا متأثرين بسبب وفاة ريما. ابنة الرجل الذي يحترمونه ويقدرونه ويتمنون شفاءه وعودته إلى عمله وإليهم.

قرأت الفاتحة قبل أن تطيل وقفتها وهي تتأمل المدفن بينما يعبث الهواء بخصلات شعرها دون أن تعبأ هي بإزالتها عن وجهها. أفاقت عندما أحست بيد توضع على كتفها. يد يحيى الذي كان يتأملها من بعيد منذ أن دخلت المدفن. ابتسم لها نصف ابتسامة ليواسيها فابتسمت هي الأخرى قبل أن تستدير وتخرج من باب المدفن وهو خلفها.

كان شفيق هو أول من رأت "أحسنت يا سيدنا". قالها للمقرئ ثم أقبل عليها وفي عينيه نظرة حزن حقيقية. شد على يدها في حرارة وهو يقول متأثرا:

- البقاء لله يا يارا وشكرا على تعبك معانا.

- العفو يا أستاذ شفيق.

- ماتنسيش. الساعة سبعة في عمر مكرم إن شاء الله.

- إن شاء الله.

أقبل باقي الموظفين يعزونها مؤقتا حتى ميعاد العزاء الرسمي مساء. يتفرسون في وجهها في فضول قبل أن يلقوا ببضع كلمات متشابهة تجيبها مقتضبة في صوت منخفض قبل أن يتركوا يدها منسحبين في هدوء.

التفتت نحو كريم الذي أقبل نحوها وهو يرسم ابتسامة على وجهه قائلا:

- البقية في حياتك يا يارا.

ابتسمت وهي تقول:

- شكرا يا كريم، وشكرا كمان عشان جيت معايا النهارده.

- ماتقوليش كده، ماكانش ينفع أسيبك لوحدك في ظروف زي دي.

ابتسمت صامتة دون أن تجد كلمات لتجيبه بها بينما استطرد هو متسائلا:

- وراكي حاجة تانية النهارده.

- آه، العزا في عمر مكرم النهارده الساعة سبعة بالليل.

فقال متحمسا:

- خلاص، يبقى يلا نروح نتغدى في أي حتة دلوقتي عشان تستريحي وتهدي قبل ما نطلع على العزا بالليل.

لم تستطع أن تخفي في عينيها دهشة من كل تلك الشهامة التي يبرزها منذ أن رآها بعد قطيعة دامت خمس سنوات، ابتسمت وهي تقول وشعورها بالإحراج يزداد:

- يا كريم كفاية كده، إنت لسه راجع من السفر ومش عاوزة أتعبك أكتر من كده.

فقال متململا:

- سفر إيه ده اللي أنا هاتعب منه؟ هو أنا كنت راكب جمل؟ يلا يلا بلاش دلع، خلينا نلحق نوصل وناكل قبل معاد بالليل.

ثم قال في عصبية مصطنعة ليحمسها:

- يلاااا.

لم تملك سوى الاستسلام أمام إلحاحه، التفتت نحو يحيى الذي لم يكن بعيدا عنها وقالت مبتسمة:

- أستاذ يحيى أنا بجد متشكرة على تعب حضرتك معانا.

فقال وقد ثبت عينيه بداخل عينيها:

- ماتقوليش كده يا آنسة يارا، منصور بيه كان صديق والدي الله يرحمه وده واجب عليا.

ابتسمت شاكرة، نفض عن نفسه هذا الإحساس الذي اعتراه للحظة ثم استطرد قائلا:

- العربية هتفضل معاكي لحد بالليل، أنا جبت موافقة من الوزارة.

لمزيد من الكتب العصرية

لم يكن ذلك شيئا طبيعيا. لذا اتسعت ابتسامتها وهمت بإغداق عبارات الشكر عليه، لكن كريم قاطع حديثهما متسائلا في تضجر:

- مش يلا بقى يا يارا.

- حاضر.

التفتت نحو يحيى وقالت:

- بعد إذنك.

- هاشوفك بالليل.

- أكيد.

ودعته مبتسمة وسارت نحو السيارة التي فتح بابها كريم فدلفت بداخلها ثم قفز هو بجانبها وأغلق الباب الأسود اللامع.

انطلقت السيارة مبتعدة تطوي الطريق نصف الممهد بسرعة مخلفة عاصفة من الغبار لم تستطع أن تمنع يحيى من متابعة السيارة بعينيه حتى انحرفت نحو اليمين واختفت عن الأنظار.

(٨)

انساب النيل تحتهما في نعومة وهدوء. اختارت مكانا مفتوحا يطل على النيل، أرادت أن تستنشق هواء منعشا يلسها إرهاق ما مضى من هذا اليوم ويعيها على ما تبقى منه. مضت تتأمل النيل ونسمات رقيقة تعبث بخصلات شعرها الأسود الفاحم منصرفة عن قائمة الطعام التي بين يديها والنادل الذي وقف بجانبهما منتظرا تلقي الطلبات. أفاقت على صوت كريم الذي قال دون أن يرفع عينيه عن القائمة التي يمسك بها:

- أنا هاخد ستيك بوافر ومكرونة وايت صوص. وانتي؟

اعتدلت في جلستها ونظرت إلى القائمة دون أن تعي منها شيئا. بدا لها أن اختيار شيء لتأكله أمر صعب سيرهق عقلها الذي تحاول إراحته قدر الإمكان. تظاهرت بأنها لم تجد ما يعجبها في الصفحات التي تقلبها قبل أن تقول:

- هاخد زيك.

ابتسم غرورا عندما وجدها تنتقي مثلما انتقى، أخفى ابتسامته مسرعا ومد يده بالقائمة للنادل الذي سجل الطلبات في دفتره الصغير وأخذ القوائم وانسحب في هدوء.

عادت إلى شرودها، تحدق في التيارات الضعيفة التي تدفع أمامها ورود النيل نحو الشمال في هدوء وهي تستنشق الهواء الذي أعاد إليها الانتعاش الذي تفتقده منذ عدة أيام. ظلت أحداث اليوم تمر أمامها سريعة ومتتابعة، تظهر وتختفي دون رحمة وإن ظل الوجه الأبيض النحيل الشاحب يحتل الخلفية، ينغز في قلبها ويعذبها دون هوادة رغم محاولاتها المستميتة للتخلص من هذا الإحساس الحزين الذي احتلها دون مبرر.

- روحتي فين؟

التفتت نحو كريم وقالت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها:

- أنا هنا أهو.

- أصلك سرحتي.

ابتسمت في صمت، لم تجد ما تجيب به، الموقف كله غريب بالنسبة لها، مجرد الجلوس مع كريم على مائدة واحدة في مكان مثل هذا بعد كل ما حدث بينهما وبعد خمس سنوات من القطيعة أمر

لمزيد من الكتب العصرية

غير معقول، فما بالك إن كان في يوم كهذا اليوم بكل ما يحتويه من أحداث غريبة ومشاعر متداخلة ومتناقضة! التفكير في إحساسها نحوه الآن أمر غير وارد بالنسبة لها، لكنها أحست أن الله بعثه لها، فهي تريد أن تتحدث مع أي شخص تعلمه جيدا حتى وإن كان كريم.

قطعت الصمت قائلة لبدء أي حديث:

- ماقلتليش بقى، كنت بتعمل إيه في المطار؟

- أنا كنت لسه واصل من السفر بس عديت على قرية البضايع عشان بابا طلب مني أسأل له على حاجة هناك.

- كنت مسافر فين؟

- كنت في بلجيكا.

اتسعت حدقتاها وهي تقول مندهشة:

- بلجيكا؟! هو شغل باباك وصل لحد بلجيكا؟

ابتسم ابتسامة أخفى بها مرارته وهو يقول:

- أنا ماكنتش مسافر عشان شغل.

- أمال كنت مسافر ليه؟

زفر قبل أن يقول:

- كنت باتعالج في مصحة نفسية.

عادت إلى الخلف وقد سيطرت الصدمة على كل ملامحها، قالت في نبرات متقطعة وصوت مفزوع:

- مصحة نفسية؟! ليه؟!

- اكتئاب، حاد.

ألجمت الصدمات المتتابعة لسانها، صمتت للحظات في محاولة لاستيعاب ما تسمعه، كريم الذي لم تكن الضحكات تفارق فمه ولم يكن الاستهتار يفارق كل تصرفاته يصاب باكتئاب حاد. قال مبتسما بعدما رأى ما انتابها:

- إيه؟! مش مصدقة؟!

قالت مسرعة:

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- لا مصدقة طبعا، بس مش فاهمة.

- عندك استعداد تسمعي؟

- أكيد.

عاد بجسده إلى الخلف وهو يتأمل النيل بجانبه كأنه يبحث على سطحه عن شيء هوى واستقر في القاع، قاع ذاكرته التي تحوي كل الذكريات المؤلمة وتخفيها لتظهر فقط في لحظة مثل تلك اللحظة. أخذ نفسا عميقا قبل أن يلتفت نحوها ويسألها:

- فاكرة الحادثة الكبيرة اللي حصلت من حوالي تمان شهور على طريق السويس؟

مطت شفتيها وهزت رأسها نافية، تساءل في محاولة لتذكيرها كأنه يستنكر أنها نسيت حادثة كتلك:

- التريلتين اللي خبطوا بعض وخدوا في وشهم بتاع ١٠ عربيات؟ دي الجرايد مابطلتش كلام ساعتها.

ابتسمت وهي تقول حاسمة الموقف:

- أنا ماباقراش جرايد يا كريم.

حرك رأسه لأعلى ولأسفل متفهما قبل أن يستطرد حديثه في نفس الهدوء السابق:

- أنا كنت في الحادثة دي، بس ماكنتش لوحدي، كان معايا كمان مراتي وابني.

خفق قلبها عندما سمعت ما قاله. هل حقا تزوجت يا كريم؟! وأنجبت أيضا؟! وماذا في ذلك؟ أليس رجلا؟ ماذا كنت تتوقعين خلال خمس سنوات من القطيعة؟ بالطبع سيتزوج وينجب. اتركي تلك القصة كلها كما تركتها تنتهي من قبل، لقد انتهت بالفعل وانتهى معها كريم بداخلك فإن ظهر مرة أخرى فليس عليك إلا أن تستمري في حياتك كما أنت لأنك بالفعل تجاوزت كل أحاسيسك نحوه.

تمالكت نفسها دون أن يظهر شيء على وجهها، اختلس هو نظرة نحوها كأنه يبحث عن أثر كلمته عليها وعندما لم يجد شيئا استكمل حديثه قائلا وهو يرسم ابتسامة صفراء على شفتيه:

- وعلى الرغم من إن كنت أنا اللي سايق، وإن أنا اللي كنت ناحية الخطر اكتر، إلا إني خرجت من الحادثة بشوية كدمات وإصابات عادية، أما بقى مراتي وابني فماخرجوش، اتوفوا.

نظرت نحوه بعينين ملتاعتين، لم تتوقع ما قاله، يبدو أنك قاسيت كثيرا يا كريم، الاكتئاب إذا شيء طبيعي بعد ما حدث لك. لم تكن تعلم ماذا يجب عليها أن تقول، أتواسيه وتعتذر عما حدث، أم تحاول تغيير الحديث كله وتحويل دفته إلى موضوع آخر، لا تعلم، لذا آثرت الصمت خاصة عندما

أحست فيه ميلا للحديث وأنه أخيرا وجد شخصا مناسبا ليفضي له بما بداخله. كان لا يزال مثبتا عينيه نحو النيل وقد ترقرقت فيهما دموع مكبوتة عندما قال في صوت متحشرج يمتلئ بالألم:

- كانت لحظة صعبة قوي، إني أدفن ابني بايدي وأشوف مراتي وهي بتتنفس لآخر مرة جنبي. إحساس صعب.

صمت لحظة ازدرد فيها دموعه قبل أن يلتفت نحوها ويستطرد قائلا:

- قعدت شهرين حابس نفسي، مكتئب وباتمنى الموت من كل قلبي. لحد أما بابا قرر إنه يسفرني بلجيكا في منتجع نفسي عشان أتعالج. قعدت هناك ست شهور لحد ما قدرت أعدي الأزمة ولسه راجع النهارده.

ابتسم محاولا القضاء على الألم الذي تذكره فابتسمت هي الأخرى. كانت ترى شخصا جديدا لا تعلمه. شخصا هذبه الألم وعلمه وقومه حتى أصبح إنسانا آخر غير هذا الذي كان لا يعنى بشيء قدر ما يعنى بملابسه وسيارته وأناقته. شخصا دفن مع زوجته وابنه كثيرا من أنانيته وغروره واستهتاره. لماذا أحببته يوما؟ هكذا سألت نفسها لكنها لم تجد الوقت لتفكر في إجابة. قطع كريم الصمت قائلا في مرح مصطنع ليغير مجرى الحديث:

- بس ليه مافيش أي حد من أصحابك جه معاكي؟

- صحاب إيه بس؟ ده أنا يادوب باشوفهم مرة كل كام شهر. اللي سافر برا واللي انشغل في حياته واللي اتجوزت. الموضوع مابقاش زي زمان. ماعنديش دلوقتي غير داليا. صاحبتي من الشغل. بنشوف بعض كل يوم لحد أما اتعودنا على بعض وبقينا صحاب قوي.

- بس واضح إن علاقتك بباباكي بقت أحسن مش كده؟

كان النادل قد وضع أمامهما الطعام عندما أجابته يارا وهي تقطع اللحم:

- لا أبدا. لسه علاقتي بيه زي ما هي. مافيش علاقة أصلا.

عقد حاجبيه مستنكرا وهو يقول بعدما ازدرد طعامه:

- أمال إزاي طلب منك إنك تستقبلي جثة بنته وتدفنيها؟

لم تجد بدا من أن تشرح له الموقف كله ليفهم، ثم قضيا بعد ذلك بقية الوقت وهما يتحدثان عن ذكريات الجامعة دون أن يتطرقا إلى أي شيء قد يكون له علاقة بذكريات ما كان بينهما. وعندما

فرغا من طعامهما أخرج كريم علبة سجائره وفتحها ومدها نحو يارا لكنها رفعت يدها له علامة الرفض وهي تقول:

- بطلتها.

فتناول واحدة وضعها في فمه وأشعلها وهو يقول:

- من إمتى؟

تململت قليلا قبل أن تقول:

- بعد ما ماما اتوفت جت لي أزمات تنفس. Mainly سببها أزمة نفسية. الدكتور قال لي إني لازم أبطل فبطلت.

كانت تكذب، لقد أصيبت بالفعل بتلك الحالة النفسية والأزمات التنفسية، لكن لم يكن ذلك عند وفاة والدتها، كان قبل ذلك بعام، عندما تركها كريم، لكنها بالطبع لم تقل ذلك، أحست أنها يجب أن تحتفظ بكرامتها حتى آخر لحظة أمامه حتى ولو كان كل شيء قد انتهى بداخلها بالفعل.

ابتسم وهو يقول:

- أوحش حاجة عملتها معاكي كانت إني علمتك تشربي سجاير. كويس إنك بطلتيها.

ابتسمت وهي تداري السخرية التي تشعر بها. هل حقا هذا هو ما يشعر به؟ كانت بداخلها تريد أن تقول له إن التدخين لم يكن أقبح شيء فعله معها، ولكنها صمتت، لا فائدة من أن تقول له ذلك، لقد انتهى كل شيء كما كانت تفكر منذ قليل.

رفعت يدها لتستدعي النادل وهي تقول:

- أنا هاطلب قهوة عشان محتاجة أفوق قبل مشوار بالليل. تاخد قهوة معايا؟

نفث دخان سجارته في الهواء وهو يلوح برأسه رافضا قبل أن يقول:

- من ساعة ما جالي الاكتئاب وأنا بطلت أشربها لحد ما اتعودت إني ماشربهاش.

ابتسمت متعجبة وهي تتساءل:

- يعني بطلت القهوة ومابطلتش السجاير؟

أخذ نفسا عميقا من السجارة ثم نفثه في الهواء مبتسما وهو يقول وقد وضع ساقا على ساق:

- c'est la vie.

## (٩)

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما وصل مكتبه في الخارجية. ظل محدقا في العقارب الذهبية وهي تسير في بطء ممل فزادته توترا على توتره. فأخذ يحرك قدمه في حركة عصبية وقد وضع سماعة التليفون على أذنه واستمع بصبر نافد إلى الحديث. لكنه استطاع أن يحافظ على هدوئه حتى أتمت أمه حديثها وخفت حدتها بعدما أخرجت كل ما بداخلها. فاستغل فرصة صمتها لتلتقط أنفاسها وأسرع ليقول مهادنا:

- يا ماما يا حبيبتي صدقيني والله مافيش داعي خالص تيجي النهارده بالليل. طب اهدي بس وأنا هافهمك.

صمت لحظة ليزدرد ريقه ثم قال:

- أولا أنا هابقى موجود وهاقوم بواجب العزا كله لنفسي وبالنيابة عنك. ثانيا الشخص الوحيد اللي يعرفك ولازم تقدمي له العزا اللي هو منصور بيه مش هيبقى موجود. ثالثا بقى ودي أهم حاجة. حضرتك لسه تعبانة والدكتور قال لازم ترتاحي اليومين دول. صدقيني والله العظيم أول ما منصور بيه يفوق هاخدك تروحي تعزيه بنفسك ولو عاوزة كمان تسافري لبنان عشان تعزي سيرين هانم - اللي إنتي ماتعرفيهاش أصلا - هاخدك من إيدك ونسافر لحد هناك. خلاص؟

ثم صمت قليلا وابتسم وهو يستمع إلى مقاومتها التي تشبه مقاومة طفل يعترض على أن أمه لن تعطيه الحلوى في اللحظة التي طلبها فيها. اضطر إلى أن يلجأ إلى المحايلة لينهي الحديث الذي كان بالفعل يقترب من نهايته" فقال وقد ملأ صوته بتدلل لا يستخدمه إلا معها فقط:

- عشان خاطري يحيى. خلاص بقى.

وعندما أعلنت موافقتها ساخطة زفر في ارتياح قبل أن يقول في سعادة:

- ربنا يخليكي ليا يا رب. خلي بالك من نفسك ماشي؟ يلا سلام.

أخيرا وضع السماعة وأغمض عينيه ليستعيد نشاطه حتى يستطيع أن يستكمل يومه الطويل. عاد إلى شاشة اللاب التوب يتفحص بريده الإلكتروني مسرعا وهو يخرج الطعام الذي طلب منهم إحضاره. عندما مس السندوتش شفته رفع عينيه من على الشاشة منتبها. أعاده إلى مكانه ونظر في حزن إلى الطعام الذي أمامه. دون وعي أو قصد منه عقد مقارنة بين ما كان يلتويه وما حدث.

كان يريد أن يدعو يارا على الغداء اليوم، أن يعطي لنفسه فرصة ليتحدث إليها أكثر ويعرف عنها المزيد، تلك الشخصية الغامضة المبهمة التي امتزجت فيها الرقة بالقوة والتي تعاملت بكل صلابة ووداعة مع هذا الموقف العجيب الذي وجدت نفسها فيه. لماذا تقوضت كل الخطط التي وضعها ليتقرب منها ويعلم عنها المزيد؟ لماذا فشلت دعوته لها لتناول القهوة في المطار؟ ولماذا لم يستطع من الأساس أن يدعوها إلى تناول الغداء معه؟ إنه الظهور المفاجئ لهذا الشخص، كريم هذا الذي ظهر من العدم مثل شيطان مختبئ. من هو كريم هذا؟ ما علاقته بها؟ يبدو أنها علاقة وطيدة تلك التي جعلته يلزمها منذ أن رآها في المطار على الرغم من أنه كان عائدا من السفر.

أفاق من أفكاره، ثار على نفسه، لماذا لا يبرح التفكير في هذا الشأن؟ لماذا تزداد رغبته في معرفه المزيد عنها؟ ولماذا يمنعه القدر عن تنفيذ رغبته بطريقة تزيد تلك الرغبة إلحاحا؟ وكلما ازدادت رغبته وازداد معها عناد القدر، ازدادت كرامته ثورة وحنقا. لطالما زهد فيما أحس أنه لن يناله، ولم يتمن إلا ما كان في متناول يده، أما أن يتمنى شيئا ولا يناله ولا يستطيع حتى أن يزهده فهو ما لم يعتده من قبل. ثم عادت كرامته تثور مرة أخرى، ما هو هذا الذي يتمناه؟ أن يعرف عنها المزيد ويتحدث معها؟ ماله ومالها؟ ليس بها شيء مختلف يجعله يفكر فيها كل هذا الوقت، وماله يتمرد بسببها على روتينه اليومي؟ لطالما تناول طعامه بمفرده في مكتبه وأحبه وأحب عمله وعزلته؟ لماذا يأتي اليوم الذي يتمرد فيه على كل هذا؟ لا، سيعود إلى ما اعتاده، إلى عمله وحبه له وتفانيه فيه، سيأكل طعامه بشهية مثلما يفعل كل يوم.

هكذا أقنع نفسه وشحن عزيمته، تناول السندوتش في إصرار لا مبرر له وقضم منه بحماس ملأ كل حواسه وأثر على حركة أصابعه التي أخذت تتحرك فوق لوحة المفاتيح حركة مجنونة ظهرت في شكل حروف وكلمات على الشاشة البيضاء.

(١٠)

أما في مكتب منصور أبو بلاط في المقر الرئيسي للمجموعة كان التوتر هو سيد الموقف، الموظفون يتحاشون الاقتراب من المكتب منذ أن دخله شفيق الذي أتى ليتابع سير العمل قبل أن يتوجه إلى عزاء عمر مكرم في المساء، تملؤه شحنات من التوتر والانفعال غمرت المكان كله من حوله وملأت ليديا بشعور من الخوف والقلق والاستعداد التام لأن تهب إليه في أي لحظة يطلبها فيها دون تكاسل حتى تتجنب غضبه الذي بدا قريبا جدا في تلك اللحظات، والذي ظهر واضحا في صوت صراخه الذي ملأ حجرته ووصل إلى ليديا فزادها انكماشا وهي تستمع إليه وهو يهتف في سماعة الهاتف صارخا:

- لا يا رأفت، مش هينفع تيجي العزا النهارده يعني مش هينفع تيجي.

- ؟!

- ليه؟ عشان طول ما أنا مش في المستشفى إنت لازم تفضل عينيا هناك، ولا عاوزنا نسيب منصور بيه هناك لوحده يا بني آدم إنت؟

ثم ازدادت عصبيته وهو يقول:

- وبعدين إنت عاوز تيجي تعزي مين؟ يارا اللي ماتعرفكش أساسا؟

- ؟!

- رأفت، أنا مش ناقصك النهارده خالص، هي كلمة واحدة، إوعى تسيب المستشفى مهما حصل.

وضع السماعة في عنف وعاد إلى الأوراق التي أمامه، عندما طرقت ليديا الباب ودخلت في خطوات بطيئة مترددة حتى وقفت أمام المكتب، دون أن يرفع رأسه قال محاولا ضبط نفسه:

- فيه حاجة يا ليديا؟

ازدردت ريقها لتبلل حلقها الجاف قبل أن تقول:

- أستاذ هاشم برا ومصمم يقابل حضرتك.

رفع رأسه وفرك جبهته وقد ملأ الضيق وجهه بعدما أدرك أن هاشم لن يهدأ حتى ينال ما يريده، زفر قبل أن يقول:

- خليه يدخل.

لمزيد من الكتب الحصرية

- حاضر.

همت بالاستدارة لكنها توقفت لحظة مترددة قبل أن تتساءل في توجس:

- مستر شفيق هو أنا ينفع آجي العزا النهارده بالليل؟

ابتسم رغما عنه دون أن يرفع رأسه من على الأوراق، أدرك أنها تعقد المقارنة بين نفسها وبين رأفت فقال متباسطا:

- أيوه طبعا يا ليديا، أنا مش هاقعدك في المكتب بالليل يعني.

ابتسمت مطمئنة قبل أن تخرج من الغرفة مسرعة، مضت لحظات قبل أن يدخل هاشم، طويل عريض الكتفين، تتجلى ضخامته في بذلته الرمادية الأنيقة وخطواته المتحمسة التي قطع بها المسافة بين الباب والمكتب، حتى جلس أمامه وهو يقول في نبرة طبيعية كأنه لا يشعر بكل ما يحدث حوله:

- مساء الخير يا أستاذ شفيق.

فرفع شفيق رأسه متثاقلا، وصمت لحظة بدا فيها الإرهاق واضحا على وجهه قبل أن يقول:

- مساء النور يا أستاذ هاشم، خير؟

- أنا أول ما عرفت إن حضرتك هنا جيت على طول علشان نحدد معاد اجتماع مجلس الإدارة.

فزفر شفيق محاولا كظم غيظه وغضبه قدر الإمكان، قبل أن يقول في لهجة متوعدة:

- مش ليديا قالت لحضرتك إن أنا مش هاتكلم في الموضوع ده. لحد أما كل إجراءات الدفن والعزا تخلص؟

fb.com/Sa7er.Elkotob

فقال هاشم شبه متحد:

- الدفنة خلصت النهارده الصبح يا أستاذ شفيق، وأظن مافيش مانع نحدد معاد مجلس الإدارة دلوقتي؟

نظر شفيق إلى ساعة معصمه قبل أن يقول محاولا الحفاظ على هدوئه:

- أستاذ هاشم أنا قدامي بالظبط نص ساعة أخلص فيها كل الورق اللي قدامي ده قبل ما أطلع على عمر مكرم، كل اللي أقدر أقوله لك دلوقتي هو إنك لو عاوز تكسب وقت ممكن تنسق مع باقي أعضاء مجلس الإدارة وتبلغ ليديا بالمعاد اللي اتفقتوا عليه.

ثم استطرد في حزم:

- وقول لها تبلغني بالمعاد بكرة الصبح لأني مش هاتكلم في الموضوع ده قبل ما العزا يخلص خالص.

فحرك هاشم رأسه موافقا بعدما أدرك أنه لن ينال اليوم أكثر من ذلك ثم نهض وهو يقول خاتما الحديث:

- حاضر يا أستاذ شفيق، بعد إذنك.

خطا بضع خطوات نحو الباب، لكنه توقف قبل أن يبلغه واستدار مرة أخرى ونظر نحو شفيق وهو يقول في نبرة جادة وإن لم تخل من توسل:

- بس أرجوك، المعاد اللي تتفق عليه ماتأجلوش، المجموعة من غير رئيس مجلس إدارة، موقفنا وحش مع العملاء، وأكيد حضرتك أكتر واحد عارف قد إيه خبر مرض منصور بيه والخلل اللي حصل أثر على سمعتنا وبالتالي أسعار أسهمنا في البورصة.

نظر شفيق إليه في هدوء بعد تلك النبرة المتوسلة التي خاطبه بها هاشم وقال:

- حاضر يا أستاذ هاشم.

خرج هاشم من الغرفة وترك شفيق غارقا في حيرته. كل ما قاله صحيح. منذ دخول منصور بك في الغيبوبة وموقف مؤسسة أبو بلاط يتدهور بسبب كل ما يحدث. أعضاء مجلس الإدارة متذمرون، يريدون عقد مجلس إدارة عاجل لإنقاذ الموقف وهو أولهم، لكن الفرق بينهم وبينه هو أن أحدهم لا يتحمل مسؤولية ريما واستقبالها ودفنها وتنظيم عزائها. تلك المسؤولية المرهقة التي ألقيت على عاتقه وحده والتي لولاها ما لجأ إلى يارا ولا أفشى سر منصور بك الذي ظل مختبئا لمدة ثلاثة وعشرين عاما، قبل أن يظهر فجأة مقتحما حياته بشراسة غير متوقعة في الصحف والإعلام فعلم به كل الناس، كل الناس، يا للسخرية، يخبئ ابنته أعواما لا يدري بوجودها حتى أقرب المقربين له، وعندما تظهر، تظهر أمام الناس كلها وليس فقط المقربين منه، ويجد شفيق نفسه وحيدا وسط كل ذلك، يتحمل تبعات كل ما فعله منصور بك في حياته وحده بينما يغط منصور بك نفسه في نوم عميق.

- متى ينتهي هذا الكابوس؟

هكذا هتف لنفسه قبل أن يزفر ويعود إلى ما أمامه من أوراق وملفات.

لمزيد من الكتب العصرية

(١١)

عندما انتصفت الثامنة مساء كانت كل الشوارع المفضية والمحيطة بمسجد عمر مكرم ممتلئة بالسيارات الفارهة وسيارات الحراسة ذوات الزجاج "الفيميه" الأسود الذي يحجب ما خلفه فيزيد المشاهد فضولا وتطفلا.

و أمام المسجد وقف رجال الحراسة أنفسهم. طوال القامة ضخام. مفتولو العضلات. في بذل سوداء لا تقل أناقة عن بذل من يحرسونهم. وفي آذانهم سماعات بلاستيكية مثبتة بعناية حتى لا تسقط من جراء تلفتهم المستمر يمنة ويسرة باحثين بعيونهم عن أي شيء قد يثير الشكوك.

في الداخل. جلس المقرئ متربعا على ديوان وثير أمام مكبر الصوت. ينطلق صوته الرخيم القوي بالآية تلو الآية فتشق الصمت الذي لاذ به كل من يجلس في قاعة الرجال. صمت يستحق المشاهدة والتأمل. وزراء ودبلوماسيون ونواب مجلس شعب ورجال أعمال لا يكفون عن الظهور والثرثرة المستمرة في وسائل الإعلام. جلسوا كلهم صامتين كأن على رؤوسهم الطير يستمعون إلى التلاوة أو يتظاهرون بذلك. وفي أول القاعة وقف شفيق وهاشم ويحيى يتلقون العزاء ومعهم بعض أعضاء مجلس الإدارة وموظفي الشركة وكريم الذي أصر على مرافقة يارا حتى نهاية اليوم. أما في قاعة السيدات جلست زوجات كل من في قاعة الرجال. بالإضافة إلى بعض سيدات عائلة أبو بلاط في ثياب فاخرة أنيقة وعطور تطاير شذاها واختلط حتى ملأ المكان كله.

أما يارا فكانت جالسة في أول القاعة. بعد أن ظلت فترة طويلة واقفة تتلقى العزاء والتحيات. تنظر شاردة إلى السجادة الملونة تحت قدمها وبجانبها جلست داليا. بطولها الفارع وقوامها المتناسق وقد خلا وجهها الأسمر وعيناها السوداوان من المساحيق فبدت بشعرها المقصوص "ألا جارسون" والمصبوغ بأحمر قانٍ وكأنها امرأة في منتصف الثلاثين رغم أنها لم تبلغ الثلاثين بعد.

وخزت يارا وخزة خفيفة لتنبهها. قبل أن تقول هامسة وهي تسترق نظرات مغتاظة إلى ما حولها:

- إيه الفرح اللي إحنا قاعدين فيه ده؟ كل هانم لابسة ومتشيكة وعلى سنجة عشرة.

فالتفتت إليها يارا وقطبت حاجبيها محاولة استعادة وعيها واستيعاب ما سمعته قبل أن تتساءل:

- إنتي بتتكلمي عن إيه يا داليا؟

- باتكلم عن هوانم المجتمع اللي مش جايين يعزوا. إنما جايين يتفرجوا على بنت منصور بيه اللي ظهرت فجأة وبقت حديث المدينة.

فاسترقت يارا نظرة خاطفة نحو النساء الجالسات حولها. لم تكذب داليا. كلهن يتفحصنها ويكدن يثقبنها بأعينهن. هل أصبحت "فرجة" حقا؟ سامحك الله يا منصور بك. زفرت في حسرة قبل أن تقول داليا ساخرة:

- أول مرة أشوف "سيدات الروتاري" اللي بيقولوا عنهم.

كتمت يارا ضحكة كادت أن تنطلق منها قبل أن تقول مؤنبة:

- يا داليا كفاية بتضحكيني. شكلنا هيبقى وحش.

فابتسمت داليا قبل أن تقول في استهتار:

- اضحكي ياختي اضحكي. ما احنا قاعدين في عيد ميلاد.

كتمت يارا ضحكة أخرى حاولت أن تخفها عندما أبصرت فتاة تدخل من الباب وتتجه نحوها لتعزيها. كانت تبدو أنها دون العشرين. بيضاء ممتلئة امتلاء معقولا برز جماله في وجنتيها المتوردتين من أثر هذا الامتلاء. وقد جمعت شعرها الأسود في عقدة واحدة خلف رأسها "ذيل حصان" في وقار يتناسب مع الموقف. وقفت يارا وقد استرد وجهها جديته ومدت يدها لتحيي الفتاة التي قالت:

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية. شكرا.

فتشجعت الفتاة قليلا قبل أن تقول:

- أنا ندى العجرودي. كنت زميلة ريما في المدرسة. ال secondary school في لندن.

- أهلا وسهلا.

- أنا وريما كنا المصريين الوحيدين في المدرسة. عشان كده معظم صحابها مش موجودين في مصر وماجوش العزا.

- ما أنا خدت بالي.

فلاحت ابتسامة على وجهها وهي تتساءل:

- إنتي يارا صح؟

فابتسمت يارا وقد ظنت أن الفتاة تريد أن تتأكد مما تقرؤه في الجرائد قبل أن تقول:

- أيوه أنا.

- ربما كانت بتتكلم عنك. ساعات.

فنظرت إليها يارا في دهشة شديدة ملأت كل ملامحها. قبل أن تقول في نبرة متقطعة تمتلئ بالاستنكار:

- ربما! كانت بتتكلم عني أنا؟!

فاتسعت ابتسامة الفتاة وهي تقول في حماس:

- أيوه. كنت باسمعها وهي بتقول إن ليها أخت عايشة في مصر عمرها ما شافتها، وإن نفسها لما تنزل مصر تاني إنها تقابلها وتتعرف عليها.

ثم تلاشت الابتسامة قبل أن تقول في حزن:

- بس للأسف مالحقتش.

لم تستطع يارا أن تنطق بكلمة. كانت الدهشة قد ملأت كل حواسها وأصابتها بالشلل. بصعوبة شديدة تمالكت نفسها وأخفت دهشتها وهي تقول مجاملة:

- ماعلش. الله يرحمها.

- يارب. بعد إذنك.

دخلت الفتاة وجلست على مقعد في آخر القاعة بينما جلست يارا مستغرقة في دهشتها وخواطرها المتخبطة في رأسها. أحقا كانت ربما تتحدث عنها؟! وكانت أيضا تريد أن تراها وتتمنى ذلك؟! لماذا؟! أين الصورة التي رسمتها يارا في مخيلتها عن هذه الأسرة؟ صورة جافة لناس بلا قلب أو شعور. يأبون أن يعترفوا بعلاقتهم بها ويترفعون عن مقابلتها أو الاهتمام بأمرها. أيمكن أن تكون هذه الصورة خاطئة. على الأقل من جانب ربما؟ أيمكن أن تكون تلك الفتاة الصغيرة تحمل في جوانحها قلبا رقيقا يتطلع إليها بحب ليس له أي دافع سوى معرفة أخت بعيدة حرمت منها؟ إنه شيء لا يصدق. لكن تلك الفتاة تبدو صادقة. تتحدث بثقة ومودة حطمت تلك الصورة التي ظلت يارا ترسمها في مخيلتها عمرها كله. سمعت صوت داليا كأنه قادم من بعيد وهي تهتف قلقة:

- يارا، مالك؟ إنتي كويسة؟

التفتت نحوها وقد تخبطت الأفكار في رأسها وعقدت لسانها فلم تدر حتى كيف تجيب على هذا السؤال السهل. فتحت فمها لتتحدث لكنها لم تعلم ماذا تقول، ظل فمها مفتوحا دون أن تنطق وهي تحملق في وجه داليا دون أن تستطيع أن تخرج نفسها من الدهشة التي سيطرت عليها.

أفاقت عندما أحست بإحداهن تقف أمامها وسمعتها وهي تقول:

- آنسة يارا.

رفعت عينها ونظرت نحو وجهها الأبيض الجميل وشعرها البني القصير فبدأت تعود إلى الواقع الذي انفصلت عنه للحظات، تمالكت نفسها ووقفت وهي تجيب:

- أيوه.

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية، شكرا.

- أنا ليديا سكرتيرة منصور بيه ومديرة مكتبه.

فنظرت إليها مليا وكأنها تكتشف في وجهها عالما جديدا ثم ابتسمت وهي تقول مجاملة:

- أهلا وسهلا يا ليديا.

فابتسمت ليديا وهي تقول معتذرة:

- أنا آسفة إني ماجتش الصبح الدفنة.. بس مستر شفيق مابيخلينيش أسيب المكتب مهما حصل.

- ولا يهمك، ربنا يكون في عونك.

- شكرا، بعد إذنك.

ذهبت ليديا من أمامها وتركتها لتعود إلى الدهشة والحيرة من جديد، كأنها كانت في غيبوبة، لا تعلم شيئا عن حياتها وأقرب المقربين لها، أيوجد أحد في هذه الدنيا لم ير أباه وأخته مثلها؟ أليس هذا دليلا على أنها هي الغريبة ليس الآخرون؟ هي المختلفة الشاذة عن كل ما يدور في تلك الدنيا الواسعة.

لم تشعر كم من الوقت مضى وهي تفكر، لم تع ما حولها إلا عندما وكزتها داليا لتنبهها إلى أن المقرئ قد انتهى من قراءة الربع الثالث وأن بعض المعزيات قد أتين ليحيينها قبل أن يرحلن.

## (١٢)

عندما دخلت المنزل ألقت بنفسها على أول أريكة وجدتها في الصالة أمامها. خلعت الحذاء الأسود ذا الكعب العالي وأمسكت بأصابع قدميها لتهدئ من الألم الذي تشعر به من أثر هذا الكعب الذي لم تعتد أن ترتديه كثيرا مثلما فعلت اليوم. استلقت وأغمضت عينيها وتركت جسدها يسترخي فأحست بكم الإرهاق الذي أصابها اليوم عندما بدأت الراحة تنتشر في أوصالها. وعلى الرغم من أنها بدأت تشعر بتخدير لذيذ في أطرافها إلا أن عقلها ظل يؤرقها ويمنعها من أن تهنأ بتلك الراحة التي تحتاج لها منذ أول اليوم. كان هناك قرار تريد أن تأخذه، أو أخذته بالفعل ولكن تنقصها الشجاعة لتنفيذه. قرار غريب لا تعلم متى أتت فكرته في مخيلتها؟ ربما عندما تحدثت إليها تلك الفتاة "ندى" وكشفت لها جزءا من جانب في حياتها كانت تظن أنها تعلمه. فأصابت معتقداتها بزلزال عنيف جعلها تعيد التفكير في كل شيء حولها وتفكر أيضا في أن تخاطر بمحاولة اكتشاف المزيد، والمزيد من العلم يعني مزيدا من الحيرة والدهشة وربما أن تنقلب كل حياتها وأفكارها رأسا على عقب. لكن كل ذلك لم يستطع أن يثنيها عما اعتزمته وحاولت أن تقاومه دون فائدة. حاولت أن تقنع نفسها بأنها متعبة اليوم فلا داعي لمزيد من التعب. لكنها ابتسمت في سخرية لأنها تعلم أن إرهاقها هذا ليس قاتلا وأنه يمكنها أن تتحامل على نفسها وتنفذ فكرتها. فكرت في أن الوقت متأخر ونظرت في ساعة معصمها لتتأكد من ذلك. كان الوقت بالفعل متأخرا. الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. لكنها لم تشعر حقا بأثر تلك الحقيقة في نفسها. وكأن مقاومتها تلك ما هي إلا مقاومة ترضي بها غرورها دون اقتناع كامل بها. وفجأة، أدركت أنها لن يغمض لها جفن الليلة دون تنفيذ ما اعتزمته. وأنه من الأفضل لها أن تنهض الآن بدلا من أن يسرقها ترددها فتضطر إلى تنفيذ ذلك في الفجر. ملأها حماس عجيب فنهضت مسرعة وأخرجت حذاء آخر مريحا بلا كعب. ارتدته وأخذت حقيبتها وخرجت قبلما تغلق باب الشقة في عنف لا يتناسب مع الهدوء الذي شمل العمارة في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

استقلت سيارتها وقادتها حتى توقفت عند بائع ورد يهم بإغلاق المحل. قفزت مسرعة وتوسلت إليه بنبرة متعجلة أن يعد لها باقة ورد صغيرة. تعجب الرجل لكنه لم يجد بدا من أن ينفذ لها طلبها مسرعا. وضعت الورود البيضاء بجانبها وقادت السيارة مسرعة في الشوارع التي كانت لا تزال

ساحر الكتب fb.com/SaherElkotob

ممتلئة بالساهرين. فتحت الزجاج وتركت هواء الليل البارد يلفح وجهها بعنف لتفيق وتستعد لما هي مقدمة عليه دون خوف أو تردد. لم يكن من العسير معرفة في أي مستشفى يرقد منصور بك. كل من كان في العزاء كان يردد اسم المستشفى وسط الأحاديث الكثيرة التي ترددت بالقرب من مسامعها اليوم. كانت تطوي الأسفلت مسرعة وكأنها تسابق نفسها التي بدأت تشعر بالخطر عندما اقتربت بالفعل من تنفيذ هذا القرار. "أن ترى أباها"!

كانت كل المطاعم والمحلات في مصر الجديدة لا تزال تتلألأ بالأنوار وتعج بالناس الذين نسوا الزمن في غمار تلك الحياة الليلية الصاخبة. على عكس طريق المطار الذي كان شبه خالٍ حيث لم تجد صعوبة في العثور على المبنى. تركت السيارة وترجلت منها. دخلت المستشفى في ثبات ممسكة بيدها باقة الورود البيضاء. وبعد دقائق كانت تقطع الدهليز المؤدي إلى غرفة منصور بك بالعناية المركزة.

كان يحيى واقفا معطيا ظهره للدهليز. أمامه رأفت وبجانبهما شفيق الذي كان منهمكا في الحديث عندما التفت دون قصد منه نحو اليمين. فصمت فجأة واتسعت عيناه في دهشة وهو يهتف متسائلا:

- يارا؟!

تطلع رأفت نحوها في فضول. بينما التفت يحيى بجسده في دهشة خفق لها قلبه عندما سمع شفيق يهتف بالاسم. وازدادت تلك الدهشة عندما رآها أمامه بالفعل واقفة في ثبات. بنفس ملابسها السوداء. في يدها باقة ورود وعلى وجهها شبح ابتسامة حاولت السيطرة بها على نفسها أمام تلك الدهشة التي قوبلت بها. والأدهى من ذلك. أن تكون جاءت بمفردها إلى هنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

لم يطل الصمت كثيرا. تقدمت يارا نحوهم والابتسامة لا تزال على وجهها وهي تقول:

- مساء الخير.

فرد ثلاثتهم التحية والدهشة لا تزال على وجوههم. بينما تخلص رأفت من دهشته وهو يسارع قائلا:

- البقية في حياتك يا يارا هانم. أنا رأفت. آسف إني ماعرفتش آجي العزا النهارده. بس أصل الأستاذ شفيق مابيخلينيش أسيب منصور بيه لوحده في المستشفى مهما حصل.

ابتسمت وهي تقول مجاملة:

- متشكرة قوي يا أستاذ رأفت.

ثم التفتت نحو الوجهين الآخرين المتطلعين إليها في دهشة وقالت وهي تشير نحو باب العناية المركزة:

- هو أنا ممكن أدخل؟

فقال شفيق مسرعا:

- آه طبعا ممكن، بس، دلوقتي؟!

فرفعت حاجبيها وهي تتساءل متحفزة:

- فيه مانع؟!

فأجاب شفيق في استسلام:

- لا أبدا، بس، يا ريت ماتطوليش عشان ده مش معاد زيارة.

- حاضر.

دخلت حجرة العناية المركزة وقلبها يكاد يتوقف من شدة الخفقان، حاولت أن تضبط صوت تنفسها الذي تسارع بشدة، وعلا كلما اقتربت من الفراش الأبيض الذي رقد عليه الجسد الضخم، وقد تغطى نصفه بغطاء أبيض وبقي النصف الآخر عاريا، وقد ألصقت عليه تلك الدوائر الملونة الموصولة بخيوط رفيعة بعدة أجهزة تصدر أزيزا متواصلا كدليل على أن هذه الكتلة المسجاة حية لم تمت بعد. بيدين مرتعشتين وضعت الباقة على طاولة قريبة وهي تحاول ضبط نفسها قبل أن تقوم بالخطوة الأخيرة والأصعب، خطوة التقدم أكثر بحيث تصبح بجانب الفراش مباشرة فتستطيع رؤية هذا الوجه الذي لم تره في الحقيقة من قبل.

أخذت نفسا عميقا وتعالت دقات قلبها وهي تخطو نحو مقدمة الفراش، رأته، نفس البشرة البيضاء والشعر عميق السواد الذي جمع بين ثلاثتهم "منصور ويارا وريما" على الرغم من الدنيا التي فرقتهم. تأملت هذا الوجه - الذي يشبهها رغم كل شيء - وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها كأنها تمنع بهما مشاعرها المتناقضة الهائجة من الانفلات.

ضغطت شفتيها وهي تنظر إلى أعلى بعينين مغرورقتين، لماذا أتيت؟! لماذا أفعل بنفسي كل هذا؟! ألم يكن من الأفضل أن ينتهي كل ذلك كأنه حادث عابر أستكمل حياتي بعده دونما تغير؟ لماذا

استسلمت لفضولي واستغلالي لغيبوبته لأطلع على هذا الوجه الذي ظللت أمقته عمري كله؟ لماذا لم أكن رحيمة بمشاعري؟

- يا آنسة.

انتفضت على صوت الممرضة التي طلبت منها مترفقة أن تغادر في هدوء، ألقت نظرة أخيرة سريعة قبل أن تخرج وهي تجر قدميها في وهن وقد اعتراها ذهول شديد وألم لم تعلم له سببا محددا. ألقت بنفسها على الأريكة دون أن تلتفت إلى يحيى الذي كان ينتظرها مستندا على الحائط الملاصق للحجرة. هو أيضا كان غارقا في دوامة من الأفكار المتضاربة، يقاومها فتطحنه في عنف وشراسة. ألم يثر على نفسه في الصباح فهذبها وقومها؟ ألم يقرر أنه لن يفكر فيها أكثر من اللازم مرة أخرى؟ أنه لن يشغل نفسه بما لا مبرر له أو طائلة منه؟ واستطاع أن ينفذ ذلك خلال العزاء بالفعل. ماذا حدث؟! كيف انهار هكذا؟! كيف استطاع هذا الوجه الأبيض الشاحب الحزين أن ينكصه عن عزيمته؟ وكيف انهارت حصون مقاومته أمام تلك العينين العسليتين الحائرتين؟ لماذا لم يذهب مع شفيق ورأفت وفضل أن يبقى هنا في انتظارها؟ إنه يعلم الإجابة، ليطمئن عليها، من باب الذوق والأدب. كفى خداعا! إنه قلق عليها بالفعل، وإن لم يكن قلقا فلم إذًا يشعر بقلبه مضطربا بتلك الطريقة، اضطرابا لم يعهده بنفسه من قبل، آه يا يحيى! أول مرة تجد نفسك غير قادر على تفسير مشاعرك، وعلى الرغم من ذلك تنفذ كل ما تمليه عليك بلا تردد أو تفكير. لا تنكر، إن لم يكن ذلك صحيحا لماذا إذا تتحرك الآن نحوها في تردد وتجلس بجانبها وكل ما تتمناه في تلك اللحظة هو أن ترفع رأسها لترى وجهها؟

أحست بشخص يجلس بجانبها، فرفعت رأسها ونظرت بعينين محمرتين احتبست فيهما الدموع نحو يحيى الذي ابتسم محاولا أن يطمئن نفسه قبل أن يخفف عنها، ابتسمت في عناء مما شجعه على أن يبدأ الحديث مستفسرا في تودد:

- أول مرة تشوفيه وهو في المستشفى؟

اتسعت ابتسامتها وأسندت رأسها إلى الخلف وهي تقول في نبرة ساخرة:

- أول مرة أشوفه في حياتي كلها.

رفع حاجبيه في دهشة وهو يتساءل متعجبا:

- عمرك ما شفتي باباكي قبل كده؟!

فهزت رأسها نافية وابتسامة المرارة لا تزال على شفتيها. وجد نفسه يكسر كل القواعد التي اعتادها. أحس أنه شخص آخر. إنسان فضولي يسأل ويستفسر ويتحدث في تباسط لا يتناسب مع حرج الموقف. رغبة عجيبة في أن يتحدث ويستمر حديثه معها بلا نهاية. من أين أتت تلك الجرأة؟ ربما لأنه وجد ما تمناه الصباح في المطار ومنعه ظهور كريم يتحقق الآن، وأجمل مما كان يتمنى. ربما هذه السعادة هي التي أيقظت تلك الجرأة التي دفعته إلى أن يتساءل وقد ثبت عينيه بداخل عينيها المسترخيتين من التعب والحزن:

- ليه؟

لم يفاجئها السؤال ولم تشعر بضيق منه. أجابت في بساطة وكأنها تتحدث مع شخص تعرفه منذ سنوات:

- إذا كان هو ماحاولش يشوفني قبل كده. يبقى أنا أحاول أشوفه ليه؟

هز رأسه مقتنعا بإجابتها. لكنه وجد نفسه يسألها دون تفكير:

- وإيه اللي خلاكي تيجي تشوفيه النهارده؟

مطت شفتيها وهزت رأسها قبل أن تقول:

- ماعرفش. أنا نفسي باسأل روحي السؤال ده. ومش لاقية إجابة. يمكن عشان لقيت فرصة إني أشوفه من غير ما هو ما يشوفني ولا يعرف إني موجودة أصلا؟

صمتت لحظات مفكرة قبل أن تقول في شرود:

- بس أنا كان ممكن أعمل كده من زمان. كان ممكن أروح أسلم عليه في أي حتة وأتكلم معاه. وهو ماكانش هيعرف إن اللي واقفة قدامه دي تبقى بنته.

- وليه ماعملتيش كده؟ ما دام إنتي عاوزة تشوفيه؟

رفعت رأسها وعقدت ذراعيها أمامها وهي تقول في ضيق:

- أنا عمري ما حسيت قبل كده إني عاوزة أشوفه. بالعكس. أنا كل مصيبة حصلت لي في حياتي وكل ألم حسيت بيه كان لازم يكون هو سبب مباشر أو غير مباشر له. مابقيتش عارفة أحبه ولا أكرهه.

ابتسم وهو يقول مستنكرا:

- تحبيه؟! بعد كل اللي على وشك ده ولسه بتتكلمي على حب؟

عادت ابتسامتها وهي تقول موضحة:

- عارف، أنا مافيش عيد ميلاد عدى عليا من غير ما يبعت لي فيه هدية حلوة، مبلغ محترم كان بيتحط في رصيد ماما الله يرحمها في البنك عشان مصاريفي، أحسن تعليم، أحسن عربية، توصية أول ما اتخرجت عشان أتعين في الوظيفة اللي أنا فيها دي، حتى لما اتخطبت لكريم، بعت لي هدية طقم ألماظ عمري ما شفت في جماله قبل كده.

خفق قلبه عندما سمع اسم كريم، تساءل محاولا إخفاء اضطرابه:

- كريم ده اللي شفناه الصبح في المطار؟

هزت رأسها بالإيجاب، ثم استكملت دون أن تنتبه إلى ما كابده يحيى ليكتم فضوله ومشاعره وأسئلته ليبدو طبيعيا:

- بس كل اللي كان بيعمله ده كان من بعيد، فلوس من بعيد، هدايا من بعيد، وحتى الوساطة من بعيد. كأننا مثلا ماسكين عليه زلة وبيدفع لنا عشان نفضل ساكتين.

ثم صمتت وعادت إلى شرودها قبل أن تقول:

- بعد كل البعد ده ألاقي نفسي مزروعة وسط مشاكل منصور بيه ومسؤولة عن استلام ودفن وعزا أخت عمري ما شفتها ولا عرفتها ولا حسيت بوجودها في حياتي قبل كده.

حاول أن يتحدث، لم يجد كلاما ليقوله، لكنه فوجئ بها تسترسل في وصف ما بداخلها قائلة في نبرة مطمئنة:

- بس عارف؟ مش هي دي أكتر حاجة أنا مستغرباها في اللي بيحصل ده.

- أمال إيه هي أكتر حاجة مستغرباها؟

فزفزت قبل أن تقول:

- أنا عندي ستة وعشرين سنة وأول مرة آخد بالي من غرابة حياتي. أنا عندي أب وأخت ماعرفش عنهم أي حاجة، أول مرة أشوف أختي تبقى وهي ميتة وأول مرة أشوف أبويا يبقى وهو في غيبوبة. هي الحاجات دي بتحصل للناس الطبيعيين؟! بذمتك دي مش حاجة غريبة؟!

فابتسم وهو يقول:

- هي حاجة غريبة. بس الأغرب منها إن دي أول مرة الاقي فيها واحدة ست بتقول سنها عادي كده في وسط الكلام.

ضحكت ضحكة صافية طردت بها كل ما بداخلها من هموم وهي تقول:

- لعلمك بقى، فيه رجالة بيخبوا عمرهم الحقيقي يمكن كمان أكتر من الستات.

- معقولة؟!

- آه والله.

- أنا مصدقك. بس إيه يعني اللي هيخلي راجل يخبي سنه؟

- نفس اللي بيخلي الست تعمل كده.

فرفع إصبعه معترضا وهو يقول:

- لا ماعلش. فيه فرق.

فانتصبت بجذعها وهي تقول متحفزة في استنكار:

- يا سلام؟ إيه الفرق بقى إن شاء الله؟

فاتسعت ابتسامته عندما رآها تتحفز ضده وهو يقول:

- الفرق إن الراجل مش محتاج يخبي سنه لأن الستات مابتهتمش بسن الراجل إنما الست بتخبي سنها لأن الرجالة تافهة. بتهتم بسن الست.

انطلقت ضحكاتهما تشق صمت المستشفى، بدت شيئا غريبا في مثل تلك الساعة المتأخرة وهذا المكان القريب أمام العناية المركزة. لكنها كانت ضحكات صافية جعلت الممرضة المناوبة تتركهم دون أن تعترض، بل وتبتسم وتحاول إخفاء تلك الابتسامة خلف النعاس الذي غشي وجهها وعينيها المتعبتين.

قال وهو يحاول الانتهاء من الضحك:

- أيوه يعني هو أنا ماضحك عليكي؟ أنا ياما ورد عليا أشكال من النوع ده.

سعلت من أثر الضحك قبل أن تقول:

- إذا كنت إنت مستغرب من إن فيه واحدة ست بتقول سنها عادي، فأنا مستغربة من إن فيه راجل يقول الكلام ده بصراحة كده.

- ياه! ده إنتي فكرتك وحشة قوي عن الرجالة.

- لا والله ما قصدي. أنا كنت باهزر.

فابتسم وهو يقول:

- على العموم وبعيدا عن أي حاجة. أنا راجل آه، بس صريح جدا.

فقالت مداعبة:

- أيوه صح، طول ما إنت صريح كده إن شاء الله هتبقى وزير خارجية.

عادا إلى الضحك مرة أخرى، ربما لم تكن الدعابات تستحق كل هذا الضحك، لكن سعادته بما يدور بينه وبينها من حديث وسعادتها بأنها وجدت من يخفف عنها وطأة هذا اليوم المرهق، جعلاهما يضحكان بشدة، ضحكات ولدت بداخل قلبيهما وخرجت إلى العالم صافية لتضفي على كل شيء سحرا غريبا وجميلا لم يعلماه من قبل.

بالتدريج خف ضحكها حتى توقف، أسلمت نفسها لشرود مؤقت تذكرت خلاله هذا الوجه الأبيض الجميل الذي واراه التراب منذ ساعات قليلة، أحست أنها تريده أن يشاركها إحساسها هذا ولكن بطريقة غير مباشرة. وجدت نفسها تسأله محاولة إبقاء الابتسامة على شفتيها:

- إنت عندك إخوات؟

فهم ما تفكر فيه وما ترمي إليه بسؤالها لكنه تجاهل هذا وأجاب مبتسما:

- أيوه، أختين أكبر مني.

رفعت حاجبيها في دهشة وهي تسأل:

- إنت الصغير؟! وكمان ولد على بنتين؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- أيوه، بس مش زي ما إنتي فاكرة، مش متدلع والكلام الفارغ ده. أبويا الله يرحمه وأمي كانوا متربيين تربية عسكرية وربوني زي ما هما اتربوا بالضبط، ده حتى يسرا ويمنى أخواتي البنات اتربوا نفس التربية.

ابتسمت وهي تقول مفكرة:

- يسرا ويمنى ويحيى، أساميكوا حلوة قوي.

- ماما هي اللي كانت بتختار أسامينا.

كفت عن الابتسام وهي تقول:

- عارف؟ أنا ماعرفش مين اللي اختار اسمي، لما اتولدت كان ماما ومنصور بيه لسه متجوزين.

فرنا إليها مبتسما وقال في نبرة رقيقة:

- مش مهم، المهم إنه اسم حلو قوي ولايق عليكي.

ابتسمت وأحنت عينيها في محاولة لإخفاء أثر خفقان قلبها من على وجهها ووجنتيها بينما أبعد هو عينيه بعدما أحس أنه أصاب وربح كثيرا بتلك النظرة التي رمقها بها.

حانت من يارا التفاتة نحو ساعة معصمها فقالت في تعجب شديد:

- ياه، الوقت اتأخر قوي، أنا لازم أروح.

نهضت فنهض يحيى أيضا مشفقا من انتهاء هذا الحديث الذي كان يتمناه منذ الصباح، قال في محاولة لخلق مزيد من الوقت:

- طب يلا عشان أروحك.

- لا لا أنا معايا عربية، مافيش مشكلة.

فقال متصنعا الحزم بينما هو من الداخل يدعو الله أن توافق على ما يطلبه:

- مش هتسوقي لوحدك في ساعة زي دي.

فتململت قليلا قبل أن تقول في حرج:

- أيوه بس الوقت متأخر وأنا عايشة لوحدي و...

فقاطعها وقد ازداد الأمل بداخله:

- أنا هاوصلك بعربية وسواق الوزارة، وأظن الناس كلها عارفة الظروف اللي إنتي فيها.

لم تجد مخرجا من هذا الموقف، لقد سد أمامها كل الطرق، قالت في محاولة غير جادة للتهرب:

- أيوه بس عربيتي، هاسيبها هنا إزاي في المستشفى؟

فمد يده نحوها وهو يقول:

- هاتي مفتاح عربيتك.

فنظرت نحوه في دهشة وارتياب من هذا الطلب، فقال مشجعا لها:

- هاتيه.

فمدت يدها في توجس وأخرجت المفتاح من القلادة وأعطته له. أمسك به وهو يقول في ثقة:

- بكرة الصبح هتلاقي العربية قدام باب بيتك والمفتاح مع البواب.

فنظرت نحوه مبتسمة في دهشة من تلك الثقة التي يتحدث بها، وقبل أن تفتح فمها لتتحدث أشار لها لتسير وقال في حسم:

- يلا بينا.

سارت دون أن تعترض، كان بوسعها أن تجادل وتتهرب من هذا العرض، لكنها لم تفعل. في تلك اللحظة لم تعلم لماذا لم تستمر في المحاولة، لكنها كانت راضية بما يحدث. أما يحيى فلم يعلم كيف استطاع أن يسيطر على مشاعره طيلة طريقهما حتى باب السيارة، لو كان يمكن سماع صوت خفقان القلب، لملأ صوت قلبه حجرات تلك المستشفى كلها بالسعادة اللذيذة التي كان يشعر بها في تلك اللحظة.

في السيارة، استمر حديثهما الضاحك، غير عابئين بالتعب الذي كان يملؤهما بعد هذا اليوم الطويل المرهق. كيف استطاعت أن تنسى كل همومها؟ كيف نسي كل ما أغضبه في الصباح؟ لم يحاولا التفكير في إجابة، لم يحاولا فعل شيء سوى الاستمرار في الحديث. وعندما وصلت السيارة أمام باب العمارة، التفتت نحوه وقالت مبتسمة في امتنان حقيقي:

- شكرا يا أستاذ يحيى.

- على إيه؟

- كفاية إنك خلتني أروح مبسوطة رغم كل اللي حصل لي النهارده.

فابتسم وهو يقول:

- هي دي أهم حاجة بالنسبة لي.

وعندما ألقت بجسدها على الفراش والابتسامة لا تزال على شفتيها، كانت السيارة السوداء تطوي شوارع القاهرة الخالية وبداخلها إنسان يشعر بسعادة عجيبة لم يجربها من قبل.

(١٣)

لم يكسر سعادتها في صباح اليوم التالي سوى تلك النظرات الفضولية التي أخذت تلاحقها منذ أن دخلت من باب الشركة. مالكم تنظرون إلي هكذا؟ أترونني لأول مرة؟ أم لأنكم علمتم السر الخطير الذي يصعب عليكم تصديقه؟ بالطبع. وكيف يمكن أن تصدقوا أن من تحيا بينكم منذ سنوات هي نفسها ابنة أغنى وأشهر رجال الأعمال في مصر؟ يا رب! كيف يمكنني أن أعيش في تلك الشركة مرة أخرى؟! سامحك الله يا منصور بك. لقد أفشيت السر الذي أحاول إخفاءه منذ أن دخلت هذا المكان. وهل تظن أنك وحدك من تحاول إخفاء تلك الحقيقة؟

أغلقت باب المكتب خلفها في عنف قبل أن تسترسل في سعال حاد بسبب رائحة دخان السجائر التي كانت تدخنها داليا. والتي التفتت نحوها بالمقعد المتحرك وقالت في دهشة:

- إنتي إيه اللي جابك النهارده؟ مش كنتي تستريحي بعد تعب امبارح؟

فقالت في ضيق من الرائحة وهي تتجه نحو النافذة:

- ما أنا قلت آجي أبص على الشغل وأمشي بدري.

ثم شرعت في فتح النافذة وهي تقول في ضيق:

- إنتي مش هتبطلي سجاير بقى يا داليا؟! طب حتى افتحي الشباك. أنا هاتخنق.

فابتسمت داليا دون أن تحول عينيها من على شاشة الكمبيوتر قبل أن تقول متعجبة:

- أول مرة أشوف حد كان بيشرب سجاير ويكرهها كده بعد أما يبطلها.

فجلست يارا خلف مكتبها وهي تقول في سخرية:

- ما أنا ماكنتش باشربها عشان باحبها. أنا كنت باشربها عشان أبقى cool وأعجب.

التفتت داليا نحوها وهي تقول متذكرة:

- آه صحيح فكرتيني. إيه بقى اللي جاب مي كريم ده إمبارح في العزا والدفنة وخلاه يقضي معاكي اليوم كله؟

- ولا حاجة. أنا قابلته بالصدفة في المطار فماحبش يسيبني لوحدي في ظروف زي*دي.

فقلبت داليا شفتيها ممتعضة وهي تقول:

- لا حنين قوي! بكرة ياختي يرجع يزن في موضوع زمان عشان ترجعي له.

- يا شيخة حرام عليكي، ده مراته وابنه لسه متوفيين من كام شهر وهو كان عنده أزمة نفسية بسبب اللي حصل.

- ما هو ده سبب أدعى يخليه يبقى عاوز يرجع لك.

فقالت يارا في خبث لتثيرها:

- طب وفيها إيه أما أرجع له؟

فالتفتت داليا نحوها في عصبية وقالت في عنف:

- نعم ياختي؟ إنتي إيه ماعندكيش كرامة؟ إنتي ناسية اللي عمله معاكي؟

فقالت يارا مسرعة وهي تضحك:

- خلاص خلاص، أنا كنت باهزر والله، ماتخافيش أنا عمري ما هارجع لكريم تاني مهما حصل.

فقالت داليا في امتعاض دون أن تنظر نحوها:

- والله بقى إنتي حرة. اللي بيشيل قربة مخرومة بتخر على دماغه.

- ما خلاص بقى يا داليا فيه إيه؟ قلت لك كنت باهزر.

ثم سادت لحظة من الصمت ترددت فيها يارا قليلا قبل أن تستجمع شجاعتها لتقول:

- دوللي، عاوزة أحكي لك حاجة مهمة.

فزامت داليا لتحثها على الحديث دون أن ترفع عينيها من على الشاشة التي أمامها، فضغطت يارا على شفتيها وأخذت نفسا عميقا وقد أخذ قلبها يدق بعنف، قبل أن تقول:

- أنا رحت المستشفى إمبارح لمنصور أبو بلاط.

فالتفتت داليا نحوها مندهشة وهي تقول:

- يخرب عقلك! رحتي إمتى؟

- إمبارح بعد ما رجعت من العزا نزلت تاني ورحت له المستشفى.

فعقدت داليا حاجبيها مستنكرة وهي تضع سيجارة في فمها وتشعلها ثم نفثت الدخان قبل أن تتساءل:

- طب وإيه اللي خلاكي تروحي؟

فقلبت يارا شفتيها قبل أن تقول في حيرة:

- مش عارفة.

ثم زفرت قبل أن تقول شاردة وهي تتذكر ما حدث لها:

- بس كان إحساس غريب قوي يا داليا.

فنهضت داليا واقتربت لتجلس بجانبها وهي تتساءل متوجسة:

- يارا! إنتي كويسة؟

فالتفتت نحوها وهي تتصنع الابتسام قائلة:

- ماتخافيش عليا أنا كويسة الحمد لله. أنا بس مستغربة اللي بيحصل لي، أول مرة أحس إني بجد لوحدي في الدنيا، أول مرة أشوف أختي أبقى رايحة أدفنها، وأول مرة أشوف أبويا يبقى في غيبوبة ومش حاسس بوجودي.

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول في صوت مختنق:

- أنا محتاجة ماما قوي يا داليا، يا ريتها كانت موجودة إمبارح، أنا حاسة إني لوحدي.

فربتت داليا على كتفها وهي تقول في حنان:

- خلاص بقى يا يارا كفاية، ده أمر ربنا، وبعدين إيه لوحدك دي؟ هو أنا مش مكفياكي؟

فمسحت يارا دموعها وقالت مبتسمة:

- إزاي بقى؟ ده لولاكي كان زماني اتجننت.

فقالت داليا ضاحكة:

- لا ماتقوليش كده، إنتي مجنونة لوحدك أساسا.

أطلقت يارا ضحكة قبل أن تقول مستسلمة:

- خلاص بقى، كلها كانت مغامرة وخلصت.

فأخذت داليا نفسا من السيجارة قبل أن تقول مفكرة:

- عاوزة رأيي؟ مايتهيأليش إن المغامرة خلصت خلاص.

فعقدت يارا حاجبيها مستنكرة وهي تتساءل:

- يعني إيه لسه ماخلصتش؟!

- يعني مش معقول بعد كل البعد ده، ربنا يخلق المشكلة دي كلها ويدخلك فيها وتخرجي منها عادي كده.

فتساءلت يارا متوجسة وقد نفد صبرها:

- أيوه يعني إيه اللي ممكن يحصل؟

- ماعرفش، بس بيتهيألي إن الحكاية لسه بتبدأ، مش خلصت زي ما إنتي فاكرة.

فأسندت يارا رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها وكلام داليا يتخبط في عقلها كعاصفة. هل يمكن ذلك؟ تلك الدنيا الغريبة التي زلزلت كيانها عندما أطلت عليها فقط من بعيد. هل يمكن أن تجد نفسها فجأة غارقة في غمارها؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ وهل سيحدث بالفعل كما تقول داليا في ثقة؟

ثم تذكرت تلك الفتاة التي قابلتها في العزاء، تذكرت كلامها الذي صدمها وأصابها بالحيرة. "ربما كانت بتتكلم عنك ساعات"، "كان نفسها تشوفك وتتعرف عليكي".

تذكرت منصور بك، هل يمكن أن يكون هذا الوجه الأبيض الشاحب الغارق في الغيبوبة يخفي خلفه شيئا آخر غير مشاعر الكره والنفور التي طالما أحست أنه يشعر بها نحوها هي ووالدتها.

استعادت كل المشاعر التي اجتاحتها البارحة بعدما رأته في المستشفى، ثم ابتسمت فجأة، ابتسمت عندما تذكرت ما حدث لها بعد ذلك، ابتسمت متعجبة من هذا الشخص الغريب الذي استطاع أن يلسها ويضحكها بينما هي تتمزق من الداخل، أنساها همومها وأضحكها وأوصلها إلى المنزل وأحضر لها سيارتها في اليوم التالي كما وعدها، من يكون "يحيى" هذا؟ كيف استطاع أن يفعل كل ذلك؟ كيف؟

فتحت عينيها على صوت داليا وهي تسألها متعجبة:

- إنتي بتضحكي على إيه؟

أدركت أن ابتسامتها قد اتسعت بطريقة ملفتة، فأخفت ارتباكا لم تعلم له سببا وقالت وهي تتشاغل بفتح جهاز الكمبيوتر:

- ولا حاجة.

(١٤)

عندما دخل مكتبه بالخارجية مبكرا عجب كل العاملين معه، كانوا يتوقعون أنه سيأخذ هذا اليوم أجازة ليرتاح من عناء اليوم الماضي، لكنه أتى، مبكرا، بل ودخل مبتسما ابتسامة يملؤها ارتياح غريب لا يناسب إرهاق الأيام الماضية. ولكن سرعان ما انشغلوا بأعمالهم وأحاديثهم ونسوا يحيى الذي جلس خلف مكتبه وعاد بالمقعد إلى الخلف حتى أحس بالراحة تملأ أوصاله كما هي تملأ عقله وقلبه الآن. لم ينم الليلة الماضية، منذ متى لم يشعر بسعادة كتلك؟ لا يذكر، لا يستطيع أن يتذكر شيئا سوى ليلة البارحة، يتذكر الحديث بكل تفاصيله، يتذكره فتزداد تلك السعادة العجيبة واللذيذة التي يشعر بها. حاول عقله أن يتساءل ويستفسر عن هذا الذي يحدث له، أن يؤنبه على تلك المشاعر الصبيانية التي لا تليق برجل قارب على الثلاثين، لكنه صده بقوة، رفض أن يستسلم لتلك الأفكار، رفض كل شيء إلا تلك السعادة التي يشعر بها الآن، حتى إحساسه بأنها لا توليه نفس الاهتمام الذي يوليه إياها، ربته من كريم هذا الذي قابلته في المطار، كل شيء يمكن أن يعكر صفو تلك السعادة رفضها. تلك السعادة التي يشعر بها والتي غمرته لدرجة جعلته لم يستطع أن ينام الليلة الماضية وأن يهب صباحا في نشاط وقد ملأته طاقة غريبة، ليست فقط للعمل أو الخروج من المنزل، بل أشمل وأكبر من ذلك، طاقة للحياة كلها بكل ما فيها.

أفاق على صوت جرس الهاتف فعاد بالمقعد إلى الأمام وأجاب، ازدادت سعادته عندما سمع صوت أخته يسرا وهي تهتف في صوتها الأنثوي الناضج الذي لا يخلو من حنان على الرغم من قوته:

- صباح الخير يا يويو.

فكتم ضحكته وهو يقول مداعبا:

- صباح الفل، إنتي مش هتبطلي يويو دي بقى؟

فنهرته في مودة قائلة:

- إيه يا سي يحيى؟ فاكر نفسك كبرت عليا ولا إيه؟

- لا وأنا أقدر؟ ده إلا إنت يا جميل.

- أيوه كده اتعدل، عامل إيه؟

- كويس الحمد لله، وانتي، إيه أخبار دبي عندك؟

- أهو كويسة الحمد لله. شغالة.

- وجوزك وولادك عاملين إيه؟

فقالت في عصبيتها اللينة التي أحبها منذ صغره:

- كويسين قوي ومطلعين عيني والحمد لله.

فأطلق ضحكة صافية من قلبه قبل أن يقول في نبرة مليئة بشوق صادق:

- والله العظيم واحشاني يا يسرا، وحشتني خفة دمك وعفرتتك، وولادك كمان وحشوني قوي.

فصمتت يسرا قليلا قبل أن تقول في نبرة متوجسة:

- واد يا يحيى، إنت مالك يا واد إنت؟

شعر باضطراب خفيف لكنه سرعان ما سيطر عليه وهو يتساءل في قلق وحيرة:

- مالي؟

- مش عارفة، صوتك مبسوط ومودك حلو، شكله كده فيه حاجة.

حاول أن يجعل نبرته طبيعية وهو يقول نافيا بشدة:

- مافيش حاجة، أنا مبسوط عشان سمعت صوتك.

فقالت في نبرة ساخرة:

- يا سلام! واد يا يحيى إنت هتعملهم عليا ولا إيه؟ ده أنا اللي مربياك يا واد إنت وعارفاك أكتر من نفسك.

فضحك ضحكة يداري بها اضطرابه قبل أن يقول:

- إنتي مش مصدقاني ليه بس؟ والله أنا مبسوط عشان سمعت صوتك.

فصمتت لحظة قبل أن تقول في غيظ:

- ماشي يا يحيى، هاعديها لك المرة دي، بس كلها شهرين وأنزل في الأجازة وأقررك، أما نشوف إيه آخرتها معاك يا سي بوبو.

فضحك وقال والارتياح يملؤه لأنها ستكف عن إلحاحها:

- انزلي إنتي بس وابقي اعملي اللي إنتي عاوزاه.

- ماشي، يلا سلام بقى عشان عاوزة ألحق أكلم ماما.

- سلام يا حبيبتي.

أغلق السماعة وشرد والابتسامة تتسع على شفتيه. أحقا تبدو سعادته جلية وواضحة؟ حتى تبرا صوته وطريقة حديثه تعكسان ما يملأ صدره من ارتياح وسعادة.

إنه يثق في شعور يسرا. إنها تعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه. عندما ولد كانت هي في الثانية عشرة من عمرها. تولت تربيته مع أمها. كانت تؤكله وتلعب معه وتهذبه وتذاكر له فنشأ يحبها حبا فاق حب الأخ لأخته. يحبها كأم. لن ينسى عندما تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الإمارات. كان هو في الحادية عشرة. طفلا أحس أن أمه خطفت منه. بكى حتى انفطر قلبه ولم يخفف عنه سوى وجود يمنى بجانبه. يمنى الأخت الصديقة التي تكبره بست سنوات فقط. ظلت بجانبه تعوضه عن غياب يسرا. وعندما تزوجت وسافرت مع زوجها إلى البحر الأحمر كان قد بلغ التاسعة عشر وأصبح رجلا قادرا على تحمل الفراق الذي كان قد اعتاده بسبب دراسته في لندن. بل وأيضا أصبح مسؤولا عن والدته خاصة عندما توفي والده بعدها بخمس سنوات وأصبح يحيا معها وحدهما في شقتهم بمصر الجديدة عندما لا يكون مسافرا في مهماته الدبلوماسية.

إذا فعندما تقول يسرا إنه سعيد فهو حتما سعيد. وعندما تقول إن به شيئا مختلفا أكبر وأعمق حتى من السعادة فبالتأكيد أنه يوجد به هذا الشيء حتى لو لم يكن هو منتبها له.

شعر بتيار قوي من الحيرة يعصف به. لقد انتزعته يسرا من السعادة السلبية التي كان مستمتعا بها. وواجهته بما حاول أن يخفيه عن نفسه ويتجاهله.

ما هذا الذي يحدث لك يا يحيى؟ كم مرة رأيتها؟ ثلاث مرات. ما هو المختلف فيها حتى تنجذب إليها بتلك الطريقة؟ ماذا يوجد في حديثها يجعلك تشعر بكل تلك السعادة عندما تتذكرها؟

و ازدادت أفكاره قتامة عندما اقتحمها كريم هذا الذي يبدو أنه كان خطيبها لفترة ما في الماضي. يبدو أن ظهوره في المطار كان صدفة. هل تحيي تلك الصدفة ما كان بينهما؟

عاد إلى الخلف وزفر في ضيق. إلى أين ستصل هذه الحيرة وتلك المشاعر؟ إلى أين يا يحيى؟

انتفض وثار على تلك الأفكار السوداء. كره أي شيء يمكن أن يقضي على تلك السعادة التي تملؤه. نعم هو سعيد وسيظل سعيدا. بغض النظر عن مسمى تلك السعادة أو سببها. فليحدث ما

لمزيد من الكتب العصرية

يحدث، فلتستمر أو تكف تلك السعادة. لا يهم. كل ما يهمه هو أنه سعيد وأنه أحس في نبرتها وتباسطها معه في الحديث أنها شعرت بارتياح نحوه. هذا هو كل ما يهم.

عادت الابتسامة تتسع على وجهه وقد ترك تيار السعادة يجرفه مرة أخرى بلا حساب. مد يده وفتح اللاب توب، فتح اليوتيوب، سيسمع أغاني "Frank Sinatra" كما اعتاد أن يفعل عندما يكون سعيدا.

## (١٥)

الرهبة تنتشر في المكان، تملأ القلوب والعيون. الكل يتحاشى إحداث صوت. يتهامسون في قلق شديد وتوجس. في داخل تلك الغرفة يتقرر مصيرهم ضمنيا مع تقرير مصير مؤسسة أبو بلاط. وكلما طال انعقاد مجلس الإدارة كلما ازدادوا قلقا وفضولا لمعرفة ما سيصلون إليه من قرارات. ولكن كل ذلك من بعيد، دون محاولة حتى الاقتراب من غرفة الاستقبال الكبيرة التي جلست فيها ليديا تنعم بهدوء لم تعتده منذ سنوات.

وعلى الرغم من أنها كانت أقرب الموظفين إلى تلك الغرفة التي يدور بها كل شيء، لكنها كانت أقل الناس قلقا وتفكيرا فيما يحدث. دفنت رأسها في الملفات، متظاهرة بالانشغال في العمل بينما كل عقلها يدور فيما يبعد كثيرا عن العمل. تفكر في المأساة التي تمتلئ بها حياتها منذ أن عملت في هذا المكان.

إلى متى ستظل تفكر فيه ويخفق قلبها له بينما هو لا يشعر بها؟ بين كل فترة وأخرى يلقي لها ببضع كلمات جميلة تضطرب لسماعها وتجدد بداخلها أملا كاذبا لا يلبث أن يضيع مرة أخرى وسط تجاهله وعدم إحساسه بها. كلما خفق قلبها له أحست أن الدنيا لا تساوي شيئا بدونه، وعندما تفيق تسخط على الحياة ويزداد كرهها لنفسها.

منذ سنوات وهي تدور في تلك الدوامة التي لا مفر منها سوى أن يشعر بها ويبادلها حبها، أو تنساه هي وتقبل أيا ممن يتقدمون لها وترفضهم.

انتفضت عندما فكرت في هذا الحل. لا تستطيع أن تتخيل أنها يمكن أن تنساه يوما، وتفضل الموت على أن تكون لشخص آخر سوى رأفت.

ثم انتقل تفكيرها إلى الحل الأول. لماذا لا يشعر بها ويحبها؟ هل ينقصها شيء؟ ما هو هذا الشيء الذي لا يعجبه فيها؟ عندما يكون رقيقا معها تشعر أنه لا يرى في الحياة سواها. لماذا إذا لا يدوم هذا الحال وسرعان ما يعود إلى تجاهله القاتل؟! هل؟ هل يحب أخرى غيرها؟

أحست بقلبها يتقلص بداخلها. هل يمكن أن يكون هذا صحيحا؟ أتحب أخرى يا رأفت؟ من هي وما شكلها؟ نفضت عنها هذه الفكرة البغيضة. لا يوجد ما يؤكد أو حتى يجعلها تشك في أنه يحب

أخرى، إنها تراه طوال الوقت في العمل والكنيسة. لا يهتم بأي فتاة ولا تشعر بأنه يميل إلى أي واحدة منهن.

لا لا! لا مجال لتلك الفكرة. هكذا قالت لنفسها وإن ظل شعاع صغير من الشك يوخزها.

وجدت نفسها تعود إلى نفس النقطة. إن لم يكن هناك أخرى، فماذا إذن يمنعه عنها؟ متى تنتهي تلك الدوامة يارب؟ متى؟

أفاقت على صوته. انتفضت عندما رفعت رأسها ووجدته أمامها كأنه مثلا علم ما كانت تفكر فيه. لكن سرعان ما تمالكت نفسها وتساءلت في دهشة حاولت أن تخفي بها الفزع الذي شعرت به:

- إنت إيه اللي جابك؟ هو مش مستر شفيق قال لك ماتسيبش المستشفى أبدا؟

جلس أمامها وهو يقول:

- هو اللي كلمني بنفسه وقال لي أسيب المستشفى وآجي.

رفعت حاجبيها في استنكار وهي تقول:

- هو اللي قال لك تيجي؟! إزاي يعني يسيب منصور بيه لوحده في المستشفى؟

مط شفتيه قبل أن يقول:

- ماعرفش حاجة. أنا لقيته بيكلمني وبيقول لي يا رأفت تعالى دلوقتي حالا المكتب.

فقالت في قلة اكتراث:

- غريبة.

ثم أعادت نظرها إلى الملفات في وجه متجهم وهي تتحاشى النظر إليه أو الحديث معه. عندما ظهر أمامها وهي مشحونة بكل تلك الأفكار والمشاعر السلبية أحست بنفور نحوه انعكس على وجهها ونبرتها.

دق برفق على المكتب ليجذب انتباهها. رفعت رأسها وعندما نظرت في عينيه أدركت أنه سيتقمص الآن تلك الحالة التي يكون فيها رقيقا معها. سيبرز اهتماما بها وسيقول لها تلك الكلمات اللعينة التي تستحوذ على قلبها وتملؤه بتلك السعادة، التي سرعان ما تنقلب بعد ذلك إلى سخط وكراهية لنفسها وللعالم كله.

قالَ في رقة مسبلا عينيه:

- مالك؟ شكلك مش عاجبني.

خفضت عينيها نحو الملفات مرة أخرى وقالت وهي تستميت لتسيطر على مشاعرها وأعصابها:

- مافيش. شوية إرهاق من الشغل.

فقال وقد ازداد صوته رقة:

- طب ابقي خدي بالك من نفسك. عشان مافيش حاجة في الدنيا كلها تستاهل إن وشك مايبقاش مستريح وجميل.

نظرت نحوه نظرة خاطفة قبل أن تحني عينيها وترفع رأسها وتخفضها في صمت وهي تدعو الله بكل قلبها أن يحدث شيء يمنع تماديه فيما يفعله. ويبدو أن الله قد استجاب لها. ففي تلك اللحظة فتح الباب الخشبي وتتابع خروج أعضاء مجلس الإدارة في بذلهم الأنيقة وعلى وجوههم إرهاق شديد من أثر الاجتماع الطويل.

نهض رأفت وليديا احتراما لهم وعندما خرج هاشم أسرع رأفت يهتف قائلا:

- صباح الخير يا مستر هاشم.

فنظر نحوه هاشم في عينين نصف مغمضتين وقال ساخرا:

- صباح الخير إيه بقى؟ قول مساء الخير.

- آسف. إيه أخبار مجلس الإدارة؟

فرفع هاشم كتفيه وقال مقتضبا في تعب:

- كلام كلام كلام.

- طب مستر شفيق أخباره إيه؟

فابتسم هاشم لأنه أدرك أن رأفت يسأل ليعلم هل سينفعل عليه شفيق أم لا فقال وهو يستدير ليخرج من الغرفة:

- ماتقلقش مش متعصب. ده هو اللي عصبنا.

نظر رأفت وليديا إلى بعضهما البعض في حيرة من هذه الإجابة. لكنهما سرعان ما أفاقا عندما سمعا صوت شفيق من خلال جهاز النداء:

- ليديا.

- أيوه يا مستر شفيق.

- رأفت جه ولا لسه؟

- جه يا فندم.

- طب خليه يدخل.

- حاضر.

نظرت ليديا نحو رأفت الذي أغلق أزرار سترته وأخذ نفسا عميقا قبل أن يفتح الباب ويدخل الغرفة.

كان شفيق لا يزال جالسا على رأس مائدة الاجتماعات يقرأ في بعض الأوراق بوجه هادئ ورائق على عكس ما توقع رأفت، مما جعله يطمئن وهو يجلس بجانبه وهو يقول:

- مساء الخير يا ريس.

فنظر نحوه شفيق من خلف النظارة وهو يقول:

- مساء النور يا سي رأفت.

- خير يا ريس طلبتني ليه؟ أنا استغربت لما قلت لي أسيب المستشفى.

- ومش هترجع هناك تاني خلاص.

فرفع رأفت حاجبيه في دهشة وهو يقول:

- ومنصور بيه هتسيبه لوحده في المستشفى؟!

فحرك رأسه نافيا وهو يقول:

- لا طبعا، فيه واحد تاني من رجالتي هياخد مكانك في المستشفى عشان أنا محتاجك في الشغل اليومين دول.

فعقد رأفت حاجبيه وهو يتساءل:

- ليه يا مستر شفيق؟ إيه اللي حصل في مجلس الإدارة؟

فقال شفيق دون أن يرفع عينيه من على الأوراق:

- كام قرار كده مالهمش لازمة وجمعية عمومية غير عادية.

فاتسعت حدقتا رأفت وهو يردد مندهشا:

- جمعية عمومية؟

فقال شفيق وقد بدأ الضيق يكسو وجهه:

- أيوه يا رأفت. المهم دلوقتي تقوم تروح تنام وتريح بعد الأيام اللي فاتت دي وبكرة الصبح من النجمة تبقى عندي هنا في الشركة. مفهوم؟

- حاضر يا ريس. اللي تؤمر بيه، سلام.

نهض رأفت واتجه نحو الباب فاستوقفه شفيق قائلا:

- رأفت خد ليديا وصلها في سكتك. الوقت اتأخر وأتوبيس الشركة فاتها.

وقف رأفت مصدوما لحظة ليستوعب الكلام ثم قال مغلوبا على أمره دون أن يلتفت خلفه:

- حاضر يا ريس.

شعر بحنق شديد نحو شفيق الذي ورطه فيما أراد تجنبه اليوم. كلما أحس أنه سينقلب إلى هذا الشخص الرقيق الحنون معها يستميت ليمنع نفسه من فعل ذلك ولسوء حظه يجد ما يدفعه ليستمر.

إنه يستطيع أن يتجاهلها ويكون قاسيا على مشاعرها كما يفعل معظم الوقت. لكنه لا يعلم لماذا تأتي عليه لحظات ضعف يجد نفسه فيها قد انقلب إلى إنسان رقيق، يهمس لها بكلمات جميلة يعلم أنها تمس قلبها برقة وتزلزلها بعنف عندما يكف عن قولها بعد ذلك.

ها هي جالسة خلف مكتبها تداري ما بداخلها بجفاء لا يليق بها ولا مبالاة مصطنعة لا تستطيع إتقانها من تلسم ببراءتها. مما يدل على أن كرامتها مجروحة وقلبها ينزف بسببه.

فليؤجل التفكير حتى يخلو إلى نفسه ولينتبه الآن إلى تلك المهمة السخيفة. فليحاول السيطرة على ما يقوله ويفعله حتى لا يصيبها إلا أقل ضرر منه.

- يلا عشان هاوصلك.

رفعت عينيها في برود ثم أرختهما وهي تقول في جفاء:

- متشكرة. أنا هاروح لوحدي عشان لسه عندي شغل.

فقال ليحسم الموقف:

لمزيد من الكتب العصرية

- مافيش حاجة اسمها لوحدك. مستر شفيق قال لي أروحك في سكتي، يلا بدل ما أخليه هو اللي يقول لك بنفسه.

وكما حنق هو على شفيق حنقت هي عليه وعلى رأفت وعلى نفسها، شعرت بهم ثقيل يطبق على صدرها ولن يتزاح حتى تصل إلى منزلها والله وحده يعلم مدى الأذى الذي سيتلقاه قلبها حتى تلك اللحظة.

في هدوء ودون أن تنظر نحوه لملمت حاجياتها في حقيبتها و وضعتها على كتفها، نهضت ومرت من أمامه دون أن تعيره أي التفاتة. تصارع حتى تحافظ على ثباتها وتجاهلها قدر المستطاع.

سار خلفها مضطربا، إنه يعلم نفسه، حتما سيؤذيها، ويعلمها جيدا، لن تصمد كثيرا، طالما تمنى أن تصمد أمامه وألا ترق له حتى يتخلص من عذاب ضميره.

(١٦)

عندما انتصفت الخامسة كان قد مضى على عودة يارا إلى المنزل ثلاث ساعات، استبدلت ملابسها وأخرجت كل ما ابتاعته من السوق ونظمته في الثلاجة، ما عدا كيس شاورمة طهته وصنعت منه سندوتشات أكلتها وأعدت كوب شاي استعدادا لعصرية هادئة تريح بها أعصابها وتتجاوز كل ما حدث لها في الأيام الماضية.

توقفت أمام باب الشقة عندما سمعت صوت الجرس، وضعت الكوب على المائدة وفتحت الباب، اندهشت قليلا عندما وجدت أمامها رجلا يرتدي زيا رسميا عليه شعار شركة بريد خاصة وفي يده صندوق ودفتر عليهما نفس الشعار.

- أي خدمة؟

فقال الرجل مبتسما:

- آنسة يارا منصور عبد السلام أبو بلاط؟

- أيوه أنا.

- طرد لحضرتك.

نظرت نحوه في دهشة شديدة، بالتأكيد هناك خطأ، عادة لا يصل لها سوى خطابات البنك أو فواتير المحمول، حتى الخطابات العادية لا تصل لها، فكيف إذا يبعث لها أحد بطرد؟! ولكن كيف يمكن أن يكون هناك خطأ وقد ذكر اسمها كاملا وصحيحا.

تساءلت والدهشة تملأ وجهها:

- طرد؟ ليا أنا؟

- أيوه يا فندم، الشركة بتبلغ حضرتك أسفها عشان الطرد اتأخر، هو كان مبعوت مستعجل بس للأسف حصل مشاكل في مواعيد الطيران فاتأخر شوية.

كلما يتحدث هذا الرجل تزداد دهشتها، طيران! إذا فالطرد قادم من خارج مصر، نعم لها أصدقاء كثيرون مقيمون بالخارج لكنها لم تطلب من أي أحد منهم أي شيء ولم تتحدث معهم منذ فترة.

أفاقت على صوت الرجل وهو يبسط أمامها إحدى صفحات الدفتر قائلا:

- ممكن حضرتك تمضي لي هنا على إيصال الاستلام؟

- اه طبعا.

وقفت حيث أشار لها واستلمت الطرد، أغلقت الباب وقبل أن تنظر إلى ما بين يديها رن جرس هاتفها المحمول، وضعت الطرد على مائدة الصالون وأخرجت الهاتف من جيبها، زفرت عندما نظرت إلى الشاشة ووجدت اسم "كريم". ها قد بدأ وربما يصل الحال إلى ما حذرتها منه داليا وهو ما لا تريده.

- الو يا كريم.

- يارا، ازيك؟

- الحمد لله، إنت كويس؟

- اه تمام، قولي لي إنتي في البيت؟

ارتابت لحظة قبل أن تقول:

- أيوه.

- طب كويس، قدامك ساعة تلبسي وتجهزي عشان هاعدي عليكي الساعة ستة ونص بالضبط.

فعقدت حاجبيها مستنكرة وهي تتساءل:

- ليه هنروح فين؟

- صحابي يا ستي أول ما عرفوا إني رجعت من بلجيكا قرروا يعملوا لي قعدة كده في Blue Nile وأنا مش هاروح إلا وإنتي معايا.

- إنت بتهزر يا كريم؟ بتقول لي قبلها بساعة؟

فقال ضاحكا:

- والله العظيم أنا لسه عارف من نص ساعة بس.

فتململت في ضيق. إنها تتذكر أصدقاء كريم من أيام الجامعة. ليسوا سيئين لكنها لا تحبهم ولا ترتاح معهم.

- يا كريم، أنا صحابك دول، مش متعودة عليهم خالص.

فقال في حماس:

- حرام عليكي دول طيبين قوي وهتاخدي عليهم بسرعة وبعدين...

لم تستمع إلى ما تبقى من كلامه عندما لمحت ما كان مكتوبا على الورقة الملصقة على الطرد. أحست أن قلبها سيتوقف من الصدمة التي تلقتها، أصابها دوار جعلها تفقد الشعور بما حولها وتسمرت عيناها على الطرد وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط.

بصعوبة ازدردت ريقها وقالت في صوت مبحوح:

- كريم لو سمحت اقفل دلوقتي.

فقال في نبرة متوجسة:

- فيه حاجة يا يارا؟

- ماعلش يا كريم مش هاقدر أتكلم دلوقتي. لازم أقفل.

- طب قلتي إيه؟ جاية ولا لأ.

فقالت في عصبية:

- مش عارفة يا كريم، كلمني بعد نص ساعة وهابقى أقول لك.

أنهت المكالمة دون أن تستمع إلى رده، أحست أن جسدها يرتعش رعشة خفيفة فجلست في هدوء ومدت يدها المرتعشة في بطء وفتحت الورقة على آخرها، فظهرت البيانات أمام عينيها واضحة بما لا يدع مجالا للشك.

مكان الإرسال: عنوان أحد فروع الشركة في لندن.

اسم المرسل: ربما منصور عبد السلام أبو بلاط.

اسم المرسل إليه: يارا منصور عبد السلام أبو بلاط.

أحست أن عقلها توقف عن العمل، ثلاث دقائق وهي تحملق في الورقة مشدوهة غير قادرة على استيعاب ما يحدث حولها، الكلمات تتراقص أمام عينيها والأحداث تتوالى وتتداخل بسرعة لا قبل لها بفهمها أو إدراكها.

بصعوبة أخرجت نفسها من حالة التبلد التي أصابتها، أفاقت ومدت يدها ببطء وفتحت غطاء الطرد الكرتوني.

وجدت أمامها غطاء آخر، لونه أسود. فأدركت أنه يوجد بالداخل صندوق آخر غير واضح لأن حجمه أقل من حجم صندوق الطرد بقدر قليل مما جعل حوافه تلتصق بجدران الصندوق الكرتوني.

بصعوبة شديدة مدت أصابعها واستخلصت الصندوق الآخر ووضعته أمامها مباشرة: صندوق أسود من الكرتون المقوى، به لمعان خفيف مما يدل على أنه من الصناديق التي عادة ما توضع بها الهدايا.

عقدت أصابعها مستندة بكوعها على فخذها وضغطتهما ضغطة خفيفة لتتخلص من التوتر الذي شعرت به قبل أن تمد يدها في تردد وترفع غطاء الصندوق.

بالداخل كان يوجد أشياء غريبة ومتناقضة، أول ما لفت نظرها كان ipad حديثا جدا، تأملته بحيرة وهو بين أصابعها، ضغطت على الزر الذي يضيء الشاشة فوجدت أمامها في الخلفية صورة، يبدو أنها كانت في حفل أو عيد ميلاد، زينات وأضواء وفي وسطها وقف ثلاثة أشخاص ينظرون نحو العدسة مبتسمين في سعادة حقيقية. فتاتان وفتى، وقفت إحدى الفتاتين في المنتصف وعلى جانبها الأيمن وقفت الفتاة الأخرى وعلى الأيسر وقف الفتى.

لم تحتج يارا إلى أكثر من دقيقة لتدرك أن من تقف في المنتصف هي ريما، ترتدي ثوبا رماديا جميلا وعلى رأسها تاج لامع، يبدو أنها كانت صاحبة عيد الميلاد، تنظر نحو العدسة بعينين صافيتين مثل عيني يارا، كأنما رسمهما نفس الرسام، وعلى شفتيها ابتسامة جميلة رائقة تشبه ابتسامة يارا. عجبا! هل حقا كانت تشبهها إلى هذه الدرجة؟

انتقلت ببصرها نحو الفتى والفتاة، لا تعرفهما، يبدو أن الفتاة صديقة ريما ومن نفس عمرها، بيضاء ذات شعر بني فاتح وملامح مختلفة: عينان عربيتان واسعتان وأنف وفم صغيران بهما مسحة غربية. أما الفتى فيشبه الفتاة بدرجة لا بأس بها، يمكن أن يكون أخاها، نفس الفم وشكل العينين ولونهما والشعر الذي تركه غير حليق تماما ومموجا Curly كما يقولون عنه. يبدو عليه أنه أكبر في العمر، ربما كان في نفس سن يارا أو يصغرها بعام أو عامين، يملأ عينيه وابتسامته مرح لا يخلو من رزانة وثقة بالنفس.

جذبت السهم الموجود على الشاشة لتفتحها لكن ظهرت أمامها لوحة أرقام مما يدل على أنه لتفتح الـipad يجب أن تقوم بإدخال رقم سري هي لا تعرفه.

مطت شفتيها مستنكرة وتولد إحساس الفضول بداخلها لمعرفة محتوى هذا الجهاز الممنوع عنها لكنها سرعان ما تجاوزت هذا الإحساس لتتفرغ لباقي ما في الصندوق. وضعت الـipad جانبا وأخرجت ثاني شيء من الصندوق. لم يكن سوى بطاقة معايدة مما يرسلونها في أعياد الميلاد. على غلافها رسوم ملونة وبداخلها لا يوجد سوى جملة واحدة ""Happy Birthday Monica مكتوب بخط جميل على كل مساحة البطاقة.

وضعت يارا البطاقة جانبا وقد بدأ يساورها إحساس باليأس من أن تفهم أي تفسير لما يحدث الآن مدت بصرها في الداخل فوقع على مفكرة جلدية لونها كحلي. فتحت أول صفحة فوجدت بها ثلاث سطور:

"الباب الأزرق"

CH93 0076 2011 6238 5295 7

٣٠٥.

خطر في بالها أنه يمكن أن يكون الرقم الثالث هو الرقم السري لل ipad. بيد أرعشتها السرعة ضغطت الزر وجذبت السهم ثم وضعت الأرقام ولكن خاب أملها عندما وجدت أنه ليس الرقم الصحيح. جربت أن تكتبه بالعكس ولكن لم تجد إلا النتيجة نفسها. وازداد ضيقها عندما فتشت باقي صفحات المفكرة فلم تجد شيئا.

ألقت المفكرة بجانب بطاقة المعايدة وهي تزفر وقد بلغ ضيقها مداه. ثم مدت يدها وأخرجت آخر ما كان في الصندوق. حقيبة صغيرة من القطيفة السوداء مما يوضع فيها الحلي الفضية والذهبية عند شرائها. فتحتها وأخرجت ما كان بداخلها فلمعت بين أصابعها سلسلة ذهبية. نشرتها أمام عينيها في الهواء. كانت غاية في البساطة والرقة. وفي آخرها تدلت قلادة على شكل ثمرة بيضاوية متوسطة الحجم والأبعاد من الذهب الأصفر مطعمة من كل النواحي بفصوص بنية صغيرة لامعة. ضغطت على زر الـipad ونظرت إلى الشاشة مرة أخرى فتأكدت من أن ما لاحظته كان صحيحا: ربما ترتدي هذه السلسلة في الصورة.

وضعت كل شيء أمام عينيها وأخذت تحملق فيهم بدهشة وبلاهة وضيق، دهشة من أن تكون تلك الأخت المجهولة قد بعثت إليها بطرد فيه تلك الأشياء الغريبة المتناقضة التي لا يوجد بينها رابط والتي يبدو أيضا أنها كانت أشياءها الخاصة جدا، وبلاهة ناتجة عن عدم قدرتها على استيعاب ما يحدث وكأن كل ما يحدث ليس إلا حلما لن تلبث أن تفيق منه، وضيق من إحساسها بأن ذكاءها يقف عاجزا أمام هذا اللغز الغامض، غير قادر على تفسير الأحداث أو حتى إعطاء معنى أو إيجاد رابط بين كل تلك الأشياء التي أرسلتها ربما التي رحلت آخذة معها سرها إلى القبر.

أغمضت عينيها وأمسكت برأسها التي آخذت تدور وتتشتت في مائة اتجاه، إن ظلت هكذا طوال الليل فيمكن أن تصاب بالجنون خاصة وأنها وحدها ولا يوجد من يشاركها هذا الغموض.

فتحت عينيها على صوت جرس هاتفها، لم يستطع كريم أن ينتظر نصف ساعة، هتف في دهشة قائلا:

- إيه يا يارا مالك؟ هو إيه اللي حصل؟

تجاهلت أسئلته وقالت مقتضبة في برود:

- كريم أنا هاجي معاك، إنت هتعدي عليا إمتى؟

فقال وقد عادت السعادة تملأ صوته:

- ساعة بالظبط وهابقى عندك.

- ماشي، وأنا هاكون جاهزة.

أنهت المكالمة وهي تشعر بصواب ما ستفعله، لتخرج فتهدئ أعصابها وترتاح وتصبح قادرة على استيعاب الموقف وإعادة التفكير، بدلا من أن تظل تتحدث مع نفسها طوال الليل حتى يختل عقلها.

تركت كل شيء مكانه على مائدة الصالون، أحست أنها بذلت في ربع الساعة الماضي مجهودا ذهنيا قاتلا جعلها حتى غير قادرة على ترتيب الأشياء أو إعادتها إلى الصندوق.

كل ما استطاعت أن تفعله قبل أن تدخل لترتدي ملابسها هو أن تأخذ كوب الشاي البارد وتسكبه في حوض المطبخ.

لمزيد من الكتب العصرية

## (١٧)

لم يكن ظلام شوارع القاهرة أثقل من الصمت الذي امتلأت به السيارة الشاهين الخضراء التي أخذت تشق طريقها في الزحام حاملة بداخلها رأفت خلف عجلة القيادة وليديا بجانبه.

خلف أقنعة الجمود والتجهم التي وضعها كلاهما كان يوجد عاصفتان من المشاعر المتناقضة. منذ أن انطلقت السيارة وليديا تتظاهر بانشغالها بمتابعة الشوارع والسيارات من النافذة، وتخفي خلف ملامحها الباردة المتجهمة الصراع الذي نشب بداخلها بين إحساس السخط الذي تشعر به نحوه بسبب إهماله لها ولمشاعرها وجهله أو تجاهله لكل ما تفعله من أجله، والسعادة التي ملأت قلبها لمجرد إحساسها بأنها تجلس بجانبه في سيارته. لطالما تمنت أن تجلس في هذا المقعد وخاتم الزواج في يمناها أو يسراها منطلقين معا دون أي عائق لحبهما.

و خلف قناع الانشغال بالقيادة ومتابعة الطريق، كان رأفت يختلس نحوها نظرات خفية سريعة تدفعه لها معركة حامية بين رغبته في التظاهر بتجاهلها وعدم فهم مشاعرها كما يفعل دائما، وتلك الحالة التي تنتابه بين كل فترة وأخرى، تلك الحالة التي تجعله فجأة رقيقا وحنونا معها، يلقي بالكلمات الجميلة وهو يعلم جيدا أنها تمس قلبها في صميمه فيعطيها أملا كاذبا هو أكثر الناس دراية بأنه لن يحققه لها في يوم من الأيام. كلما شعر بتلك الحالة تقترب منه حاول مقاومتها بكل ما أوتي من قوة حتى لا يتمادى في جرحها وتعذيبها، ولكنه دائما ما يفشل وتنهار مقاومته ويصبح إنسانا أنانيا ضعيفا أمام رغبته في التمادي في تلك الحالة التي تشعره بلذة سادية سرعان ما يندم عليها.

قال ونفس النبرة الحنون تملأ صوته:

- ليديا.

قالت دون أن تحيل عينيها عن النافذة:

- نعم؟

- إنتي متأكدة إنك مرهقة بس من الشغل؟

التفتت نحوه وتساءلت في نفس النبرة الجافة:

- قصدك إيه؟

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- يعني، حاسس إنك متضايقة من حاجة.

فعادت تنظر من النافذة وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

- لا ماتقلقش أنا مش متضايقة ولا حاجة.

فمط شفتيه وهو ينظر نحو الطريق قبل أن يقول:

- أصلي حسيت إنك ممكن تكوني متضايقة مني.

فرمقته بنظرة مندهشة غير مصدقة وتساءلت ساخرة:

- وهاتضايق منك ليه؟ هو إنت عملت حاجة تضايق؟!

- ما هو أنا باسأل عشان مش عارف، ده مجرد إحساس.

فعادت تنظر نحو الطريق وهي تقول في لهجة لا تخلو من معنى خفي يفضح ما بداخلها:

- لا ماتقلقش، أنا مش مضايقة منك، إحساسك غلط.

أدرك أن تلك الطريقة لن تجدي معها، لاح لخاطره أنه ربما تكون تلك هي فرصته ليتراجع ويتوقف عن تلك الخطيئة التي يرتكبها، لكن إحساسه بالزهو من أنه إذا واصل إلحاحه قليلا سوف تنهار مقاومتها وتذوب أمامه كما يحدث دائما جعله يحذو طريقا آخر للوصول إلى غايته.

- طنط سميرة عاملة إيه؟

- كويسة.

- مش هتسأليني عن ماما أنا كمان؟

زفرت وقلبت شفتيها قبل أن تقول في ضيق:

- يا رأفت أنا باشوف طنط أنجيل على الأقل مرة كل أسبوع في قداس الأحد أو الجمعة.

فقال متذكرا:

- آه صحيح ده أنا نسيت.

صمتت قليلا لتستجمع شجاعتها وقالت ساخرة وإن امتزجت تلك السخرية ببعض من المرارة:

- نسيت إني باشوفها ولا نسيت القداس أصلا؟

أحس بالحرج، إنها تذكره بتقصيره في أداء واجباته الدينية، يجب أن يهرب من هذا الموقف الصعب الذي وضعته فيه حتى يستطيع استكمال ما بدأه، فليتحايل على قلبها. قال وقد عادت النبرة الحنون تغزو صوته وهو ينظر نحوها في عينين قد أسبلت جفونهما:

- مش كل الناس ملايكة زيك يا ليديا.

ارتعش جفناها وخفق قلبها، لكنها تماسكت، بكل ما أوتيت من قوة تماسكت، قالت في برود متجاهلة نبرته الحنون:

- القداس ربنا عمله للبني آدمين مش للملايكة.

- أنا ماباتكلمش عن القداس دلوقتي، أنا باتكلم عنك إنتي. إنتي ملاك يا ليديا، ملاك ربنا خلقه عشان يسعد الناس كلها، وشك وش ملاك وقلبك أبيض.

كتمت السرعة التي احتلت أنفاسها، شعرت بقلبها يخفق ثملا بنشوة جعلت رأسها يدور. الحب الذي حاولت تجاهله وإخفاءه خرج كمارد عملاق بداخلها، نسيت كل التأنيب الذي أنبته لنفسها وما اعتزمت أن تفعله معه لتصده وتوقفه، لم يحتل تفكيرها سوى هذا الأمل الذي ملأها وتلك السعادة اللذيذة التي سرت بداخلها كالمخدر.

قالت في صوت رقيق وهي تخفض رأسها لتخفي ما انتاب وجهها وعينيها من خجل:

- ماتبالغش يا رأفت.

- أنا مابابالغش.

ثم أخفض صوته قليلا وهو يستطرد قائلا:

- إنتي أصلك مش حاسة قد إيه إنتي إنسانة جميلة ورقيقة وقريبة من القلب.

ازدردت ريقها وهي تتجنب النظر نحوه حتى لا يزداد حياؤها، بينما ابتسم هو بعدما أدرك أنه وصل إلى هدفه.

توقفت السيارة أمام منزلها بأحد الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع الترعة البولاقية بشبرا، همت بالنزول لكنها توقفت مترددة قليلا قبل أن تنظر نحوه وتقول متوسلة:

- ممكن أطلب منك طلب؟

فابتسم قائلا:

- اومريني؟
- ممكن تيجي قداس الأحد الجاي؟

ثبت عينيه بداخل عينها وهو يقول في رقة:

- لو إنتي رايحة أنا كمان هاروح.

أخذت نفسا لتهدى به خفقان قلبها قبل أن تقول وقد أخفضت عينها:

- أيوه أنا رايحة.
- خلاص، يبقى هتشوفيني هناك.

ابتسمت. هبطت وأغلقت الباب خلفها ودخلت العمارة في خطوات مرتبكة متعثرة وبقلب يخفق ويطير.

تبعها بعينيه حتى اختفت. انطلق بالسيارة، وبعد دقائق كان يهبط منها أمام منزله الذي يقع بعد منزلها بشارعين.

صعد الدرج في خطوات بطيئة متثاقلة وقد ثبت عينيه على النقاط السوداء المنتشرة في بلاط السلم العتيق. هنا والآن يبدأ تأنيب الضمير بقوة وشراسة. لماذا تمادى معها في الرقة وهو يعلم أنه سيعود إلى بروده وقسوته معها؟ لماذا يعطيها أملا وهو يدري أنه سيسلبها إياه بدون رحمة أو شفقة؟ توقف فجأة محملقا في باب شقة الجيران وقد مرق في ذهنه سؤال مباغت: "هل يحب ليديا؟". أخفض رأسه وعاد إلى صعوده البطيء وقد لاحت الإجابة أمام عينيه. لا إنه لا يحبها. إنه فقط يشعر بالزهو لأن هناك من تحبه وتسعى له منقادة بضعفها أمام كلماته وشخصيته. ربما كان يمكن أن يحبها في ظروف أخرى غير تلك التي يعيشها. أما الآن. بعد ما عزم عليه وبدأ في تنفيذه مخفيا إياه عن أقرب الناس إليه. فإنه لن يسمح لأي حب مهما كان طاهرا وقويا أن يعيقه عما يفعله. لا. لن يسمح لليديا أن تقف عائقا أمام طموحه وأمام تلك الحياة التي يريدها وهذا المستقبل الذي رسمه في خياله. فليتوقف عما يفعله معها وليقاوم تلك الحالات التي تنتابه وتجعله رقيقا معها ليشعر نفسه بقدرته وسيطرته وغروره. يعلم أنها ستتعذب وتعاني بسببه. فلتتحمل قليلا. بعد بضعة أشهر سيختفي من حياتها إلى الأبد ومع الوقت ستنساه وتنسى حبه وتبرأ من آلامها وحبها وعذابها.

أدار المفتاح في باب الشقة وقد ملأه الارتياح بعد هذا الحل الذي وصل إليه، وأقنع نفسه بأنه أنسب حل يمكن أن يريح له ضميره دون أن يتوقف عن تنفيذ مخططه.

- ماما. ماما.

لم يسمع ردا، بحث في أنحاء الشقة فلم يجد أحدا، أدرك أن والدته تزور خالته أو إحدى صديقاتها وأنها لم تعد بعد.

دخل غرفته، ضغط على زر الكمبيوتر وتركه ليفتح بينما شرع في خلع ملابسه واستبدالها مسرعا، جلس أمام الشاشة وفتح الإنترنت وقلبه يتراقص فرحا لعودته إلى مجلسه هذا بعد الغيبة الطويلة التي فرضتها عليه جلسته بالمستشفى بجانب منصور بك.

أدخل بريده الإلكتروني وكلمة السر فانفتحت أمامه صفحته على الfacebook. اندهش من كمية ما فاته أثناء غيبته لكن قبل أن يضغط أي زر آخر بوغت بظهور خانة المحادثة (chat) أسفل الشاشة، ابتسم عندما وجد كلمات الحب والافتقاد تنهال عليه، مضى يضغط على الأزرار بحماس وسرعة مجيبا بكلمات الاعتذار والحب والرجاء.

سمع صوت باب الشقة وبعد ثوانٍ وجد أمه وهي تقف أمامه بجسدها الممتلئ وشعرها الأسود الذي لم يملأه الشيب بعد وملابسها السوداء التي لم تخلعها منذ وفاة والده. مطت شفتيها قبل أن تقول في ضيق:

- يادي الكمبيوتر اللي هياكل عقلك. اتعشيت ولا لسه؟

- لسه.

- طب يلا تعالى عشان تاكل.

استدارت لتنصرف لكنها توقفت والتفتت نحوه وهي تتساءل:

- رأفت هو إنت وصلت ليديا للبيت النهارده؟

فوجئ بالسؤال، خفق قلبه لكنه تمالك نفسه وقال متظاهرا باللامبالاة:

- أيوه، هو فيه حاجة؟

- لا أبدا. أصلي كنت عند سميرة وشفتها وهي داخلة. كان وشها منور والضحكة من هنا لهنا.

تظاهر بالاستغراق في الشاشة دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة بينما استدارت هي تاركة الغرفة وقد علا صوتها قائلا:

- قرب البعيد يا رب.

تجاهل ما قالته أمه وما تريده وتتمناه ويعلمه هو جيدا. لقد توصل إلى الحل المناسب ولن يحدث سوى ما قرره شاءت أم أبت ولا تعنيه كل تلك التلميحات في شيء.

وجه كل حواسه نحو هذا الحديث شاحذا كل معلوماته في الإنجليزية حتى يبدو كلامه منمقا ومفهوما. بعد لحظات كان مستغرقا في سرد كل ما حدث له في عمله منذ آخر مرة تحدثا فيها وحتى الآن ناسيا تلك التي تتعذب الآن بسببه وسبب حبها له متعلقة بأمل كاذب وطأه هو تحت قدميه وهو يصعد الدرج.

(١٨)

أخذت نسمات الهواء الباردة تعبث بخصلات شعرها وتتمسح بوجهها ورقبتها باعثة بداخلها إحساسا منعشا كانت في حاجة ماسة إليه. استنشقت ملء صدرها ونظرت بعينين مخدرتين نحو النيل المار أسفل قدميها متلألئا بانعكاسات الأضواء المنبعثة من السفن والمراكب السائرة والواقفة وأبنية القاهرة المنتشرة على امتداد البصر أمامها.

أخذت تجيل بصرها فيما حولها مستمتعة بهذا الإحساس المنعش الذي سرى فيها كالمخدر فأعاد إلى أعصابها بعض هدوئها وإن لم تكف عن التفكير في هذا الصندوق الذي تركته على مائدة الصالون وحوله ما كان بداخله مبعثرا غارقا في تناقضه. حاولت أن تجد سببا يجعل ربما ترسل إليها هذا الصندوق قبل موتها أو أن تتوصل إلى شيء يربط بين كل تلك الأشياء التي كانت بداخله. لكنها لم تفلح ولم تجن سوى ازدياد الحيرة بداخلها.

اصطدمت عيناها بهؤلاء الجالسين حولها. أصدقاء كريم الغارقين في حديثهم وضحكهم. لقد أعادت رؤيتهم إليها ذكريات كانت قد نسيتها منذ زمن. تذكرت عندما كانت طالبة في السنة الثالثة بالجامعة وكان كريم بالسنة الرابعة. تعرفت عليه في إحدى الأنشطة. أحست بإعجاب نحوه وتعجبت عندما أحست أنه منجذب إليها على الرغم من أنه كان شابا معروفا في الجامعة بوسامته وأناقته ومرافقته لفتيات كثيرات. كثيرات يحببنه ويرافقنه وأخريات أكثر معجبات به من بعيد دون الاقتراب منه. وكان هو يعلم كل ذلك مما زاد غروره وإحساسه بقيمة نفسه. كان اهتمامه بالحفاظ على مظهره وتكالب الفتيات عليه يأخذ كل وقته وتفكيره.

لذا كان من الغريب أن يهتم بفتاة مستكينة وهادئة ومتوسطة الجمال مثل يارا. حاول أن يضمها إلى الفتيات الكثيرات اللاتي عرفهن لكنها كانت أمامه كسد منيع. تربيتها وشعورها الدائم بعدم الأمان بسبب ظروف حياتها المنفردة مع والدتها جعلاها تخاف من كل شيء وتتهيب الوقوع في أي علاقة قد تضرها وتجرحها. لذلك ازداد قربه منها وبدأت تشعر بأنه يحبها حبا حقيقيا وبادلته هي مثل هذا الحب خاصة عندما وجدته يتخلى عن كل مغامراته من أجلها. وعندما تخرج وأصبحت هي في السنة الرابعة تقدم لوالدتها وتمت خطبتهما. كم كانت سعادتها في تلك الأيام. كانت حقا تعد نفسها إنسانة محظوظة بعدما وجدت الحب الذي طالما افتقدته.

تأملت كريم وهو يضحك ويتحدث. هل كان ما بينهما حبا حقيقيا؟ هل كان يحبها حقا؟ لماذا تخلى عنها إذا؟ وهل كانت تحبه؟ كيف إذا استطاعت أن تنساه وتعيش حياتها ولا تشعر نحوه بأي شيء عندما تراه الآن؟

أحست أنها منفصلة عما حولها، غير قادرة على التخلص من استغراقها في أفكارها أو الاندماج معهم في الحديث. استأذنت ونهضت لتدخل المرحاض، أخذت تسوي شعرها وشكلها، كانت تتأمل وجهها في المرآة عندما أدركت أنها لن تستطيع الجلوس معهم أكثر من ذلك. لقد هدأت أعصابها وصفت ذهنها كما تريد، البقاء أكثر من ذلك سيفسد هذا الهدوء ويعيدها إلى حالتها التي دفعتها إلى الخروج مع كريم.

وقفت على مبعدة من المائدة وأشارت لكريم فنهض واقترب منها حتى عندما أصبح بجانبها تساءل في دهشة:

- مالك يا يارا؟ قاعدة ساكتة طول الوقت ومسهمة كده ليه؟

- ماعلش يا كريم، أصلي تعبانة ومصدعة ومش قادرة أندمج خالص. أنا مضطرة أمشي.

فارتفع حاجباه في دهشة وهو يقول:

- ماشية؟ هو إحنا لحقنا نقعد؟ ده احنا حتى ماتعشيناش.

- ماعلش يا كريم، أنا بجد تعبانة ومش قادرة وزي ما إنت قلت أنا لا باتكلم ولا باندمج وقاعدة مسهمة.

زفر في ضيق لكنه قال مستسلما:

- طب يلا عشان أوصلك.

فأسرعت تقول معترضة:

- لا لا خليك إنت قاعد مع صحابك أنا هاروح بتاكسي.

- تاكسي إيه لوحدك بالليل كده؟ يلا هاوصلك وهارجع لهم.

كان حازما وجادا فأذعنت له. حيت كل الجالسين واعتذرت لهم قبل أن تهبط معه وتجلس بجانبه في السيارة التي انطلقت بهما مسرعة نحو مصر الجديدة.

لم يفارقها صمتها وشرودها. ظلت تتابع الطريق في هدوء حتى التفتت على صوت كريم وهو يتساءل مستنكرا:

- مالك يا يارا؟ ساكتة وسرحانة كده ليه؟

مطت شفتيها قبل أن تقول:

- حكاية الصندوق اللي ربما بعتتهولي ده، اللي حكيت لك عنه وإحنا جايين، ملخبطاني جدا.

فنظر نحوها وعقد حاجبيه وهو يقول مستهينا:

- ملخبطاكي ليه؟ أنا شايف إن ده موضوع تافه مايستاهلش كل اللي إنتي فيه ده.

فالتفتت نحوه وقد ملأت الدهشة وجهها وقالت مستنكرة كلامه:

- تافه؟! ده موضوع تافه؟!

فقال في بساطة:

- أيوه تافه.

قالت وقد ازدادت حدتها واستنكارها:

- لما أختي اللي عمري ما شفتها ولا عرفتها تبعت لي قبل ما تنتحر صندوق فيه حاجاتها الشخصية يبقى الموضوع بسيط وتافه؟

- أيوه، لأن ببساطة دي حتة عيلة صغيرة بتلعب، حطت شوية حاجات في صندوق وبعتتهولك عشان تهزر معاكي وتلاقي بعدها بكام يوم اتخانقت مع الboy friend بتاعها وانتحرت.

نظرت نحوه غير مصدقة هذا التحليل العقيم الذي أعطاه للموقف، قالت مدافعة:

- ربما ماكانتش عيلة صغيرة، دي كان عندها عشرين سنة.

- برضو صغيرة.

- عشرين سنة صغيرة؟

- أيوه صغيرة.

فاندفعت تقول في حدة والغيظ يملؤها من بروده واستهتاره بالموقف:

- صغيرة إزاي؟ إذا كان إحنا لما اتخطبنا كان عندنا عشرين سنة.

ندمت على اندفاعها وتفوهها بكلام عن هذا الماضي البعيد، أدارت وجهها ونظرت نحو الطريق والضيق يملؤها بينما ابتسم كريم وهو يتساءل متخابثا:

- إنتي لسه فاكرة؟

فقالت ساخرة متجاهلة ما يرمي إليه بسؤاله:

- طبعا، هي دي حاجة تتنسي؟

فصمت قليلا مستوعبا تلك السخرية قبل أن يقول:

- على الرغم من إن لسه فيكي حاجات كتيرة من زمان إلا إنك برضو اتغيرتي يا يارا.

فابتسمت وهي تقول عن قصد:

- كنت مستني إيه من واحدة اتسابت لوحدها في أكتر وقت كانت محتاجة فيه لناس جنبها، لما مامتها ماتت لقت نفسها بتواجه الدنيا لوحدها وهي لسه يا دوب مكملة اتنين وعشرين سنة.

صمت لأنه لم يجد ما يقوله أمام كلامها الذي تقصده به إلى حد كبير، وعندما توقفت السيارة أمام منزلها استوقفها قبل أن تهبط قائلا في توسل:

- يارا، ممكن ماتشغليش دماغك بموضوع الصندوق ده، إنتي مش ناقصة قلق وتعب.

فقالت محاولة التخلص من إلحاحه:

- ربنا يسهل.

- لأ بجد، اوعديني.

فزفرت قبل أن تقول في حسم:

- ماقدرش يا كريم، ماقدرش أوعدك بحاجة أنا عارفة إن أنا مش هاعملها.

ثم صمتت قليلا قبل أن تقول:

- شكرا على الخروجة، أنا بجد اتبسطت قوي، تصبح على خير.

هبطت من السيارة وصعدت الدرج حتى دخلت الشقة وأغلقت الباب خلفها. تأملت الصندوق ومحتوياته الموضوعين فوق مائدة الصالون. كانت لا تزال مغتاظة من كريم واستهتاره بالموقف. يبدو أنه لا فائدة ترجى من طلب مساعدته. إنها تحتاج إلى من يساعدها لتصل إلى ما أرادته ربما من هذا الصندوق، بداخلها يقين عجيب أن هناك سرا خلف هذا الصندوق وأن ربما لم تقصد

لعبا أو لهوا عندما بعثته لها. لكن المشكلة الآن في من سيساعدها لتصل إلى هذا السر؟ يحيى، لاح الاسم أمام عينيها كمرفأ نجاة. أمل أخير لها، ساعد قوي يمكن أن تستند وتعتمد عليه وهي مطمئنة.

إن يحيى ليس فقط قادرا على مساعدتها بمركزه وقربه من عائلة منصور بك، لكنه أيضا سيصدقها ويؤمن بما في داخلها وسيساعدها عن اقتناع برأيها وموقفها. إنها في أمس الحاجة إلى من يساندها نفسيا قبل أن يقدم لها مساعدة ملموسة، يحيى هو القادر على فعل ذلك، لا تعلم من أين جاءها هذا اليقين لكنه تملك منها بكل قوة، احتلتها ثقة عمياء فيه وفي قدرته وفي أنه سيبادلها ثقتها بثقة مثلها.

ستذهب إليه، غدا، أول شيء ستفعله في الصباح هو الذهاب إلى يحيى في مكتبه بوزارة الخارجية.

(١٩)

تفاجأ عندما أخبروه في الهاتف أنها تريد مقابلته، أذن لها بالدخول ثم أغلق السماعة وشرد مبتسما في سعادة. كان أقصى ما يتمناه هو أن ينتظر بضعة أيام قبل أن يحدثها بأي حجة، أما أن تأتي إليه مرة أخرى في مكتبه قبل مرور يومين فهو ما لم يكن يحلم به. اختلطت سعادته بحيرة، ليس فقط حيرته من السبب الذي يمكن أن يأتي بها إلى مكتبه مرة أخرى، ولكن أيضا حيرة من نفسه التي لم تحاول إنكار تلك السعادة، بل تركتها تجتاحه بعنف وبلا مقاومة كأنه من الطبيعي جدا أن يرقص قلبه من السرور عندما يعلم أنه سيراها.

نهض عندما دخلت من الباب، تأملها مبتسما، أول مرة يراها في غير الملابس السوداء، ترتدي ملابس بسيطة، سروال جينز وبلوزة بيضاء واسعة بها نقوش سوداء رقيقة على الصدر تتماشى مع لون الحذاء والحقيبة.

خرج من خلف المكتب، حياها ودعاها إلى الجلوس في الصالون الصغير كما فعلا في المرة الماضية. وضعت حقيبتها بجانبها ثم نظرت نحوه وقالت مبتسمة بنبرة فيها شيء من الخجل:

- أنا آسفة يا أستاذ يحيى عشان جيت لحضرتك فجأة ومن غير معاد.

أسرع يقول محاولا إخفاء سعادته التي ظهرت رغما عنه في عينيه وصوته:

- ماتقوليش كده، مكتبي كله تحت أمرك، تيجي في أي وقت.

فركت يديها وقد ازداد خجلها بسبب احتفائه الشديد بها، قالت وقلبها يخفق دون سبب واضح:

- ميرسي جدا.

ثم صمتت قليلا لتلتقط أنفاسها ولتعطيه فرصة ليستعيد تركيزه قبل أن تقول:

- الحقيقة أنا حصلت لي مشكلة، هي مش مشكلة هي حاجة غريبة، حاولت ألاقي لها تفسير بس ماعرفتش، وأول حد جه في دماغي إنه ممكن يساعدني هو إنت.

خفق قلبه بسرور خفي عندما سمع منها تلك الكلمات لكنه استطرد مبتسما في اهتمام:

- خير؟

ازدردت ريقها قبل أن تستفيض قائلة مستعينة بإشارات يديها لشرح الموقف:

- إمبارح العصر وصل لي طرد اتبعت لي مستعجل من لندن بس اتأخر شوية. اللي بعتت الطرد ده هي ريما.

صمتت قليلا تاركة له الفرصة ليستوعب ما قالت ثم استدركت:

- الطرد فيه حاجات شخصية جدا ومالهاش أي علاقة ببعض. ipad عليه passcode مش عارفاه. كارت عيد ميلاد. أجندة مكتوب فيها أرقام غريبة مش فاهماها وسلسلة دهب فيها دلاية كبيرة على شكل ثمرة فاكهة تقريبا جوز هند.

عقد أصابع يديه واستند عليها بذقنه متفكرا قبل أن يقول:

- هي فعلا حاجات مالهاش علاقة ببعض. بس هو إنتي ليه مستغربة إن ريما بعتت لك الطرد ده؟

ضغطت شفتيها قبل أن تقول:

- أستاذ يحيى واضح إنك لسه مش قادر تستوعب طبيعة العلاقة بيني وبين ريما. هي صحيح أختي. بس على الورق وبس. أنا عمري ما شفتها ولا اتكلمت معاها. أنا لو كنت شفتها في الشارع ماكنتش هاعرفها. إنسانة غريبة عني بكل معنى الكلمة. يبقى إزاي بقى تبعت لي حاجاتها الشخصية دي فجأة كده؟

ظل محدقا نحوها في حيرة قبل أن يقول محاولا إيجاد أي منفذ:

- طب إنتي معاكي دلوقتي أي حاجة من الحاجات اللي كانت في الصندوق؟

فتحت حقيبتها ومضت تبحث فيها وهي تقول:

- مش حاجات كتيرة. خدت السلسلة عشان خفت عليها والورقة اللي كانت ملزوقة على الطرد من برا.

تناولهما منها. أخرج السلسلة وأخذ يتأملها للحظات ثم أعادها إلى حقيبتها القطيفة. فتح الورقة وأخذ يقرأ محتوياتها بتركيز جعلها في لحظة خاطفة تقارن بين اهتمامه وبين استهتار كريم لكنها انتبهت على صوته وهو يتساءل:

- إنتي خدتي بالك من التاريخ والمعاد اللي الطرد اتبعت فيهم؟

- لا.

لمزيد من الكتب العصرية

- الطرد اتبعت أربعة وعشرين مارس الساعة تلاتة العصر، وريما اتوفت في نفس اليوم ده الساعة احداشر بالليل. يعني اتبعت قبل الوفاة بتمان ساعات.

نظرت نحوه وقد تملكتها دهشة شديدة من هذه المعلومة. ترددت قليلا مفكرة قبل أن تقول:

- ملاحظتك عقدت الموضوع، طب هي بعتت الطرد وهي مقررة إنها تنتحر ولا خدت القرار ده بعدها؟!

لم يجبها لكنه جذب انتباهها مرة أخرى وهو يقول:

- و فيه حاجة تانية ملفتة.

نظرت نحو الورقة في فضول وهي تتساءل بنبرة قلقة:

- خير؟

- الشقة اللي كانت ساكنة فيها ريما هي ووالدتها موجود جنبها فرع من فروع شركة البريد دي، ومع ذلك الطرد مبعوت من فرع موجود في حي تاني غير الحي اللي هي ساكنة فيه.

نظرت نحوه وقد ازدحمت الأفكار في رأسها وشلت قدرتها على الاستيعاب. تساءلت في حيرة:

- يمكن صدفة؟!

مط شفتيه وهو ينظر في الورقة قبل أن يقول مستسلما:

- يمكن.

أسرعت تخرجه من حيرته قائلة وقد استجمعت شتات تفكيرها:

- أستاذ يحيى أنا مش جاية لك عشان تساعدني في حل ألغاز الصندوق نفسه. أنا عندي طلب تاني محدد بيتهيألي إنك هتقدر تساعدني فيه.

نظر نحوها وعقد حاجبيه متسائلا:

- إيه هو؟

- في العزا بتاع ريما، جات لي بنت قالت لي إنها كانت صاحبة ريما في الsecondary school في لندن، فأنا قلت إن يمكن البنت تقدر تساعدني في حل الألغاز دي بما إنها كانت صاحبة ريما وكل اللي أنا عاوزاه من حضرتك إنك تحاول تعرف لي عنوان البنت دي في مصر عشان أروح لها. ينفع؟

أعطاها الورقة وهو يقول مبتسما بعدما وجد شيئا عمليا يمكن أن يساعدها به:

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- أكيد طبعا. اسمها إيه البنت دي.

أغمضت عينيها لثوانٍ متذكرة قبل أن تقول:

- ندى العجرودي.

أعاد الاسم ببطء مفكرا قبل أن ينتفض فجأة وقد برقت عيناه في دهشة وذهول متسائلا:

- بنت حسن العجرودي؟

فهزت رأسها ولوت شفتيها قائلة:

- مش عارفة طبعا.

نهض واتجه مسرعا نحو التليفون الموضوع على مكتبه وقال هاتفا:

- دي لو طلعت بنت حسن العجرودي يبقى حظك من السما.

مطت شفتيها في استهتار وهي تتساءل غير مكترثة:

- مين حسن العجرودي ده؟

فنظر نحوها مبتسما من قلة اكتراثها وقال والسماعة على أذنه:

- ده يبقى السفير.

بوغتت بإجابته وبوغتت أكثر بابتسامته التي جعلت قلبها يعاود خفقانه بلا سبب.

أفاقت على صوته وهو يتحدث في التليفون:

- أيوه يا محمود، عاوز منك خدمة لو سمحت. سيادة السفير حسن العجرودي عارفه طبعا؟ آه. عاوزك تجيبلي عنوان عيلته هنا في القاهرة وتعرف لي إذا كان عنده بنت اسمها ندى. آه بس بسرعة والنبي يا محمود. مستنيك. شكرا. مع السلامة.

وضع السماعة وهو يقول:

- كلها عشر دقايق ونعرف كل حاجة إن شاء الله. على بال ما نشرب الشاي.

رفع السماعة مرة أخرى حيث طلب شايا ممن يتحدث إليه قبل أن يعود إلى مجلسه بجانبها. قضيا بضع دقائق يتحدثان في أمور عامة حول طبيعة عمله وطبيعة عملها قبل أن يسمعا طرقا على الباب دخل بعده رجل يحمل صينية فضية عليها طاقم شاي من الصيني الأنيق. أبيض

ومطعم بنقوش فرعونية ذهبية رقيقة، وضعها وقام بسكب الشاي في الفنجانين وتحليتهما قبل أن يخرج من الغرفة.

تناول يحيى فنجانا وأعطاه لها ثم تناول فنجانه وارتشف منه رشفة قبل أن ينظر نحوها مرة أخرى، وجدها ساهمة وقد بقي الفنجان على حاله بين يديها، أمال رأسه نحوها مبتسما وهو يتساءل:

- مالك؟

انتبهت ونظرت نحوه محاولة رسم ابتسامة على شفتها وهي تقول:

- محتارة.

استجمع أطراف شجاعته وهو يقول:

- مش عارف ليه حاسس إنه حزن أكتر من حيرة، هو الكلام اللي قلناه في المستشفى لسه مزعلك؟

فأسرعت تقول:

- لا لا، موضوع أبويا ده أنا متعودة عليه، لما شفته في المستشفى اتأثرت زيادة بس في الآخر الموضوع كله جزء من حياتي وخلاص اتعودت عليه.

ثم صمتت قليلا مفكرة قبل أن تقول:

- المشكلة الحقيقية، في ريما، أختي اللي عمري ما شفتها ولا عرفتها، وكنت راسمة ليها في خيالي مع كل عيلة متصور بيه صورة وحشة لإنسانة مستهترة ومغرورة وعمرها ما هتفكر فيا أو هاجي على بالها. وفجأة ألاقي نفسي مسؤولة عن دفنها وعزاها وألاقي صاحبتها بتقول لي إنها كانت بتتكلم عني مع اصحابها وبتقول لهم إنها عاوزة تشوف أختها وتتعرف عليها، وفي الآخر ألاقيها باعتة لي حاجتها الشخصية وكأنها عاوزة تقول لي أنا بافكر فيكي وإنتي على بالي.

صمتت قليلا في محاولة لكبت الدموع التي شعرت بها في حلقها قبل أن تنظر نحوه قائلة:

- أنا خايفة أدور أكتر في الحاجات بتاعتها أكتشف حقايق تخليني أندم على التفكير اللي كنت بافكره زمان، إنت فاهمني؟

أومأ برأسه مبتسما قبل أن يقول:

- فاهم، بس عاوز أقول لك إن كل حاجة بتحصل ليها حكمة، وكل اللي بيحصل لك ده أكيد ليه سبب، يمكن فيه حقايق ممكن تزعلك وتخليكي تندمي بس في نفس الوقت هتكتشفي إن معرفتك للحقايق دي أهون وأحسن بكتير من إنك تبقي مش عارفاها.

ابتسمت بعدما ملأها كلامه بطمأنينة كانت محتاجة إليها في تلك اللحظة. ارتشفت من الفنجان قبل أن تقول في مرح:

- هو إنتوا ليه بتقدموا الشاي في صيني؟ عشان خارجية وسفرا وكده يعني؟

فنظر نحوها في استغراب وهو يتساءل ضاحكا:

- سفرا وكده يعني؟

- أيوه يعني ماتقدموه في كباية إزاز وخلاص.

فقال متظاهرا بالسخرية والابتسامة لم تزايل شفتيه:

- عاوزانا نقدم الشاي للسفرا في كباية إزاز يا مفترية؟

ضحكت من سخريته وضحك هو متجاوبا معها ثم صمت لحظات متذكرا قبل أن يقول:

- منصور بيه لما كان بيجي كان بيشرب الشاي في كباية إزاز، هو كمان ماكانش بيحب الطقم الصيني.

كفت عن الضحك ولم يبق على شفتيها إلا ابتسامة صفراء من أثر المباغتة التي باغتها بها يحيى عندما ذكر والدها محاولا إيجاد شبه بينها وبينه. أخفضت عينيها وارتشفت من الشاي في محاولة للتشاغل عن تلك المشاعر التي استيقظت بداخلها. انتبه إلى ما حل بوجهها وشعر بندم شديد على تسرعه. قال محاولا تغيير مجرى الحديث:

- إنتي قلتي لحد تاني غيري عن موضوع الطرد ده؟

- داليا صاحبتي في الشغل لما كلمتها عشان أقول لها إني مش جاية النهارده، و.. كريم.

خفق قلبه عندما سمع اسم كريم لكنه تناسى مشاعره عندما سمع جرس الهاتف، نهض واتجه نحو المكتب وأجاب:

- آلو، إيه الأخبار يا محمود؟ كويس قوي، والعنوان؟ عندي ع الميل؟ طب حلو قوي، شكرا، سلام.

أسرع ليجلس أمام اللاب توب وهو يهتف في حماس:

- عنده فعلا بنت اسمها ندى، عندها تمانتاشر سنة ولسه راجعة من لندن عشان تدخل الجامعة هنا.

نهضت واتجهت مسرعة لتجلس أمام مكتبه وهي تتساءل وقد انتقل حماسه إليها:

- حلو قوي، طب والعنوان.

قال وهو يتأمل الشاشة التي أمامه:

- ثانية واحدة، أهو، فيلا في التجمع الخامس، ويمت رقم التليفون كمان.

ازداد الحماس بداخلها وهي تقول:

- طب ممكن أكلمها من عندك عشان عاوزة أروح لها دلوقتي حالا؟

نظر إليها في اندهاش من حماسها وقال متعجبا من تناسيها للخوف الذي كانت تشعر به نحو اكتشاف المزيد:

- دلوقتي حالا؟!

ابتسمت في خجل من اندهاشه وزفرت قبل أن تقول في استسلام:

- مش هاقدر أستنى أكتر من كده.

(٢٠)

استوقفها رجل الأمن ولكن ما إن ذكرت اسمها حتى انتصب احتراما وفتح الباب الحديدي الضخم قبل أن يفسح لها الطريق إلى الداخل. انطلقت بسيارتها في طريق متوسط الطول تحف به مساحات من الحشائش الخضراء من الناحيتين ثم دارت نصف دورة وتوقفت مباشرة أمام درج رخامي يفضي إلى الباب الزجاجي للفيلا.

كان في انتظارها امرأة في الخمسين يبدو عليها أنها القائمة بشؤون المنزل. استقبلتها مبتسمة ودعتها لتجلس في الصالون الذي يقع في المنتصف تماما بين باب الفيلا وباب آخر مفتوح يفضي إلى الجزء الخلفي من الحديقة وحمام السباحة، وخلف مقعدها يقع الدرج الحلزوني المفضي إلى الطابق الثاني.

بعد دقائق التفتت عندما أحست بحركة خلفها، رأت ندى تهبط الدرج في بطء. كما هي لم تتغير بجسدها الممتلئ قليلا وبياضها وشعرها المعقوص خلف رأسها "ذيل حصان". ترتدي بنطلونا أسود ضيقا وبلوزة زرقاء فضفاضة وتحمل بين يديها قطة شيرازي بيضاء ضخمة قد أغمضت عينيها واستكانت بين يدي حاملتها.

نهضت يارا عندما أصبحت ندى أمامها والتي وضعت القطة على الأرض ومدت يدها نحوها وهي تقول مبتسمة:

- أهلا أهلا يا يارا، عاملة إيه؟

- الحمد لله، أنا آسفة إني كلمتك وجيت لك فجأة كده.

- لا ماتقوليش كده، البيت بيتك، تعالي نقعد على الـpool، الجو برا أحلى.

قفزت القطة وعادت إلى استكانتها فوق الأريكة بينما خرجت ندى وخلفها يارا من الباب المفضي إلى الحديقة، حيث جلستا معا حول مائدة تحت مظلة كبيرة بجانب حمام السباحة وقد أخذ الهواء المنعش يعبث بشعريهما.

اندمجا في حديث قصير حول حياة كل منهن، خاصة عندما علمت يارا أن ندى ستلتحق بالجامعة الأمريكية التي تخرجت هي فيها منذ سنوات، لأن والدها أنهى فترة عمله في لندن ورفض تركها بمفردها هناك لتلتحق بالجامعة. قاطعتهما المرأة الخمسينية عندما وضعت على المائدة كوبين من

عصير الليمون وبعدما ذهبت تشجعت يارا وقصت عليها كل حكاية الصندوق منذ أن وصل إليها وحتى فكرت في المجيء إليها باعتبارها الصديقة الوحيدة لريما التي تعرفت عليها في العزاء.

كانت ندى تسمعها باهتمام بينما أخرجت هاتفها المحمول من جيبها وأخذت تعبث بأزراره بسرعة قبل أن تضع الشاشة أمام عيني يارا وتسألها مستفسرة:

- هي دي الصورة اللي كانت على الـipad؟

خفق قلب يارا عندما وجدت أمامها نفس الصورة التي تعبت من تأملها وقالت في لهفة:

- أيوه هي دي!

ضغطت ندى شفتيها ووضعت المحمول على المائدة بهدوء وهي تقول متفهمة:

- ده كان آخر عيد ميلاد لريما، اللي واقفة جنبها دي دانية جميل صاحبة ريما الأنتيم، والولد ده يبقى نادر أخو دانية وكان...

ثم صمتت قليلا في تردد ازدادت بسببه لهفة يارا قبل أن تقول:

- كان هو وريما بيحبوا بعض.

صمتت يارا وقد انتابها مشاعر غريبة، إنها تكتشف جوانب جديدة في شخصية أختها، يالالعجب، إنه نفس العمر التي أحبت فيه يارا للمرة الأولى. أهي مجرد مصادفة أم أن هناك أشياء أخرى مشتركة بينهما ولو بفعل المصادفة والقدر مثل الملامح ولون الشعر والعينين.

كان الضيق والتأثر يكسوان وجه ندى ربما أكثر مما كان الحال مع يارا التي تساءلت محاولة كسر الصمت:

- مش إنتي قلتي لي إن إنتوا كنتوا المصريين الوحيدين في المدرسة؟

فهزت ندى رأسها وقالت وهي تحاول العودة إلى حالتها الطبيعية:

- ده صحيح، دانية صحيح اتولدت في لندن وهي ونادر عاشوا هناك طول عمرهم إنما هما من أصل عربي، من لبنان.

صمتت يارا لحظة مفكرة قبل أن تتساءل:

- طب هما عملوا إيه لما عرفوا إن ريما اتوفت؟

مطت ندى شفتيها علامة الجهل قبل أن تقول:

- ماعرفش، أنا كنت في مصر لما ريما اتوفت ومن ساعة ما سبت لندن وأنا ماباكلمهمش خالص.

- طب ومونيكا اللي اسمها كان مكتوب على الكارت ده؟

فقالت ندى في قلة اكتراث:

- كان فيه بنت معانا في الclass اسمها مونيكا. كانت صاحبة ريما بس أنا ماعرفش حاجات كتير عنها. ماكانتش صاحبتي قوي. هي عايشة في لندن بس إنتي ممكن تشوفيها على الfacebook .

- طب والسلسلة الدهب؟

فانتفضت ندى وهي تقول في حماس:

- السلسلة دي هي الهدية اللي نادر كان جابها لها في نفس عيد ميلادها اللي كان في الصورة. تقريبا إداها لها قبل عيد الميلاد بيوم لأنها جات الحفلة لابساها وكانت فرحانة بيها قوي.

صمتت يارا قليلا لتستوعب قبل أن تتساءل:

- طب هو إنتي زرتي ريما في بيتها هناك قبل كده؟

فعقدت ندى حاجبيها متذكرة قبل أن تقول:

- يعني مرة أو مرتين.

- طب ماشفتيش عندها باب لونه أزرق زي اللي مكتوب عنه في النوتة ده؟

فهزت ندى رأسها وهي تقول نافية:

- بصي أنا مادخلتش كل الأوض في الشقة. بس الأماكن اللي شفتها ماكانش فيها. أصل باب لونه أزرق دي حاجة غريبة كنت هافتكرها يعني.

صمتت يارا وقد انتابتها حيرة شديدة من كل تلك التعقيدات المتداخلة ثم التفتت نحو ندى التي قالت في أسف:

- أنا آسفة والله يا يارا. واضح إني مش فايداكي خالص.

فأسرعت يارا قائلة لتنفض الحرج عن وجهها البريء:

- لا ماتقوليش كده. بالعكس إنتي عرفتيني حاجات عمري ما كنت هاعرفها لوحدي.

ثم صمتت لحظة قبل أن تستطرد متسائلة:

- طب هو إنتي ماتقدريش توصليني بنادر ده؟ أنا عاوزة أشوفه إن شا الله حتى أسافر له لندن.

فرفعت ندى منكبيها قائلة في حيرة:

- أكتر حاجة ممكن أعملها لك هي إني أبعت له message على الfacebook ولما يرد عليا هاقول لك، لأني ماعنديش أي وسيلة اتصال تانية بيه أو بداتية. ماكانوش صحابي قوي.

- طيب خلاص، ابعتي له message مادام مافيش حل تاني.

ثم زفرت يارا في ضيق قبل أن تقول:

- أنا بجد من ساعة الصندوق الأسود ده ما وصل لي وأنا حاسة إني مش فاهمة أي حاجة.

نظرت ندى نحوها وقد عقدت حاجبيها في استنكارقبل أن تتساءل في حذر:

- صندوق أسود! إنتي قصدك إن الطرد بتاع الشركة كان لونه أسود ولا الصندوق نفسه اللي فيه الحاجة؟

فقالت يارا في بساطة وقد أحست بدهشة من استنكارندى:

- لأ، الصندوق نفسه اللي بعتته ريما واللي كان فيه الحاجة هو اللي كان لونه أسود.

عادت ندى بجذعها إلى الخلف وقالت شاردة وقد تحول استنكارها إلى دهشة شديدة:

- غريبة قوي! لأ بجد غريبة!

- هو إيه ده اللي غريب؟

فنظرت ندى نحوها وقالت محاولة تفسير دهشتها التي بدت شيئا عجيبا ليارا:

- بصي يا يارا أنا آه ماكنتش صاحبة ريما قوي، إنما أي حد يعرف ريما إن شا الله حتى معرفة سطحية أكيد يعرف إنها كانت بتكره اللون الأسود. عمرها ما لبست ولا اشترت ولا حتى حبت حاجة سودا، حتى كرافات المدرسة اللي كان لونها أسود كانت دايما بتركب فيها دبوس فيه وردة كبيرة تكسر اللون الأسود.

نظرت يارا نحوها دون أن تنبس بكلمة. الأمر في ظاهره يبدو طبيعيا، صندوق أسود ابتاعته ووضعت فيه ما أرادت أن ترسله لها، لكن يبدو من كلام ندى ومن اندهاشها الشديد أن الأمر خطير وأن الأسود أكبر من مجرد لون، وقد أكدت ندى ذلك وهي تقول في ثقة شديدة:

- الموضوع ممكن يبان إنه تافه ومالهوش معنى، لكن صدقيني، إن ريما بعتت لك الحاجة في صندوق لونه أسود، دي حاجة بجد غريبة!

ظلت يارا صامتة لا تعلم ماذا تقول، إن الأشياء التي كانت بداخل الصندوق لا ينقصها الغموض حتى يأتي لون الصندوق نفسه ليزيدها غموضا وتعقيدا.

نهضت من مجلسها وأمسكت حقيبتها وهي تقول:

- أنا مضطرة أستأذن دلوقتي يا ندى، ومش هاوصيكي، أول ما نادر يرد على الـmessage بلغيني على طول. وبجد أنا آسفة عشان وجعت لك دماغك.

فأجابتها ندى وهي تنهض في نبرة تقطر أسفا:

- أنا اللي آسفة عشان ماعرفتش أفيدك، بجد كان نفسي أساعدك أكتر من كده.

اجتهدت يارا لتبتسم في وجهها الوديع وهي تقول:

- ماتقوليش كده، إنتي ساعدتيني قوي بس إنتي مش واخدة بالك.

فابتسمت ندى قبل أن تمد يدها نحوها قائلة:

- هاتي موبايلك.

أخرجت يارا هاتفها من الحقيبة وأعطته لندى التي أخذت تعبث بالأزرار لدقيقة قبل أن ترده لها قائلة:

- أنا كتبت لك نمرتي والـmail بتاعي، ابقي رني لي عشان أsave نمرتك واعملي لي add على الـfacebook. ماشي؟

- ماشي.

اصطحبتها ندى حتى خرجت وودعتها عند باب الفيلا الزجاجي، وما إن جلست في السيارة حتى دق جرس هاتفها المحمول، رقم غريب، لكن سرعان ما تبين لها عندما أجابت أنه رقم يحيى الذي لم تكن قد حفظته باسمه على هاتفها من قبل، سألها متلهفا:

- إيه الأخبار؟ وصلتي لحاجة؟

قصت عليه كل ما قالته لها ندى في اقتضاب أوحى بالضيق الذي كانت تشعر به، استمع إليها باهتمام حتى أنهت حديثها. ظلا صامتين لثوانٍ قبل أن يقول محاولا بث بعض من الأمل بداخلها:

- مايهمكيش، قلتي لي أساميهم إيه الولد والبنت دول؟

- نادر جميل ودانية جميل.

لمزيد من الكتب المصرية

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotab

- خلاص أنا هاعمل كل اللي هاقدر عليه عشان أحاول أوصل لهم وإن شاء الله خير. ماتتضايقيش.

فقالت وصوتها يمتلئ بعرفان حقيقي لاهتمامه وانشغاله بما يشغلها:

- متشكرة قوي يا أستاذ يحيى.

- على إيه؟ دي أقل حاجة أعملها لك.

ثم تردد لحظة قبل أن يقول:

- وأنا هابقى أتكلم أتطمن عليكي، سواء وصلت لحاجة في موضوع نادر ودانية أو لأ.

فابتسمت على الرغم من الضيق الذي كان يملؤها وهي تقول:

- متشكرة قوي.

أنهت المكالمة وأسندت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها محاولة ربط كل تلك الخيوط التي ظهرت أمامها. شعورها كان صحيحا. ربما لم ترسل هذا الصندوق لتعبث أو تهذر معها. هناك شيء غامض وخفي لا تستطيع أن تعلم ما هو أو حتى تتكهنه.

امتدت يدها وأخرجت السلسلة الذهبية من الحقيبة. أخذت تتأملها في تأثر لم تعرف له سببا محددا. لماذا اخترتني أنا يا ربما لترسلي إلي تلك الهدية الثمينة التي أهداكِ إياها الرجل الذي تحبينه؟ ما هذا الذي أردتِ أن تقوليه لي؟ ولماذا أردت أن تقوليه لي قبل أن تفارقي الحياة بساعات؟ ولماذا بعثته إلي في صندوق أسود قاتم على الرغم من أنك تكرهين هذا اللون؟

ازدحمت الأسئلة وتشابكت وتعقدت مع بعضها ومع تلك الحيرة التي تزداد بداخلها كلما اقتربت خطوة من معرفة حقيقة ظلت طوال عمرها تجهلها وتزيفها في مخيلتها وتقنع نفسها بها.

وفي لحظة أحست أن تلك الحيرة وهذا الضيق يتحولان إلى إصرار عجيب جعلها تسرع بفتح قفل السلسلة وتضعها حول رقبتها وتغلقها بإحكام.

توقفت كل الأسئلة عن الدوران برأسها عندما تجلت أمام عينيها حقيقة واحدة. "مهما تكن حقيقة ربما، يكفي أنها اختارتني لترسل إلي أمانة أهم ما فيها تلك السلسلة التي يبدو أنها كانت عزيزة على قلبها. يجب أن أكون قادرة على تحمل تلك الأمانة. حتى لو لم تسفر محاولاتي عن شيء سوى العودة إلى نقطة البداية حيث لا يربطني شيء بأختي سوى اسم في البطاقة وشعر أسود فاحم وبشرة بيضاء".

(٢١)

لم تلتفت إلى النشاط الذي اتسمت به حركة الموظفين في الشركة. لم تكن ترى حتى ما أمامها أو تسمع التحيات التي تلقتها من بعض زملائها. كان الغضب المشتعل بداخلها قد أسدل أمام عينيها ستائر سوداء كثيفة جعلتها لا ترى أمامها سوى هذا الوجه الذي خذلها وأحنقها. وجه رأفت الذي أحست أنها ما إن تراه حتى ستنهال عليه صفعا حتى تدميه وتنتقم منه. وكلما أحست أن غضبها هذا لن ينتهي بها مهما فعلت إلى شيء. لن يكون له قيمة بل وربما يهدأ حتى يكون كأن لم يكن كما يحدث دائما. ازداد الغضب بداخلها وعلى وجهها وازدادت خطوتها إصرارا وازداد ضغط أصابعها على حقيبتها في عصبية شديدة كأنها ستفتك بها.

عندما دخلت غرفة الاستقبال الكبيرة التي يقع بها مكتبها لم تجد أحدا. لكنها سمعت داخل غرفة منصور بك صوت رأفت وهو يتحدث في الهاتف. ألقت حقيبتها في عنف ودخلت من الباب المفتوح وقد وصل الغضب بها إلى درجة جعل الشرر يتطاير من عينيها وهي تنظر نحوه منتظرة أن ينهي حديثه بينما أخذت تفرك يديها في توتر.

كان واقفا بجانب المكتب منهمكا في الحديث. رفع رأسه عندما أحس بحركة في الغرفة. وما إن رآها حتى أدرك حالة الغضب التي تنتابها والتي كان يتوقعها منذ الصباح. أنهى حديثه في هدوء وتمهل قبل أن يضع السماعة وينظر في الأوراق التي بين يديه وهو يقول في برود متجاهلا حالتها:

- صباح الخير يا ليديا.

أثارها بروده. تجاهلت تحيته وقالت في نبرة يملؤها الغيظ:

- ماجيتش ليه النهارده القداس زي ما قلت لي؟

قال وهو يعلم أن الحديث لن ينتهي بعد جملته تلك كما يتمنى:

- ماعلش يا ليدي. أصلي ورايا شغل كتير ومستر شفيق محتاج لي جدا.

قالت وقد بدأ صوتها يعلو في حنق:

- أولا إحنا لسه في أول اليوم ومستر شفيق نفسه لسه ماجاش. ثانيا إنت عارف كويس قوي إنك لو قلت لمستر شفيق إنك هتتأخر يوم عشان تروح القداس مش هيمانع وميسيبك تيجي متأخر زي.

نظر نحوها قائلا وقد استفزه ارتفاع نبرة صوتها:

- مالك يا ليديا فيه إيه؟! خلاص ماحصلش حاجة.

فقالت وقد بدأ غضبها يتحول إلى دموع خنقت صوتها:

- لا حصل، حصل إنك وعدتني إنك هتيجي القداس وأنا رحت النهارده على أساس إني هالاقيك هناك مع طنط أنجيل. بس إنت لا جيت ولا حتى اعتذرت. كأنك كنت بتكلم عيلة صغيرة، وعدتها بحتة شوكولاتة وبعدين طلشتها على أساس إنها عيلة وهتنسى.

ملأ صوته ووجهه غضبا ليحسم هذا الموقف وهو يقول في عصبية شديدة:

- أنا مش فاهم إيه لازمتها العصبية دي كلها. مش فاهم مكبرة الموضوع كده ليه؟

قالت وهي غير مصدقة هذا الموقف الذي يتخذه:

- أنا مكبرة الموضوع؟

- أيوه.

ثم استطرد في امتعاض ظاهر:

- عمالة تقولي حاجات غريبة، وعدتك وماوعدتكيش، إنتي مالك أروح القداس ولا ماروحوش، هو ربنا هيحاسبك إنتي ولا هيحاسبني أنا؟

صمتت. توقف الكلام في حلقها واختنقت الدموع في مقلتيها. كأنها غير قادرة على استيعاب تلك المهزلة التي تحدث أمامها. أين هذا الرجل الثائر الوقح من الآخر الرقيق الحنون الذي وعدها بأنه سيأتي من أجلها هي فقط؟ كيف يمكن أن تصدق أنه قابل ثورتها وحزنها بتلك الإجابة الجافة وهذا البرود بدلا من أن يعتذر لها ويصالحها.

كانت لا تزال في حالة ذهول شديد عندما دخل شفيق الغرفة وألقى تحية الصباح. وقف خلف المكتب ينظر نحوهما في توجس بعدما أحس بشيء غريب يحدث بينهما. نظر نحو ليديا وسألها في هدوء:

- مالك يا ليديا؟

قالت مقتضبة وهي تنظر نحوه وكأن رأفت غير موجود في الغرفة:

- مافيش حاجة يا مستر شفيق. بعد إذنك هاروح أقول لهم يعملوا لحضرتك القهوة.

استدارت وخرجت في خطوات استماتت لتجعلها تبدو ثابتة وصارمة، وإن كانت خطوات سريعة حتى تستطيع أن تصل مسرعة إلى المرحاض وتترك لدموعها العنان تنساب في قهر شديد لكرامتها، دون أن يراها أحد.

جلس شفيق خلف مكتبه وهو يقول في نبرة ذات مغزى:

- بالراحة عليها شوية يا رأفت، ليديا لسه صغيرة ورقيقة ومش متستحمل جنانك ده.

ارتمى رأفت على المقعد الذي يقع أمام المكتب وهو يقول مقتضبا لإنهاء الحديث:

- ماحصلش حاجة يا ريس، خلينا في شغلنا.

صمت شفيق لحظة بعدما أدرك أن رأفت يتهرب ثم قال مغيرا مجرى الحديث:

- إيه أخبار الجمعية العمومية؟

- تمام، كل الإجراءات خلصت والمعاد زي الاتفاق.

ثم مد يده بملف مليء بالأوراق وهو يقول:

- ودي موضوعات مهمة كان مستر هاشم بعتها لحضرتك عشان تتناقش في الجمعية.

تناول شفيق الملف ونظر إلى أوراقه في استياء قبل أن يلقيه أمامه وهو يقول في لا مبالاة:

- سيبك من الكلام الفارغ ده.

فعقد رأفت حاجبيه في استنكار وهو يتساءل:

- يعني إيه؟ لما يسألني أقول له مش هيناقشوه؟

فأسرع شفيق قائلا:

- لأ طبعا، لو سألك قول له هنناقشهم. أنا مش ناقص وجع دماغ من هاشم، الكلام ده أنا باقوله بيني وبينك.

أحس رأفت بالزهو عندما خصه شفيق بهذا الكلام دون غيره لكنه تظاهر بالاهتمام وهو يقول:

- أيوه يا مستر شفيق بس فيه حاجات كتيرة من الكلام اللي المكتوب في الملف مهمة جدا.

فلوح شفيق بيده وهو يقول:

- مهمة يا سيدي ماقلناش حاجة، بس في المرحلة دي فيه حاجات تانية جوا المجموعة أهم من الكلام اللي مكتوب في الملف بتاع هاشم.

ثم استطرد شفيق شاردا في صوت خفيض كأنه يحدث نفسه دون أن يشعر بوجود رأفت بجانبه:

- وفيه حاجات تانية أهم حتى من المجموعة كلها بالشغل اللي فيها.

لم يلتفت رأفت إلى ما قيل بجانب أذنه، كان مأخوذا بزهو شديد، أولا لشعوره بأنه نال حظوة كبيرة عند شفيق شخصيا، وثانيا لأنه استطاع أن يخرج من مأزق ليديا دون خسائر تذكر.

وبينما كان رأفت مأخوذا بزهوه وسعادته، كان شفيق غارقا في التفكير فيما يعد بالنسبة له أهم من كل مجموعة وأملاك منصور أبو بلاط وإن كان أيضا هذا الشيء يمثل جزءا هاما في حياة منصور بك، تم وضعه مع أشياء أخرى كثيرة على عاتق شفيق.

(٢٢)

عندما دخلت غرفة مكتبها وثبت داليا من فوق المقعد وطوقتها بذراعها، دفنت يارا رأسها في كتفها متحملة رائحة السجائر التي امتلأت بها لتحظى بهذا الحضن الجميل، سمعت صوت داليا وهي تقول في نبرة حنون عاتبة:

- كده يا يارا؟ سايباني كل الوقت ده في الويك إند من غير ما تطمنيني عليكي؟

فأخرجت يارا رأسها وهي تقول معتذرة:

- أنا أسفة والله يا حبيبتي، بس من ساعة ما قابلت ندى دي اللي حكيتْ لك عنها ودماغي عمالة تودي وتجيب، لا عارفة أوصل لحل ولا كنت حتى قادرة أتكلم مع حد.

فجذبتها من يدها وجلستا معا خلف مكتب داليا التي مدت يدها وأمسكت بالسلسلة الذهبية المعلقة في عنق يارا وهي تتساءل:

- هي دي السلسلة اللي كانت في الصندوق؟

- أيوه.

أخذت داليا تتأمل الثمرة الذهبية وتقلبها ذات اليمين واليسار في تركيز شديد قبل أن تثبتها في وضع يجعل أسفلها أمام عيني يارا وهي تقول:

- الدلاية دي بتتفتح.

نظرت يارا نحو القلادة في دهشة وهي تتساءل:

- بتتفتح؟ إزاي يعني؟!

أشارت داليا نحو ثقب في الجزء الأسفل من الثمرة وهي تقول:

- أهو، شايفة الفتحة الصغيرة دي؟ الفتحة دي يخش فيها مفتاح صغير يفتح الدلاية.

ثم صمتت قليلا قبل أن تقول في جدية شديدة:

- الدلاية دي ممكن يكون جواها حاجة.

تركت القلادة الذهبية بينما أمسكتها يارا وأخذت تتأمل الثقب في ذهول شديد، أيمكن حقا أن يكون بداخل هذه الثمرة الذهبية ذات الفصوص البنية الصغيرة ما يحل هذا اللغز الغامض أم سيكون بداخلها شيء يزيد الأمور تعقيدا وتشابكا؟

افاقت على صوت داليا وهي تتساءل بعدما نفثت دخان السيجارة من فمها:

- معاكي أي حاجة تانية من الحاجات اللي كانت موجودة في الصندوق ده؟

- أيوه، النوتة.

- هاتيها.

مدت يارا يدها في حقيبتها وأخرجت المفكرة الصغيرة التي تناولتها داليا وأخذت تتفحص كل أوراقها في سرعة بينما عقبت يارا قائلة:

- مافيش أي كلام مكتوب غير في أول صفحة.

فتحت داليا أول صفحة وأخذت تتأمل الكلام المكتوب بها وهي تأخذ نفسا من السيجارة وتنفثه في تؤدة بينما أخذت يارا تنظر نحوها دون أي أمل في أن تجد داليا معنى لما هو مكتوب.

تساءلت داليا في استنكار:

- معقولة مافهمتيش ولا حاجة من اللي مكتوب ده؟

فقالت يارا وقد انتعش الأمل بداخلها:

- لأ، ليه؟ هو إنتي فهمتي حاجة؟

أشارت داليا إلى أول رقم مكتوب وهي تقول:

- الرقم ده رقم حساب في بنك.

نظرت يارا ذاهلة نحو الرقم وهي تقول:

- معقولة؟!

- أيوه، وأنا ممكن أخلي محمد يحاول يشوف لك ده في بنك إيه وبتاع مين.

ثم صمتت قليلا قبل أن تتساءل وقد تزايدت دهشتها:

- طب والرقم التاني ده؟ معقول مش لافت نظرك أي حاجة فيه؟

تأملت يارا الرقم في بلاهة شديدة وقد توقف عقلها عن العمل أو الاستيعاب. قطعت داليا هذا الصمت وهي تقول مبتسمة في غير تصديق:

- ده عيد ميلادك يا يارا.

اتسعت حدقتا يارا بدهشة طغت على كل حواسها. قالت بنبرة متقطعة كأنها لا تعي ما تقوله:

- عيد.. ميلادي.. أنا؟!

فأشارت داليا نحو الرقم مؤكدة وهي تقول:

- أيوه، أهو ٣٠٥٠. وانتي عيد ميلادك تلاتة مايو. يعني لو شيلنا الأصفار هنلاقي إن ده تاريخ عيد ميلادك.

أخذت يارا تتأمل الرقم وقد حلت بها دهشة لم تعهدها من قبل، كل كلمة قالتها داليا صحيحة، وخاصة تاريخ عيد ميلادها هذا. إن الرقم بالفعل هو تاريخ عيد ميلادها ما في ذلك من شك. لماذا إذا كتبته ربما في مفكرتها بتلك الطريقة التي لا توحي بأنه تاريخ بل رقم عادي، وهل كتبته كمعلومة عنها جمعتها عندما كانت تبحث عن أختها يارا أم كتبته لسبب آخر لا تعلمه.

أفاقت على صوت جرس هاتفها المحمول، أخرجته وأحست بارتياح عندما قرأت اسم يحيى على الشاشة. كأن الله بعثه لها في تلك اللحظة التي تشعر فيها بالحيرة الشديدة ليهدئها ويعيد لها الأمان. كانت داليا تحاول الاتصال بمحمد زوجها لتمليه رقم الحساب لعله يستطيع بنفوذه في مجال البنوك أن يصل إلى أي معلومة تفيدها عندما خرجت من الغرفة لتجيب يحيى مبتسمة:

- آلو.

فقال في ارتياح عندما أحس بسعادة في نبرة صوتها:

- صباح الخير يا أستاذة يارا.

- صباح النور.

- إيه الأخبار النهارده؟ يا رب تكوني أحسن من الأول؟

فقالت ساخرة:

- والله أنا كنت أحسن لحد النهارده الصبح.

فتساءل في توجس:

- وبعدين إيه اللي حصل؟

فقصت عليه سريعا كل ما حدث بينها وبين داليا منذ دقائق ثم ختمت حديثها قائلة:

- أنا بقى بافكر أروح النهارده للجواهرجي بتاعي مسيو فايز جورج يمكن يعرف يفتح الدلاية دي.

- هي فكرة كويسة بس النهارده الحد، يعني أكيد مسيو جورج هيبقى قافل.

- عندك حق، خلاص أنا هاروح له بكرة وهاخد أجازة أو إذن من الشغل اللي أنا هاترفد منه ده.

ضحكا على تعليقها المناقض في طرافته للموقف، وختم يحيى ضحكته قائلا:

- خلاص وأنا هاجي معاكي بكرة.

كفت عن الضحك وقالت متصنعة التمنع وإن ملأتها دهشة وسعادة من موقفه:

- لا لا يا أستاذ يحيى، مالوش لازمة تتعب نفسك وتعطل شغلك.

فقال مسرعا:

- لا مافيش تعب ولا عطلة ولا حاجة. مش فايز جورج ده اللي موجود في شارع الزهمة؟

- أيوه.

- ده جنب بيتي جدا وأنا أقدر أروح الشغل بكرة متأخر من غير ما أترفد ولا حاجة.

قالها ساخرا لتتخلى عن تمنعها ولم يكن يعلم أنها لم تكن في حاجة إلى ذلك لتقتنع، بل وتكون سعيدة لإحساسها بمدى اهتمامه وإصراره على أن يكون بجانبها. تظاهرت بالتخلي عن رفضها ثم سألته متعجبة من أنها نسيت هذا الشأن:

- عرفت أي حاجة عن نادر أو دانية جميل؟

قال في أسف:

- لا لسه، بس ماتقلقيش أنا شغال على الموضوع وإن شاء الله هاوصل لنتيجة قريب، يمكن كمان قبل بكرة.

سمعت صوت داليا وهي تناديها من الداخل فقالت متوددة لتنهي الحديث:

- ماعلش يا أستاذ يحيى أنا مضطرة أقفل دلوقتي عشان عندي شغل، هاشوفك بكرة إن شاء الله الساعة عشرة الصبح عند فايز جورج الجواهرجي.

- إن شاء الله، مع السلامة.

أغلقت الهاتف المحمول وعادت إلى الغرفة مرة أخرى وقد ملأتها دهشة شديدة من تلك السعادة التي تشعر بها الآن عندما أدركت أن يحيى لم يتصل بها ليبلغها بخبر أو يقول لها شيئا، بل اتصل بها لينفذ ما وعدها به من قبل، "فقط أن يطمئن عليها".

لمزيد من الكتب العصرية

## (٢٣)

كان يقف خلف منصته الزجاجية كعهدها به، متوسط الطول والامتلاء، أبيض الشعر كثيفه على الرغم من صلع خفيف في المقدمة. يرتدي قميصا وبنطلونا ووشاحا لامعا يربطه حول رقبته ويدخل نصفه الأسفل خلف القميص.

ما إن رآها حتى تهللت أساريره وخرج من خلف المنصة فتناول يدها ولثمها في رقة وهو يقول مرحبا:

- أهلا أهلا يارا هانم. بقى لنا كتير ماشفناكيش.

أجابته مبتسمة في شبه حياء:

- ماعلش يا مسيو فايز بس الدنيا مشاغل وحضرتك سيد العارفين.

ضحك ضحكة خافتة مجاملة لها ثم دعاها لتجلس قبل أن يعود إلى موقفه خلف المنصة متسائلا:

- تشربي إيه؟

- لا لا ولا حاجة، مالوش لازمة.

- لا طبعاماينفعش.

أشار لعامل عنده فأحضر لها علبة عصير مغلقة فشكرته وقد بدأ القلق ينتابها عندما لاحظت أن يحيى قد تأخر وهي لا تريد أن تبدأ حديثها دون أن يكون موجودا. لكن مسيو فايز استكمل حديثه وهو يرمق أصابعها في خبث:

ساحر الكتب fb.com/Sa7er.Elkotob/

- كنت هازعل قوي لو كنت لقيت حضرتك اتخطبتي وماجيتيش تاخدي الشبكة من عندي.

فابتسمت وهي تقول محاولة إخفاء المشاعر المتناقضة التي تنتابها عندما تأتي تلك السيرة:

- لا ماتخافش يا مسيو فايز. أنا لو اتخطبت مش هالاقي حد تاني أثق فيه غير حضرتك.

استطرد مسيو فايز في حماس دون أن يلتفت إلى قلقها الذي يزداد:

- أنا بقى عندي collection سوليتير لسه واصلة من روما من يومين بس، ماينفعش ماتاخديش منها حاجة.

استوقفته بسرعة قائلة في توسل:

- لا لا يا مسيو فايز أرجوك، أنا مش هاقدر أشوف سوليتير أنا جاية عشان حاجة تانية مهمة جدا.

ما إن أنهت كلمتها حتى دخل يحيى، أنيقا ومبتسما كعادته. قال في هدوء:

- صباح الخير.

أجاباه معا:

- صباح النور.

ثم استطردت يارا مبتسمة في ارتياح عندما وجدته أمامها في اللحظة المناسبة بعدما وصل قلقها إلى مداه:

- الأستاذ يحيى من الخارجية. مسيو فايز جورج صاحب المحل.

حياه مسيو فايز مبتسما ودعاه للجلوس. جلس يحيى على المقعد المواجه ليارا بينما أتى العامل بعصير آخر ليحيى دون حتى أن يشير إليه مسيو فايز الذي ظل واقفا بينهما خلف المنصة.

استردت يارا هدوءها واستمدت من نظرات يحيى المشجعة لها طاقة لتبدأ حديثها قائلة:

- السلسلة دي يا مسيو فايز بعتتها لي واحدة صاحبتي عايشة برا. وأنا باقلب فيها اكتشفت إن الدلاية دي ممكن تتفتح بمفتاح بس للأسف المفتاح مش معايا. فأنا قلت يمكن حضرتك تقدر تتصرف وتفتحها عشان أنا عاوزة أحط فيها صورة ماما الله يرحمها.

مد مسيو فايز يده نحوها فخلعت السلسلة وأعطتها له. تناولها وأخذ يتفحصها بعيني خبير متمرس ثم قال في دهشة شديدة دون أن يرفع عينيه من على القلادة التي بين يديه:

- مش معقول!

تساءلت يارا وقد انتابها قلق من نبرته المندهشة:

- خير يا مسيو فايز؟

أجابها ولم تزايل الدهشة صوته بعد:

- أكيد صاحبتك اللي بعتت لك السلسلة دي عايشة في لندن مش كده؟

تبادل يحيى ويارا نظرات مرتابة قبل أن يتساءل يحيى محاولا إخفاء دهشته خلف ابتسامة طبيعية:

- حضرتك عرفت إزاي؟

أجابه مسيو فايز بنبرة تشي بسعادة لصواب تخمينه:

- عشان السلسلة دي كانت ضمن الcoconut collection اللي نزلت في لندن السنة اللي فاتت، دي مجموعة قيمة جدا. حضرتك يا آنسة يارا لازم تكوني مهمة عند صاحبتك دي عشان تجيب لك حاجة précieuse كده.

ابتسمت يارا ابتسامة شاحبة وهي تتذكر ما قالته ندى عن أن تلك السلسلة كانت هدية نادر لريما بينما قال يحيى مستفسرا:

- المهم يا مسيو فايز، حضرتك تقدر تفتح الكوكوتت دي؟

فقلب مسيو فايز شفتيه قائلا في شك:

- أنا ممكن أحاول، بس المشكلة إن فيه احتمال إن الكوكوتت تتكسر مني غصب عني وأنا باحاول أفتحها بحاجة تانية غير مفتاحها الأصلي.

عندئذ، انتفضت يارا في مجلسها كأنما لدغها عقرب، بدت مذعورة عند سماع هذا الاحتمال الذي بدا لها قاسيا وخطيرا بدرجة غير طبيعية، خطفت السلسلة من يده كأنها تنقذها ووضعتها بسرعة حول عنقها وهي تقول في حسم:

- لأ، أنا مش هاخاطر بالسلسلة، دي أمانة بعتتها لي ريما وأنا لازم أبقى قدها.

كانت تتكلم باصرار عجيب حتى أن يحيى تردد قليلا قبل أن يقول:

- طب افرضي إن الكوكوتت كان فيها حاجة مهمة؟

فقالت وقد ازداد عنادها وإصرارها:

- مش مهم، هي أكيد كانت عارفة مفتاح السلسلة فين، ولما ييجي الوقت المناسب هيظهر المفتاح وهاعرف كل حاجة. أنا واثقة في ريما.

بدت الكلمة لأذنها غريبة، كما بدا عنادها ليحيى عجيبا ولذيذا في نفس الوقت، فتوقف الحديث بينهما لحظات حتى يهدأ الموقف قبل أن تتناول حقيبتها قائلة وهي تهم بالنهوض أمام دهشة مسيو فايز الذي لم يفهم شيئا من الحديث الذي دار أمامه:

- ميرسي قوي يا مسيو فايز وآسفة عشان عطلت حضرتك.

فأسرع الرجل يقول في توسل بعدما وجدها تهم بالذهاب:

- لا مش ممكن يا هانم، معقولة هتمشي من غير ما تشوفي collection السوليتير. باقول لك دي لسه جاية من روما وصدقيني مافيش حد شافها قبل حضرتك.

نظرت يارا نحوه في ضيق وغمغمت معترضة وقبل أن يعلو صوتها قاطعها يحيى موجها حديثه لمسيو فايز:

- خلاص يا مسيو فايز هات الcollection، مافيش مانع نتفرج عليها.

أسرع مسيو فايز ليحضر المجموعة وقد ملأت السعادة كل ملامحه بينما نظرت يارا في اندهاش شديد نحو يحيى الذي أسرع يقول مفسرا موافقته:

- أصل عيد ميلاد ماما عدى وماجبتلهاش هدية وأظن دي فرصة كويسة عشان أجيب لها حاجة محترمة.

ثم صمت قليلا قبل أن يقول وقد ثبت عينيه داخل عينيها:

- و برضو فرصة كويسة إنك معايا عشان تنقي لها حاجة على ذوقك.

جاهدت لتبتسم دون أن يبدو على وجهها الاضطراب الذي حدث بداخلها قبل أن تلتفت نحو المنصة وتدفن عينيها في صندوق من القطيفة السوداء ممتلئ بخواتم من السوليتير اللامع بأشكال وأحجام مختلفة اختلط بريقها ببعضها البعض فبدت كتحف فنية صغيرة مرتبة في تناسق لتخطف الأبصار.

أول ما خطف بصرها كان خاتما رقيقا يتكون من دوائر صغيرة ملتصقة ببعضها البعض حول الأصبع حتى تلتهي بفص ماسي مقطوع على الشكل الدائري round cut مثبت في بقية الخاتم بأربع أذرع صغيرة من الأربع جهات.

كان جميلا ورقيقا إلى درجة جعلتها تنسى أنها يجب أن تبحث عن خاتم يليق بامرأة ناضجة مثل والدة يحيى فمدت يدها والتقطته ووضعته بخفة في أصبعها وأخذت تتأمله مأخوذة برقته حتى أفاقت على صوت يحيى وهو يتساءل:

- هو ده اللي اخترتيه؟

نظرت نحوه للحظة حتى عادت إلى وعيها ثم أسرعت تقول وهي تبحث مرة أخرى بين الخواتم:

- لا لا، ده مابينفعش طنط خالص. ثانية واحدة.

مدت يدها والتقطت خاتما آخر ذا طوق أضخم حول الأصبع يمتلئ بنقوش متداخلة وينتهي بفص ماسي مقطوع على شكل الأميرة princess cutفبدا جميلا وأنيقا وفي نفس الوقت يليق بامرأة ناضجة وأم.

أعطته ليحيى وهي تتساءل مبتسمة:

- إيه رأيك في ده؟ بيتهيألي ده أحسن واحد وأكتر واحد يليق على طنط.

فأخذه منها ونظر نحوه بسرعة قبل أن يعطيه لمسيو فايز قائلا في بساطة:

- خلاص هاخد ده يا مسيو فايز.

فتساءلت مندهشة:

- طب مش تبص كويس يمكن مايعجبكش، أو يمكن يعجبك واحد تاني أكتر؟

فأجابها مبتسما:

- أولا أنا مابافهمش في الحاجات دي، وثانيا وده الأهم أنا واثق في ذوقك ومش هاراجع عليه.

ابتسمت في سعادة، ليس فقط من هذا الكلام الذي يلمس قلبها ولكن من إحساسها بصدقه واهتمامه برأيها في شيء خاص مثل هدية والدته.

أشار مسيو فايز نحو الخاتم الذي نسيته في أصبعها وقال:

- خلاص يا هانم هتاخدي الروند ده كمان؟

فنظرت إلى أصبعها قبل أن تخلع الخاتم وتعيده له قائلة:

- لا لا يا مسيو فايز ميرسي. أنا مش هاقدر آخد حاجة النهارده.

فتساءل في ضيق:

- ليه بس يا هانم؟

- ماعلش أصل أنا مش في mood شرا خالص، بجد مش قادرة أجيب حاجة.

فنظر نحو الخاتم ومط شفتيه وهو يقول في حسرة:

- بس ده أصله حلو قوي وبجد خسارة.

- ما أنا عارفة والله وشيك جدا والوحيد اللي لفت نظري بس ماعلش اعذرني يا مسيو فايز.

ثم التفتت نحو يحيى الذي كان يتابع الحديث باهتمام وقالت:

- أنا هاستناك برا لحد أما تخلص وتحاسب.

خرجت من المحل وأجابت كريم الذي كان يتصل بها على الهاتف المحمول:

- أيوه يا كريم.

- يارا، إزيك؟

- الحمد لله، إنت عامل إيه؟

- مش كويس عشان مش عارف أشوفك خالص.

تجاهلت تلميحه لها بهذه الجملة وأجابت متظاهرة بالضيق:

- ماعلش يا كريم إنت عارف الشغل بيخلي الواحد يلف حوالين نفسه.

- بس أنا عاوز أشوفك قريب.

- خلاص ممكن في الويك إند.

- لا الويك إند بعيد قوي، تعالي نتقابل النهارده.

- لا يا كريم النهاردهماينفعش أنا عندي شغل ومش قادرة.

كان يحيى قد خرج في تلك اللحظة وسمعها وهي تقول تلك الجملة، تحركت بداخله مشاعر متداخلة تشبه تلك التي شعر بها يوم المطار، شيء كنار تشب بداخله ولولا أنه إنسان رزين ومتوازن لكان لتلك المشاعر مردود على وجهه وربما أيضا أفعاله. ظل واقفا على مسافة منها حتى لا يتطفل عليها ولكنه كان قادرا على سماع باقي حديثها:

- يعني أعمل إيه يا كريم باقول لك عندي شغل كل الأيام اللي جاية ومش هافضى قبل يوم الجمعة خالص.

- ..

- أنا مش فاهمة إنت زعلان ليه؟ دي حاجة مش بإيدي.

- ..

- خلاص خلاص، ابقى كلمني بكرة أكون حاولت أفضي معاد تاني قبل الجمعة. باي باي.

أنهت المكالمة بعصبية، التفتت فوجدت يحيى يقف خلفها فابتسمت متغلبة على ضيقها وهي تقول:

- مبروك على الخاتم.

لمزيد من الكتب المصرية

- الله يبارك فيكي. البركة في اللي اختارت.

ابتسمت محاولة إخفاء حيائها ثم تساءلت متذكرة:

- وصلت لحاجة في موضوع نادر ودانية جميل؟

فقال مندهشا:

- أيوه. إزاي ماقلتلكيش؟ نادر ودانية سافروا مع بعض نفس يوم وفاة ربما من لندن لبيروت في طيارة الساعة اتنين ونص الظهر. نفس الطيارة اللي سافرت فيها سيرين هانم مرات منصور بيه. بس إيه اللي حصل لهم بعد كده أو راحوا فين في لبنان فده لسه مانعرفهوش. بس إن شاء الله هاحاول أوصل له قريب.

فأومأت برأسها دون أن تجد ما تقوله. أحس أن الحوار سينتهي فأسرع بتبديله قائلا:

- إنتي رايحة فين دلوقتي؟

- المفروض أرجع الشغل بس أنا بجد مش قادرة.

تردد قليلا لكنه قال متحديا رفضها للقاء كريم وكأنه يختبر هل ستعامله مثلما عاملت كريم أم لا:

- علي فكرة. إنتي ليكي عندي قهوة من ساعة يوم المطار.

فابتسمت وهي تقول:

fb.com/Sa7er.Elkotob/

- ياااه. إنت لسه فاكر؟!

- أكيد طبعا. ينفع بقى أعوضك عن القهوة دي النهارده؟ كمان عشان نشيل التكشيرة الوحشة دي.

اتسعت ابتسامتها أمام ابتسامته. كيف يستطيع أن يفهم احتياجاتها في كل لحظة هكذا؟ أومأت برأسها موافقة ثم قالت مداعبة:

- اختار إنت المكان أنا مش هاختار كل حاجة بقى. وأنا هامشي وراك بعربيتي.

وثب في سيارته وقد غمرته سعادة شديدة لأنه أحس أنه انتصر عندما قبلت دعوته بعد أن رفضت دعوة كريم هذا بدقائق. بينما سارت هي خلفه بسيارتها وقد ملأها اندهاش من نفسها ومن هذا التبدل الذي أصاب موقفها في لحظة وإن لم يكن لهذا الاندهاش أي تأثير سلبي على السعادة التي كانت تشعر بها.

(٢٤)

استطاعت يارا أن تسوف موعد مقابلة كريم حتى يوم الجمعة. عندما ذهبت معه إلى صحراء صقارة حيث أقام أصدقاؤه معسكرا صغيرا لقضاء اليوم كله أمام الهرم المدرج في الشمس والهواء. نصبوا خيمة كبيرة مفتوحة تماما من الأمام مثل خيام البدو. أشعلوا نيرانا للشواء وأداروا أغاني عربية وأجنبية أخذت أنغامها تختلط بضحكاتهم وصرخاتهم وهم يركضون ويرشون المياه على بعضهم البعض.

اندمجت يارا معهم أكثر من المرة السابقة عندما كانوا يجلسون على النيل. أخذت تساعدهم هي وكريم في نصب الخيمة وإعداد الأطعمة قبل أن تستغرق في اللعب والضحك على الرغم من أن ملابسها كانت قد ابتلت تماما.

وبعد أن هدأ لعبهم وانطلاقهم قليلا جلست مع كريم على صخرة في الشمس لتجفف ملابسها. عندما اتصلت بها داليا على هاتفها المحمول فأجابتها وهي لا تزال جالسة بجانب كريم:

- آلو. أيوه يا داليا.

فجاءها صوت داليا متهكما وهي تقول:

- أيوه يا هانم. إيه أخبار الصحرا؟

أدركت يارا أن داليا تتحدث هكذا لعدم رضاها عن خروجها مع كريم فأجابتها وهي تكتم ضحكها:

- الصحرا حلوة وبتسلم عليكي.

فقالت داليا وقد ازداد تهكمها وغيظها:

- بتسلم عليا؟ الله يسلمها ياختي. باقول لك إيه اسمعي الكلمتين اللي أنا عاوزة أقولهم لك عشان أنا مش فاضية زيك. أنا ورايا عيال وطبيخ.

- خير؟

- محمد قال لي إن رقم الحساب ده في بنك في سويسرا. CH اللي في أول الحساب دي كود بيبقى في أول أرقام الحسابات اللي في بنوك سويسرا.

هتفت يارا في دهشة شديدة:

- معقولة!

- أيوه. بس في الحالة دي محمد مش هيعرف يعمل لك حاجة. أنا آسفة بجد.

- لا لا ماتتأسفيش يا حبيبتي. شكرا إنك تاعبة نفسك إنتي ومحمد عشاني أصلا.

- لا ماتقوليش كده يا بت إنتي. باقول لك أنا هاقفل بقى دلوقتي عشان ورايا حاجات ماشي؟ خدي بالك من نفسك.

- حاضر. مع السلامة.

- سلام.

أغلقت يارا هاتفها وإن ظلت آثار التفكير باقية على وجهها. تساءل كريم في قلق:

- خير يا يارا؟ كان فيه إيه التليفون ده؟

رسمت ابتسامة صفراء على شفتيها وهي تقول:

- مافيش حاجة. ماتشغلش بالك.

فقال كريم في تضجر:

- أكيد موضوع ربما تاني. يا يارا ارحمي نفسك. مافيش حاجة مستاهلة كل اللي بتعمليه ده. وفي الآخر برضو مش هتوصلي لحاجة.

فأجابته وقد ازداد ضيقها بسبب موقفه:

- كريم. قلت لك قبل كده إن الموضوع ده بالنسبة لي جد ومهم. لو هتقول فيه حاجة كويسة ماشي. لو هترجع تاني للاستهتار بيه بالطريقة دي يبقى بلاش تتكلم فيه أحسن.

فأسرع يقول:

- خلاص خلاص. بلاش منه. أنا بس كان كل اللي هامني هو تعبك ومضايقتك دي مش أكتر.

فعاد الهدوء إلى صوتها وهي تقول:

- لا مايهمكش.

فثبت عينيه على وجهها وهو يقول في صوت خفيض:

- إزاي بقى مايهمنيش؟ لو إنتي ماتهمينيش يبقى مين تاني في الدنيا هيهمني؟

انتابها قلق من تلك النبرة الحنون وهذا الكلام الجميل. رأت أمامها كريم آخر كانت قد نسيته منذ خمس سنوات. يحاول العودة مرة أخرى ليتسلل إلى قلبها كما فعل من قبل. لكن هيهات. لقد

علمتها الحياة والتجربة الكثير والكثير، لذا لن تتركه ليتمادى فيما قد انتوى أن يفعله، ستطرق الحديد وهو ساخن. قالت في نبرة جادة مفاجئة إياه بسؤالها الغريب:

- كريم هو انت عارف أنا باخرج معاك ليه؟

انتابته دهشة شديدة عقدت لسانه فاستهلك ثواني من الصمت قبل أن يتساءل محاولا إعادة الابتسامة إلى شفتيه:

- ليه؟

- عشان أنا ماباشوفش صحاب الجامعة خالص، زي ما قلت لك قبل كده، كل اصحابي يا سافروا يا اتجوزوا وانشغلوا في حياتهم. عشان كده أنا لقيت إن دي فرصة جميلة إني أرجع تاني أيام وذكريات الجامعة معاك ومع صحابك حتى ولو ماكانوش صحابي قوي زمان.

فعاد يخفض صوته وهو يقول في نبرة تمتلئ لوما:

- بس كده؟ هو ده سبب خروجك معايا بس؟ مافيش سبب تاني؟

فتساءلت بجرأة لم تكن موجودة فيها من قبل:

- سبب تاني زي إيه؟

- زي إنك تكوني مثلا حاسة باللي أنا حاسس بيه.

فابتسمت نصف ابتسامة قبل أن تقول في جدية:

- كريم، إنت لسه خارج من أزمة نفسية، وبتحاول تدور على ناس كنت تعرفهم وبتحبهم عشان يرجعوك زي ما كنت، ولما لقتني حسيت من جواك إن دي فرصة كويسة إنك تنسى وتكمل حياتك اللي إنت كنت راسمها زمان، وبالتالي بدأت تحس بحاجات زي اللي كنت بتحسها زمان ناحيتي، بس أنا باقول لك يا كريم إن مشاعرك دي نوع من الهروب، احتمال كبير قوي تكون مش حقيقية، وحتى لو حقيقية، أنا باقول لك أهو إن زمان ماينفعش يرجع تاني، عشان كده ماتحاولش ترجعه.

أجابها في حماس شديد مستميتا للدفاع عن نفسه:

- أنا كنت عارف إنك لسه زعلانة مني، بس صدقيني يا يارا، أنا كنت فاكر إني نسيتك، بس بعد ما رجعت أشوفك تاني رجعت أحس ناحيتك بحاجات حقيقية، مش بس زي زمان، إنما كمان أكتر من

لمزيد من الكتب العصرية

زمان، ورجعت أندم على كل اللي حصل. صدقيني اللي حصل زمان ده كان غصب عني، لولا ماما وبابا ضغطوا عليا كان زماننا...

فقاطعته قائلة في حسم:

- كريم ده مش وقت عتاب ودفاع، وقت العتاب خلص وعدى من خمس سنين. إننا نرجع نتكلم ونتعاتب تاني فده معناه إن ممكن حاجة ترجع تاني بينا. وده مش هينفع يحصل. زمان مش هينفع يرجع تاني يا كريم، عشان كده أنا باترجاك إنك تنسى كل اللي فات وتحاول تحافظ على صداقتنا. أرجوك.

صمت قليلا ليتمالك نفسه قبل أن يقول في نبرة منهزمة:

- علي العموم يا يارا صداقتك بالنسبة لي مش حاجة قليلة. أوعدك إني هاحافظ عليها على قد ما أقدر، وأوعدك كمان إني مش هاضايقك ولا هاحاول أفتح الموضوع ده تاني. أما بقى اللي جوايا، فده اللي مش هاقدر أوعدك بإني أقدر أغيره أو أنساه.

وضعت راحتها على ظهر يده وهي تقول في رقة:

- إنت حر طبعا، بس عشان خاطري حاول تتخلص من المشاعر دي قريب عشان مصلحتك إنت وعشان كمان نقدر نحافظ على صداقتنا زي ما هي.

أومأ برأسه مبتسما. ليست مقتنعة بأنه جرح كما يبدو على وجهه. كريم ليس بهذا الضعف الذي يتظاهر به، ليس من النوع الذي تتحكم فيه مشاعره، تغير بعد ما حدث له ولكن ليس إلى تلك الدرجة. ربما يكون قد صدم من كلامها وموقفها الذي لم يتوقعه أو على الأقل لم يتوقع أن تكون بتلك القوة. علي أي حال، إنها الآن مرتاحة وسعيدة جدا. يجب أن يعلم أن بعد ما حدث لها بسببه لن يكون من السهل أن تفكر فيه مرة أخرى أو أن تعود إليها مشاعر الماضي. يجب أن يعلم أن القطيعة والزمن والجرح أقاموا بينها وبينه سدا لن يستطيع أن يهدمه مهما فعل. كان يجب أن توضح موقفها مما يحاول فعله حتى إذا ما عاد إليه مرة أخرى سواء بالحديث أو بالفعل - وهو ما هي موقنة منه - تستطيع أن تمنعه في حسم وقسوة ووضوح دون أن يتهمها بأنها جعلته يشعر نحوها بحبها القديم.

(٢٥)

"لن أذهب غدا إلى الشركة كما لم أذهب اليوم. غدا اجتماع الجمعية العمومية وهم لا يحتاجون إلي فيه. حتى لو كانوا يحتاجون إلي. سأقول لهم أي حجة ليتركوني وشأني. ماذا إن لم يقتنعوا؟ سواء اقتنعوا أم لم يقتنعوا لقد اتخذت قرارا ولن أتراجع عنه. لن أذهب غدا مهما حدث".

كانت جالسة فوق فراشها وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها، ملتصقة بالجدار الذي بدت برودته في هذا الحر جميلة وملطفة حتى ازدادت تلك البرودة بسبب كثرة التصاقها بالحائط فأصبحت مؤلمة وسخيفة.

وعلى الرغم من ذلك لم تفكر ليديا في القيام من فراشها أو حتى الابتعاد قليلا عن الحائط. ظنت أنه ربما ساعدت تلك البرودة على تحويل مجرى تفكيرها الذي لا يزال يعذبها منذ تلك اللحظة التي لا تستطيع التوقف عن تذكرها مرارا وتكرارا منذ أن عاشتها وحتى الآن.

ماذا يجعلها متأثرة هكذا بما حدث؟ ألم تعتد بعد ما يفعله رأفت بها منذ أن عرفته وأحبته؟ طالما تجاهلها وعذبها ثم أشعرها بالاهتمام وملأها سعادة وأملا في المستقبل قبل أن يعود ليخيب آمالها ويتجاهلها مرة أخرى ناسيا كل ما قاله وما فعله معها. ما هو المختلف في تلك المرة والذي جعلها تشعر بكل هذا الاختناق والإحباط؟ هل لأن فترة تجاهله لها بعد مشاجرتهما تلك المرة قد طالت أكثر من أي مرة سابقة حتى أنها كادت تبلغ الثلاثة أسابيع؟ أم هي ثورة مفاجئة نشبت بداخلها ضده؟ لا لا إنها أضعف بكثير من أن تثور ضد رأفت حتى لو كانت تلك الثورة بداخلها فقط. إنها أضعف بكثير من أن تتخلى عن هذا الحب حتى لو كان هذا الحب هو أكثر ما يؤذيها ويعذبها.

كل ما في الأمر أن عودة رأفت إلى عادته تلك المرة كانت مختلفة إلى حد ما. أعنف مما سبق، أعنف بطريقة جعلتها تصاب بصدمتين متتاليتين، صدمة عندما ظلت عيناها معلقتين بباب الكنيسة طيلة وقت القداس دون أن يظهر كما وعدها وصدمة أخرى عندما صرخ في وجهها بكل عنف ولا مبالاة بمشاعرها أو بوعده لها.

أفاقت على صوت والدتها التي وقفت عند باب غرفتها وقالت في نبرة تمتلئ حسرة وسخرية في آن واحد:

لمزيد من الكتب المصرية

- ما تقومي تلبسي وتروحي مع أختك وهي بتجيب لبس عشان العيد لولادها، بدل ما إنتي قاعدة كده عمالة تهري وتنكتي في نفسك وتحرقي في دمك ومافيش حد دريان بيكي.

أدارت وجهها وحبست دموعها حتى ذهبت أمها من أمام الباب. كل الناس يعلمون ما يدور بداخلها، كل المقربين منها في الأسرة والعمل والكنيسة وحتى الجيران والمعارف، كلهم يعلمون أنها تحبه وتحترق من أجله بلا مقابل منه أو حتى أمل في أن يبادلها هو شعورها. كلهم يتحدثون عنها وعنه، أحيانا يدينونه لتجاهله إياها ولمعاملته السيئة معها وأحيانا أخرى يدينونها لضعفها أمامه وانسياقها خلف عواطفها دون اللجوء إلى عقلها.

كل ذلك يدور بداخلها وحولها وهي لا تزال كما هي، ضعيفة جدا أمام حبها له، تسعد عندما تتحسن معاملته على الرغم من أنها تعلم أنه تحسن مؤقت، وتصبر عندما يعود إلى طبيعته معها على الرغم من أنها تعلم أنه يكاد يكون صبرا بلا أمل.

جاء صوت والدتها من الصالون وهي تهتف قائلة:

- أختك على التليفون، أقول لها تعدي عليكي ولا لأ؟

زفرت قبل أن تهتف مستسلمة:

- أيوه قولي لها تعدي، أنا هاقوم ألبس أهو.

علي الرغم من تثاقلها لكنها نهضت لتغير ملابسها. ضغطت على نفسها لتخرج مع أختها ربما تستطيع أن تتخلص من تلك الحالة المحبطة التي تنتابها وتتغذى على روحها كما يتغذى القمل على الخرق البالية.

ربما استطاعت أن تعود إلى طبيعتها الباردة التي تتلقى بها كل الصدمات من رأفت بنفس راضية ومعتادة على كل ما يصدر منه سواء بقصد أو بدون قصد.

لا تعلم إن كان خروجها الآن سيكون مفيدا ومؤثرا في إعادتها إلى طبيعتها أم لا، ولكن ما تعلمه حقا هو أنه حتى لو عادت إلى المنزل سعيدة وراضية كأن شيئا لم يكن فإنها لن تذهب غدا إلى العمل مهما حدث.

(٢٦)

أكثر من عشرين يوما مروا منذ أن وصلها صندوق ريما الأسود وما تبعه من محاولات للوصول إلى شيء دون جدوى تذكر، قبل أن تتذكر يارا فجأة تلك الفكرة التي كانت قد أوحت ندى بها إليها من قبل لكنها لم تلتفت لها، الـfacebook، كيف نسيته؟ إنه بارقة أمل لا يستهان بها بعد أن أغلقت في وجهها كل الأبواب. ربما وجدت عند ريما أو عند صديقاتها خيطا يقودها إلى ما يساعدها على حل لغز هذا الصندوق الذي قلب حياتها منذ أن استلمته. وحتى لو لم تصل إلى شيء، ستكون محاولة جيدة ترضي بها ضميرها الذي بات فجأة يخشى الإحساس بأي تقصير نحو تلك الأخت المجهولة.

جلست أمام شاشة الكمبيوتر وقد وضعت بجانبها كوبا كبيرا من النسكافيه استعدادا لرحلة قد تطول في هذا العالم الافتراضي، فتحت صفحتها التي أصبحت تهمل في متابعتها منذ أن التحقت بالعمل وانقطعت عن أصدقائها، بدت مأخوذة أمام كل الأخبار والأحداث الجديدة التي ظهرت أمامها وقضت فترة من الوقت وهي تتصفح صفحات أصدقائها وصديقاتها وتتابع تعليقاتهم وتبتسم وهي تتذكر أيام المدرسة والجامعة وذكرياتها مع كل واحد فيهم.

وعندما أحست أنها قرأت وتابعت كل ما يمكن ويهمها أمره تذكرت السبب الأساسي الذي جعلها تفتح الـfacebook اليوم، أخذت نفسا عميقا وضمت أصابعها ثم بسطتها قبل أن تمدها نحو لوحة المفاتيح وتكتب في خانة البحث "ريما أبو بلاط". ظلت تبحث لفترة حتى وجدت صفحتها تحت اسم "ريما منصور"، لم تكتب اسم العائلة مثلما لم تفعل يارا، ولكن يارا فعلت ذلك حتى لا يعلم أحد أنها ابنة منصور أبو بلاط، فما هو دافعك أنت يا ريما إلى فعل ذلك؟

كانت تضع صورة عيد الميلاد الموجودة على شاشة الـipad كصورة أساسية للصفحة أو profile picture. وعلى الرغم من أن يارا لم تكن صديقة لريما على صفحتها إلا أنها استطاعت أن ترى الكثير من محتوياتها التي تركتها ريما ليراها كل الناس وليس أصدقاؤها فقط. أخذت يارا تشاهد صورها مع أصدقائها وفي المدرسة، كم تبدين يا ريما مرحة ورقيقة ومتواضعة في كل صورك، في ملابسك وابتسامتك، في تعليقاتك المرحة أسفل كل صورة، كم تتشابهين معي حتى في طريقة الوقوف والجلوس والمزاح مع الأصدقاء.

توقفت تلك الأفكار عندما ظهر ما استرعى انتباهها، إحدى صديقات ريما التي تبدو معها في أكثر من صورة، بيضاء ذات شعر أسود قصير تكاد أطرافه تلمس أسفل وجهها، ما لفت انتباهها حقا هو اسمها، مونيكا، نفس الاسم المكتوب في البطاقة التي كانت موجودة داخل الصندوق. في سرعة حركت السهم نحو اسمها وضغطت عليه وفي ثانية كانت صفحة مونيكا مفتوحة أمامها. لم تجد الكثير لتتفحصه، أخفت تلك الفتاة معظم محتويات صفحتها، لذا أخذت ريما تتنقل في ضجر بين المعلومات السطحية التي كتبتها مونيكا عن نفسها مثل عيد ميلادها واسم مدرستها وهواياتها. وفجأة، خطرت ليارا فكرة جعلت قلبها ينتفض، مجرد التفكير فيها جعلها تتنفس بصعوبة على الرغم من أنها لو كانت حقا صحيحة لساعدتها على حل الكثير من الأشياء الغامضة.

أفاقت على صوت جرس الباب، أمسكت بكوب النسكافيه ونهضت لتفتح باب الشقة وهي مستغرقة في أفكارها عندما صدمتها المفاجأة الثانية، لم تكن تلك المفاجأة إلا شفيق الذي وجدته يقف أمامها مبتسما في ثقة.

نظرت نحوه وقد عقدت الدهشة لسانها بينما اتسعت ابتسامته وهو يبادر قائلا:

- إزيك يا يارا؟

ازدردت ريقها بصعوبة قبل أن تقول محاولة استرداد وعيها:

- الحمد لله.

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- إيه؟ هتسيبيني واقف على الباب كده؟ النهارده السبت وماعندكيش شغل زي المرة اللي فاتت، يعني أكيد عندك وقت تقعدي معايا شوية، خصوصا واني جاي لك في موضوع مهم جدا.

بدأت تستعيد حالتها الطبيعية وهي تقول محاولة إضفاء البرود على ملامحها وصوتها:

- آه طبعا، اتفضل.

دخل شفيق وقد بدا مختلفا تماما عن المرة السابقة التي جاء فيها شبه راج حتى تحل يارا مشكلة ريما المعقدة، أما الآن فهو يخطو في ثقة شديدة والابتسامة لم تزايل شفتيه، كأنه يملك بداخله قوة تجعله يستهتر بكل ما حوله حتى دهشة يارا ثم البرود الذي تحولت إليه.

جلس على نفس مقعد المرة السابقة ثم رفع رأسه وقال مبتسما في هدوء:

- قهوتي سادة.

نظرت نحوه في بلاهة وقد عادت إلها دهشتها من ثقته وجرأته، قبل أن تغمض عينها وتفتحهما لتستوعب الموقف ثم تستدير وتدخل المطبخ لتعد القهوة السادة التي شعرت أنها تجلس مكانها فوق الموقد، كانت تشتعل غيظا منه وفضولا لتعلم ما هذا الذي أتى به إلها وما هو هذا الموضوع الهام الذي يود التحدث فيه. ألم يلته موضوع ربما؟

ضبطت أعصابها واستعادت قدرا من برودها وهي تحمل الصينية وتخرج بها وتقدمها له. تناول الفنجان وأخذ يرتشف من القهوة في هدوء تاركا إياها تحترق بنار فضولها وإن ظلت محافظة على ثباتها وهي جالسة أمامه ترمقه في صمت، وضع الفنجان على المائدة بعدما أنهى قهوته ثم عاد يتخذ مجلسه وقد وضع ساقا على ساق وهو يقول:

- طبعا إنتي بتسألي نفسك أنا إيه اللي جابني النهارده على الرغم من إن موضوع ربما خلص خلاص، بس الحقيقة أنا جاي النهارده عشان موضوع تاني خالص.

صمت لحظة قبل أن يستطرد قائلا:

- طبعا إنتي عارفة إن من ساعة ما منصور بيه دخل الغيبوبة والمجموعة من غير رئيس مجلس إدارة.

أومأت برأسها محاولة التوصل إلى ما يرمي إليه شفيق الذي استكمل في هدوء:

- و بما إن من المستحيل توقع منصور بيه هيفوق إمتى ويرجع يباشر شغله تاني، اضطرينا نعمل جمعية عمومية عشان نتوصل لحل ينقذ المجموعة من المشاكل اللي هي فها. وعشان ماطولش عليكي أنا جاي النهارده بصفتي العضو المنتدب عشان أقول لك على النتيجة النهائية للجمعية.

ثم صمت تاركا إياها تتأرجح بين الفضول والحيرة قبل أن يقول في ثبات:

- الجمعية وافقت على تعيين رئيس مجلس إدارة جديد مؤقتا يقوم بأعمال المجموعة لحد أما منصور بيه يقوم بالسلامة إن شاء الله. رئيس مجلس الإدارة ده يبقى، يارا منصور أبو بلاط. حضرتك.

ازدادت بلاهتها بشدة وهي تحملق فيه محاولة استيعاب ما قاله. نفضت رأسها يمنة ويسرة وهي تضيق عينها وتشحذ ما تبقى من عقلها لتفهم هذا الذي تفوه به شفيق. تحولت بلاهتها ببطء إلى

استنكار وتركت فمها مفتوحا لوهلة محاولة تجميع الحروف وتكوين الكلام قبل أن تتساءل في صوت متحشرج:

- أفندم؟!

اتسعت ابتسامة شفيق وهو يرى تعبيرات وجهها ثم تساءل في هدوء:

- إيه يا يارا؟ ماسمعتنيش كويس؟

- لأ سمعت حضرتك، بس، مش قادرة أستوعب.

- باقول لك أعضاء الجمعية العمومية وافقوا على توليكي رئاسة مجلس الإدارة لحد أما منصور بيه يقوم بالسلامة إن شاء الله.

تساءلت في دهشة واستنكار شديدين:

- طب إزاي؟ أنا لا عندي خبرة ولا كفاءة كافيين عشان...

فقاطعها شفيق قائلا:

- ماتنسيش يا يارا إنك خريجة بيزنس وبتشتغلي في شركة إنترناشيونال، يعني عندك خبرة كويسة.

قالت وقد بدأ صوتها يرتفع:

- أيوه بس مش لدرجة إني أمسك رئاسة مجلس إدارة مجموعة ضخمة زي مجموعة أبو بلاط.

ثم هدأت قليلا وهي تقول وقد عادت الدهشة تملأ ملامحها وصوتها:

- ليه ماختاروش حد كبير ومتمرس في شغل المجموعة زي حضرتك مثلا؟

فقال شفيق في هدوء لا يتناسب مع ضخامة ما يلقيه في وجهها:

- أنا قلت لك في أول الكلام إن الجمعية العمومية وافقت عليكي، ماقلتش إنها اختارتك. اللي اختارك حد تاني.

- حد تاني؟ مين ده؟

- منصور بيه.

عقدت حاجبيها في استنكار وقد بدا كلامه لها دربا من البلاهة أو المزاح ثم تساءلت:

- منصور بيه إزاي يعني؟!

اعتدل شفيق في جلسته وهو يستفيض شارحا:

- واضح إن منصور بيه كان عنده بعد نظر وكان عامل حساب يوم زي ده، لأنه بعد ما دخل في الغيبوبة اكتشفت عن طريق المحامي الخاص بتاعه وأوراقه اللي في خزنة مكتبه، إنه من حوالي ست شهور كتب وصيته وكان من ضمن بنودها إنه عاوزك تقومي بإدارة مجموعة شركاته في حالة عدم مقدرته على القيام بذلك.

عادت الدهشة تسيطر عليها وتعقد لسانها، أرادها هي أن تتولى رئاسة مجلس الإدارة! كيف؟! قالت وقد عاد صوتها يرتفع مرة أخرى:

- أنا أمسك رئاسة مجلس الإدارة، الراجل ده بيخرف ولا إيه؟!

فانتفض شفيق وهو يقول معاتبا إياها:

- يارا، عيب كده.

أجابته بنفس الصوت المرتفع وقد تملكها الغضب وسيطر عليها الغيظ كأنها تخرج من صدرها ما كتمته سنوات:

- هو إيه ده اللي عيب؟! الراجل اللي عمره ما فكر إنه يسأل عني ولا يشوفني ولا حتى يعبرني، يوم ما يفتكرني، يورطني في توريطة زي دي، يحملني مسؤولية مجموعة شركات رأس مالها مليارات، يعرف إيه هو عني وعن حياتي عشان يعمل فيا كده ويحطني في الموقف ده؟!

فقال شفيق متحمسا:

- يا آنسة يارا والدك كان عنده بعد نظر، دلوقتي إنتي تبقي بنته الوحيدة، يعني من وجهة نظر ملاك الأسهم إنتي أكتر واحدة هتخافي على مصلحة المجموعة وفلوسها اللي هي في الآخر فلوسك.

- طب وليه أنا؟ ليه مش أخوه مصطفى أبو بلاط؟ ما هي دي تبقى فلوسه برضو؟

فتساءل شفيق مستنكرا:

- جرى إيه يا يارا؟! إنتي ناسية لما كنت قاعد هنا قريب وقلت لك على ظروف مصطفى بيه وإنه مش هيقدر يرجع مصر قبل ست شهور، وبعدين لنفرض إن مصطفى بيه أصلح منك لرئاسة مجلس الإدارة، المجموعة لو قعدت ست أيام كمان مش ست شهور من غير رئيس مجلس إدارة هتحصل كارثة بكل المقاييس، كارثة إنتي مش قادرة تقدري حجمها.

ثم أخفض صوته وقال في استعطاف مغيرا استراتيجيته:

- يا يارا ماتفكريش في نفسك ولا حتى في والدك. فكري في آلاف من الناس الغلابة اللي راحوا اشتروا أسهم شركات أبو بلاط وعمالين بيخسروا كل يوم بسبب انخفاض أسعار أسهمنا. فكري في الموظفين والعمال المهددين بفقدان وظايفهم والتشرد هما وولادهم. فكري في كل دول وفي إنك في إيدك إنتي لوحدك تنقذيهم أو تشيلي ذنبهم طول عمرك. وإذا كان على موضوع الخبرة بأعمال المجموعة والكفاءة فتأكدي إن أنا وكل أعضاء مجلس الإدارة هنكون وراكي وهنساعدك. كل حاجة هتستمر زي الأول تمام. إحنا بس محتاجين إشرافك ووجودك عشان سمعة المجموعة وثقة المساهمين والعملاء.

يا لهذا الرجل الماكر. إنه يضغط بكل قوة على أكثر نقاطها ضعفا. "الناس الغلابة والموظفين والعمال". أحقا يهمك أمرهم يا شفيق بك؟ أتكترث لهم مثلما تكترث لمصلحة المجموعة وملايينها؟ علي أي حال فإن كلامه لا يخلو من حقيقة. هؤلاء الناس هم أول من سيصاب بالضرر وهم أقل المضرورين قدرة على مقاومة الأذى. لذا وجدت نفسها تأخذ نفسا عميقا قبل أن تتساءل وقد عاد البرود إلى صوتها وملامحها:

- إيه المطلوب مني بالضبط؟

ابتسم شفيق في ارتياح عندما آنس منها بوادر اقتناع ثم أخفى ابتسامته وهو يقول:

- قدامك يومين عشان ترتبي أمورك وتاخدي أجازة من شغلك وتأهلي نفسيا للمسؤولية والشغل الجديد. ويوم التلات الجاي إن شاء الله تستلمي رئاسة مجلس الإدارة وتتعرفي على كل أعضاءها وكل موظفين مكتب منصور بيه. وإن شاء الله في خلال شهر كل حاجة هترجع زي ما كانت وأحسن.

زفرت قبل أن تقول مقتضبة في استسلام:

- حاضر يا أستاذ شفيق.

نهض ووضع بطاقة عليها أرقام تليفوناته على المائدة قبل أن يلقي تحية الوداع ويذهب. غير منتظر منها أن تجيبه أو حتى أن تصاحبه حتى باب الشقة الذي ما إن أغلقه حتى انتفضت يارا في عنف تاركة كل التوتر الذي كانت تكتمه بداخلها ينتشر على وجهها. ظلت تجوب أنحاء الشقة في خطوات سريعة وهي تقبض وتبسط أصابع يديها في توتر وغيظ. إنها تكاد تتمزق من تلك الأفكار المصطخبة. تكاد تحطم كل ما حولها من شدة توترها وغيظها من شفيق وبروده ومن منصور بك وهذا الموقف

السيء الذي وضعها فيه. وبعد فترة جلست في عنف على نفس المقعد بعد أن أنهكتها حركتها المضطربة. يجب أن تفعل شيئا أو أن تتحدث مع أحد حتى لا تفقد أعصابها وتحطم منزلها أو تفقد عقلها كله. مع من تتحدث؟ "أيوجد غيره؟" قالتها في سخرية وارتياح أعقب تذكرها وجود يحيى واستعداده الدائم للاستماع إليها ومساعدتها. بالطبع لا يوجد غيره. في أحلك المواقف والظروف لا تجد غيره، في أكثر المشاكل تعقيدا لا يساعدها غيره، وحتى في الأزمات النفسية لا يخفف عنها غيره. أخرجت هاتفها واتصلت به ولكنها سمعت تلك الجملة السخيفة تتردد في أذنها "الهاتف الذي طلبته غير متاح حاليا". أعادت الاتصال به مرات وهي تضغط الأزرار في عنف وغيظ دون فائدة. يبدو أنه أغلق هاتفه المحمول. يارب. ألهذا الحد تعجز عن فعل شيء إن لم تجده عندما تحتاجه. ماذا تفعل لتصل إليه؟ إنها تعلم أنه يكون موجودا في مكتبه يوم السبت لكنها لا تملك أرقام مكتبه. لتذهب إليه. لاحت الفكرة أمام مخيلتها كحل أخير. لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير وإعادة الحسابات. وجدت نفسها تتعلق بقرارها بلا تفكير. نهضت واستبدلت ملابسها في عجالة شديدة ووضعت كل محتويات صندوق ربما في حقيبتها وخرجت مسرعة تعقص شعرها بأيد متلهفة وهي تهبط الدرج واثبة.

(٢٧)

لم يمنعها أحد أو يسألها عن وجهتها. لا تعلم إن كان يحيى قد طلب منهم أن يسمحوا لها بالدخول مباشرة كلما حضرت دون أن يستأذنوه أم أنهم قد اعتادوا مجيئها إليه؟ لم يشغل هذا السؤال بالها سوى الدقائق التي استغرقتها لتصل أمام باب غرفة مكتبه. طرقت طرقة خفيفة قبل أن تفتح الباب في بطء. تضاءلت ابتسامتها عندما وجدت الغرفة خالية. ألم يحضر اليوم؟ كيف؟ إنها متأكدة من أنه يحضر إلى مكتبه يوم السبت. هل هو موجود وذهب إلى مكان ما وسيعود بعد قليل؟ هل تنتظره؟ ولكن أين يمكن أن تنتظره؟ هي بالطبع لن تقتحم الغرفة وتجلس فيها هكذا. كما أنه يمكن أن يكون قد عاد مبكرا اليوم أو لم يأت من الأساس. أتنتظره هكذا دون أن تكون متأكدة من أنه سيعود إلى مكتبه؟

أفاقت من حيرتها عندما فتح باب الغرفة المجاورة لغرفة مكتب يحيى قبل أن تخرج منها سيدة ثلاثينية أنيقة يبدو أنها تعمل هنا أيضا. دون تفكير أسرعت يارا لتجذب انتباهها هاتفة في صوت متردد:

- لو سمحتي من فضلك.

التفتت السيدة نحوها وقالت محاولة إخفاء اندهاشها:

- أفندم.

- هو الأستاذ يحيى مش موجود في مكتبه النهارده؟

ارتاحت قسماتها قليلا وهي تجيبها قائلة:

- لأ يحيى ماجاش النهارده.

- غريبة. أنا عارفة إنه بييجي مكتبه يوم السبت.

- أيوه مظبوط بس النهارده الذكرى السنوية لوفاة والده وهو عادة بياخد اليوم ده أجازة ويروح هو وطنط المقابر.

هتفت يارا في اندهاش غير مبرر:

- طنط؟

فابتسمت السيدة وهي تقول في تباسط:

لمزيد من الكتب الحصرية

- أيوه طنط مامته.

فاستدركت يارا متفهمة:

- آه عشان كده قافل موبايله.

- هو في اليوم ده دايما بيقفل موبايله ومابيفتحهوش خالص حتى بعد ما يرجعوا البيت، بيفضل قافله لحد تاني يوم.

قلبت يارا شفتيها وهي تهتف في ضيق شديد:

- طب وبعدين؟ أنا كنت محتاجاه في موضوع مهم جدا.

فاتسعت ابتسامة السيدة وهي تقول:

- إنتي يارا أبو بلاط مش كده؟

فالبت يارا ضيقها لتدنع ابتسامة صغيرة على شفتيها بينما استطردت الأخرى قائلة:

- أنا شفتك لما جيتي قبل كده، وكمان يحيى حكى لنا عنك. أنا رباب، مكتبي هنا جنب مكتب يحيى بس أنا أقدم منه بشوية.

لم تعرف يارا بم تجيب فاكتفت بابتسامتها الخافتة وهي تقول مجاملة:

- تشرفنا يا فندم.

- هو إنتي عاوزاه في موضوع ضروري قوي يعني؟

فعادت الحماسة تكسو نبرتها وهي تقول:

- ضروري جدا، مافيش أي وسيلة ممكن أوصل له بيها؟

فمطت رباب شفتيها وهي تقول مفكرة:

- عن طريق موبايله ماعتقدش، أنا حتى ماعرفش نمرة بيته، ماعرفش غير عنوان البيت.

تساءلت يارا في استنكار:

- عنوان البيت؟!

- أيوه فاكراه من ساعة ما روحت أعزي طنط لما والد يحيى اتوفى. أصله عنوان سهل قوي، لو الموضوع بتاعك ده مهم قوي مايستحملش التأجيل أنا ممكن أديكي العنوان وتعدي تشوفيه في البيت.

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

نظرت يارا نحوها في اندهاش شديد ثم تساءلت عاقدة حاجبيها في استنكار:

- البيت، إزاي يعني؟!

فأجابتها رباب بنبرة متفهمة:

- أنا فاهمة إنتي بتفكري في إيه، بس هو مش عايش لوحده، معاه طنط مامته وكمان واحدة بتشتغل عندهم. يا ستي كأنك بتزوري والدته. وكأنك ليه؟ إنتي فعلا ممكن تروحي تزوريها عادي جدا. اللي أنا عارفاه إن والدك صديق عيلة يحيى جدا حتى بعد ما والده اتوفى لسه علاقته بيهم وثيقة. يعني طبيعي إنك تبقي قريبة منهم زيه. وأنا لولا عارفة الموضوع ده وعارفة إن يحيى مش هيتضايق ماكنتش أعرض أديكي العنوان أبدا.

همت يارا بالحديث لكنها صمتت بعدما لم تجد ما تقوله، وجدت نفسها فجأة تتأرجح بين الرفض والقبول بينما استطردت رباب وهي تلتفت عائدة لغرفة مكتبها:

- بصي أنا أصلي مستعجلة ولازم أمشي فهادخل أجيب لك العنوان مكتوب في ورقة وإنتي ابقي فكري وخدي القرار على مهلك.

تركتها دقائق فريسة لحيرتها وترددها قبل أن تخرج وتعطيها ورقة بها العنوان، تناولتها يارا وهي تشكرها ساهمة ثم استدارت وخرجت في خطوات بطيئة وعقل مزدحم بخواطر متناقضة حول هذا الذي حدث بسرعة غير مألوفة في الدقائق القليلة الماضية ووضعها وجها لوجه أمام تلك الفكرة الغريبة.

عندما قرأت اللافتة المعلقة على باب الشقة "مراد صالح" وجدت نفسها تعود مسرعة وتفتح باب المصعد وتخرج ممشطا حمدت الله أنها كانت قد نسيته في حقيبتها منذ يومين وتمشط شعرها وتتأمل وجهها في المرآة جيدا حتى اطمأنت إلى شكلها. قبل أن تعود في خطوات مترددة وتمد أصابع يدها المرتعشة وتضغط على جرس الباب. انتظرت لحظات وهي تحاول السيطرة على صدرها الذي أخذ يعلو ويهبط بسرعة وعلى قلبها الذي أخذ يدق بعنف حتى فتح الباب وظهرت أمامها امرأة خمسينية ممتلئة ترتدي جلابية وطرحة ويبدو من سمرة وجهها وهيئتها أنها تعمل في المنزل.

قالت يارا في صوت حاولت قدر المستطاع أن تضبطه وتخفي منه توترها:

- مساء الخير، أستاذ يحيى موجود؟

- أيوه، تقول له مين؟

- يارا، يارا منصور.

- اتفضلي.

دخلت يارا وهي تحني رأسها في تهذب وإن استطاعت أن تلمح الشكل العام للشقة من طرف عينيها. كان يوجد أمامها مباشرة المطبخ وعلى يمينها دهليز يفضي إلى الجزء الداخلي للشقة بينما أشارت المرأة إلى ناحية اليسار حاثة إياها على التقدم وهي تقول:

- اتفضلي من هنا.

تقدمت في صالون أنيق يقع في مواجهة الدهليز مباشرة، وتقع على يساره في الداخل قليلا مائدة الطعام وخلفه توجد شرفة تركت مفتوحة وقد أخذت ستائرها البيضاء تتطاير في خفة أمام خيال شخص يقف في الداخل.

سمعت صوتا نسائيا يهتف متسائلا من خلف الستائر:

- مين يا أم حمدي؟

- دي ضيفة جاية للأستاذ يحيى يا هانم.

ثم التفتت نحو يارا وقالت مبتسمة:

- بعد إذن حضرتك هاخش أبلغه.

ذهبت المرأة بينما التفتت يارا نحو الشرفة على صوت حفيف الستائر التي ظهرت من خلفها امرأة لم تشك يارا في أنها والدة يحيى، ليس فقط للشبه الذي يجمع بينهما ولكن أيضا بسبب شكلها الأنيق وهيئتها الراقية.

كانت ترتدي عباءة بيضاء حريرية ذات زخرفات ذهبية رقيقة، وتضع على كتفها شالا ذهبيا يتناسب مع خطوط العباءة ومع شعرها الكستنائي الذي تخللته خصلات ذهبية وبيضاء والذي كانت تعقصه خلف رأسها مما جعل التجعدات البسيطة المنتشرة حول عينيها وفمها ورقبتها تظهر واضحة.

أحست يارا أنها تذوب في خجلها عندما تقدمت منها المرأة خافية استنكارها خلف ابتسامتها وهي تقول:

لمزيد من الكتب العصرية

- أهلا وسهلا.

ازدردت يارا ريقها وقالت في صوت خجول:

- أهلا يا فندم، أنا يارا منصور أبو بلاط.

حلت الدهشة محل الاستنكار على وجهها وهي تقول وقد اتسعت ابتسامتها:

- معقول إنتي يارا اللي قلبتي الدنيا من كام أسبوع؟ أهلا أهلا يا حبيبتي اتفضلي.

جلست يارا على طرف الأريكة بينما جلست السيدة على طرف الأريكة الملاصقة لها وهي تقول:

- أنا عايدة الجوهري، والدة يحيى.

- أهلا يا فندم تشرفنا.

ثم صمتت يارا قليلا قبل أن تقول وقد ازداد حرجها:

- أنا آسفة إني جيت كده فجأة ومن غير معاد.

فاتسعت ابتسامة عايدة وهي تقول في عتاب:

- معقول تقولي كده؟ ده بيتك ووالدك منصور بيه كان صاحب مراد جوزي الله يرحمه وزي أخوه، هو منصور بيه عامل إيه دلوقتي؟ لسه تعبان؟

صدمت يارا من السؤال، فهي لم تكن تملك إجابة مفصلة عن حالة والدها لذا قالت مقتضبة:

- لسه مافاقش من الغيبوبة، ربنا معاه.

فزفرت عايدة قبل أن تقول:

- يا رب.

ثم استطردت وهي تقول معتذرة:

- و الله يا بنتي أنا كنت عاوزة أجي عزا ربنا الله يرحمها قوي، بس يحيى منعني وقال لي إني مش هالاقي حد أعرفه هناك عشان أعزيه وكمان عشان أنا كنت تعبانة ساعتها شوية صحيا.

فأسرعت يارا تقول:

- ألف سلامة على حضرتك، كأنك جيتي وزيادة.

فعادت عايدة تبتسم وهي تقول:

- كان زماني عرفتك من ساعتها، بس أعمل إيه كله بسبب الولد ده.

قالتها وهي تشير أمامها نحو يحيى الذي كان يقف أمامهن وهو لا يكاد يصدق عينيه، منذ أن أبلغته أم حمدي بأن هناك ضيفة تنتظره اسمها "يارا منصور" وهو يكذب نفسه ويكذب أذنيه، حتى عندما اقترب قليلا من الصالون وسمع صوتها وهي تتحدث مع والدته قال لنفسه أن ما يحدث بالتأكيد هي تهيؤات صورها له عقله الذي أصبح لا يتوقف عن التفكير فيها، وعندما وجدها جالسة أمامه كاد أن يكذب عينيه، أحقا هي من يراه أمامه، جالسة في منزله ومع والدته، أيمكن أن يحدث هذا حقا؟ هل ما يحدث الآن بداية تحقيق هذا الحلم الذي بدأ يراوده؟

نظرت يارا نحوه مبتسمة من تلك الدهشة التي بدت على وجهه وهي تراه لأول مرة يرتدي شيئا غير البذلة الرسمية، بنطلونا رياضيا وتي شيرت أبيض وشبشب منزل.

قالت عايدة مبتسمة في استنكار:

- مالك تنحت كده ليه يا ولد إنت؟ تعالى سلم.

أفاق من دهشته وتقدم وهو يقول محاولا مداراة توتره خلف ابتسامة:

- لا أصلي ماصدقتش لما أم حمدي قالت لي، أهلا يا آنسة يارا.

صافحها قبل أن يجلس بجانب والدته وقد بدأ توتره يهدأ عندما قالت يارا مبتسمة:

- أنا آسفة يا أستاذ يحيى إني جيت من غير معاد.

فأسرع يقول نافيا:

- لا لا ماتقوليش كده يا آنسة يارا، البيت بيتك.

فقاطعت عايدة الحديث وهي تقول في ضيق:

- هو إيه ده اللي أستاذ وآنسة؟ إحنا مش في الخارجية، هنا ماحدش يتقال له أي ألقاب غيري أنا، إنت تقول لي ماما وإنتي تقولي لي طنط، غير كده كل واحد يلنده باسمه، مفهوم؟

فابتسمت يارا مدارية خجلها بينما قال يحيى ضاحكا:

- مفهوم يا فندم، بس هو حضرتك هتسيبي ضيفتنا كده من غير ما تشرب حاجة؟

- تشرب ده إيه يا ولد إنت هو إحنا بخلا؟ يارا هتتغدا معانا.

فأسرعت يارا تقول وقد غلبها الحرج:

لمزيد من الكتب العصرية

- لا لا يا طنط مافيش داعي ماتتعبيش نفسك. دول هما كلمتين هاقولهم لأستا... ليحيى وهامشي على طول.

فنهضت عايدة وهي تقول حاسمة:

- و ماله؟ كلوا وبعدين اتكلموا براحتكوا. ماتعطلينيش بقى.

ثم نظرت نحو يحيى وقالت في حسم لطيف وهي تشير نحو مكانها:

- ولد، تعالى اقعد هنا. اوعى تهرب منك لحد ما أحضر الغدا.

فتزحزح يحيى ليجلس مكانها وهو يقول ضاحكا:

- تمام يا فندم.

ذهبت عايدة نحو النافذة التي تربط الصالة بالمطبخ وانهمكت في تحويل الأطباق نحو مائدة الطعام بينما التفت يحيى نحو يارا وهو غير مصدق هذا المجلس الذي يجلسه. ثم قال متحمسا:

- إيه المفاجأة الحلوة دي؟

فقالت يارا مبتسمة وهي تخفي خجلها:

- أصلي رحت لك مكتبك ومالقتكش وكنت عاوزاك في موضوع مهم جدا. فراحت زميلتك رباب اللي في المكتب اللي جنبك إدتني العنوان.

- ده أنا لازم بكرة أشكرها بقى على الجميل اللي عملته فيا ده.

فضحكت وقد ساورتها دهشة من جرأته التي بدأت تظهر الآن فقط. ساد بينهما صمت للحظات حاول كل منهما استغلاله لتخفيف توتره وإخفاء تلك المشاعر التي اضطربت فجأة بداخلهما حتى بدأت يارا الحديث قائلة:

- اللي حصل لي من حوالي ساعتين كان شديد قوي عليا لدرجة إنه خلاني أحتاج أتكلم مع حد واثق فيه وأستشيره، وهو برضو اللي خلاني أدور عليك وأجيلك.

فتساءل يحيى في قلق:

- إيه اللي حصل لك؟

فمضت يارا تقص عليه كل ما حدث منذ أن وجدت شفيق أمامها وحتى وضع بطاقته على المائدة قبل أن يذهب، ويحيى يستمع في اهتمام حتى أنهت حديثها فقال وقد بدت الدهشة على وجهه:

- هي حاجة غريبة فعلا، خصوصا وإنك بتقولي إن ماكانش فيه بينك وبين والدك أي علاقة وإنه عمره ما شافك ولا قابلك. فإزاي بقى يكتب في وصيته إنه عاوزك إنتي تمسكي مجلس إدارة مجموعة شركاته في حالة عدم قدرته؟

ثم صمت قليلا قبل أن يتساءل:

- طب إنتي إيه اللي مضايقك في الموضوع؟

- اللي مضايقني حجم المسؤولية الضخمة اللي اتورطت فيها. إنت أكيد عارف يعني إيه أبو بلاط جروب، حجم أعمالها ورأس مالها ومشاريعها. مسؤولية ترعب.

فابتسم يحيى وهو يقول:

- بس إنتي قدها يا يارا.

بدا وقع اسمها مجرداً من الألقاب غريبا على أذنيهما وإن لم يخل من رنين لذيذ أخفى يحيى تأثيره وهو يستطرد:

- طريقتك في مباشرة استلام ريما الله يرحمها ودفنها وعزاها وإصرارك على تنفيذ الصح بأي تمن، يقول إنك بجانب خبرتك في البيزنس عندك ما يؤهلك عشان تشيلي مسؤولية زي دي. كمان أنا متأكد إن الأستاذ شفيق وكل أعضاء مجلس الإدارة هيساعدوكي ومش هيسيبوكي تغرقي المجموعة يعني.

فزفرت يارا في حيرة قبل أن تقول:

- الحاجة الوحيدة اللي مخلياني مش عاوزة أرفض أو أتهرب هو الكلام اللي شفيق قاله عن الناس الغلابة اللي حطت فلوسها في الأسهم والموظفين اللي هيتئذوا. دول ناس ماقدرش أحس إني ممكن أساعدهم وماعملش حاجة.

فابتسم يحيى وهو يقول:

- مش باقول لك إنك قدها.

ابتسمت يارا وقالت ممازحة لتداري ما اعتورها من خجل:

- تفتكر؟

فأومأ يحيى برأسه وهو يقول في نبرة لم تخل من جدية:

لمزيد من الكتب العصرية

- أفتكر جدا.

جاء صوت عايدة يدعوهما للغداء فنهض يحيى ومد يده لها قائلا:

- يلا نتغدا دلوقتي وانسي كل اللي مضايقك، يلا.

ابتسمت ومدت يدها ووضعتها في يده والتي ظل يحيى متشبثا بها وكأنه لا يصدق أنه يمسكها في يده، حتى وصلا عند المائدة حيث جلست عايدة على رأسها بينما جلست يارا إلى يمينها ويحيى إلى يسارها.

كان الغداء أجمل من العادة، ليس فقط لأن الطعام كان لذيذا أو لأن الأحاديث والضحكات لم تنقطع طيلة فترة تناولهم للطعام، ولكن أيضا لهذا الدفء الذي سرى سريعا بين ثلاثتهم بسبب ما انتابهم من مشاعر. لأول مرة منذ زمن طويل وربما أيضا منذ أن ولدت تشعر يارا بمعنى دفء أسري كهذا، أن تتناول طعامها مع ناس يهتمون بها ويتحدثون معها وكأنهم يعرفونها منذ زمن، أن تأكل على مائدة طعام وليس مائدة المطبخ أو في المكتب، أن تجد من يضع في طبقها مزيدا من الطعام ويلح عليها حتى تأتي عليه كله دون أن تترك شيئا منه. لقد أدركت أنها تفتقد الكثير في حياتها مما زاد إحساسها بجمال تلك اللحظة التي وجدت فيها ما هي محرومة منه وأكثر. أما يحيى فقد كان لشدة سعادته لا يزال لا يصدق أن ما يحدث الآن حقيقة وليس بخيال، إنه أكثر مما حلم به بكثير، أقصى ما كان يتمناه هو أن تزوره يارا في مكتبه أو يدعوها إلى تناول القهوة، أما أن يجدها فجأة في منزله، تتناول الطعام معه ومع والدته وقد ألفت المنزل والأحاديث وكأنها تقطن هنا منذ زمن فهو ما لم يجرؤ حتى على أن يحلم به. أحيانا يصبح الواقع أجمل من الخيال عندما يفاجئنا بالإطاحة بتحفظات ظلت تنغص علينا أفكارنا ومشاعرنا.

و عايدة هانم كان وجهها مشرقا وقد انهمكت في الحديث والضحك وهو شيء عادة لا تفعله يوم ذكرى وفاة زوجها.

بعد الغداء جلس يحيى مع يارا في نفس الصالون حيث قدمت لهما أم حمدي القهوة، بينما تركتهما عايدة ودخلت لتجري محادثة تليفونية. نظر يحيى نحو يارا متفحصا ملامحها قبل أن يقول في ثقة لم يعلم من أين أتته:

- مش عارف ليه حاسس إن فيه سبب تاني ورا مجيك النهارده.

بوغتت يارا بالحقيقة التي ألقاها في وجهها قبل أن تبتسم نصف ابتسامة لتداري توترها وتومئ برأسها موافقة. وضع يحيى فنجانه على المائدة قبل أن يقول متحمسا عندما وجد نفسه قد فهمها دون أن تتحدث:

- إيه بقى السبب ده؟

فقالت يارا محاولة السيطرة على توترها:

- النهارده الصبح فتحت الfacebook واتفرجت على البروفايل بتاع ريما الله يرحمها. وأنا باقلب لقيت صورة ليها مع صاحبتها اللي اسمها مكتوب على الكارت "مونيكا". وفجأة جات لي فكرة مجنونة شوية بس مالحقتش أجربها علشان شفيق جه.

- إيه هي الفكرة دي؟

صمتت قليلا قبل أن تقول:

- فكرت إنه يمكن تكون ريما بعتت الكارت بتاع عيد ميلاد مونيكا عشان تقول لنا إن عيد ميلاد مونيكا ده هو الpasscode بتاع الipad.

نظر يحيى نحوها مندهشا من ذكائها. الفكرة منطقية جدا وربما تكون بالفعل رسالة من ريما. قال ولا تزال الدهشة تملأ عينيه:

- هايل. دي فكرة ذكية جدا. لازم تجربيها أول ما تروحي.

فأسرعت يارا تخرج الipad من حقيبتها وهي تقول:

- لا لا. أنا جبته معايا أهو عشان تجرب هنا.

لم يتناول يحيى الipad ونظر إليها مليا كأنه يقرأ أفكارها قبل أن يتساءل في خبث:

- يارا إنتي ماجربتيش تفتحيه عشان شفيق جالك ولا عشان خفتي؟

عقدت الدهشة لسانها عندما صدمها بالحقيقة. ظل قلبها يدق بعنف والأفكار تتلاحق في رأسها. كيف استطاع أن يفهمها بتلك السرعة والدقة؟ كيف استطاع أن يدرك ما نفذته هي بباعث من عقلها الباطن؟ وعندما طال صمتها أومأ يحيى برأسه بعدما أدرك أنه قد أصاب بتخمينه قبل أن يستدرك قائلا:

- خفتي تفتحيه وتقلبي فيه فتلاقي حاجة عكس الصورة اللي كنتي راسماها في خيالك زمان لربما فيزيد إحساسك بالذنب، مش كده؟

أومأت برأسها مستسلمة ومبتسمة نصف ابتسامة لتداري الألم الذي نشب بداخلها، قبل أن يمسك يحيى يدها وهو يقول مثبتا عينيه بداخل عينيها:

- الهروب مش وسيلة يا يارا. لو فيه حاجة غلط عملتها حتى ولو كانت جوا دماغك بس يبقى لازم تعرفيها بنفسك وبكل شجاعة. مافيش حد غيرك هيجرب يفتح الـipad.

قالها وهو يمسك بيدها الأخرى ويضعها على الزر ثم ترك يديها وابتسم لها مشجعا. أخذت نفسا عميقا لتهدئ من تلاحق وجيب قلبها واستجمعت كل شجاعتها قبل أن تضغط على الزر. أضاءت الشاشة أمامها بنفس الصورة التي بدت فيها ربما وهي تقف بين أعز صديقاتها والرجل الذي تحبه. جذبت السهم فظهرت أمامها لوحة الأرقام، وبيد حاولت السيطرة على ارتعاشها كتبت تاريخ عيد ميلاد مونيكا الذي كانت قد حفظته في الصباح، ٢٦١٠، وما إن استقرت آخر نقطة في آخر خانة حتى انفصل أسفل الشاشة عن أعلاها وبدت القائمة الرئيسية أمامها.

كتمت يارا صرخة فرح كادت أن تفلت منها بينما ابتسم يحيى سعيدا بانتصار فكرتها، ثم تناول من يدها الـipad وأخذ يقلب فيه مسرعا ريثما تسترد يارا أنفاسها قبل أن تتساءل في لهفة:

- لقيت حاجة؟

فحرك يحيى رأسه نافيا وقال دون أن يرفع عينيه من على الشاشة:

- لأ. كلها لعب وصور وإنترنت.

ثم صمت قليلا وهو منهمك قبل أن يستدرك قائلا:

- استني كده. فيه فولدر أدوب.

ضغط يحيى عليه فظهرت أمامه صفحة بها قائمة أسماء وبجانبها أرقام. أخذ يقرؤها وملامحه تزداد دهشة واستنكارا، حتى اضطرت يارا أن تستحثه في قلق قائلة:

- فيه إيه يا يحيى؟ إيه اللي مكتوب؟

فحرك رأسه قبل أن يقول مستنكرا وهو لا يزال مأخوذا من الدهشة:

- حاجة غريبة جدا. الفولدر ده عبارة عن لستة أسامي لشخصيات عامة ومعروفة عالميا. رجال سياسة ورجال أعمال من دول مختلفة وكل واحد مكتوب جنبه جنسيته ورقم حساب بنكي.

فصمتت يارا مفكرة في حيرة قبل أن تتساءل:

- إنت يعني تعرف الناس دول؟

- آه طبعا أعرفهم. أولا لأنهم مشهورين دوليا. وثانيا لأني قابلت بعضهم في مناسبات دبلوماسية بحكم شغلي وكمان من أيام ما كان بابا الله يرحمه بيشتغل في أوروبا.

- طب وتفتكر ده معناه إيه؟

فرفع يحيى كتفيه في حيرة وهو يقول:

- مش عارف. بصراحة الموضوع غريب جدا. إيه اللي يجيب أسامي ناس مهمة زي دول على ال ipad بتاع بنت صغيرة زي ريما؟ إيه ممكن تكون علاقتها بيهم؟ والأهم من كده. إزاي هي قدرت توصل لمعلومات حساسة عنهم كده زي أرقام حساباتهم؟

صمتت يارا مفكرة ثم ترددت قليلا قبل أن تتساءل في نبرة متقطعة:

- تفتكر. الناس دي ممكن يكون ليها علاقة بمنصور بيه؟

فأجابها دون تردد:

- آه طبعا. والدك من أهم رجال الأعمال في الشرق الأوسط والبيزنس بتاعه منتشر في العالم كله. فطبيعي إنه يكون ليه علاقات تجارية أو اجتماعية مع الناس دول. ده مش شيء غريب.

فصمتت يارا قليلا قبل أن تتساءل مسرعة:

- طب تفتكر أرقام الحسابات دي ممكن يكون واحد فيهم هو اللي معايا في النوتة؟

- مش عارف. معاكي النوتة؟

أسرعت يارا تخرج المفكرة الكحلية من حقيبتها. ومضت دقائق وهما يطابقان الأرقام على الشاشة بالرقم المكتوب فيها دون أن يصلا إلى شيء. زفرت يارا قبل أن تقول:

- ولا واحد فيهم. بس واضح طبعا إن معظم الحسابات دي في سويسرا زي رقم الحساب اللي في النوتة. محمد جوز داليا صاحبتي قال لي إن الحساب ده سويسري. ممكن بقى يكون رقم حساب واحد هي مالحقتش تكتبه أو رقم حساب منصور بيه شخصيا.

لمزيد من الكتب المصرية

أغلق يحيى الـipad وهو يقول:

- ممكن طبعا، بس صعب إننا نتأكد من أي حاجة لأن القوانين على سرية حسابات البنوك في سويسرا قوية جدا.

ثم أعطاها إياه وهو يقول:

- المهم إننا دلوقتي اتأكدنا إن وجودك في مؤسسة أبو بلاط مهم جدا للفترة اللي جاية.

فعقدت يارا حاجبيها مستنكرة وهي تتساءل:

- إشمعنى؟

- عشان لو اللي ربما قصدته لما بعتت لك الطرد ده ليه علاقة بالناس دي اللي هما أصلا ليهم علاقة بمنصور بيه، يبقى أكيد وجودك هناك هيساعدنا جدا عشان نفهم.

فلوت يارا شفتيها قبل أن تقول في ضيق:

- هو أنا ناقصة؟ ده أنا من غير أي حاجة مرعوبة.

فربت على يدها وهو يقول مبتسما:

- ماتقلقيش. إن شاء الله مافيش حاجة. وأنا مش هاسيبك.

ابتسمت قبل أن تنظر في ساعة معصمها وتنهض وهي تقول في دهشة:

- ياه الوقت اتأخر قوي. أنا لازم أمشي. ممكن تنده لي طنط أسلم عليها.

فنهض وقد بدا الضيق على وجهه لكنه قال مستسلما بابتسامة:

- حاضر.

غاب في الداخل دقائق قبل أن يعود خلف عايدة هانم التي قالت مبتسمة:

- معقول يا يارا هتمشي على طول كده؟

- ماعلش بقى يا طنط يادوب. الوقت اتأخر وأنا لازم أروح.

فقبلتها عايدة على وجنتيها وهي تقول:

- خلاص يا حبيبتي. عاوزة أشوفك كتير بقى.

- أكيد يا طنط إن شاء الله. بعد إذنك.

- مع السلامة يا حبيبتي. مش عاوزة يحيى يوصلك؟

- لا لا شكرا أنا معايا عربيتي، باي باي.

اتجهت يارا نحو باب الشقة وخلفها يحيى الذي استجمع شجاعته وسألها وهي تنتظر المصعد:

- ماشوفك تاني إمتى؟

فرفعت يارا كتفيها وهي تقول مبتسمة:

- مش عارفة، بكرة وبعده هابقى مشغولة في تحضير نفسي وتظبيط الأجازة، ومن أول يوم التلات هاكون في الجروب، بس أكيد هنتكلم في التليفون.

فقال مستسلما:

- أكيد.

دخلت المصعد ونظرت نحوه نظرة أخيرة وهي مبتسمة في ارتباك فابتسم لها قبل أن تغلق الباب وتضغط الزر.

هبط المصعد، بينما استندت هي على الحائط بكتفها وشردت ببصرها في الركن الأسود أسفل المرآة وهي تضغط بأسنانها على بطن سبابتها محاولة السيطرة على نفسها ومنع ابتسامتها من الاتساع.

( ٢٨ )

منذ نصف ساعة والأستاذ هاشم يجلس أمام مكتب ليديا التي كانت تتظاهر بالاستماع إلى ما يقول بينما هي منهمكة في عملها. أما في الحقيقة، فليديا لم تكن مصغية إليه ولا حتى منهمكة في العمل. كل ما كان يشغل بالها منذ أن عادت اليوم بعد أجازة طويلة هو كيف ستلقى رأفت لأول مرة بعد ما حدث بينهما؟ هل تتجاهله أم تتعامل معه بجفاء أم من الأفضل أن تتعامل معه بمنتهى الطبيعية لأنها تعلم جيدا أن هذا هو ما سيحدث في النهاية. لكن لا، تلك المرة مختلفة عن سابقاتها. لأول مرة يصرخ في وجهها هكذا ويضع كرامتها تحت قدميه بتلك الطريقة. كل هذا لا يعني أنها يمكن أن تثور عليه وعلى حبه بداخلها، إنها أضعف من ذلك. لكن أيضا تلك المرة مختلفة، حتى وإن عادت بعدها إلى طبيعتها فإن ما حدث بينهما سيترك بداخلها شرخا مؤلما لن تداويه الايام.

كانت منشغلة بخواطرها ومنصرفة بها عما حولها بينما كان هاشم مسترسلا في حديثه:

- اللي أنا بجد مش فاهمه ليه شفيق أصر ورتب كورس عشان نعمل جمعية عمومية واتفق مع رئيس الشؤون القانونية إنهم يخبوا موضوع الوصية ده لحد ما يطلع قدام كل الناس في الجمعية؟

ثم صمت قليلا قبل أن يقول في ضيق وحيرة:

- ما هو لو كان ورانا الوصية دي في اجتماع مجلس الإدارة كان زمان كل حاجة مشيت طبيعي وقانوني من غير ما نحتاج نعمل جمعية عمومية. ويارا جت ومسكت مجلس الإدارة من غير كل وجع الدماغ ده؟

ثم تحولت نبرته إلى العصبية وهو يقول في غيظ:

- ليه عمل فينا كده؟

هدأ قليلا عندما لم يجد أحدا يجيبه ثم تساءل في ضيق:

- هو الراجل اللي مع شفيق جوا ده هيخلص إمتى؟ أنا زهقت.

فمطت ليديا شفتيها قبل أن تقول في أسف:

- أنا بجد آسفة يا مستر هاشم، بس حضرتك عارف إن الراجل اللي جوا ده من أهم العملا عندنا وماقدرش مهما حصل أقطع عليهم الاجتماع.

فزفر هاشم قبل أن يقول مستسلما في ضيق:

- عارف عارف.

عندئذ دخل رأفت الحجرة وحياهما مبتسما قبل أن يجلس على المقعد المواجه لهاشم، أجابت ليديا تحيته مغمغمة دون أن ترفع رأسها عن الملفات بينما أجابه هاشم متهكما:

- أهلا، أهلا بحضرة المساعد.

فعقد رأفت حاجبيه وقال مبتسما في ارتياب:

- آه، التريقة دي ربنا يستر منها.

فقال هاشم في نفس النبرة المتهكمة:

- ماهو دايما بيسترها معاك إنت والريس بتاعك وإحنا اللي بتضيع ما بينكم.

فحملق رأفت بعينيه من الدهشة وقال في ارتياب:

- اوعى يا مستر هاشم تكون فاكر إني كنت أعرف حاجة عن موضوع الوصية ده قبل الجمعية العمومية؟

فنظر هاشم نحوه غير مصدق دهشته أو ما يقوله، بينما استطرد رأفت مدافعا بحماس:

- طب بأمانة ربنا أنا ما كنت أعرف حاجة عن موضوع الوصية ده، واندهشت زيكوا بالضبط.

فزفر هاشم في ضيق وهو يقول:

- ماتفكرنيش، ده إحنا شكلنا في الجمعية العمومية كان يكسف، أول ما الوصية طلعت قدامنا كلنا فتحنا بقنا من الدهشة وإحنا مش مصدقين الموقف اللي الريس بتاعك حطنا فيه.

فقال رأفت مدافعا عن نفسه:

- و أنا مالي يا مستر هاشم بس؟ مش حضراتكوا أعضاء مجلس إدارة ولبكوا في الشركة دي زي مستر شفيق؟ خلاص دي حاجة بينكوا وبينه بقى.

فضحك هاشم نصف ضحكة وقال متهكما:

- أعضاء مجلس إدارة ولينا فيها آه، إنما حد يقدر يقول له تلت التلاتة كام وكل حاجة في إيده؟

انقلب تهكمه إلى ضيق وهو ينهض قائلا في عصبية:

- أنا زهقت وماشي، هابقى آجي تاني بعدين.

التفت هاشم وخرج من الغرفة في خطوات عصبية ورأفت يتبعه بعينيه مبتسما من عصبيته حتى اختفي.

نظر رأفت نحو ليديا التي لم ترفع عينيها من على الملفات، محاولة بكل ما لديها من قدرة أن تسيطر على ملامحها وتملأها بالتجهم واللامبالاة.

تنحنح رأفت قبل أن يقول متلطفا:

- صباح الخير يا ليديا.

أجابت مقتضبة دون أن ترفع عينيها:

- صباح النور.

فتجرأ قليلا قبل أن يقول مترددا:

- أنا آسف يا ليديا، أنا عارف إنك متضايقة مني عشان اتعصبت عليكي، بس أصلي كنت مضغوط جدا من الشغل وكل حاجة كانت فوق دماغي فعصبي عني طلعته عليكي. أنا بجد متأسف.

فتململت قليلا عندما أحست في نبرته رقة وندما حقيقيا، لكنها تمالكت نفسها وقالت وقد خففت من حدة صوتها:

- ماحصلش حاجة، أنا مش متضايقة.

فاقترب بوجهه قليلا وهو يقول مبتسما:

- بالأمانة؟

اضطربت ودق قلبها بعنف لكنها تمالكت نفسها بصعوبة وهي تقول بابتسامة مسرعة:

- بالأمانة مافيش حاجة.

وقبل أن يقول رأفت أي شيء آخر أو حتى يعود إلى الابتسام، نهضت ليديا مسرعة لتتفادى تكرار تلك الحالة التي تصيبه والتي تجعله رقيقا وحنونا معها قبل أن تحدث المشاكل والمشاحنات مرة أخرى.

خرجت متعللة بأنها يجب أن تقوم بإيصال بعض الملفات إلى مكاتب أخرى، بينما بقي رأفت وحده منتظرا شفيق أن ينهي اجتماعه وهو يضحك بداخله من هروبها لأنه لم يكن ينوي أن يفعل شيئا مما خطر ببالها.

لمزيد من الكتب العصرية

(٢٩)

عندما دخلت داليا حجرة المكتب في الصباح نظرت مندهشة نحو يارا التي كانت منهمكة في العمل أمام شاشة الكمبيوتر، ثم تساءلت في تعجب:

- ده إيه النشاط ده على الصبح؟!

ثم استطردت وهي تجلس خلف مكتبها:

- إيه اللي جابك بدري كده النهارده؟

أجابتها يارا دون أن ترفع عينيها عن الشاشة:

- أصلي عاوزة ألحق أخلص كل اللي ورايا قبل ما آخد الأجازة. مش عاوزة حد يتدبس في شغلي.

- و هتلحقي تظبطي الأجازة؟ إنت ماقدامكيش غير النهارده وبكرة بس؟

فرفعت يارا حاجبيها وهي تقول متعجبة:

- أظبط إيه؟ ده أنا من غير ما أعمل أي حاجة لقيت الHR مظبط الأجازة كله تمام. واضح إن شفيق ده واصل قوي وعامل حسابه على كل حاجة.

فأخرجت داليا سيجارة وهي تقول مبتسمة لتمازحها:

- أيوه بقى. هتبقي رئيسة مجلس إدارة وماحدش هيعرف يكلمك.

فابتسمت يارا نصف ابتسامة وهي تقول:

- بتقري على إيه؟ ده أنا حاسة إني هاموت من الرعب.

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

فنفثت داليا دخان السيجارة مفكرة قبل أن تقول معترفة:

- إنتي عندك حق تخافي. الموضوع مش بسيط، بس مش لدرجة ترعبي يعني. إنتي عندك خبرة وبتشتغلي وفاهمة ومش هتغرقي. وفي الآخر اسمه إيه شفيق ده هيبقى يساعدك.

فقالت يارا في نبرة مستسلمة:

- ربنا يستر بقى.

سادت بينهما ثوانٍ من الصمت قبل أن يقطعه صوت داليا وهي تضحك في شرود، فنظرت نحوها يارا وهي تتساءل في اندهاش:

- بتضحكي على إيه؟

فكفت عن الضحك وقالت وهي لا تزال مبتسمة:

- باضحك عشان فرحانة بنفسي وبفراستي.

- فراستك؟

- أيوه.

ثم نهضت في ثقة ودارت حول مكتبها واستندت نصف جالسة على مقدمته، ثم أخذت نفسا من السيجارة قبل أن تقول في خيلاء:

- إنتي مش فاكرة لما كنا قاعدين هنا بعد عزا ربما، وقلت لك إن الموضوع ده مش هيخلص على كده وإن أكيد ربنا شايل لك بقية؟ وأدي يا ستي كلامي طلع صح. في الأول الطرد وبعدها الوصية ورئاسة مجلس الإدارة.

فتأملتها يارا في حيرة عندما أدركت صدق فراستها وتنبئها بما حدث، بينما اقتربت منها داليا وهي تقول:

- مالك تنحتي كده ليه؟ لعلمك بقى اللي بيحصل دلوقتي ده لمصلحتك.

فعقدت يارا حاجبيها في استنكار وتساءلت في حيرة:

- لمصلحتي إزاي يعني؟

أطفأت داليا السيجارة وهي تقول في حماس:

- بقى مش عارفة إزاي؟! أبوكي اللي كان بيتكسف يقول إن عنده بنت تانية غير بنته اللي من الهانم اللبنانية، دلوقتي كل الناس بقت تعرف إنك بنته من ست تانية اتجوزها قبل ما يغتني، وكمان بقوا عارفين شكلك بعد ما شافوكي في عزا ربما. والمجموعة اللي كنتي زمان مابتعديش حتى من قدامها، دلوقتي هتبقي رئيسة مجلس إدارتها وتعرفي كل كبيرة وصغيرة فيها. يا هبلة ده ربنا بيرد لك حقك واعتبارك.

فلوحت يارا بيدها في استهانة وهي تقول مبتسمة في سخرية:

- إنتي هتقولي لي نفس الكلام اللي قاله كريم؟

فعقدت داليا حاجبيها وهي تتساءل في ضيق:

- ليه؟ هو المحروس كان قال لك إيه؟

كتمت يارا ضحكتها من سخرية داليا وهي تقول مبتسمة:

- المحروس قال لي إن موضوع رئاسة مجلس الإدارة ده تعويض ليا عن حرماني طول عمري من إني أتباهى بانتسابي لاسم أبو بلاط، ومن إني أعرف كل حاجة عن ثروة أبويا اللي ماكانش بينوبني منها غير ملاليم. تصوري، كل الفلوس اللي كانت بتتبعت لي بيقول عليها ملاليم.

فمطت داليا شفتيها قبل أن تقول:

- هو أنا ماباطيقش الواد ده، بس المرة دي هو عنده حق.

فاتسعت حدقتا يارا في دهشة بينما استطردت داليا قائلة في حماس:

- أيوه عنده حق، إنتي فاكرة إن الكام ألف اللي كان بيبعتهم لك واللي لما اتكوموا سنة ورا سنة في البنك لحد ما دخلوا على مليون وشوية والهدايا والعربية دول ييجوا حاجة جنب ثروته؟ ده مليارديـر.

زفرت يارا في ضيق قبل أن تقول:

- يا داليا أنا مش عاوزة أعرف حاجة عن ثروته ولا عاوزة أتباهى باسم أبو بلاط، أنا مستريحة جدا في حياتي دي، أنا عاوزة أعرف، مادام هو كان بيتكسف مني وعمره ما عرفني حاجة عن فلوسه، إيه اللي خلاه يكتب الوصية دي؟

فضغطت داليا شفتيها في حيرة وهي عائدة لتجلس خلف مكتبها مرة أخرى قبل أن تقول:

- هي بصراحة حاجة غريبة أنا مش قادرة أفهمها، بس على العموم سواء عرفنا ليه أو ماعرفناش ده مش هيغير حاجة من الواقع، من أول بعد بكرة إنتي هتبقي المسؤولة عن أهم كيان اقتصادي في مصر.

فأسرعت يارا تقول في عصبية:

- يا داليا بلاش المسميات الكبيرة دي عشان أنا بجد باترعب.

فلوحت داليا بيدها وقالت في استهانة:

- يا بت ماتخافيش، خليكي جامدة كده.

ثم صمتت قليلا قبل أن تقول في تخابث:

- وبعدين ربنا يخلي لنا رجال وزارة الخارجية اللي بيساعدونا ويساندونا معنويا.

حاولت يارا أن تداري ابتسامتها وهي تتظاهر بالانشغال في شاشة الكمبيوتر. على الرغم من أن تلميحات داليا المستفزة قد ازدادت في الفترة الأخيرة لكن يارا لم تكن تحتاج إليها لتدرك أن وجود يحيى بجانبها في تلك الظروف هو الشيء الوحيد الذي يهون عليها كل ما يحدث لها، ويدفعها للمواجهة دون خوف لأنها تعلم أنه سيكون بجانبها دائما.

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي أدركته. بل إنها بدأت تلتفت لكثير من الأشياء التي كانت تجهلها أو تتجاهلها بعد أن زارته في منزله. منذ أن وجدت نفسها تحاول منع ابتسامتها من أن تتسع وهي في المصعد.

لمزيد من الكتب العصرية

(٣٠)

وقفت تتأمل شكلها في الملابس الرسمية في المرآة وقد بلغ توترها مداه عندما أحست أن موعد ذهابها إلى المجموعة لأول مرة قد أزف. لم تنم طوال الليل. كلما دخلت الفراش أخذت تتقلب في قلق وقلبها يخفق فتنهض وتفتح خزانة ملابسها كأنها تنتقي الملابس التي ستذهب بها في اليوم التالي، فتخرج طاقما وتضعه على المقعد قبل أن تدخل الفراش مرة أخرى. ظلت على تلك الحال طوال الليل حتى أعدت نحو ستة أطقم استغنت عنهم كلهم عندما نهضت في الصباح، واكتفت بسروال جينز وبلوزة بيضاء وسترة رسمية كحلية مثل لون الحذاء ذي الكعب العالي والحقيبة.

نظرت في ساعة معصمها عندما أدركت أنها قد تأخرت على السائق الذي أرسله لها شفيق، فسوت شعرها الفاحم المنسدل حول وجهها وملابسها، وألقت على نفسها نظرة عامة وهي ترتدي سلسلة ربما الذهبية التي أصبحت لا تخلعها وهي تزفر زفرة حاولت أن تتخلص بها من توترها. قبل أن تتناول حقيبتها وتغادر شقتها في خطوات ثابتة.

عندما خرجت من باب العمارة اندهشت من شكل السيارة التي بعثها لها شفيق. سيارة سوداء لم تر في فخامتها من قبل. فتح لها السائق الباب مبتسما فردت له الابتسامة في اقتضاب وركبت في المقعد الخلفي. فأغلق الباب وقفز مسرعا في المقعد الأمامي للسيارة وانطلق بها مسرعا.

اخترقت السيارة الشوارع والأعين كلها ترمقها في اندهاش وانبهار بطريقة ضايقت يارا، حتى أنها حمدت الله أن زجاج النافذة أسود فيمنعه لا يراها من خلاله أحد من هؤلاء المحدقين بها.

وعندما وصلت أمام باب المجموعة وجدت جماعة من الموظفين على رأسهم شفيق ينتظرونها. مما أخافها من كل تلك العيون التي ستلتهمها في فضول ودهشة. لكنها تمالكت نفسها وهبطت في هدوء وثبات بعد أن ارتدت النظارة السوداء. أقبل عليها شفيق وحياها بحرارة وقادها خلال الأروقة. التي أطلت من أبوابها الرؤوس المحدقة في فضول لم يحمها منه سوى النظارة ورأسها التي أحنتها متفادية كل ما حولها. حتى دخلت مكتب منصور بك وأحست أنها بمأمن من عيون الناس. فتنفست الصعداء وخلعت النظارة وأخذت تهدئ من روعها قبل أن تلتفت وتدرك رويدا رويدا ما حولها.

fb.com/Sa7er.Elkotob

عندما هدأت قليلا أشار شفيق نحو المكتب إيذانا لها بأن تتقدم لتجلس خلفه. انتابتها حالة من الخوف والتردد شحذت كل قواها لتتغلب عليها وهي تتقدم مستميتة لتحافظ على ثباتها، حتى وصلت خلف المكتب وجلست على المقعد. لم تعلم كنه الشعور الذي أحست به في تلك اللحظة. خوف ممزوج بألم وسخرية من تلك الحياة التي دارت ملابساتها فأجلستها على المقعد الذي كان يجلس عليه هذا الرجل الذي حرص على إبعادها عن حياته طيلة الوقت.

انتبهت على صوت شفيق الذي أشار نحو ليديا ورأفت وهو يقول مبتسما:

- دي ليديا سكرتيرة منصور بيه ومديرة مكتبه، وده رأفت النائب بتاعي. هيكونوا أقرب اتنين ليكي في الفترة الجاية وتحت أمرك وهيساعدوكي في كل حاجة.

فنظرت نحوهما يارا وهي تقول مبتسمة:

- عارفاهم وشفتهم قبل كده. ليديا في العزا ورأفت في المستشفى.

فقال شفيق متذكرا:

- أيوه صح. على العموم هما هيفضلوا معاكي بقية الأسبوع ما عدا الخميس عشان الخميس الجاي خميس العهد وهما هيبقى عندهم قداس.

فأسرعت ليديا تقول مبتسمة في خبث:

- لا يا مستر شفيق ماتقلقش، أنا بس اللي هاغيب عشان رأفت مابيروحش القداس.

فرمقها رأفت في غيظ وهم بأن يرد عليها، ولكن شفيق رماه بنظرة محذرة أوقفته قبل أن يلتفت نحو يارا ويسترسل شارحا برنامج اليوم:

- بعد شوية هييجي أعضاء مجلس الإدارة عشان تتعرفي عليهم، وبعدها هييجي الباشمهندس حسن أيوب عشان يديكي فكرة عامة عن شركات المجموعة وأعمالها، وبعدها هتسلمك ليديا مجموعة ملفات مهمة عشان تطّلعي عليها.

فأشارت يارا برأسها دون أن تجد ما تقوله، بينما استأذنها شفيق وخرج هو وليديا ورأفت لاستدعاء أعضاء مجلس الإدارة للمقابلة.

وما إن خلت إلى نفسها حتى ألقت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها محاولة تمالك نفسها والاستعداد للمقابلة القادمة. "أين أنت يا يحيى؟". ألم تقل لي إنك ستزورني في المكتب في أول يوم في

لمزيد من الكتب العصرية

المجموعة؟ في حالتي تلك لن أكذب على نفسي أو أنكر ما بداخلي، أنا في أشد الحاجة إليك بجانبي". أفاقت على صوت ليديا وهي تقترب في هدوء متنحنحة لتنبهها إلى وجودها قبل أن تقول:

- آنسة يارا، أستاذ يحي.

فانتفضت يارا مسرعة وقاطعتها متسائلة في لهفة:

- وصل؟

- لا. ده بعت لحضرتك دي.

و ناولتها علبة سوداء مستطيلة أخذتها يارا محاولة إعادة الهدوء إلى ملامحها، بعد أن أدركت ما ظهر عليها من لهفة وتسرع، فتحتها في هدوء، كان بداخلها قلم جاف فضي لامع رقيق، ابتسمت وقلبها يخفق في سعادة بسبب تلك الهدية، كيف يستطيع أن يعلم بالضبط ما يمكن أن يسعدها؟ ولكن في تلك اللحظة بالذات لا شيء في الدنيا يغني عن وجوده بجانبها ولا حتى سعادتها بتلك الهدية الرقيقة والمناسبة للموقف.

أغلقت العلبة ونحتها جانبا عندما سمعت طرقا انفتح على إثره الباب، ودخل شفيق وخلفه أعضاء مجلس الإدارة في بذلاتهم الأنيقة وعطورهم الفواحة، فنهضت يارا مدارية توترها بابتسامة، وتجاوزت المكتب وتقدمت حتى وقفت أمامهم مباشرة، حيث بدأ شفيق بتعريفها بهم عن طريق ذكر أسمائهم ومراكزهم في المجموعة، ويارا تصافحهم وتوترها يزداد كلما أدركت أهمية مركز كل واحد فيهم حتى وقف أمامها آخرهم مبتسما بوجه بشوش يختلف عن الابتسامات المتكلفة التي رسمها كل من قبله فعرفه شفيق قائلا:

- و أخيرا وليس آخرا الأستاذ هاشم فتح الله المدير التنفيذي للمجموعة ومدير مصنع منتجات الألبان الخاص بالمجموعة في ستة أكتوبر.

فصافحها مبتسما ومداريا تأثره وهو يقول:

- نورتي شركتك ومليتي مكان أبوكي.

فابتسمت في توتر واضطراب وهي تقول في صوت خافت:

- شكرا يا أستاذ هاشم.

فاستطرد هاشم متسائلا:

لمزيد من الكتب العصرية

- تعرفي إنك شبهه قوي؟

ألجمت الصدمة لسانها ولم تعرف بم تجيب. عندما رأت منصور بك في المستشفى أدركت مدى الشبه الذي يجمع بينهما، لكنها حاولت التهرب من تلك الفكرة مثلما اعتادت التهرب من أي شيء يربطها به. وكادت أن تنسى حتى أتى هاشم بنظرته الأبوية وابتسامته الجميلة ليذكرها في يوم ينقصها فيه كل شيء إلا التوتر والخوف.

قطع شفيق الصمت مجيبا هاشم بدلا منها ومنهيا الحديث في نفس الوقت:

- أكيد طبعا خدت بالها. على العموم لسه قدامنا وقت طويل عشان نتعارف أكتر.

فصافحها هاشم مرة أخرى قبل أن يستدير ويخرج مع كل الأعضاء الآخرين ثم التفت نحوها شفيق وقال:

- بعد إذنك هاروح أستدعي الباشمهندس حسن أيوب المساعد الفني لمنصور بيه. عشان يديكي فكرة عامة عن المجموعة وأعمالها.

خرج شفيق بينما عادت يارا وارتمت على المقعد وقد بلغ اضطرابها مداه. أكان اليوم ينقصك يا هاشم لتنكأ جروحها وتذكرها بوالدها وأختها والشبه بينهم وكل تلك الأشياء التي تثير مشاعرها وتوترها.

جاء صوت ليديا عبر الجهاز قائلة:

- آنسة يارا، الأستاذ يحيى وصل.

فانتفضت يارا وضغطت الزر وهي تقول مسرعة:

- خليه يدخل بسرعة.

أخيرا وصلت يا يحيى. وفي الوقت المناسب تماما. نهضت يارا في توتر واقتربت في خطوات مسرعة نحو يحيى، الذي تقدم نحوها مبتسما وهم بإلقاء التحية لكنها قاطعته قائلة في عصبية بعد أن التقيا في منتصف الغرفة:

- اتأخرت ليه يا يحيى؟ حرام عليك.

فابتسم وهو يقول في استغراب:

- أنا ماتأخرتش. أنا مارحتش الشغل لحد دلوقتي عشان أعرف آجي لك.

فهدأت قليلا قبل أن تقول معتذرة:

- أنا آسفة، أصلي متوترة قوي من الصبح وكنت محتاجة حد جنبي.

فاتسعت ابتسامته أمام رقتها قبل أن يتساءل:

- هو القلم ماوصلش؟

فاستدارت واتجهت نحو المكتب وهي تقول:

- لأ وصل.

- عجبك؟

فجلست خلف المكتب وهي تقول:

- جدا، أنا مش هاستخدمه وهاحتفظ بيه كده زي ما هو.

فجلس أمام المكتب وهو يقول معترضا:

- لا من فضلك، القلم ده لازم تستخدميه وتمضي بيه القرارات المهمة بس.

فحدقت في وجهه ثواني قبل أن تتساءل مستنكرة:

- أمضي قرارات مهمة؟

- أيوه طبعا، إنتي دلوقتي رئيس مجلس الإدارة والوحيدة صاحبة الحق في إنك تمضي على القرارات المهمة والمصيرية كمان، إنتي مستقلية نفسك ولا إيه؟

فابتسمت في اضطراب وخوف من هذه الحقائق التي واجهها بها. انتبهت على صوت شفيق الذي دخل الغرفة ونظر نحو يحيى مندهشا ثم قال بابتسامة:

- أستاذ يحيى، أهلا وسهلا.

فنهض يحيى ورد التحية مبتسما بينما التفت شفيق نحو يارا وأشار إلى رجل كان يسير خلفه قائلا:

- الباشمهندس حسن أيوب، المساعد الفني لمنصور بيه.

فأحنى الرجل رأسه ليارا مبتسما والتي حيته قائلة:

- تشرفنا يا باشمهندس.

- أهلا يا هانم.

فقال شفيق وهو يشير نحو مائدة الاجتماعات:

لمزيد من الكتب العصرية

٩

- اتفضلوا.

فتململ يحيى قليلا قبل أن يقول في صوت خفيض:

- طب أنا هامشي بقى.

فنظرت نحوه يارا في فزع وقالت متوسلة:

- لا يا يحيى أرجوك ماتمشيش، أنا محتاجاك جنبي جدا دلوقتي.

- أيوه بس إنتوا هتجتمعوا دلوقتي وهتشتغلوا.

- ده مش اجتماع، ده هيعمل عرض سريع عن شركات المجموعة وأعمالها. مافيش لا شغل ولا أسرار.

فجاء صوت شفيق من خلف المائدة وهو يقول:

- واقف ليه يا أستاذ يحيى؟ اتفضل، اتفضلي يا يارا.

فنظرت يارا نحوه بنظرات متوسلة لم يستطع أن يصمد أمامها، خاصة بعد أن جاءت دعوة شفيق نافية لأي حرج. ابتسم واتجه نحو المائدة التي جلست يارا على رأسها وقد ملأها ارتياح غريب عندما أذعن يحيى لطلبها ولم يذهب، بينما جلس شفيق على يسارها ويحيى على يمينها. أنزل المهندس حسن الشاشة البيضاء وقام بتخفيف الإضاءة، قبل أن يضغط على جهاز العرض السينمائي، فتتابعت الصور والرسومات البيانية أمامهم بينما بدأ هو شرحه قائلا:

- في منتصف الثمانينات أنشأ منصور أبو بلاط شركة استيراد وتصدير، برأس مال حوالي ستة مليون جنيه. على مدار حوالي خمسة و عشرين سنة وبفضل اجتهاد منصور بيه وحكمته في الإدارة والاستثمار، توسعت الشركة وأنشئت شركات جديدة في مجالات مختلفة. ودلوقتي الشركة المتوسطة تحولت إلى مجموعة كبيرة تتكون من ستة وعشرين شركة ومصنع، برأس مال يتراوح حوالي ما بين خمسة ونص وستة مليار دولار.

صمت المهندس حسن ليلتقط أنفاسه واتسعت حدقتا يارا من هول الأرقام التي تسمعها بينما استطرد حسن قائلا:

- المجموعة تتكون من التالي: شركة الاستيراد والتصدير الأساسية طبعا، مصنع منتجات الألبان والشركة الخاصة بيه، مصنع المنتجات الورقية والشركة الخاصة بيه، شركة مقاولات، شركة

ملاحة لنقل البضائع بحريا، شركة سمسرة وتداول أوراق مالية، مصنعين لمنتجات البلاستيك، مصنع ملابس جاهزة والشركة الخاصة بإدارة سلسلة محلات الملابس، سلسلة مطاعم، مصنع وشركة منتجات إلكترونية، مصنع منتجات زجاجية، مصنع مستحضرات تجميل والشركة الخاصة بيه، شركة سياحة، مصنع حدايد وبويات والشركة الخاصة بيه، شركة نقل بضائع بريا بتخدم باقي شركات المجموعة، مصنع أسمنت، شركة لإدارة مراعي الأبقار والدواجن اللي بتورد للمطاعم والمصانع، مصنع كيماويات، وأخيرا وكالة إعلان ضخمة.

صمت المهندس حسن مرة أخرى، بينما نظر يحيى نحو يارا نظرة مشجعة بعدما أحس بالخوف الذي أخذ يملؤها كلما تقدم الرجل وزاد في الشرح. جاهدت لترسم ابتسامة على شفتيها لتطمئنه قبل أن تلتفت نحو حسن الذي استكمل:

- معظم الشركات والمصانع ماشيين بخطوات ثابتة حسب الخطط الموضوعة، وبعد الاجتماع هاجيب لحضرتك الملف الخاص بكل شركة، وفيه متلاقي أهم أعمال لكل شركة على حدة في الخمس سنين اللي فاتوا والخمس سنين الجايين. مافيش حاليا مشاكل مهمة إلا في مكانين بس.

ضغط حسن على الزر ليغير الصورة قبل أن يسترسل قائلا:

- أولا، كنا بدأنا مشروع مشترك بين شركة النقل البري وشركة منتجات الألبان لتغيير نظام نقل وتخزين المواد الخام والمنتجات، لأن طبعا صناعة الألبان من أكتر الصناعات الحساسة واللي بتحتاج معاملة خاصة في النقل والتخزين. المشروع ده بيتضمن استخدام نظام متكامل بربط بين تلاجات متنقلة في عربيات النقل وتلاجات ثابتة في المخازن، وكان منصور بيه اتفق مع شركة أوروبية لتنفيذ المشروع. الوفد الخاص بالشركة دي كان هيوصل الأسبوع اللي فات بس طبعا كل حاجة اتأجلت بسبب اللي حصل ومعاد حضورهم اتأجل للأسبوع اللي جاي. أهم حاجة إننا نخلص المفاوضات ونبدأ تنفيذ المشروع في أسرع وقت ممكن عشان كل تأخير بيخسرنا وبيضيع علينا فرص ربح وتوفير نفقات.

صمت حسن مرة أخرى لتغيير الصورة المعروضة ثم استأنف حديثه قائلا:

- ثانيا، قبل اللي حصل منصور بيه كان بيعمل مفاوضات مع عدة بنوك للحصول على قروض بقيمة ستة وعشرين مليون دولار لتمويل المرحلة التانية من مشروع مدينة الشريفة السكنية في

القاهرة الجديدة. طبعا كل المفاوضات دي توقفت ولازم ترجع تاني بسرعة لأن المشروع شبه متوقف.

صمت حسن بعد أن انتهى كلامه ونظر نحو يارا التي كانت - على غير المتوقع - ممتقعة الوجه. تملأ الدهشة والاستنكار ملامحها وكأن الكلام قد توقف في حلقها. ازدردت ريقها بصعوبة وتساءلت بصوت مبحوح:

- حضرتك قلت.. المدينة السكنية اسمها إيه؟

فقطب المهندس حسن في استنكار من هذا السؤال الذي لم يتوقعه ولا يتناسب مع خطورة ما قال، لكنه تمالك نفسه مسرعا وقال في هدوء:

- الشريفة.

نظر يحيى نحو يارا في قلق مما بدا عليها من اضطراب ازداد عن المعقول، لكنها لم تلتفت إليه واستطردت متسائلة:

- ماعلش استحملني، بس هو مين اللي كان بيختار أسامي المشروعات؟ مديرين الشركات واللي ماسكين الـmarketing؟

فرفع حسن كتفيه وهو يقول:

- يعني، على حسب المشروع، بس المشروع ده بالذات منصور بيه هو اللي اختار اسمه بنفسه.

فصمتت يارا وقد تحولت قسمات وجهها من التوتر والاضطراب إلى تفكير عميق اختلط بحزن وحيرة، لم تلتفت إلى ما حدث بعد ذلك ولكنها وجدت نفسها بمفردها مع يحيى بعد أن خرج شفيق وحسن من الغرفة. نظر يحيى نحوها في قلق ثم تساءل:

- مالك يا يارا؟! إيه اللي حصل لك وغيرك فجأة كده؟!

فازدردت يارا ريقها لتبل حلقها الجاف قبل أن تتساءل في حيرة:

- إنت سمعت اللي قال له الباشمهندس حسن؟ منصور بيه هو اللي اختار اسم المدينة السكنية.

فمط يحيى شفتيه مستغربا وهو يتساءل:

- طب وفيها إيه؟

فحركت رأسها وهي تقول في تأثر:

لمزيد من الكتب العصرية

- إنت عارف شريفة ده يبقى إيه؟ يبقى اسم أمي الله يرحمها.

بدا يحيى مأخوذا مما سمعه لكنه قال محاولا التظاهر باللا مبالاة:

- طب وفيها إيه؟ يمكن صدفة؟

فاحتدت قليلا وهي تقول وقد التمعت الدموع في عينيها:

- صدفة لدرجة إنه هو اللي يختار الاسم بنفسه؟! إيه؟ هو نسيها لدرجة إنه نسي اسم أول واحدة اتجوزها؟

فقال يحيى في هدوء:

- أو يمكن تكونوا على باله وعمره ما نسيكم.

فنظرت يارا نحوه مأخوذة من هذا الافتراض، ثم سرعان ما حل الهم محل كل شيء آخر فوق ملامحها وهي تمسك رأسها بيدها وتستند على المائدة قائلة:

- أنا حاسة إني مش فاهمة أي حاجة.

- وأنا حاسس إنك مضايقة نفسك زيادة عن اللازم.

فنظرت نحوه بعينين نصف مغمضتين وهي تتساءل:

- إنت شايف إن اللي أنا فيه ده مايستاهلش المضايقة؟

فابتسم نصف ابتسامة وهو يقول:

- بصي، هو أنا لما باحط نفسي مكانك بألاقي إن عندك حق تتضايقي وتحتاري، بس لما بارجع تاني مكاني باحس إني متضايق لما باشوفك عاملة كده.

تسحبت يده فوق المائدة حتى تناول يدها وضغط عليها برفق وهو يقول:

- ريحي نفسك شوية يا يارا. مش كل شوية تملي دماغك بمليون حاجة تضايقك وتهك أعصابك. حتى لو فيه حاجات طلعتلك من تحت الأرض أجلي التفكير فيها وركزي في الشغل والمجموعة وبس. لحد لما تلبتي نفسك هنا وبعدين نبتدي ندور على حاجة نحل بيها لغز الصندوق ده. غير كده أرجوكي ماتهكيش نفسك. اتفقنا؟

فابتسمت وهي تقول مستسلمة:

- اتفقنا.

فتح الباب بغتة فانفصلت أيديهما في سرعة وانتابهما حالة توتر خوفا من القادم. لكن ليديا لم تكن قد رأت شيئا ولم تلتفت إلا إلى الملفات الثقيلة التي تحملها والتي وضعتها على المكتب خلفهما وهي تقول:

- الملفات اللي بعتها الباشمهندس حسن يا آنسة يارا.

فقالت يارا مدارية اضطرابها:

- شكرا يا ليديا.

خرجت ليديا بينما عاد يحيى فأمسك بيد يارا ونهض وهو يجذبها ويتجه بها نحو المكتب حتى أجلسها خلفه. ثم ابتسم وهو يقول متصنعا الحزم:

- سيادتك وراكي شغل كتير قوي. أفتكر لازم تبدئي فيه دلوقتي حالا عشان تلحقي تخلصي، وأنا هاوصي ليديا وأنا خارج تبعت لك شفشق لمون عشان تهدي أعصابك.

ابتسمت من ممازحته لها بينما اتسعت ابتسامته. قبل أن يلتفت ويتجه نحو الباب وقبل أن يخرج استدار وهو يقول:

- هابقى أكلمك بالليل.

فحركت رأسها موافقة قبل أن تعود وتنظر إلى ما بين يديها من أوراق. بعد أن خرج يحيى وتركها مشحونة بأمل جديد وقوة تدفعها لمواصلة ما بدأته سواء في المجموعة أو في أمر ربما.

لمزيد من الكتب العصرية

## (٣١)

انخرطت يارا طوال أول يومين في أعمال المجموعة ومشاريعها، دأبت مجتهدة على فهم كل كبيرة وصغيرة في العمل ودراسة المشاريع والقرارات والملفات، أرادت أن تستوعب العمل على قدر ما تستطيع حتى إذا ما بدأت في اتخاذ القرارات والمشاركة في المفاوضات والاجتماعات تكون ذات خلفية جيدة وقاعدة بيانات تجعلها قادرة على السير في الطريق الصحيح، حتى لا تتسبب في أي أذى قد يصيب هذا الصرح العملاق.

وكان شفيق ورأفت وليديا يساعدونها بجد واجتهاد ويفسرون لها كل ما هو غامض عليها أو جديد بالنسبة لها، حتى بدأت تعتادهم وبالذات ليديا، تلك الفتاة الرقيقة المهذبة المتعاونة التي يمتلئ وجهها بالبشاشة وتمتلئ عيناها بالحزن، وعلى الرغم من قصر فترة تعاملها معها لكن يارا وجدت نفسها تثق في ليديا ثقة كاملة، حتى أنها فكرت فيما كانت من ستبدأ بالاستعانة به في تلك المجموعة لمعرفة المزيد عن الأسماء الموجودة بالقائمة وعلاقتهم بمنصور بك، كما أنها أصبحت تعتمد عليها في كثير مما يخص العمل حتى أنها شعرت بفراغ شديد يوم الخميس حين تغيبت ليديا لحضور قداس خميس العهد.

كانت جالسة وحدها في المكتب تطالع بعض الأوراق حتى رن جرس هاتفها المحمول برقم لا تعلمه، ضغطت على الزر ووضعت الهاتف على أذنها فسمعت صوتا نسائيا تألقه يقول في تودد:

- صباح الخير يا يارا.

- صباح النور.

- أنا عايدة مامت يحيى، مش فاكراني؟

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

فأسرعت يارا تقول في سعادة وقد تذكرت نبرة الصوت الأرستقراطية الناعمة:

- لا إزاي يا طنط بس؟ طبعا فاكرة حضرتك، عاملة إيه؟

- أنا كويسة الحمد لله، المهم إنتي عاملة إيه؟ يحيى قال لي إنك شايلة حمل تقيل قوي.

فابتسمت يارا وهي تقول مستحضرة تشجيع يحيى لها وثقته في قدراتها:

- ماتخافيش يا طنط أنا قدها.

- أنا برضو قلت كده.

لمزيد من الكتب العصرية

ثم صمتت لحظة قبل أن تقول في حماس:

- قولي لي وراكي حاجة يوم الاثنين؟

فهتفت يارا متذكرة في استنكار:

- الاثنين؟

- أيوه يوم شم النسيم.

فأسرعت يارا تقول بعد أن تذكرت:

- آه صح ده هيبقى شم النسيم. لا يا طنط ماعنديش حاجة اليوم ده.

- و لا هتزوري قرايب ولا صحاب أو أي حد؟

فقالت يارا مدارية حزنها:

- لا خالص يا طنط. هابقى لوحدي.

فازداد حماس عايدة وهي تقول:

- لا مش هتبقي لوحدك. إنتي هتيجي تقضيه معانا أنا ويحيى هنا في البيت.

فترددت يارا قليلا قبل أن تقول:

- بس.. أنا خايفة أضايقكوا وإنتوا هتبقوا عيلة مع بعض.

- لا هتضايقينا ولا هنبقى عيلة ولا حاجة. السنة دي بناتي الاتنين مش هيقدروا ييجوا هما واجوازاتهم وولادهم عشان يقضوا شم النسيم معانا. فبدل ما أنا ويحيى نبقى لوحدنا وإنتي تبقي لوحدك نقضي اليوم ده مع بعض، ولا إنتي مش عاوزة؟

فانتفضت يارا وهي تقول مسرعة:

- أنا؟ أبدا والله. هو أنا أطول؟ خلاص أنا معاكم الاتنين الجاي.

- كلام نهائي؟

فابتسمت يارا وهي تقول:

- كلام نهائي.

أنهت المكالمة وأغلقت الهاتف وهي في قمة السعادة. كم أحبت هذا البيت منذ أن دخلته. أحبت جوه العائلي الدافئ. أحبت ربته السيدة الجميلة الوقورة الأرستقراطية التي تعاملها كأنها ابنتها أو

أكثر. وأحبت أن تقضي معها في هذا البيت أطول وقت ممكن. وازدادت سعادتها ومعها خفقان قلبها عندما أدركت أنها ستقضي اليوم كله مع يحيى. هذا اليوم الذي منذ أن توفيت والدتها وهي عادة ما تقضيه بمفردها سيختلف هذا العام. وبدلا من الجلوس وحدها واجترار الذكريات الأليمة ستقضي الوقت في جو عائلي جميل مع يحيى. الإنسان الوحيد الذي أصبحت تثق فيه وتشعر بالراحة والأمان بجانبه.

انتبهت على جرس هاتفها مرة أخرى، مطت شفتيها في تبلد عندما قرأت اسم كريم على الشاشة ثم فتحت الخط فجاءها صوته قائلا في مرح:

- صباح الخير على أجمل رئيسة مجلس إدارة في الدنيا.

ابتسمت في تكلف مرتابة من تلك الرقة وهي تقول:

- صباح النور يا كريم.

فانطلق يقول دون أن يترك لها فرصة للحديث:

- يلا بقى اعملي حسابك على داي يوز يوم شم النسيم. هنطلع على الفيلا بتاعة مروان في العين السخنة نقضي اليوم كله ونرجع بالليل.

أحست بشيء من الضيق من نبرته التقريرية تلك. أحست أنه يأمرها ولا يأخذ رأيها. أخفت ضيقها وقالت في حسم:

- لا يا كريم ماعلش مش هاقدر آجي.

فهتف منزعجا:

- ليه؟

ترددت قليلا قبل أن تقول:

- أصل قرايب ماما عزموني عندهم اليوم ده وأنا قبلت العزومة.

فقال في استخفاف:

- اعتذري لهم.

فازداد ضيقها من استهتاره وقالت في عصبية:

لمزيد من الكتب العصرية

- ماقدرش يا كريم، خالة ماما ست كبيرة وزي جدتي هتزعل لو مارحتش، عشان أنا بقى لي كتير ماشفتهاش ولا حتى اتصلت بها.

فقال مهادنا:

- طب خلاص ماتتعصبيش، نبقى نعوضها في وسط الأسبوع.

- لا ماينفعش بيبقى عندي شغل، خليها في الويك إند.

- خلاص ماشي.

ثم صمت قليلا قبل أن يقول في رقة:

- ولو إنك هتوحشيني.

فقالت في صبر نافد:

- ماعلش يا كريم أنا لازم أقفل عشان عندي مقابلة مهمة.

- خلاص ماشي، هابقى أكلمك تاني.

- طيب، سلام.

أنهت المكالمة في عصبية دون حتى أن تسمع رده، لكن ما إن وضعت الهاتف المحمول على المكتب حتى هدأ غضبها وتحول الضيق إلى ابتسامة على شفتيها كادت أن تتحول إلى ضحكة. وجدت نفسها في غاية الاندهاش، كيف استطاعت أن تكذب عليه بكل هذا الثبات بل أيضا وتتظاهر بالعصبية؟ كيف استطاعت أن تختلق تلك الكذبة بهذه السرعة وتنفذها دون تردد أو اضطراب أو خوف كأنها بالفعل ستزور أقارب والدتها الذين لم يسألوا عنها في الحقيقة منذ سنوات؟ ألتلك الدرجة لا تريد أن تقضي اليوم مع كريم؟ أم.. أم أنها خافت من أن يضيع هذا اليوم دون أن ترى يحيى؟ نهضت واتجهت في خطوات وئيدة مفكرة نحو النافذة الكبيرة، وما إن وصلت عندها حتى كانت ابتسامتها قد اتسعت إلى أقصى مدى، فقد أدركت أنها ليست في حاجة إلى تفكير لتعلم الإجابة، إنها تعلمها جيدا منذ اللحظة التي ضبطت فيها نفسها وهي تقارن بين يحيى وكريم، أو ربما من قبل ذلك بكثير. لا تعلم، كل ما تعلمه حقا هو أنها تعلم الإجابة جيدا وليست متضايقة أو مندهشة منها.

(٣٢)

كانت ليديا تقف مستندة بمرفقيها على حافة النافذة المطلة على الشارع، تراقب باب العمارة في ضيق وضجر بينما هواء الليل يعبث بشعرها البني الناعم. عندما جاءها صوت والدتها ووالدة رأفت من نافذة الغرفة المجاورة التي كن يجلسن فيها يحتسين القهوة وقد ارتفع صوتهن وخرج واضحا إلى الشارع، قبل أن يعود من النافذة الأخرى إلى أذني ليديا:

- هو رأفت ليه ماجاش لحد دلوقتي يا أنجيل؟

- هو أنا عارفة له حال أبدا، أهو رجع إمبارح بالليل من الكنيسة بدل ما ييجي ياكل معانا أكل لوحده بسرعة ودخل أوضته، ولما رجعت من عندك الفجر بعد ما خلصنا أكل لقيته نايم، ولما صحيت لقيته قاعد على الكمبيوتر، وقال لي قال إيه هيحصلني على هنا بعد ساعتين وأديه ماجاش لحد دلوقتي، أنا متأكدة يا سميرة إنه لسه قاعد على الزفت الكمبيوتر اللي مابيسيبهوش طول الوقت.

- ماعلش يا أنجيل يا حبيبتي، تلاقيه قاعد يرغي مع صحابه على النت.

- طب ما يرغي معاهم في التليفون ولا يخرج معاهم، لا يا سميرة لأ، أنا قلبي مش متطمن.

- ليه بس؟ هو قال لك حاجة خوفتك؟

- لأ، بس ده ابني وأنا عارفاه، لما بيبقى عامل عملة أو مخبي حاجة قلبي بيحس.

- اهدي بس كده وروقي، رأفت ده زينة الشباب، وبكرة حاله يتصلح، إنتي مش فاكرة ابن جارتنا.

انصرفت ليديا عن متابعة الحديث متضايقة، إن ما تقوله أنجيل صحيح، إنها تشعر بمثل ما تشعر به، هذا الاختلاف الذي بدأ يطرأ عليه لا يخفى عليها على الرغم من أنه يكاد يكون لم يغير من طريقة معاملته لها، إنها أيضا تشعر بارتياب لا تعلم له سببا، وجاء اليوم ليؤكد تلك الظنون، طيلة قداس العيد لم يلتفت نحوها وكأنها غير موجودة بالمرة، وبعد عودتهم من الكنيسة لم يأت مع والدته ليتناول طعام العيد معهم ولم يعد معها في الصباح، وها هي الساعة تقترب من الثامنة مساء وهو لم يأت بعد، قضى العيد كله وحده في المنزل.

جذب نظرها صوت في الشارع حيث ألفت رأفت وهو يغلق باب سيارته ويعبر الشارع متجها نحو باب العمارة، أحست في تلك اللحظة بمدى الفتور الذي اعتراها، فتور لو نطق لتساءل في سخرية

"بعد إيه؟" وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أن تمنع قلبها من أن يخفق خفقته المعتادة كلما رأت رأفت واقفا في صالة منزلهم، التي وقفت هي في نهايتها دون أن تتقدم خطوة واحدة بينما كان والدها يرحب به ويدعوه للجلوس قبل أن يلتفت نحوها ويحثها قائلا:

- ماتيجي يا ليديا تسلمي على رأفت.

تقدمت في خطوات متثاقلة وهي تنظر نحوه بينما كان هو يتظاهر بتأمل صورة العذراء على الحائط. قالت مغمغمة:

- كل سنة وإنت طيب يا رأفت.

ألقى نحوها نظرة سريعة وهو يقول:

- وإنتي طيبة.

ثم عاد يتأمل الصورة وكأنها غير موجودة بالمرة. لم يجذب نظرتها الحزينة سوى صوت والدها الذي طلب منها إعداد الشاي وإحضار الحلوى "الفطاري". دخلت المطبخ وقامت بإشعال النار ووضع البراد المملوء بالماء وإعداد صينية الأكواب والحلوى بأصابع آلية، وهي تحاول بكل قوتها أن تتغاضى عن إحساس الألم الذي أخذ يلشب بداخلها. وبعدما وضعت الصينية أمامهما ترددت لحظة قبل أن تستدير وتدخل غرفتها وترتمي على الفراش.

لماذا يعاملها بهذا الجفاء؟ لم يحدث شيء مؤخرا يستدعي منه كل ما يفعله هذا؟ أيمكن أن يكون غاضبا بسبب الملاحظة التي ألقتها أمام بارا وشفيق عن عدم حضوره للقداس؟ إنها تعلم أنها كانت مزحة سخيفة ولكنها لم تستطع أن تكتم غيظها ورغبتها في إيذائه مثلما آذاها حتى لو كان قد اعتذر لها بالفعل، فضلا عن أن تلك المزحة لا تستدعي هذا الرد العنيف منه وكل تلك القسوة في المعاملة. إن أفضل ما تفعله هو أن تظل في غرفتها حتى يرحل، حتى تجنب نفسها الحرج والألم الذي يصيبها به بسبب لامبالاته وقسوته. لكنها عادت وأشفقت من فكرة أن يمر العيد وأن يذهب رأفت دون أن يتحدثا معا أو يقول لها كلمة حلوة تسعد بها. لكنها أيضا لا تستطيع أن تخرج وتجلس معه هو ووالدها وهو لا يزال يعاملها بتلك الطريقة. إن أفضل حل هو أن تخرج وتتظاهر بمراقبة الشارع من النافذة كما كانت تفعل منذ قليل، حتى إن حانت فرصة مناسبة يجد لديه القدرة على الحديث معها دون أن تهين نفسها وكرامتها مرة أخرى. غمرها ارتياح من تلك الفكرة

ونهضت لتطمئن على شكلها في المرآة، قبل أن تخرج وتتجه نحو النافذة وتتظاهر بمراقبة الشارع، بينما كل حواسها كانت دائرة مع حديثهما خلف ظهرها.

و بعد فترة قصيرة استأذن والدها وذهب إلى المرحاض تاركا أمامه فرصة مناسبة ليبدأ حديثا معها. مرت الدقائق بطيئة ثقيلة وهي تختلس نحوه نظرات قلقة مضطربة منتظرة أن يناديها أو يتقدم في أي لحظة ويتجه نحوها، ولكن بدلا من ذلك ظل رأفت جالسا مكانه كالتمثال، صامتا شاردا في صورة العذراء التي لو نطقت لحثته على الرأفة بتلك الفتاة المسكينة التي استهلكت قلبها ومشاعرها في حب لم تذق فيه يوما سعيدا مثل الفتيات الأخريات.

و عندما سمعت صوت حفيف ملابس والدها وهو عائد من الداخل انتابها حالة غضب مؤلمة، أدركت أن تلك الفكرة لم تكن إلا شكلا آخر من أشكال إهانة نفسها بنفسها ودهس كرامتها وجرح مشاعرها التي أصبحت لا تحتمل أكثر من ذلك.

استدارت وعادت إلى غرفتها في خطوات عصبية قبل أن ترمي بنفسها على الفراش في عنف أوجع ضلوعها. ظلت محملقة في السقف والأفكار تدور برأسها، كل ما قالته طنط أنجيل صحيح، رأفت ليس رأفت الذي تعلمه جيدا، ليس فقط بسبب إهماله لها، فهذا شيء على الرغم من إيذائه لها قد اعتادته، ولكن هناك شيئا آخر في نظرة عينيه وشروده وانصراف ذهنه عن العمل في الأيام الماضية. ولكن ما السبب؟ الحب مثلا؟ وعاد قلبها ليتقلص بداخلها ولكن عقلها رفض الفكرة رفضا تاما، إذا كان يحب حقا، فأين هي تلك التي يحبها؟ إنها تكاد تكون معه في كل مكان يرتاده، العمل والكنيسة، كما أن كل معارفهما يعلمن مشاعرها نحوه ولن تجرؤ إحداهن على الإقدام على فعلة كتلك، لا لا، إنها فكرة غير مبررة ولا دليل عليها.

وجدت عقلها يعود إلى نقطة البداية، ما سبب هذا التغير!

لا تعلم كم مضى من الوقت قبل أن تنتبه على صوت والدتها وهي تهتف من الخارج قائلة:

- تعالي يا ليديا سلمي على طنط أنجيل ورأفت عشان ماشيين.

و عندما خرجت من الغرفة كانت أنجيل تنتظرها في منتصف الصالة لتودعها، بينما كان رأفت قد سبقها ليقوم بتشغيل السيارة وتسخينها.

لمزيد من الكتب العصرية

(٣٢)

عندما فتح يحي باب الشقة أطلت يارا بوجهها إلى الأمام وهي تقول مبتسمة:

- كل سنة وإنت طيب.

فرد بابتسامة مماثلة:

- وإنتي طيبة.

- اتفضل.

قالتها وهي تمد له يدها بعلبة حلوى تناولها ووضعها على ال"كونسول" المواجه لباب الشقة وهو يقول:

- ماكانش ليه لازمة.

فدخلت الصالون وهو يتبعها وهي تقول:

- إزاي بس؟ أمال هنحلي بإيه بعد الغدا؟

- آه. ده إنتي جاية وراسمة على غدا بقى؟

فجلست وهي تقول لترد الممازحة:

- وإنت مالك؟ هو إنت اللي عزمتني؟ طنط عايدة هي اللي عزمتني وأنا جاية عشانها.

فجلس وهو يرفع حاجبيه ويقول في غيظ:

- بقى كده؟ بقى إنتي جاية عشان طنط عايدة بس؟

فابتسمت من غيظه وهي تقول:

- أيوه طبعا. ده أنا عشان طنط عايدة سبت فسحة حلوة جدا.

- فسحة؟ فين؟

فترددت قليلا قبل أن تقول:

- في العين السخنة. مع صحاب الجامعة القدام.

فصمت قليلا عند سماع تلك الجملة قبل أن يتساءل مداريا فضوله الممزوج بالقلق:

- و صحاب الجامعة دول أنا أعرف حد فيهم؟

حركت رأسها موافقة وقالت وهي تتكلف ابتسامة:

- كريم اللي شفته في المطار.

فحرك رأسه صامتا في محاولة للتظاهر بالطبيعية قبل أن يقول:

- ومارحتيش ليه؟ مابتحبيش البحر؟

فصمتت قليلا مفكرة قبل أن تقول في تخابث:

- كنت باحبه زمان، أو كان بيتهيأ لي إني باحبه.

- وبعدين؟

- وبعدين اكتشفت إنه مالهوش أمان. النيل آمن بكتير. أمال أنا جيت عندكوا ليه النهارده؟

فقال متماديا في الخبث:

- بس إحنا بلكونتنا مابتبصش على النيل.

فرفعت كتفها وهي تقول مبتسمة:

- ومين قال لك إني جاية عندكوا عشان أدخل البلكونة؟

ابتسم وقد حلت به طمأنينة بعد هذا الحديث المراوغ، انتبها على صوت عايدة وهي مقبلة من الداخل وقد فتحت ذراعيها ليارا قائلة:

- أهلا أهلا يا يارا. كل سنة وإنتي طيبة.

فقبلتها يارا وهي تقول في سعادة:

- وحضرتك طيبة.

جلسوا بنفس ترتيب المرة السابقة ويحيى يقول مبتسما:

- تصوري يا ماما. يارا بتقول إنها جات النهارده عشان حضرتك إنتي بس وأنا مش مهم.

- أيوه طبعا أمال إنت فاكر إيه؟

فرفع حاجبيه وهو يقول لوالدته مندهشا:

- بقى كده؟ يعني خلاص إنتوا الاتنين اتفقتوا عليا؟

فقالت عايدة مؤكدة:

- أيوه.

فضحك ثلاثتهم قبل أن تنهض عايدة وتتجه نحو المطبخ وهي تقول:

لمزيد من الكتب العصرية

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- خليكوا هنا لحد أما أخلص تحضير الفطار مع أم حمدي.

فقالت يارا في بساطة:

- طيب حضرتك هاتي لنا البيض عشان نلحق نخلصه.

فالتفتت عايدة نحوها وهي تتساءل في استنكار:

- تخلصوه إزاي يعني؟

فترددت يارا من نظراتهم المستنكرة قبل أن تقول متعجبة:

- هو إحنا مش هنلون البيض؟ أنا جبت الألوان معايا.

ضحك الاثنان ضحكات ممزوجة باندهاش ثم قالت عايدة وهي تستدير مرة أخرى:

- هابعت لك البيض المسلوق مع أم حمدي.

لم يكن يحيى قد كف عن الضحك عندما تساءلت يارا في ارتباك وحياء:

- هو فيه إيه؟ هو أنا قلت حاجة غلط؟

فكف يحيى عن الضحك وإن ظلت الابتسامة على شفتيه وهو يتأملها قليلا قبل أن يقول:

- بالعكس، ده هو ده العيد الوحيد اللي قضيته صح.

أحضرت أم حمدي طبق البيض المسلوق وانشغل كلاهما بتلوينه. في لحظات تحولا إلى طفلين يختلسان النظر إلى بعضهما ليسرقا أفكارا في نقش البيض وتلوينه. وخاصة يحيى الذي اتهمته يارا بأنه يقلد رسوماتها بينما دافع هو بحرارة عن نفسه بحجة أنه لا يستخدم نفس الألوان التي تستخدمها هي، وعندما بقيت بيضة واحدة تشاجرا عليها حتى اتفقا على أن يرسم كل منهما على وجه مختلف ثم يهديا تلك البيضة إلى عايدة لتأكلها.

جلسا على مائدة السفرة مثل المرة السابقة. وتناولوا الإفطار وقد أضفت يارا بوجودها وبيضها الملون جوا مرحا وجميلا على اليوم الذي كاد أنْ يكون مثل أي يوم عادي لا يميزه أي شيء.

بعد الإفطار استأذنت عايدة وغابت بالداخل بينما التفت يحيى نحو يارا وهو يقول:

- تعالي بقى نخلي أم حمدي تعمل لنا كبايتين نسكافيه نشربهم بمزاج في البلكونة.

- طب مش نستنى طنط؟

- لا طنط مش هتطلع من جوا قبل ساعتين على الأقل.

- إشمعنى؟

فابتسم يحيى وهو يقول:

- حضرتك طبعا عارفة إن كل شم نسيم لازم يجيبوا فيلم "أميرة حبي أنا" صح؟

- صح.

- ماما بقى من ساعة ما دخلت الفيلم ده زمان في السينما مع بابا الله يرحمه وهو كل ما ييجي في التليفزيون لازم تقعد تتفرج عليه. بتقول إنه بيفكرها بذكريات حلوة.

فابتسمت يارا في تأثر قبل أن تقول في حماس:

- طب ماتيجي تتفرج على الفيلم معاها.

فنظر نحوها في استنكار وهو يقول:

- إحنا هنضيع الوقت في أفلام ولا إيه؟ إحنا ورانا كلام مهم.

فتساءلت يارا في استنكار:

- كلام إيه؟

فتململ يحيى قليلا وهو يفكر في إجابة قبل أن يقول:

- كلام في موضوع ربما. إنتي نسيتي ولا إيه؟

- لا مانسيتش بس أنا كان قصدي إننا مانسيبش طنط لوحدها.

فقال في صبر نافد:

- لا ماتقلقيش. هي بتحب تتفرج على الفيلم ده وهي قاعدة لوحدها. يلا بقى.

فابتسمت في خبث وهي تقول:

- طيب حاضر.

سبقته نحو الشرفة بينما ارتفع صوته وهو يهتف:

- يا أم حمدي. اتنين نسكافيه وحياتك بس في مجات. بلاش الفناجين بتاعت ماما دي.

عندما استقرا في الشرفة على مقعدين متجاورين من ال"بامبو" ذي الأخواص البنية المتشابكة سألها عن عملها في المجموعة. فمضت تروي له كل ما يحدث باستفاضة وهو يسمعها باهتمام. حتى انتهت من كلامها فصمت قليلا ليفكر قبل أن يقول مشكلا كلامه في صيغة سؤال:

- طب مش بيتهيأ لي لازم نبدأ بقى نشتغل على الأسامي اللي في اللستة؟

- ما أنا بدأت فعلا. استغليت فرصة الأجازة وجبت عنهم معلومات كتيرة قوي من على جوجل.

فلوح يحيى بيده وهو يقول:

- لا أنا ماقصدش البحث الخارجي، ده أمره سهل، أنا قصدي البحث الداخلي جوا المجموعة عن علاقة الناس دي بمنصور بيه وبريما.

فعقدت حاجبيها وهي تتساءل مندهشة:

- تفتكر ممكن ألاقي علاقة بين ناس زي دول وبين ريما؟

فمط شفتيه قبل أن يقول:

- لازم ندور في كل الاتجاهات.

فحركت رأسها موافقة على كلامه قبل أن تقول:

- خلاص، أنا هابتدي من بكرة أدور وهاستعين بليديا، أنا خلاص بقيت واثق فيها جدا وهي كمان بقت بتحبني قوي، بقينا شبه اصحاب.

- كويس قوي، ليديا محل ثقة وبقى لها كتير بتشتغل مع منصور بيه يعني هتفيدك جدا. بس برضو، ليديا مش كفاية. أنا عاوزك تحطي في جيبك كل مكتب منصور بيه وعشان ده يحصل لازم تكسبي رأفت.

اتسعت حدقتا يارا في دهشة وهي تتساءل مستنكرة:

- رأفت، ده المساعد بتاع شفيق ودراعه اليمين وكل أسرارهم مع بعض، إزاي عاوزني أثق فيه؟!

- بغض النظر عن إن أنا مش فاهم إنتي ليه مابتحبيش شفيق، بس الموقف غير ما إنتي متخيلة خالص.

- إزاي؟

- أولا شفيق من الشخصيات اللي مابتسمحش لأي إنسان مهما بلغت ثقته فيه إنه يعرف كل حاجة عنه وإنه يبقى مساعد مقرب ليه بالدرجة اللي إنتي فاكراها، يعني العلاقة بين رأفت وشفيق مش زي ما إنتي متخيلة. ثانيا بقى وده الأهم إن رأفت إنسان أمين جدا، هو آه حلنجي ومالهوش حال ثابت بس في الآخر تقدري تستأمنيه على الأسرار وانتي متطمنة حتى من ناحية شفيق.

لمزيد من الكتب العصرية

فصمتت قليلا لتمعن التفكير فيما قال قبل أن تقول مستسلمة:

- ماشي. إنت أدرى بيهم، بس أنا برضو هأجل الخطوة دي شوية وهاكتفي بليديا في الأول.

وضعت أم حمدي النسكافيه أمامهما وذهبت، ارتشفا منه في صمت قبل أن يقول يحيى محاولا التذكر:

- ناقص إيه تاني؟ النوتة الكحلي. ماعرفتيش فيها أي حاجة؟

فهزت رأسها نافية وهي تقول:

- ولا أي حاجة، ولا باب أزرق ولا حتى الأرقام دي فهمت بتاعة إيه.

فاستطرد يحيى قائلا في حماس:

- مش يمكن الرقم التاني ده يكون رقم خزنة المكتب؟

- لأ، رقم خزنة المكتب شفيق قالهولي، ٢٠٩٠، عيد ميلاد ريما.

بدا شيء من الحزن على وجهها دارته بابتسامة لاحظها يحيى الذي رمق السلسلة الذهبية حول عنقها وهو يتساءل:

- طب والسلسلة؟

اضطربت قليلا قبل أن تتساءل وهي تمسك بثمرة جوز الهند الذهبية:

- مالها؟

فتردد قليلا قبل أن يقول:

- كنت من زمان عاوز أسألك، ليه ماخلتيش الجواهرجي يحاول يفتح الدلاية؟

صمتت يارا قليلا وهي تضغط شفتيها مفكرة قبل أن تقول محاولة مداراة ما يختلج بداخلها من مشاعر:

- بص يا يحيى، ندى قالت لي إن السلسلة دي جابها لها نادر في عيد ميلادها. نادر ده هو الراجل اللي كانت ربما بتحبه. معنى كده إن أي حاجة جابها لها كانت بالنسبة لها أغلى حاجة في الدنيا. هي بقى اختارتني أنا قبل ما تموت بساعات عشان تستأمني على الحاجة الغالية دي، وثقت فيا على الرغم من إنها ماكانتش تعرفني. عشان كده أنا لازم أكون قد الأمانة دي وأحافظ عليها، وزي ما هي وثقت فيا أنا كمان واثق فيها وفي إن أكيد مفتاح الكوكونت هيظهر في الوقت المناسب.

(٣٤)

كان شفيق قد أبلغهم بأنه سيتأخر في الصباح قليلا، فوجدت يارا أنها فرصة مناسبة للتحدث مع ليديا خاصة وأنهما كانتا وحدهما في المكتب.

كانت تطلع على بعض الأوراق أمامها وهي تسترق النظر نحو ليديا، التي كانت تقف بجانب المكتب متجهمة وقد بدا على وجهها آثار تفكير مهموم:

- مالك يا ليديا؟

اختلج جفناها بتوتر من السؤال وهي تقول مقتضبة:

- مافيش يا آنسة يارا.

- حاسة إنك متضايقة من حاجة.

- بالأمانة مافيش حاجة صدقيني، أنا بس ماتمتش كويس.

أمالت يارا رأسها وقد أدركت أنها لن تتفوه بشيء، ثم قالت:

- ماشي يا ليديا، أنا بس عاوزاكي تعرفي إن لو فيه عندك أي مشكلة أو عاوزة تتكلمي مع حد، أنا دايما هابقى موجودة عشان أسمعك وأساعدك، إنتي بالنسبة لي يا ليديا زي أختي اللي عمري ما شفتها.

فابتسمت ليديا في امتنان قبل أن تقول:

- أنا عارفة والله يا آنسة يارا، ربنا يعلم قد إيه أنا حبيتك بجد.

ترددت يارا قليلا قبل أن تتوكل على الله في سرها وهي تقول:

- مادام كده بقى، أنا عاوزة أطلب منك طلب يا ليديا.

- اؤمريني يا آنسة يارا.

فقالت يارا في شبه توسل:

- بس أرجوكي يا ليديا، الموضوع ده لازم يفضل سر بيني وبينك مهما حصل، مافيش إنسان واحد يعرف عنه حاجة ولا حتى شفيق ولا رأفت.

فقالت ليديا وقد بدا الاهتمام في عينيها:

- عيب يا آنسة يارا، أنا بقى لي خمس ستين باشتغل مع والدك عمر ما في سر طلع برا. اتطمني وقولي لي إيه الموضوع ده وربنا يقدرني وأعرف أساعدك.

سرى شيء من الاطمئنان في دماء يارا دعمته ثقتها الشديدة في ليديا، فمدت يدها وأخرجت ورقة من حقيبتها بسطتها على المكتب أمامها وقالت وعيناها تتنقلان بين الأسماء المكتوبة وبين وجه ليديا:

- الورقة دي فيها أسامي شخصيات دولية مهمة ومشهورة، سياسيين على رجال أعمال، كل اللي أنا عاوزاه منك هو إنك تجيبي لي كل المعلومات الممكنة عن علاقة الناس دي بأعمال المجموعة وشركاتها وبمنصور بيه، بس في منتهى السرية والتكتم. حتى الموظفين مش لازم يعرفوا.

كانت ليديا تقرأ الأسماء باهتمام قبل أن تقول دون أن ترفع عينيها:

- أنا أعرف ناس كتير من دول. الاسم الأول والرابع دول رجال أعمال عندهم شركات في أوروبا وبنتعامل معاهم في الاستيراد والتصدير. والاسم التاني والسابع والتامن دول كانوا دايما بيحضروا حفلات الشغل اللي كان منصور بيه بيعملها واللي كنت أنا باحضرها.

فنظرت يارا نحوها في استنكار وهي تتساءل:

- طب وباقي الأسامي التمانية؟

- لا ماعرفهمش، عمرهم ما عدوا عليا خالص.

فزمت يارا شفتيها مفكرة قبل أن تقول:

- طب الحفلات اللي إنتي قلتي عليها دي كانت كلها حفلات شغل؟

- أيوه.

- يعني عمر ما منصور بيه ما عزمهم في حفلات خاصة؟

فحركت ليديا رأسها وهي تقول معتذرة:

- لا ماعرفش طبعا يا آنسة يارا. أنا ماكنتش أعرف حاجة غير عن حفلات الشغل وبس.

فحركت يارا رأسها مستدركة أن هذه هي الإجابة الواقعية لسؤالها قبل أن تقول:

- طيب خلاص، شوفي لي بس تفاصيل الشغل اللي بيننا وبين الاسمين اللي قلتي عندهم شغل معانا، ومش هاوصيكي على السرية زي ما اتفقنا.

فابتسمت ليديا وهي تقول مؤكدة:

- ماتخافيش، اديني بس نص ساعة وكل المعلومات هتكون عندك.

خرجت ليديا من الغرفة وتركت يارا تتقلب على جمر الانتظار الذي لم ينقذها منه سوى صوت جرس هاتفها. ابتسمت عندما رأت اسم يحيى على الشاشة قبل أن تجيب:

- آلو.

- سيادة رئيسة مجلس الإدارة عندها خمس دقايق فاضيين؟

- في العادي لأ، إنما عشان خاطرك أفضي نفسي مخصوص.

- يعني أطلع؟ أنا أصلي في أول الشارع عندك.

فقالت يارا في حماس:

- بجد؟ لا طبعا اطلع يلا.

أغلقت الهاتف وأخذت تسوي شعرها وملابسها بيدين مسرعتين قد أرعشهما السعادة. كم من الوقت قضته منذ يوم شم النسيم وهي تتذكر كل تفاصيل هذا اليوم الجميل، لم تشعر في حياتها بسعادة كتلك التي شعرت بها في هذا اليوم، كانت تسمع صوت خطواته بالخارج عندما تذكرت التعليقات التي كانوا يلقونها عندما لعبوا الطاولة بعد الغذاء وأدركت كم حقا كانت تفتقده عندما دخل الغرفة وأصبح أمامها. صافحته محاولة إخفاء سعادتها ودعته للجلوس في الصالون الصغير الموضوع بجانب مائدة الاجتماعات. قصت له كل ما حدث مع ليديا وهو يسمعها باهتمام حتى ختمت كلامها قائلة:

- بس ليديا ماتعرفش أي معلومات عن إن كان بيعزمهم في حفلات خاصة ولا لأ.

صمت يحيى مفكرا قبل أن يقول:

- شيء طبيعي إن ليديا ماتبقاش عارفة. لو عاوزة فعلا تعرفي معلومات عن حياة منصور بيه الشخصية يبقى مافيش قدامك غير الناس اللي كانت قريبة منه زي شفيق مثلا.

فانتفضت يارا عند سماع اسم شفيق قبل أن تقول في شبه عصبية:

- شفيق لأ يا يحيى، أنا ماباثقش فيه ومش هاخاطر وأقول له أي حاجة عن موضوع ربما والصندوق أوحتى ألمح تلميح يخليه يشك فيا ويحطني في دماغه.

فمط يحيى شفتيه قبل أن يقول متضايقا من عنادها:

- خلاص، يبقى مافيش قدامنا غير هاشم.

فعقدت حاجبيها في تعجب وهي تتساءل:

- هاشم فتح الله؟ مدير مصنع الألبان؟

- أيوه. هاشم كان قريب شوية من منصور بيه أكتر من باقي أعضاء مجلس الإدارة وممكن يساعدك جدا.

فصمتت يارا قليلا قبل أن تتساءل في حيرة:

- يعني أروح أحكي له وآخد رأيه؟

- لأ طبعا. أنا واثق في هاشم إنما بلاش المخاطرة بسرعة كده. حاولي توقعيه في الكلام من تحت لتحت.

فلوحت يارا بيدها وهي تقول في تذمر:

- يا يحيى إنت فاكرني باشتغل زيك في الخارجية وباعرف ألعب بالكلام؟ أكيد هيكشفني.

فقال في عصبية من استسلامها:

- إنتي مستهونة بنفسك ليه؟ جربي، مش هتخسري حاجة. وفي الآخر أكيد هاشم مش هيخليكي تقولي بالعافية حاجة إنتي مش عاوزة تقوليها. لا دي أخلاقه ولا إنتي عيلة صغيرة.

انقطع حديثهما عندما دخلت ليديا التي لوحت بملف في يدها وهي تقول:

- آنسة يارا دي أوراق مهمة لازم حضرتك تطّلعي عليها. هاسيبها لك على المكتب.

- لا لا. هاتيها هنا يا ليديا.

فبدا على وجه ليديا شيء من التوتر وهي تقول لتبعث بإشارة خفية إلى يارا:

- الورق مش مستعجل. خليه على المكتب أحسن لحد أما تخلصي مع أستاذ يحيى.

فابتسمت يارا وهي تقول:

- هاتي يا ليديا، أستاذ يحيى يعرف كل حاجة عن الموضوع بتاعنا. مافيش سر تخبيه عليه.

ابتسمت ليديا لتخفي حرجها وهي تتقدم نحوهما. تناولت يارا الملفات وقبل أن تفحصها سمعت ليديا وهي تقول:

لمزيد من الكتب العصرية

- دي أكتر حاجة أنا قدرت أوصل لها، وعلى فكرة أنا كمان عرفت إن الاتنين رجال الأعمال واتنين من السياسيين جايين حفلة بكرة.

فتساءلت يارا في استنكار:

- حفلة إيه؟

- حفلة استقبال للوفد اللي جاي عشان صفقة تلاجات مصنع الألبان. هو حضرتك ماتعرفيش عنها حاجة؟

فهزت يارا رأسها وهي تقول في ضيق:

- لا ماحدش قال لي حاجة عن أي حفلة.

- على العموم مستر شفيق وصل مكتبه تحت وكلها عشر دقايق ومطلع عشان يقول لك على الحفلة. خدوا بالكوا ليطب فجأة وانتوا بتقروا في الملفات. بعد إذنكوا.

التفتت ليديا وخرجت من الغرفة بينما قال يحيى وهو يبدأ بفحص بعض الأوراق مع يارا:

- قلت لك البنت دي جدعة ومش هتطلع السر برا مهما حصل.

- ماشي يا حضرة المحلل النفسي، ركز بس في الورق قبل ما شفيق ييجي.

قضيا بضع دقائق وهما يفحصان الورق بعناية قبل أن تقول يارا في يأس وهي تعيد الأوراق إلى الملف:

fb.com/Sa7er.Elkotob/

- مافيش أي حاجة مفيدة، كلها صفقات عادية وشغل عادي.

- عرفتي ليه بقى قلت لك إنك لازم تكسبي رأفت في صفك؟ ليديا مهمة جدا إنما ماتعرفش كل حاجة. أنا بيتهيألي لو استعانتا برأفت ممكن يجيب لنا معلومات ليديا ماتعرفش عنها حاجة.

لم تجب يارا. أسرعت لتخبئ الملف في درج مكتبها وعندما عادت إلى مجلسها بجانب يحيى دخل شفيق الذي نظر نحو يحيى في اندهاش تحول إلى ارتياب من وجوده المتكرر، لكنه سرعان ما أخفى كل ذلك وقال مرحبا:

- أهلا أهلا يا أستاذ يحيى، منور المجموعة.

نهض يحيى وصافح شفيق مبتسما وعندما جلس مرة أخرى التفتت يارا نحو شفيق وتساءلت في شبه هجوم:

- إيه موضوع حفلة بكرة ده يا أستاذ شفيق؟ معقول يبقى فيه حفلة وأنا ماعرفش؟

فأسرع شفيق يقول مدافعا عن نفسه:

- و الله يا يارا معاد الحفلة لسه متأكد بس من نص ساعة. ما هو ماكانش ينفع أقول لك قبل ما أتأكد من معاد وصول طيارة الوفد النهارده. أول ما أتأكدت جيت أهو عشان أقول لك.

فهدأت يارا قليلا قبل أن تتساءل:

- و إيه المطلوب مني بالضبط في الحفلة دي؟

- و لا أي حاجة. دي مجرد حفلة بسيطة للتعارف بينك وبين الناس دي ومافيهاش أي شغل. كل المطلوب منك إنك تروحي بكرة بدري تجيبي فستان سواريه شيك. وتطلعي على سرايا منصور بيه في المربوطية تطلي الكوافير وتلبسي وتتشيكي وتنزلي الحفلة ولا شهرزاد في زمانها.

امتلأت نظرات يارا بالذعر وهي تتساءل في صوت مبحوح:

- إنت قلت الحفلة هتتعمل فين؟!

- في سرايا منصور بيه في المربوطية.

فاسترقت نظرة سريعة متوترة نحو يحيى قبل أن تقول في تململ:

- ليه؟ ما تعملها في أوتيل فايف ستارز أحسن؟؟

فرفع شفيق سبابته وهو يقول في حزم وإصرار عجيبين:

- لأ. الحفلة دي هيحضرها كبار رجال الأعمال والسياسيين في العالم. الناس دي في حفلاتها بتحب تحس بالخصوصية وبإن مافيش حد ممكن يسمع الكلام اللي هما بيقولوه.

نظر يحيى ويارا نحو بعضهما في ارتياب بينما استكمل شفيق مكسبا نبرته طبيعية ليغطي على حماسه المفاجئ:

- و كمان يا يارا عشان الناس دي مش لازم تحس بأي تغيير عن زمان. كفاية غياب منصور بيه وتوليكي إنتي المسؤولية وهما مايعرفوش عنك أي حاجة. عشان كده كل حاجة لازم تفضل زي زمان حتى الأكل اللي هيتقدم مش هيتغير. والناس اللي بتشتغل في سرايا منصور بيه متعودين على نظام الحفلات دي أكتر حتى من الناس اللي بتشتغل في أحسن أوتيلات في مصر. إحنا مش عاوزين أي حاجة تأثر على الشغل.

لمزيد من الكتب العصرية

صمتت يارا مغلوبة على أمرها وقد بدا القلق على وجهها، بينما توجه شفيق بحديثه نحو يحي قائلا في تودد:

- طبعا حضرتك يا أستاذ يحي مش محتاج عزومة.

فابتسم يحي وهو يقول مجاملا:

- أكيد طبعا يا أستاذ شفيق.

- هنستناك بكرة.

فقال يحي شبه معتذر:

- هاحاول، بس ماوعدكش.

التفت شفيق نحو ليديا التي دخلت الغرفة في تلك اللحظة متسائلا:

- ليديا، فين رأفت؟

ارتعشت يداها وهي تضع بعض الأوراق على مائدة الاجتماعات وقالت وهي تغض بصرها مقتضبة:

- اتصل من شوية وقال إنه مش جاي النهارده عشان بيجدد رخصة عربيته.

زم شفيق شفتيه في استنكار وهو يخرج هاتفه المحمول ويعبث بأزراره قائلا:

- رخصة عربيته إيه؟ هو ده وقته؟

وضع الهاتف على أذنه وانتظر قليلا قبل أن يرفعه وهو يقول في سخط:

- وكمان قافل موبايله، رأفت متغير اليومين دول. عاوز يتعدل عشان يركز.

ثم التفت نحو يارا ويحي مستأذنا قبل أن يخرج من الغرفة. مارا من خلف ليديا التي تبعته بطرف عينها المتمعتين من أثر دموع كبتتها منذ أن ذكرها شفيق برأفت وبتلك الحالة التي أصبح عليها والتي أصبح الكل يلحظونها.

استأذنت وخرجت مسرعة لتداري ألمها بعيدا عن أعين الناس، بينما التفتت يارا نحو يحي وتساءلت في استنكار:

- إيه بقى ماوعدكش دي إن شاء الله؟ إنت مش ناوي تيجي الحفلة ولا إيه؟

- دي حفلة شغل، آجي أعمل إيه؟

فقالت في عصبية:

- تيجي عشان كل اللي سمعته. مش كفاية إن فيه ناس مهمين زي دول هيبقوا موجودين. لأ وكمان الحفلة هتتعمل في بيت منصور بيه. يعني أعصابي هتبقى مشدودة من كل ناحية وهابقى محتاجة حد جنبي.

فتأملها عابسا قبل أن يقول في نبرة شبه معاتبة:

- مش لازم أنا اللي أبقى جنبك. فيه ناس كتير ممكن يقفوا جنبك اليوم ده.

فعقدت حاجبيها وهي تتساءل مستنكرة:

- ناس؟ ناس مين؟

فصمت قليلا قبل أن يقول في استفزاز:

- زي كريم مثلا.

ظلت صامتة لوهلة من أثر الصدمة. لم تتوقع منه هذا الهجوم الواضح على كريم مما يجزم بأنه أصبح بالفعل يعتبره غريمه. لكنها لم تكن مهيأة لتسعد بتلك الغيرة التي لولا ما هي فيه لرقص قلبها سعادة بها. كانت تحتاج إليه بجانبها موجها كل انتباهه لألمها واحتياجها إليه تاركا كل اعتبارات أخرى جانبا حتى يأتي وقتها المناسب.

ضغطت شفتيها لتكتم ألمها وهي تقول مستسلمة:

- خلاص يا يحيى. لو مش عاوز تيجي بلاش.

همت بالنهوض لكنه أمسك بيدها لتظل جالسة وهو يقول مسرعا:

- استني بس.

شعر بندم شديد لما سببه لها من ألم. جاهد ليبتسم وهو يقول محاولا مصالحتها:

- لو إنتي عاوزاني آجي، هاجي.

نظرت نحوه في لوم وقد ترقرقت الدموع في عينيها من أثر الضغوط التي تشعر بها وهي تقول:

- ولو إنت عندك ذرة شك واحدة في إني عاوزاك تيجي واني هابقى محتاجاك إنت بالذات اليوم ده وماجتش، يبقى إنت مش يحيى اللي أنا أعرفه.

اتسعت ابتسامته وقد شعر بأنه يقترب من استرضائها ثم تساءل في خبث:

- وإيه شكله ده يحيى اللي إنتي تعرفيه؟

لمزيد من الكتب العصرية

غضت بصرها لتخفي ارتباكها ودموعها وهي تقول:

- يحيى اللي أعرفه يبقى ابن مراد صالح وعايدة الجوهري، اللي باعتبره أكتر راجل شهم قابلته في حياتي.

خفق قلبه بعنف عند سماع تلك الكلمات. كان على استعداد في تلك اللحظة أن يعترف لها بكل ما يشعر به نحوها. تناول يدها بين يديه. نظرت نحوه فاتسعت ابتسامته وهو يقول مثبتا عينيه بداخل عينيها اللتين انسابت دموعهما:

- يحيى، ابن مراد صالح وعايدة الجوهري، واللي يارا منصور أبو بلاط شايفاه أكتر راجل شهم قابلته في حياتها، هيبقى الحفلة حتى لو اضطر إنه يرمي الدنيا كلها اليوم ده. وده بس عشان يبقى جنبك لأن زي ما إنتي محتاجاه هو كمان محتاجك.

ابتسمت ابتسامة مبللة بدموعها بينما تركت أصابعه تتخلل أصابع يدها وتضغط عليها برقة.

(٣٥)

ظنت يارا أن شفيق كان يبالغ عندما قال "سرايا منصور بك". ولكن عندما دخلت السيارة من الباب الحديدي الكبير أدركت أن كلمة "سرايا" هي أقرب ما يكون إلى الحقيقة. قطعت السيارة الممر الطويل في عدة دقائق مارقة وسط حدائق لم تستطع عيناها أن تجد لها آخرا. تمتلئ بعرائش من الياسمين والقرنفل والفل والورد البلدي وأنواع أخرى من الورود المختلفة مقسمة إلى مربعات متداخلة الألوان، اتحدت مع نقاط المياه على وريقاتها تحت ضوء الشمس.

دارت السيارة نصف دورة واسعة حول نافورة ضخمة تتراقص مياهها في خفة تتناسب مع جو الحديقة. ثم وقفت أمام الدرج الرخامي لباب السرايا الداخلي مباشرة، حيث وجدت فجأة رجلا يرتدي بذلة سوداء وقفازا أبيض يفتح لها الباب وينحني في أدب شديد.

هبطت محاولة السيطرة على تلك الرعشة التي انتابتها. كلما فكرت أكثر في حقيقة أن هذا المنزل هو المنزل الذي كان يعيش فيه هذا الأب الذي ظل مجهولا وبعيدا عنها وعن قلبها طيلة عمرها والذي كانت تعيش فيه أختها ربما كلما عادت إلى القاهرة.

عندما دخلت فوجئت بهذا الاتساع الرهيب الذي كان ينتظرها، على اليمين واليسار عدد لا نهائي من الصالونات الواسعة ذات الألوان الداكنة الراقية والسجاجيد والثريات الضخمة ذات الجواهر الشفافة المتدلية اللامعة. أمامها مباشرة كان يوجد مائدة من رخام زيتي معرج، تحمل تمثالا برونزيا لامرأة من العصور الوسطى ترتدي ثوبا طويلا وقبعة وتستند على مظلة وتضع يدها الأخرى على صدرها وقد أغمضت عينيها كأنها تتلقى خبرا سيئا بثبات وقوة، خلف هذا التمثال كانت أرضية من الرخام تمتد حتى باب زجاجي كبير يطل على حمام السباحة الذي تمتد بعده الحديقة الضخمة على مرمى البصر، وأمام جزء من هذا الباب كان يقع بيانو أسود كبير وقد ارتفع غطاؤه وظهرت أوتاره الذهبية غاية في الجمال والفخامة.

كان ينتظرها في الداخل عدد كبير من الخدم لم تستوعبه يارا في البداية من كثرته، خدم وطباخون وسفرجية ومشرفون على الحدائق وحمام السباحة والنظافة وسائقون وعلى رأسهم كانت هناك امرأة أربعينية غاية في الأناقة والرزانة، استقبلتها بابتسامة رائقة وهي تقول مرحبة:

- أهلا وسهلا آنسة يارا، أنا كريمة المشرفة على البيت، اتفضلي.

تقدمت يارا نحو الدرج الرخامي الحلزوني الذي يقع على يمين التمثال البرونزي، وصعدته بخطوات حاولت أن تجعلها ثابتة. وأن تسيطر على مشاعرها المتداخلة بسبب وجودها داخل منزل منصور بك من دهشة وذهول وحزن وسخرية، وكثير من المشاعر الأخرى التي طالما تشابكت وتعقدت بداخلها بسبب هذا الأب الغائب طيلة عمره سواء بإرادته أو رغما عنه بسبب الغيبوبة.

قادتها كريمة حتى أدخلتها غرفة نوم واسعة مؤثثة على الطراز الحديث بأخشاب فاتحة اللون وستائر ومقابض سوداء لامعة. وبعد أن فرغت من تأملها للغرفة بعناية فاجأتها كريمة قائلة:

- دي أوضة منصور بيه.

انتفضت يارا في ذعر عند سماعها. أحقا تلك هي غرفته الخاصة؟ أهذا هو الفراش الذي كان ينام عليه مع زوجته الثانية؟ وتلك هي المقاعد التي طالما جلس عليها؟ كأنها تراه في كل ركن يحاصرها ويرمقها بازدراء لاقتحامها خصوصيته في عدم وجوده. قالت متوسلة في صوت متلجلج:

- هو أنا ماينفعش أغير هدومي في حتة تانية؟

- لا لا طبعا يا يارا هانم. ده مستر شفيق موصيني إني مادخلكيش غير أوضة منصور بيه شخصيا عشان تعرفي تاخدي راحتك وتستريحي قبل الحفلة.

سمعا طرقا على الباب دخلت على إثره فتاة تعمل في المنزل وهي تحمل ثوب يارا وحقيبة حاجياتها، حيث اتجهت بهما نحو الباب الذي يفصل الغرفة الكبيرة عن غرفة الملابس الملحقة بها فدخلت وخرجت بعد دقائق بدون ما كانت تحمله. أشارت لها كريمة فخرجت من الغرفة تماما بينما التفتت هي نحو يارا وقالت مبتسمة:

- حاجة حضرتك موجودة جوا في الdressing room. خدي راحتك ولو عزتي حاجة اطلبي رقم ١ على التليفون الداخلي اللي جنب السرير، وأنا أول ما يوصل الكوافير هاطلعه لحضرتك.

انسحبت في هدوء تاركة يارا تتخبط في موجات من الحيرة والضيق، وكأن حوائط تلك الغرفة تضيق وتضغط على ضلوعها فتسحقها بقوة وعنف. هل وقفت ربما يوما في موضعها هذا؟ هل دخلت إلى غرفة الملابس تلك لتلتقي لوالدها ما يرتديه؟ هكذا وجدت نفسها تفكر وقد عاد إليها إحساس الذنب المختلط بالحنين لتلك الأخت المجهولة. تقدمت في خطوات بطيئة مستطلعة نحو الغرفة التي تحوي كل ملابس منصور بك وأحذيته الثمينة القيمة. فتحت الباب الجرار الذي كانت

الفتاة قد تركته مواربا ولكن بدلا من أن تتقدم وتدخل لتفحص ما كانت تتوق لرؤيته تسمرت مكانها في ذهول ودهشة، وهي تحملق نحو آخر الغرفة الصغيرة وكأنها تحولت إلى تمثال تمتلئ ملامحه بالفزع والخوف. بيد مرتعشة أخرجت هاتفها المحمول من جيبها وطلبت يحيى وقد فقدت السيطرة على أعصابها بشكل مخيف، وعندما سمعت صوته على الناحية الأخرى لم تستطع أن تقول سوى جملة واحدة:

- يحيى، أنا لقيت الباب الأزرق!

عندما هبطت يارا مرة أخرى إلى الطابق الأول - مرتدية ثوبا كحليا بسيطا وقد أخفت ذراعيها العاريتين بشال من نفس اللون ذي حواف لامعة وعقصت شعرها بشكل رقيق وغير متكلف - كان معظم المدعوين من العاملين بالشركة والمصنع قد حضروا، وكان الخدم قد أعدوا كل ما هو لازم للحفل الذي لم يتبق على بدايته سوى حضور أعضاء الوفد الأوروبي الذين سيعقدون الصفقة مع شركة ومصنع الألبان.

كانت تبحث بعينين قلقتين عن يحيى وسط المدعوين، عندما فاجأها شفيق الذي وقف أمامها مبتسما، قبل أن يتناول يدها ويلثمها كما لو كان لوردا إنجليزيا رفيع المقام ثم قال:

- سمو أميرة عيلة أبو بلاط، أنا فخور بيكي.

ابتسمت في ارتباك من تلك المجاملة الغريبة على أذنها، شكرته بصوت خافت مبحوح من أثر ما في قلبها من وجل واضطراب. طلب منها أن تستعد لأن أعضاء البعثة اقترب موعد وصولهم، قبل أن يتركها ليستكمل ترتيبات الحفل.

ظلت ثابتة مكانها أمام الدرج الرخامي، تتلهى بمتابعة سلوك المدعوين من أعضاء مجلس الإدارة وكبار الموظفين، حتى وقع بصرها على هاشم الذي كان واقفا بمفرده بجانب البيانو الأسود الكبير يتأمل الحديقة من الباب الزجاجي.

تذكرت كلام يحيى عندما نصحها بمحاولة إيقاع هاشم في الكلام لمعرفة المزيد عن حياة منصور بك الخاصة، لأنه كان يعتبر نسبيا الأقرب إليه بعد شفيق. أخذت نفسا عميقا ورسمت ابتسامة على شفتيها وهي تتقدم نحوه في خطوات ثابتة تخفي بها ترددها. انتبه من شروده عندما أصبحت بجانبه فرمقها بابتسامة ممزوجة باندهاش وهو يقول:

لمزيد من الكتب العصرية

- أهلا يا يارا، إيه الجمال ده؟

فابتسمت في حياء وهي تقول:

- شكرا يا أستاذ هاشم، إيه اللي موقفك لوحدك كده؟

- أبدا، باريح أعصابي وباستعد للأحاديث والمجاملات السخيفة اللي هتبدأ أول ما الوفد يوصل.

فقالت متظاهرة بالبراءة:

- إيه ده؟ هو حضرتك ماتعرفش أعضاء الوفد؟

- أعرفهم، بس أصلي أنا بطبيعتي ماباحبش جو مجاملات وكلام البيزنس ده.

- غريبة، أنا كنت فاكرة إن الناس دي بيقوا أصحابك وأصحاب شفيق ومنصور بيه.

فرفع كتفيه في لامبالاة وهو يقول:

- يمكن يكونوا صحاب شفيق ومنصور ربنا يقومه بالسلامة، إنما هما مش صحابي.

فصمتت قليلا محاولة ترتيب الكلام لتصل إلى ما تريده، ثم تساءلت في شيء من التهور:

- بس حضرتك كنت صاحب منصور بيه، وأكيد كنت بتحضر الحفلات الخاصة اللي كان بيعملها لاصحابه، وتعرف إذا كان هو بيعزمهم في الحفلات دي ولا لأ؟

فضم هاشم شفتيه نحو اليمين قليلا وهو يتأملها في ارتياب قبل أن يتساءل:

- يارا إنتي عاوزة تعرفي حاجة معينة؟

فارتبكت قليلا من سؤاله المفاجئ لكنها تمالكت نفسها وهي تقول:

- أنا؟! لا أبدا، أنا بس بادردش مع حضرتك.

فمط شفتيه متظاهرا بتصديقها قبل أن يقول:

- على العموم أنا ماكنتش باحضر حفلات منصور الخاصة ولا كنت أعرف عنها أي حاجة، بعد إذنك.

ابتعد بضع خطوات قبل أن يلتفت نحوها ويقول:

- يارا، لو عاوزة تعرفي أي حاجة مكتبي مفتوح لك في أي وقت عشان نتكلم بصراحة ووضوح.

ظلت متسمرة مكانها ترمقه في ذهول وهو يبتعد عنها، ولكنها أفاقت على صوت يحيى الذي جاء ليقف بجانبها وهو يقول مداعبا:

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

- أنا لو كنت أعرف إنك هتبقي بالجمال ده ماكنتش جيت النهارده.

فانتبهت مفزوعة قبل أن تلتفض قائلة:

- يحيى! إنت اتأخرت كده ليه؟

- كان عندي شغل. المهم قولي لي، أنا شفتك بتكلمي هاشم، وصلتي معاه لحاجة؟

فقالت في عصبية ممزوجة بسخط:

- لا، قعدت تقول لي وقعيه في الكلام ولفي ودوري، أديه خد باله إني بالف وأدور وباتكلم بشكل غير مباشر وأحرجني كمان.

فضحك قبل أن يقول:

- إنتي اللي غشيمة أعمل لك إيه بقى؟

- أيوه أنا غشيمة. قلت لك وماصدقتنيش.

فابتسم وهو يقول في رقة:

- غشيمة بس زي القمر. قولي لي عرفتي تفتحي الباب الأزرق؟

فهزت رأسها نافية وهي تقول في خيبة أمل:

- مقفول بالمفتاح، وكريمة قالت لي إن ماحدش كان يعرف مكان المفتاح غير منصور بيه ولا حتى شفيق يعرف. بس أنا عرفت منها إن الدولاب ده موجود جواه خزنة منصور بيه الخاصة.

لمعت عينا يحيى وهو يقول في دهشة:

- الخزنة الخاصة؟ دي أكيد فيها حاجات مهمة جدا.

- أيوه طبعا، أنا قلبي حاسس إن الخزنة دي فيها حل لغز الصندوق.

- ممكن جدا. بس أنا بافكر في حاجة تانية.

- إيه هي؟

تردد قليلا قبل أن يقول:

- تفتكري الخزنة دي هي اللي رقمها مكتوب في النوتة الكحلي؟

ثم صمت لحظة قبل أن يقول:

- اللي هو يبقى تاريخ عيد ميلادك.

نظرت نحوه وهي تعض على شفتيها دون أن تجد ما تقوله. إضطرب قلبها عندما واجهها يحيى بهذا الاحتمال الذي حاولت أن تتغاضى عنه، حتى لا تعود مرة أخرى إلى دوامة الحيرة التي تضربها بعنف كلما قارنت أفعال منصور بك المتضاربة مع الصورة التي ظلت طيلة عمرها ترسمها في مخيلتها. كان يحيى يبادلها نظرتها وهو يعلم ما يدور بداخلها، لذا أسرع يقول ليصرف تفكيرها عن تلك الحيرة:

- المهم دلوقتي نلاقي طريقة عشان ترجعي تاني الفيلا ونحاول نفتح الباب ده. مؤقتا سيبي أي حاجة فوق في الأوضة كأنك نسيتها عشان تلاقي حجة ترجعي بيها، بس سيبي الحاجة دي في مكان مستخبي بدل ما حد من الخدامين يلاقيها ويرجعوهالك من غير ما تيجي تاني.

فتساءلت يارا في حيرة بعد أن سمعت هذا الاقتراح:

- أيوه بس حتى لو رجعت تاني الفيلا إزاي هاعرف أفتح الباب من غير مفتاح؟ هاكسره يعني؟

- يا ستي سيبي الحاجة دي مؤقتا لحد ما نفكر براحتنا ونلاقي حل.

أومأت برأسها في صمت وقد بدأت تقتنع بهذا الحل المؤقت، ثم انتبهت على صوت شفيق الذي كان يقترب نحوهما في خطوات مسرعة وهو يهتف في اضطراب:

- يلا يا يارا، الوفد وصل ولازم نطلع نستقبله.

ثم التفت نحو يحيى وهتف مسرعا في استعجال:

- أهلا يا أستاذ يحيى، ماعلش أنا آسف لازم آخد يارا منك شوية.

ابتسم يحيى مجاملا ابتسامة لم يرها شفيق قبل أن يذهب مسرعا، بينما التفت يحيى نحو يارا التي كان وجهها ممتقعا في خوف واضطراب وهي تتساءل في صوت متلجلج:

- إنت مش هتيجي معايا؟

فنفى ذلك بحركة من رأسه والابتسامة لا تزال على شفتيه قبل أن يقول:

- هتروحي لوحدك وأنا هافضل مستنيكي هنا.

تشجعت قليلا وإن ظل شيء من الخوف بداخلها حاولت التغلب عليه والتظاهر بالثبات والقوة وهي تتبع شفيق وتقف بجانبه أمام باب الفيلا، بينما اصطفت السيارات السوداء الفارهة وبدأ أعضاء الوفد يهبطون منها ويتقدمون نحو الباب فيصافحهم واحدا واحدا ويدعوهم للدخول

مرحبين. حتى فرغا فدعاها شفيق للدخول مرة أخرى والاندماج في الحفل والتعرف على أعضاء الوفد لتسهيل أعمال الصفقة فيما بعد. قبل أن يتركها وينشغل في الجلوس مع أعضاء الوفد والانخراط في مجاملات وضحكات تتخللها أحاديث خفية بصوت منخفض لا يعلم أحد عما تدور. عادت لتقف بجانب يحيى، بينما جلست فتاة فرنسية شقراء أمام البيانو وانطلقت أصابعها تلعب موسيقى كلاسيكية هادئة. أخذت تصدح في أنحاء الصالة الكبيرة التي انتشر فيها السفرجية يحملون صواني عليها كاسات الشمبانيا وأطباق فواكه البحر والأشكال المختلفة من الكانابيه والسالبزون، بينما انشغل النصف الآخر من الخدم في تحضير مأدبة العشاء في الخارج بجانب حمام السباحة.

بدا المكان غريبا عنها. بدا هؤلاء الأشخاص - الذين ورد أسماء بعض منهم في القائمة - معتادين بشدة على المكان، يأكلون ويشربون ويضحكون ويتحدثون بأريحية وطبيعية شديدة. يتنقلون وكأنهم يعرفون المكان ويحفظونه عن ظهر قلب أو كأنهم يعيشون فيه منذ زمن. ما معنى كل هذا؟ أهو طبيعي أم دليل على شيء ما؟

انتبهت على صوت يحيى وهو يشكر الخادم الذي يحمل صينية الشمبانيا قبل أن ينصرف. فنظرت نحوه في دهشة وهي تتساءل قائلة:

- إنت مش هتشرب؟

فرفع كتفيه في بساطة وهو يقول:

- لأ. ليه؟ هو إنتي بتشربي؟

- لأ ماباشربش، بس كنت فاكراك بتشرب.

فعقد حاجبيه مستنكرا وهو يتساءل:

- يارا، إنتي دخلتي بيتي وشفتينا عايشين إزاي. يبقى إزاي تخيلتي إني باشرب؟

فقالت وقد بدأت تشعر بالإحراج:

- عادي يعني، ممكن تكون بتشرب بالليل أو في الحفلات بس.

فأجابها في حسم:

- لأ، لا بالليل ولا في حفلات ولا في أي حتة. أنا ماباشربش ووالدي كمان الله يرحمه ماكانش بيشرب، وزي ما إنتي اتربيتي أنا كمان اتربيت.

تحول حرجها إلى غيظ وهي تتساءل في حيرة:

- إنت إنسان غريب، بجد غريب.

فتساءل مندهشا وغير مصدق لهذا الرأي:

- أنا غريب؟! إيه الغريب فيا؟!

أخذت الحيرة تزداد على ملامحها بينما الكلام يخرج مندفعا من فمها:

- مش عارف إيه الغريب اللي فيك؟ ولد على بنتين وكمان الصغير، اتربيت في أوروبا وقعدت سنين الجامعة في إنجلترا، دلوقتي بتشتغل في الخارجية، وعلى الرغم من كل ده، إنت تطلع بالشكل ده.

فاتسعت ابتسامته وهو يقول متلذذا برؤيتها مغتاظة هكذا:

- إيه هو الشكل ده؟ ولا يعني عشان طالع مختلف عن ناس كتير طالعين من نفس بيئتي واتعرضوا لنفس ظروفي؟ طب ما إنتي كمان زيي، إنتي كمان محسوبة على ناس وفئة إنتي مش شبهها. أنا كمان استغربتك أول ما شفتك ولحد دلوقتي ساعات باستغرب اختلافك عن أي واحدة في ظروفك وطالعة من نفس البيئة اللي حواليكي.

- أيوه بس فيه فرق، أنا آه محسوبة على البيئة دي بس من غير ما أكون عشت فيها وفي تفاصيلها طول عمري زيك.

- صدقيني يا يارا لو فكرتي فيها كويس هتلاقي مافيش فرق كبير قوي، إحنا الاتنين طالعين مش شبه بيئتنا الكبيرة لأن إحنا الاتنين بيئاتنا الصغيرة أو بيوتنا حرصوا على إنهم يحمونا منها.

ثم صمت قليلا قبل أن يستطرد في شيء من الجرأة وعيناه تتأملان عينيها بشغف:

- وهي دي أجمل حاجة بيننا. مش بس إن إنتي شبهي وأنا شبهك، لأ، إنما كمان عشان إحنا شبه بعض في جو مختلف عننا إحنا الاتنين. كل واحد طلع في الجو ده حاسس بغربة، حاسس إنه لوحده ومش شبه كل اللي حواليه. عشان كده طبيعي جدا إحساس الراحة اللي حاسينه دلوقتي ده، كأن كل واحد ما صدق لقي حاجة كان تقريبا يئس من إنها ممكن تكون موجودة أصلا في دنيته اللي براها غريب ومختلف عن كل اللي جواه.

كانت تستمع إليه وتبادله نظراته وهي مأخوذة باندهاشها ومشاعرها الثائرة. كيف استطاع أن يصف حقيقة ما بداخلها بتلك الدقة رغم أنها هي نفسها لم تكن تعي تلك الحقيقة بكل هذا الوضوح؟ وكيف يمكن أن يعشق القلب شيئا بهذا العنف كما يعشق قلبها عينيه في تلك اللحظة حتى أنها تود لو تستطيع أن تقفز وتغرق فيهما.

التفتا مسرعين عندما قاطع شفيق نظراتهما فجأة قائلا وقد جاء ليقف أمامهما:

- إيه يا أستاذ يحيى الجماعة بيسألوا عليك. كل اللي يعرفوك وكمان اللي كانوا يعرفوا مراد بيه الله يرحمه كويس. إنت مش هتروح لهم ولا إيه؟

حاول يحيى أن يتخلص من اندهاشه من الجرأة التي لا يعلم كيف واتته ليقول ما قاله لها وهو يجيبه قائلا:

- لا هاروح طبعا يا أستاذ شفيق بس كنت مستني شوية.

ثم التفت شفيق نحو يارا وتساءل متعجبا:

- وإنتي كمان هتفضلي واقفة كده؟ أمال احنا عاملين الحفلة دي ليه؟

فارتبكت قليلا وهي تقول:

- حاضر يا أستاذ شفيق هاجي على طول.

بدا أن شفيق لن يذهب من أمامهما بدون يحيى الذي تركهما وتحرك نحو مجلس الوفد في صالون بعيد قليلا عنهم، وعندما ابتعد بضع خطوات التفت وغمز ليارا مبتسما. وكأنه يعدها بتكملة الحديث الذي قطعه شفيق وحرمه من لذة رؤيتها وهي تتلعثم مرتبكة أمام نظراته التي أصبح يوقن بأن لها تأثيرا الآن.

ابتسمت يارا وقلبها يخفق وهي تضغط أصابع يديها المتشابكة في ارتباك. قبل أن تنفك وترتخي وقد انصرف نظرها بعيدا عن يحيى نحو شفيق. الذي ابتعد عنها في خطوات غاضبة متجها نحو رأفت الذي كان قد وصل في تلك اللحظة فقط. كانت تتابعهما بتركيز وشغف وقد أمسك شفيق بذراع رأفت وضغط بقوة، وهو يقول بصوت خافت يملؤه غيظ وغضب مكبوت:

- ما لسه بدري يا سي رأفت. اتأخرت كده ليه؟

تلجلج رأفت قليلا وهو يقول:

- ماعلش يا ريس، أصل.. والدتي كانت تعبانة شوية وكان لازم أوديها للدكتور.

صمت شفيق قليلا ليكتم غيظه بعدما أيقن أنه لن يستطيع إيلامه على هذا السبب، ثم قال محاولا إنهاء الحوار لصالحه:

- اسمع يا رأفت، إنت بقى لك كام يوم كده مش مظبوط ومش مركز، وأنا ماباعملكش حاجة. بس ماتفتكرش إني هافضل ساكت لك كتير. أحسن لك تتعدل وترجع تاني تركز في شغلك.

فغض رأفت بصره متحاشيا النظر نحو شفيق وهو يحرك رأسه علامة الفهم والموافقة، ترك شفيق ذراعه في عصبية وابتعد عنه متجها نحو مجلس الوفد الأجنبي وبحي وقد عاد وجهه إلى ارتياحه وابتسامته.

دارت الأفكار بسرعة في رأس يارا دون أن تحرك عينيها من على رأفت، تلك الفرصة مناسبة جدا للتقرب من رأفت ومحاولة كسب ثقته، حتى تستطيع بعد ذلك أن تطلب منه أن يساعدها ويمدها من داخل الشركة بالمعلومات التي لا تعلم ليديا عنها شيئا والتي فشلت هي شخصيا في استخلاصها من هاشم.

أخذت قرارها في ثوان واتجهت في خطوات ثابتة واثقة نحو رأفت، الذي ما إن رآها أمامه حتى أصابته دهشة شديدة حاول إخفاءها خلف ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلا يا آنسة يارا.

بادلته يارا الابتسامة وهي تقول:

- أهلا يا رأفت، ممكن أكلمك خمس دقايق على انفراد؟

عقد حاجبيه في دهشة من هذا الطلب الغريب غير المتوقع لكنه أخفى الدهشة مسرعا وهو يقول مبتسما:

- أكيد طبعا.

تقدمته نحو الباب المفضي إلى حمام السباحة، الذي كان الخدم يتحركون حوله مثل خلية النحل منهمكين في إعداد العشاء، حتى أنهم لم يلتفتوا إلى يارا ورأفت عندما توقفا أمامهم مباشرة وقد بدأت يارا الحديث قائلة في تودد:

- رأفت أنا مش عاوزاك تزعل من أستاذ شفيق، إنت عارف إن هو قلبه على الشغل قوي ومابيستحملش غلطة.

أجابها محاولا إخفاء حيرته من اهتمامها المفاجئ:

- لا ماتقلقيش، أنا مستحيل أزعل من الريس أبدا، ده زي أبويا بالضبط.

اندهشت يارا قليلا من تلك الإجابة لكنها استكملت حديثها قائلة:

- كويس قوي، قول لي بقى إنت ليه متغير اليومين دول؟ أنا صحيح ماعرفكش كويس بس كل اللي يعرفوك ملاحظين إن حالك مش كويس بقى لك شوية. أقدر أعرف إيه السبب؟

فتلعثم قليلا قبل أن يجيب:

- لا أبدا، بس أصل والدتي تعبانة شوية اليومين دول وضغطها عالي وأنا قلقان عليها قوي.

فضمت يارا حاجبيها في تأثروهي تقول:

- سلامتها ألف سلامة، لو محتاجة أي حاجة في العلاج أو في أي حاجة تانية قول لي وأنا إن شاء الله هاقدر أساعدها وأجيب لها كل اللي هي عاوزاه.

- لا ماتقلقيش، الحمد لله التأمين الصحي مغطي كل التكاليف وماعندناش أي مشاكل، شكرا على اهتمامك.

همت يارا بالحديث عندما قاطعهما شفيق الذي وقف أمامهما متوترا وهو يقول في نبرة قلقة:

- إنتي فين يا يارا؟ تعالي بسرعة عشان فيه ضيف مهم وصل ولازم نطلع نستقبله.

فعقدت حاجبيها وهي تتساءل مستنكرة:

- ضيف مين ده؟

- مستر ألكس روبينسون.

اتسعت حدقتاها في دهشة شديدة وهي تقول في صوت مضطرب متلجلج:

- ألكس روبينسون هنا في الحفلة؟

- أيوه، إيه ماتعرفيهوش؟!

فابتسمت ابتسامة صفراء وهي تقول ساهمة وقد تذكرت شكل هذا الاسم في القائمة على الـ Ipad:

- إزاي بقى؟ هو فيه حد في العالم كله مايعرفهوش؟ بس هو إيه اللي جابه النهارده؟

فقال شفيق في صبر نافد وقد ازداد اضطرابه:

- صديق والدك في زيارة لمصر عرف اللي حصل له فجه عشان يسأل عليه. ممكن بقى تطلع تستقبله ونبقى نتناقش بعدين.

لم ينتظر ردا والتفت خارجا في خطوات عصبية، بينما لم تجد يارا بدا من تمالك أعصابها واتباعه نحو الخارج، حيث مرت في طريقها من أمام عيني ليديا اللتين كانتا تراقبان من خلف دموعهما المكبوتة كل ما حدث منذ أن وصل رأفت متأخرا وحتى الآن دون أن يشعر بها أحد أو يعيرها أي اهتمام.

(٣٦)

يا للسخرية! اليوم يعطيها شفيق أجازة لتستريح وتستعد لحضور ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة ريما بعمر مكرم في المساء، دون أن يعلم أن اليوم أيضا هو عيد مولدها. أليس هذا شكلا من الأشكال الكثيرة التي يسخر بها القدر منها ومن كل ما في حياتها. يوم عيد ميلادها هو أيضا يوم أربعين ريما. أربعون يوما. هل حقا مر أربعون يوما على وفاة ريما؟! ومر أقل منهم على هذا اليوم الذي استلمت فيه هذا الصندوق الأسود، ومنذ أن بدأت تلك الدوامة العجيبة تطحن حياتها دون أن تصل إلى نتيجة. لا نتيجة ترضي فضولها في معرفة سر هذا الصندوق ومحتوياته ولا نتيجة تفسر لها أي لغز من ألغاز منصور بك، التي أصبحت تعيشها كل يوم منذ أن دخلت المجموعة وأصبحت تعرف الكثير عن عمله وحياته الشخصية.

كانت مستلقية على الفراش، تحملق في سقف الغرفة كأنها تشاهد على ملمسه الأبيض كل أفكارها مجسدة وملونة، مثل ألوان العباءة الحريرية التي اختارت أن ترتديها بعد أن عادت من عند مصفف الشعر لتخلق في يومها أي شيء يشعرها بعيد مولدها. منذ سنوات، منذ وفاة والدتها، وهي تحتفل بعيد مولدها كل عام تقريبا بمفردها، لا يهنئها به سوى داليا وبعض الأصدقاء القدامى الذين يتصادف أن يتذكروا ويتصلوا بها، لذا عادة لا تشعر باختلاف بين هذا اليوم وأي يوم آخر، اللهم إلا الاحتفال الصغير الذين يقيمونه لها في الصباح في العمل إن لم يتصادف أن يكون هذا اليوم أجازة.

ولكن، هذا العام مختلف، يوجد ناس آخرون في حياتها يمكن أن يجعلوا هذا اليوم مختلفا، إنها تعلم جيدا أن كريم لن ينسى عيد مولدها، سيتصل بها ويبالغ في الاحتفال ويطلب منها أن تخرج وتقضي اليوم معه وسيحضر لها هدية قيمة. إنها متأكدة أن كل هذا سيحدث كأنها ترى أمام عينيها كل ما سيفعله وتسمع بأذنها كل ما سيقوله. كريم لم يتغير، ربما يكون قد هدأ قليلا بعد ما حدث له، لكنه لا يزال يحتفظ بتلك الشخصية المغرورة التي لا تستطيع أن تستوعب فكرة أن يضيع منها شيء تملكه أو كانت تملكه. إنها خبيرة بدخائل نفسه وقادرة على التعامل معه وإيقافه في الوقت المناسب لذا هي مطمئنة إلى أنها لن تقضي معه اليوم ولن تمكنه من احتلال عيد

مولدها، ستتحجج بأن داليا ستمر عليها بعد العمل في منزلها قبل أن تذهب لحضور أربعين ربما في المساء. شعرت بارتياح يغمرها ولا مبالاة عجيبة نحو كل ما سيفعله كريم وكان يؤثر فيها في الماضي.

و.. ويحيى؟! وانقبض قلبها عندما مر الاسم بخاطرها، هل مر حقا أم كان موجودا منذ بداية اليوم؟ كان موجودا، تحاول أن تخفيه في عقلها الباطن وتتجاهله، وكلما أمعنت في تجاهله كلما ازداد إلحاحه وكلما ازداد الخوف بداخلها، الخوف من أن تترك قلبها يتمنى وخيالها يحلم دون أن تجد نتيجة فيخيب أملها وتتحطم أحلامها، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة بدأ أمل لذيذ يدغدغ قلبها.

هل يمكن أن يتذكر يحيى عيد مولدها؟ ليس هذا بمستحيل، ألم تقل له أثناء أحد أحاديثهما أن الرقم الموجود في النوتة الكحلية ٣٠٥، هو يوم عيد مولدها؟ أليس هو من فكر في أنه ربما يكون يوم عيد مولدها هو الرقم السري لخزينة منصور بك الشخصية؟ إذا من المتوقع جدا أن يتذكر يحيى، إن كان يهتم حقا لأمرها سيتذكر، حاولت أن تنهر نفسها على هذا التفكير، أن تثور على أفكارها التي تحوم بلا سبب حول يحيى وتتمنى منه أن يأتي بأفعال لا مبرر لها.

ولكنها فشلت، فشلت فشلا ذريعا واعترفت أمام نفسها وبكل بساطة أنها فشلت في أن تثور على نفسها، واعترفت أيضا وبكل بساطة بأنها تتمنى أن يتذكر يحيى عيد مولدها وأن يفعل من أجلها أي شيء، أي شيء ستشعر به وكأنه أجمل شيء في الدنيا، واندهشت عندما أحست أن تليفونا صغيرا وكلمة رقيقة من يحيى سيكونان أجمل عندها من كل ما سيفعله كريم.

أفاقت على صوت جرس الباب، من يمكن أن يزورها الآن؟ داليا لن تأتي قبل الساعة الرابعة، نهضت متثاقلة وخطت خطوات بطيئة وهي لا تزال غارقة في أفكارها حتى وصلت عند الباب وفتحته، و.. وارتجفت من الصدمة.

يحيى، واقفا أمامها، مبتسما في ثقة واطمئنان كأنه رأى على وجهها ما توقعه بالضبط، يحمل بين يديه كعكة، كعكة عيد مولدها، جذبت عينيها من عليه بصعوبة ونظرت نحو عايدة هانم التي كانت تقف بجانبه مبتسمة في حنان، أول مرة تراها وهي ترتدي الحجاب، حجاب وقور وهادئ يليق بزوجة دبلوماسي ووالدة دبلوماسي، كم تحب تلك المرأة.

بذلت مجهودا حتى تستطيع أن تتغلب على دهشتها وتقول في صوت متلجلج من أثر الدهشة:

- أهلا، أهلا وسهلا، إيه المفاجأة الحلوة دي؟

تقدمت عايدة وقبلتها على وجنتها وهي تقول مبتسمة:

- كل سنة وإنتي طيبة يا يارا.

- وحضرتك طيبة، اتفضلوا.

أغلقت يارا باب الشقة ولحقت بهما في الصالون، حيث كان يحيى واقفا وهو لا يزال يحمل الكعكة مبتسما وهادئا في ثقة عجيبة وبجانبه عايدة التي تساءلت والابتسامة لا تزال على وجهها:

- هه، تميتي كام سنة بقى يا ست يارا؟

ابتسمت يارا في خجل وقد ظنت أنها لن تتعرض لهذا السؤال الذي يحرج معظم السيدات قبل أن تقول:

- سبعة وعشرين سنة.

- ياه ده إنتي صغيرة قوي، الأستاذ ده هيتم في سبتمبر اللي جاي تلاتين سنة بحالهم، هو واخواته عمالين يكبروا وبيكبروني معاهم.

فقالت يارا ممازحة:

- لا يا طنط هما يكبروا براحتهم إنما حضرتك زي ما إنتي، اتنين وتلاتين سنة.

ضحكت عايدة ضحكة صافية قبل أن تلتفت نحو يحيى وتقول في تعجب:

- مالك يا ولد واقف ساكت كده ليه؟ حط العلبة هنا على الترابيزة وخش ساعد يارا وجيب معاها الأطباق والشاي، على بال ما أتفرج على الصور اللي محطوطة على الترابيزة الصغيرة دي. يلا.

التفتت يارا واتجهت نحو المطبخ وهي تشعر بخطوات يحيى خلفها وقلبها يرتجف، كل قطعة في جسدها ترتجف، من الفرحة، لا، إنها ليست فرحة عادية، إنها سعادة غير طبيعية، غير منطقية، هل يمكن حقا أن يحدث ما هو أجمل مما حلمت به، عادة تكون الأحلام أجمل من الحقيقة، ولكن تلك هي المرة الأولى التي يكون فيها الواقع أروع من الأحلام بكثير.

ضغطت زر السخان الكهربائي وتركت الماء يسخن بداخله قبل أن تتجه نحو الضلفة لتحضر الأطباق والأكواب، رفعت كعبيها عن الأرض ووقفت على أطراف أصابعها لتستطيع أن تمسك الأطباق العالية، أحست كأنها تطير وهي تشعر بحفيف ثوبها حول قدميها المرتفعتين عن الأرض وتشعر بقلبها يرتجف وهي تراه بطرف عينها وهو يتأملها مبتسما.

قالت مبتسمة دون أن تنظر نحوه محاولة إخفاء خجلها بانتقاده بأي شكل:

- واقف عمال بيتفرج ومابيساعدش، مع إنه ممكن يمد إيده ويطلع الشوك والمعالق من الدرج اللي جنبه.

لحظت بطرف عينها ابتسامته وهي تتسع، لكنه لم يمد يده ولم يخرج شيئا، اقترب ببطء حتى أصبح أمامها مباشرة، حاولت السيطرة على يديها حتى لا ترتجفا لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تلتفت وتنظر نحوه، اتسعت ابتسامته وهو ينظر بداخل عينيها وتساءل في بساطة:

- مبسوطة؟

فوجئت بالسؤال، آخر شيء كان يمكن أن تتوقعه هو أن يسألها أحد هذا السؤال العام الشامل كأنه يلخص كل اهتمامه بها في كلمة واحدة. "مبسوطة؟"، وعلى الرغم من أن السؤال كان غريبا ومفاجئا لكنها كانت تعلم إجابته، ولم تتردد في أن تعلن تلك الإجابة بنفس البساطة التي سألها بها. أومأت برأسها مبتسمة وهي تقول مؤكدة في بساطة صادقة:

- جدا، مبسوطة جدا.

اتسعت ابتسامته في براءة طفولية، سعادة صادقة ملأته فاندفع يخرج أدوات المائدة بحماس ويساعدها في إعداد الشاي والأطباق. لقد وصل إلى ما يريد، أراد أن يفاجئها ففاجأها، أراد أن يسعدها فأصبحت الآن كأنها تطير من السعادة، أراد أن يتأكد من أنها تشعر بمثل ما يشعر به وتأكد، تأكد عندما رأى تلك النظرة في عينيها، لم يكن يعلم أنه يمكن أن يتأكد من شيء من مجرد نظرة، هو الذي لا يأخذ طوال عمره إلا بالدلائل الواقعية والمادية يجد نفسه فجأة يشعر بيقين من مجرد نظرة رآها في عيني يارا، يارا، الوحيدة التي استطاعت أن تحرك شيئا بداخله ظل طوال عمره لا يعلمه.

حملت صينية الشاي وحمل الأطباق وخرجوا إلى الصالون، حيث كانت عايدة جالسة وقد اتسعت ابتسامتها بعدما رأت وجهيهما مستبشرين ومبتسمين، أسرعت تقول ممازحة في خبث:

- ماعلش يا يارا إحنا طبينا عليكي فجأة، بس أنا ماليش دعوة، يحيى هو اللي أصر، لو كنا بقى عملنا لك قلق صفي حسابك معاه هو مش أنا.

ابتسمت يارا وقلبها يرقص، إن عايدة تستخدم تلك المزحة لتفهمها أن يحيى هو من أعد المفاجأة، هو من تذكر عيد مولدها وهو من فكر في إعداد كل شيء، نظرت نحوه فوجدته ينظر نحوها وكأنه يؤكد أفكارها بعينيه وابتسامته.

نزعت عينيها عنه بصعوبة بعدما سمعت صوت جرس الباب، استأذنت وتركتهم يصبون الشاي ويقطعون الكعكة وذهبت لتفتح الباب والابتسامة لا تزال فوق شفتيها، فتحت الباب فاختفت الابتسامة من على شفتيها، امتلأت عيناها بنظرات الذعر، كريم! يقف مبتسما وكأنه يملك الدنيا بتلك المفاجأة التي ظن أنها ستسعدها، انطلق يقول في حماسة واندفاع:

- يارا، كل سنة وإنتي طيبة يا حبيبتي، يلا بقى خشي البسي وسيبي لي تفسك النهارده خالص، هاظبطك.

لم تستطع أن تتحدث أو حتى تبتسم، كأن الصدمة ألجمت لسانها وأثلجت أطرافها، فقدت حتى القدرة على التفكير فيما يمكن أن يحدث، كل ما أرادته هو أن يختفي كريم الآن كأن لم يكن وأن تعود لتجلس مع يحيى ووالدته كأن شيئا لم يحدث.

بصعوبة شديدة رسمت ابتسامة صفراء على شفتيها وقالت في صوت خافت مبحوح:

- أهلا يا كريم.

التفتت نحو الصالون فاصطدمت عيناها بنظرات يحيى، الذي أدرك ما يحدث بمجرد أن سمع صوت كريم، اختفت الابتسامة من على وجهه وحل محلها ضيق وغيظ حاول أن يخفيهما بإدارة عينيه بعيدا عنها، لكنه فشل، فشل الطفل الذي بداخله في أن يخفي مشاعره، فشل في أن يتظاهر باللامبالاة لأنه في الحقيقة مهتم جدا بها وبما يحدث.

تقدم كريم خطوة ونظر إلى داخل الشقة حيث كانت يارا تنظر شاردة، وما إن وقعت عيناه على يحيى حتى تحولت ابتسامته المتحمسة إلى ابتسامة خبيثة كأنه يبتسم بطرف واحد من طرفي شفتيه وعيناه تسألان في وقاحة عن سبب وجود يحيى هنا.

لم ينقذ الموقف سوى عايدة هانم التي أدركت ما يحدث فأسرعت تقول في لباقة وذكاء لتحتوي الحرج الذي طغى عليهم:

- أهلا يا ابني، اتفضل، اتفضل معانا.

تقدم كريم في خطوات هادئة واثقة كأنه قبل الدعوة ليتحدى يحيى ووالدته، وحتى ليتحدى يارا التي خطت خلفه ببطء، وقد شحب وجهها وفقدت السيطرة على عقلها الذي عجز عن التفكير فيما يمكن أن تفعله أو تقوله. فظلت صامتة واجمة تكاد تكون غير قادرة على ابتلاع ريقها لتبلل حلقها الجاف.

استطاعت عايدة أن تدرك كل ما يحدث بسرعة فائقة. أشفقت على يارا وهي تراها في هذا الموقف السخيف فأسرعت تقول في بساطة وهي لا تزال محتفظة بابتسامتها الهادئة:

- إيه يا يارا؟ مش تعرفينا؟

خطفت يارا نظرة سريعة نحو يحيى ثم غضت طرفها وهي تقول مسرعة لتخفي توترها:

- كريم، كان زميلي في الجامعة. وده يحيى ووالدته عايدة هانم. أكيد فاكر يحيى يا كريم؟

نظر كريم نحوها نظرة ساخرة من هذا التعريف الساذج الذي عرفته به، زميلها، فقط؟ أنسيت أنها كانت تحبه وأنه كان يوما ما خطيبها؟ قال والسخرية لا تزال تحتل عينيه ونبرة صوته وهو ينظر نحو يحيى في شبه تحد:

- آه طبعا فاكره، من ساعة ما شفته في المطار وأنا فاكره كويس.

ثم التفت نحو يارا وقد عادت الحماسة تملأ صوته الذي ارتفع متحديا وهو يقول:

- أنا كنت جاي آخدك ونروح نقضي عيد ميلادك في الحسين وخان الخليلي. عامل لك بروجرام هايل، بس ماكنتش أعرف إن عندك ضيوف. على العموم أنا هاسبقك على هناك وإنتي خلصي وحصليني.

هنا وقبل حتى أن تفتح يارا فمها لتجيب أو تعترض، هنا فقد يحيى أعصابه. ألقى بالملعقة على المائدة وهو يقول في عصبية وقد فشل تماما في إخفاء الضيق أو السيطرة على الغيظ الذي ملأ ملامحه:

- لا مالهوش لازمة يا أستاذ كريم. إحنا أصلا كنا ماشيين دلوقتي. حتى عشان يارا تروح معاك وتلحق البروجرام من أوله. يلا يا ماما.

نهضت عايدة وهي تنظر في دهشة شديدة نحو ابنها الذي لم تره من قبل في تلك الحالة، بينما انطلق يحيى كالطفل الغاضب نحو باب الشقة دون أن ينتظر ردا أو اعتراضا من أحد. أسرعت يارا

خلفه وأمسكته من ذراعه حتى يتوقف ويتحدث معها، توقف على مضض دون أن ينظر نحوها بينما كانت هي تكاد تأكله بنظراتها المتوسلة وهي تقول محاولة فعل أي شيء لتصالحه قبل أن يذهب في حالته تلك:

- يحيى استنى، إنت. قصدي، أنا هاشوفك النهارده بالليل في أربعين ربما صح؟

فقال مقتضبا دون أن ينظر نحوها:

- أيوه طبعا.

قالت وهي تكاد تستعطفه بنظراتها لينظر نحوها وترى عينيه:

- و هتيجي بكرة المكتب طبعا عشان تحضر الاجتماع اللي هاعمله لرأفت وليديا زي ما اتفقنا مش كده؟

جاهد ليرفع عينيه وينظر نحوها نصف نظرة وهو يقول:

- هو إنتي لسه مصممة على إنك تقولي على موضوع الصندوق وكل حاجة لرأفت وليديا؟

فاندفعت تقول متحمسة وقد أحست أن بابًا للحديث قد انفتح مرة أخرى:

- أيوه طبعا، بعد اللي حصل في الحفلة ده مافيش حل غير كده.

- وهو إيه اللي حصل يعني؟

- إيه اللي حصل؟ أعضاء الوفد اللي كانوا قاعدين كأنهم في بيتهم وأملاكهم بطريقة غريبة، الخزنة اللي مش عارفين إزاي هنفتحها ونعرف اللي فيها حتى بعد أنا ما عملت نفسي نسيت حلقي هناك. بلاش كل ده، بذمتك إنت هو معقول إن واحد زي ألكس روبنسون بمكانته السياسية الدولية يجي حفلة معمولة عشان صفقة تلاجات؟! ويقعد طول الوقت مع شفيق على جنب يتهامسوا ويتودودوا بحجة إنه بيتطمن على صحة منصور بيه.

فصمت يحيى مفكرا ثم قال وقد بدا عليه الاقتناع:

- مش معقول طبعا.

- خلاص، يبقى مافيش قدامي حل تاني غير إني أشرك معايا في السر بتاعي الناس الوحيدة اللي كانت قريبة من منصور بيه، واللي عارفة وفاهمة في الشغل اللي الأسماء اللي في اللستة مشاركة فيه منصور بيه يمكن يقدروا يساعدوني، أنا صحيح جربت ليديا قبل كده وماعرفتش تساعدني

بس هي ما كانتش تعرف الموضوع كله. يمكن لما تعرفه ويبقى كمان معانا رأفت، يمكن نقدر نوصل لحاجة.

ظل يحيى صامتا وقد بدا عليه أنه بدأ يقتنع بمنطقها. تشجعت يارا وابتسمت وهي تقول في رقة:

- ماتقلقش. أنا حاسباها كويس. أنا بس عاوزاك جنبي.

نظر إليها وابتسم في سخرية كأنه يتساءل عن مدى صدق احتياجها له. قال مستسلما:

- حاضر. هاجي.

ثم استدار وخرج مسرعا وهو يقول وقد عادت العصبيّة تملأ صوته:

- يلا يا ماما.

أقبلت عايدة نحو يارا مبتسمة وقالت في حنان وهي تربت على كتفها:

- ماعلش. هو يحيى كده لما بيتعصب بس بيفك بسرعة صدقيني. كل سنة وإنتي طيبة يا حبيبتي. أكيد هاشوفك قريب.

جاهدت يارا لتبتسم وهي تقول مخفية الألم الذي شعرت به:

- آه طبعا يا طنط. أكيد إن شاء الله.

خرجت عايدة بعد أن قبلت يارا التي أغلقت الباب، والتفتت نحو كريم وقد تملكها غيظ عنيف من هذا الذي أفسد عليها أجمل مفاجأة حدثت لها في حياتها. أحست أنها تريد أن تنشب أظافرها في وجهه ورقبته حتى تستريح وتفرغ حنقها وتهدأ. قال وهو يقترب منها في نبرة ساخرة:

- ماكنتش أعرف إنك إنتي ويحيى اتعودتوا على بعض للدرجة دي.

كظمت غيظها وقالت دون أن تكترث بالإجابة عليه كأنها لم تسمعه وهو يتحدث:

- كريم أظن إنت واخد بالك إن أنا عايشة لوحدي وإن إنت لازم تنزل دلوقتي حالا.

فقال محاولا إخفاء حنقه:

- يا سلام! واشمعنى يحيى بقى؟

فانفعلت وهي تقول وقد استفزتها طريقته:

- أولا يحيى كان معاه والدته. ثانيا بقى يعني إيه إشمعنى دي إن شاء الله؟

عض بأسنانه على شفتيه ثم قال في برود:

- ماشي، بلاش إشمعنى، على العموم أنا جاي آخدك عشان نقضي عيد ميلادك مع بعض. عامل لك فسحة حلوة في الحسين وخان الخليلي، أنا هانزل أستناكي في العربية على بال ما تغيري هدومك.

توجه نحو باب الشقة لكنها استوقفته وهي تقول في نبرة شبه متحدية:

- ماعلش يا كريم مش هاقدر أخرج النهارده.

التفت نحوها وهو يقول في نبرة متحفزة:

- ليه؟

- عشان داليا هتعدي عليا بعد الشغل وزمانها على وصول ولازم أستناها، وبالليل هاروح الأربعين بتاع ريما في عمر مكرم. ماعلش بقى نبقى نعوضها بعدين.

لوى كريم شفتيه محاولا كبت غيظه قبل أن يقول في تحدٍ:

- ماشي، خليها بعدين، بس ماتنسيش، إحنا لينا خروجة مع بعض. سلام.

خرج وأغلق الباب خلفه في عنف. ليفعل ما يشاء، ليغتظ أو ليمت. يجب أن يقف عند الحدود التي سترسمها له حتى لا يصور له عقله أنه سيستطيع في يوم ما أن يسترد يارا أو أنها ستفكر في العودة إليه أو إلى حبه مرة أخرى.

ألقت بنفسها في عنف على مقعد الصالون وقد ملأها غيظ عنيف نحو كريم. ليتها لم تقابله مرة أخرى، ليتها لم تعرفه طيلة حياتها. كأن مطارق من حديد تضرب في صدرها الذي يغلي من شدة الحنق عليه. كورت قبضتها وأخذت تضرب بعنف على يد المقعد وتعض على إبهام اليد الأخرى وهي تتخيل كيف كان يمكن أن يمضي اليوم لو لم يأت كريم ويفسد تلك السعادة التي كانت تملأ منزلها.

لكنها شردت للحظة، لحظة واحدة تذكرت فيها نظرة يحيى الملينة بالضيق والغضب والغيظ. خف ضرب يدها على المقعد وكفت عن الضغط بأسنانها على إبهام يدها الأخرى، وابتسمت. ابتسمت عندما أدركت أن تلك النظرة الغاضبة لم تظهر في الواجهة إلا لتخفي في الداخل شيئا واحدا. الغيرة.

(٣٧)

كانت يارا تطرق بأصابعها في توتر فوق السطح الزجاجي للمكتب حين قاطعها يحيى قائلا في حدة:

- يا شيخة كفاية بقى، اهدي شوية، وترتيني.

فكفت يارا عن النقر وهي تقول في توتر:

- مش قادرة يا يحيى، هاموت من القلق.

- قلقانة ليه؟ مش إنتي اللي فكرتي وقررتي إنك تقولي لرأفت وليديا على كل حاجة عشان يعرفوا يساعدوكي؟

- أيوه أنا اللي أخدت القرار ومقتنعة بيه تماما، بس برضو لسه مش قادرة أستوعب فكرة إني بكل بساطة أفشي السر اللي أختي ائتمنتني عليه وأقوله لناس غريبة.

- أولا إنتي بتعملي كده عشان تحققي هدف نبيل اللي هو إنك تفهمي ربما عاوزة منك إيه، إنتي مابتقوليش على الموضوع ده لأي حد تقابليه وخلاص.

ثم استطرد متسائلا في تعجب:

- و بعدين ما إنتي جيتي وقلتي لي ولسه بتقولي لي على كل حاجة وأنا غريب عنكم. ضميرك مابيأنبكيش ليه؟

فمطت يارا شفتيها وهي تقول في استخفاف لهذا السؤال:

- يا يحيى إنت حاجة تانية خالص.

ابتسم ساخرا من نفسه التي أصبحت لا تفهم شيئا، كلامها هذا يسعده ويجعله يشعر بزهو واطمئنان لأنها تعتبره إنسانا مختلفا وله عندها مقام أعلى من كل الناس، لكن تلك السعادة لا تلبث أن يشوبها سخط وضيق كلما تذكر تلك المواقف المتقطعة التي يحتل من خلالها كريم جزءا في حياتها خاصة موقف البارحة، هذا الموقف الذي شعر بعده أنه يكره كريم كما لم يكره أحدا من قبل، والذي بسببه احتل الضيق وجهه والتكلف نبرة صوته وطريقة تعامله مع يارا اليوم لكنها لم تلتفت إلى ذلك بعد، توترها واهتمامها بموضوع ربما جعلاها تنصرف عن كل ما عداه حتى يحيى، لا يهم، سيظل على طريقته تلك حتى ينتهي اجتماع اليوم ويفرغ عقلها قليلا مما فيه، ستلتفت إليه وتحاول مصالحته، حينئذ سيتخلى قليلا عن تلك الطيبة التي يتعامل بها معها، والتي

بسببها يتعذب قلبه وهو مشتت بين حقيقة وجود كريم في حياتها وبين لحظات قربها منه والتي يكاد يجزم فيها بأنها تحبه كما يحبها. يحبها؟ أحس بقلبه يخفق وعقله يستنكر أنه نطق بتلك الكلمة بكل بساطة حتى ولو كان ذلك بينه وبين نفسه فقط.

سمعا نقرا على الباب دخل على إثره رأفت وخلفه ليديا مبتسمين ابتسامات صفراء تخفي توجسا من هذا الاستدعاء الغريب في جو من التكتم والسرية. اقترب رأفت وهو يقول ولا تزال الابتسامة على شفتيه:

- صباح الخير.

تقدمت يارا نحوهما وهي تقول:

- صباح النور. اتأخرتوا ليه؟

فقالت ليديا محاولة إخفاء ضيقها:

- ماعلش، أصل رأفت اتأخر شوية النهارده.

ثم أخفضت صوتها مستطردة كأنها تهمس لنفسها لتذكرها بما يحدث:

- كالعادة.

لم تسمعها يارا التي اتجهت مسرعة نحو مائدة الاجتماعات وهي تقول في استعجال:

- طيب. ليديا لو سمحتي اقفلي الباب وتعالي بسرعة.

أغلقت ليديا باب الغرفة واتجهت لتجلس بجانب رأفت على يمين يارا التي جلست على رأس المائدة. بينما جلس يحيى على يسارها في مواجهة رأفت. التفتت يارا نحو رأفت وتساءلت محاولة تخفيف توترها وفتح مجال للحوار:

- مامتك عاملة إيه يا رأفت؟ لسه تعبانة؟

عقد رأفت حاجبيه مستنكرا سؤالها عن والدته. كاد أن يسألها من أين تعرفها لتسأل عنها لكنه سرعان ما تذكر هذا الحديث الذي دار بينهما يوم الحفل حين ادعى أنه تأخر ليصحب والدته للطبيب لأنها تمر بمشاكل صحية. قال محاولا إخفاء توتره:

- لا. كويسة. بقت كويسة الحمد لله.

- طب الحمد لله.

صمت كلاهما بينما استرق رأفت نظرة سريعة بطرف عينه نحو ليديا ليرى أثر كذبته عليها لكنها كانت جامدة، ملامحها ثابتة لا توحي بشيء اللهم إلا شبح ابتسامة ساخرة متألمة تؤكد لها أنها كانت على حق عندما أحست أن رأفت أصبح متغيرا وغريبا.

عقدت يارا أصابع يديها واستندت بمرفقيها على المائدة محاولة لملمة أفكارها وتخفيف توترها قبل أن تقول بنبرة جادة:

- طبعا إنتوا مستغربين من إن أنا طلبت أقعد معاكم النهارده، خصوصا وإن أنا أكدت عليكم إن الاجتماع ده يبقى سري وماحدش يعرف عنه حاجة، وكمان اخترت معاد يكون شفيق فيه مش موجود في المجموعة.

صمتت يارا لتتأكد من نظرات الاهتمام والتركيز في أعين رأفت وليديا قبل أن تستطرد قائلة:

- بس قبل ما أتكلم في الموضوع الأساسي اللي أنا جايباكم عشانه عاوزة أنبهكم لأنه موضوع مهم جدا، تقريبا سر ماينفعش أقوله لأي حد، وأنا اخترتكم أنتم بالذات لأني في الفترة القصيرة اللي أنا قعدت فيها هنا في المجموعة حسيت إنكم أقرب الناس ليا وأكتر اتنين وقفوا جنبي وساعدوني إني أفهم الشغل بسرعة وأتعود على المكان، ومش هابالغ لو قلت إنكم أكتر اتنين أنا واثق فيهم هنا في المجموعة وعارفة إنكم هتبقوا قد الثقة دي.

لمعت أعينهما في زهو وأسرع رأفت يقول في حماس:

- العفو يا آنسة يارا ده واجبنا.

وأكملت ليديا قائلة:

- و ثقتك دي شرف لينا تأكدي إننا هنكون قدها، والموضوع ده أيا كان مش هيخرج برانا مهما حصل.

ابتسمت يارا ونظرت نحو رأفت نظرة ذات معنى وهي توجه نحوه سؤالها:

- وشفيق؟

عقد رأفت حاجبيه مستنكرا قبل أن يقول مدافعا كأنها أهانته بسؤالها:

- ولا حتى مستر شفيق يا آنسة يارا، ما دام حضرتك أمنتيني على سر يبقى عمري ما هاطلعه برا مهما حصل.

فقالت يارا في رقة بعدما أحست أنه شعر بالإهانة بسبب سؤالها:

- أنا عارفة طبعا يا رأفت، أنا باسأل بس عشان أنا عارفة إنك تبقى مساعد شفيق ومابتخبيش عليه حاجة.

- أيوه أنا المساعد بتاعه ومباخبيش عنه حاجة في حدود الشغل، إنما عمري ما هاروح أقول له على سر أنا عارف إن هو مش المفروض يعرفه.

فابتسمت يارا في رضا وهي تقول:

- و أنا باثق فيك يا رأفت، وفيكي يا ليديا وعارفة إنكم قد الثقة دي.

و صمتت يارا لحظات تستجمع شجاعتها لتبدأ في الحديث الأهم. استرقت النظر نحو يحيى الذي كان لا يزال صامتا يكسي وجهه بطبقة من التحفظ وشيء من الضيق كجزء من الخطة التي وضعها بينه وبين نفسه كأنه يعاقبها على ما حدث البارحة. أومأ لها إيماءة خفيفة كأنه يأذن لها أن تفشي سرها الخطير. وأخيرا، تحدثت يارا، حكت عن كل شيء بمنتهى الصراحة منذ أول يوم أتاها فيه شفيق ليطلب منها أن تستلم جثة ربما وتشرف على دفنها مرورا باستلامها للطرد وكل الاستنتاجات والاكتشافات التي توصلا إليها وحتى اللحظة التي قررت فيها أن تصارحهما بكل شيء، حتى يكون لديهما كل المعلومات التي يمكن أن يستخدماها ليساعداها في اكتشاف أي شيء أو أي تفسير لما يحدث، وفي النهاية بسطت أمامهما نسخة من قائمة الأسماء الموجودة على الـipad والتي كانت ليديا قد اطلعت عليها من قبل.

طوال تلك الفترة لم تتوقف أعين رأفت أو ليديا عن الاتساع في ذهول مما يسمعانه وتركيز شديد لكل كلمة تقال. الحديث كان غريبا ومشوقا جدا حتى أنهما في بعض اللحظات كانا ينسيان الحرج الذي يشعران به نحو بعضهما البعض ويتبادلان النظرات في ذهول واستنكار كأن كلا منهما يستنجد بالآخر ليساعده على تصديق ما يسمعه.

صمتت يارا وأخذت تتأمل رأفت الذي أخذ يفحص الأسماء في القائمة بشغف شديد واهتمام. رفع رأسه فوجد كل الأعين تنظر نحوه في ترقب، شعر بخوف من المسؤولية التي وضعت على عاتقه وبعض من الزهو لأنه أصبح محط اهتمامهم. تنحنح قليلا كأنه يستعد لإلقاء خطبة قبل أن يقول:

- الملفات اللي ليديا جايبها لك فعلا ممكن مايكونش لها لازمة. فيه أسامي هنا بيشتغلوا مع المجموعة من زمان من قبل حتى أنا وليديا ما نتعين هنا. ده فيه شغل كان معاهم ابتدا وخلص قبل ما إحنا نحط رجلينا في المجموعة أصلا. التدوير على الشغل ده وتفاصيله له سكك ليديا ماتعرفهاش إنما أنا ممكن أقدر أوصل لها.

لمعت عينا يارا ببارقة من الأمل وهي تقول في حماس:

- كويس قوي، يا ريت يا رأفت تجيب لنا أي معلومات أو تفاصيل ممكن تفيدنا، وبرضو لازم تخلي ليديا تساعدك.

تململ رأفت قليلا قبل أن يقول في نبرة متقطعة:

- آه، طبعا، أكيد هاحتاج مساعدتها لأن ليديا كمان بصفتها سكرتيرة منصور بيه من حوالي خمس سنين لها في الشركة مصداقية تخليها تقدر تجيب أرقام الحسابات اللي بتحول لها فلوس شغلنا مع الناس دي عشان نقارنها بأرقام الحسابات اللي موجودة في اللستة.

فاتسعت عينا يارا وهي تقول في سعادة بعدما بدأت تشعر بأنها أصابت عندما استعانت بهما ليساعداها:

- أيوه صح، دي خطوة مهمة جدا.

قطعت ليديا صمتها متسائلة:

- طب والخزنة اللي موجودة في الدولاب الأزرق في الفيلا، هتعملي فيها إيه؟

فأسرعت يارا تجيبها قائلة:

- لا دي سيبيها لي، أنا لسه جاية لي النهارده فكرة هتخليني أعرف أفتحها وأشوف اللي جواها من غير ما حد يحس.

فأسرع رأفت يتساءل في شغف:

- إزاي؟

- هاكلم كريمة في التليفون وأقول لها إن الدولاب الأزرق اللي أنا شفته في أوضة منصور بيه عجبني وعاوزة أعمل واحد زيه، وأستأذنها في إني أروح وآخد معايا نجار عشان يرفع المقاسات ويدرسه كويس، بس في الحقيقة أنا مش هاخد معايا نجار، أنا هاخد خبير فتح خزن.

نظرا نحوها في استنكار بينما تساءلت ليديا في تعجب:

- و ده هتجيبيه منين؟

- فيه واحد أعرفه كان زميلي في الجامعة اسمه كريم.

رفع يحيى رأسه في حركة آلية سريعة عندما سمع الاسم بعدما ظل معظم الجلسة خافضا رأسه في ضيق دون أن يشارك بكلمة واحدة. نظر نحو يارا في دهشة وقد أصابته صدمة أتت على آخر ما بداخله من بارقة أمل، إن يارا تضع خططا تشرك فيها كريم ولا تطلعه عليها. ظلت النظرات الذاهلة واضحة في عينيه وهو يستمع إليها وهي تستطرد وقد تركزت كل نظراتها نحو ليديا ورأفت:

- كريم ده بيشتغل مع والده في استيراد الخزن وصيانتها من زمان، عشان كده أنا هاطلب منه إنه يديني خبير من اللي بيشتغلوا عندهم يكون شاطر وأمين.

تحولت نظرات الدهشة إلى نظرات شك في أعينهما بينما علق رأفت قائلا:

- هي خطة مش منطقية قوي وفيها مجازفة كتير، بس واضح إننا ماقدامناش غيرها.

توجهت ليديا نحو يحيى وهي تتساءل لتحثه على الكلام:

- إيه رأيك يا مستر يحيى؟

التفت يحيى نحوها وكأنه يفيق من غيبوبة، بعدما ظل لدقائق محملقا نحو يارا في ذهول وقد غاب تقريبا عن كل ما حوله وغرق في أفكاره، تمالك نفسه وأعاد إلى ملامحه تحفظها وهو يقول مقتضبا:

- خطة كويسة.

أسرعت يارا تقول لتنهي الحديث:

- أهم حاجة لازم نبقى عارفينها هي إننا فريق واحد مقسوم نصين، رأفت وليديا جوا المجموعة وأنا ويحيى برا المجموعة. اللي يوصل لحاجة لازم يبلغ الباقيين بس في الآخر إحنا فريق واحد بينا سر لازم مايخرجش برا أبدا.

أومأ الجميع برأسه موافقا بينما نهضت ليديا وهي تقول معتذرة:

- ماعلش أنا لازم أخرج دلوقتي عشان فيه ناس عندها مواعيد مع حضرتك لازم أكون في استقبالها.

تحميل من الكتب العصرية

نهض رأفت أيضا وهو يقول:

- أنا كمان هاقوم أخلص الشغل اللي ورايا عشان أعرف أركز بعد كده في الموضوع بتاعنا.

خرج الاثنان بعدما وعداها بالسرية الشديدة حتى على أهل بيتيهما وعلى العمل بحماس لاكتشاف أي شيء قد يوصلهم إلى حل لهذا اللغز الغامض، ما إن خرجا حتى نهض يحيى مسرعا كأن عقربا لسعه، واتجه نحو الباب كأنه يهرب منها أو من أي محاولة للحديث معه، فبعدما كان يريد هذا الحديث حتى يجعلها تفهم ما بداخله أصبح غير قادر بالمرة حتى على النظر إليها.

نظرت يارا نحوه في دهشة وهي تتساءل:

- رايح فين؟ ما تقعد شوية.

أجابها مقتضبا وهو يفتح باب الغرفة دون أن ينظر نحوها:

- لا ماعلش أصل ورايا شغل كتير قوي في الوزارة ولازم أمشي، مع السلامة.

خرج مسرعا، هاربا منها، وتركها تغرق في دهشتها من الأسلوب الذي اتبعه طيلة الجلسة وفي وقت ذهابه، تركها تغرق في ندمها لأن موضوع ريما والاجتماع مع ليديا ورأفت شغلاها عن مصالحته بعدما حدث البارحة في منزلها مع كريم.

(٣٨)

كان مستلقيا في اليوم التالي على فراشه وقد أمسك بيده علبة صغيرة من القطيفة السوداء، يفتحها ليتأمل ما بداخلها ثم يغلقها ثم يفتحها مرة أخرى ليتأملها ثم يغلقها وهكذا دواليك، حتى أصبحت تلك الحركة آلية تقوم بها أصابعه فقط، بينما شرد عقله وعاد إلى هذا اليوم الذي ارتدت فيه يارا هذا الخاتم ونسيته في أصبعها حتى نبهها إليه مسيو فايز الجواهرجي فخلعته، ورفضت أن تبتاعه على الرغم من إعجابها به إعجابا بدا واضحا جدا في نظراتها وهي ترتديه وهي تخلعه، يومها عاد مرة أخرى في المساء وابتاع الخاتم تحت ابتسامة مسيو فايز اللئيمة ونظراته التي توحي بأنه يفهم كل شيء، لا يعلم يحيى لماذا عاد وابتاع هذا الخاتم؟ وقتها لم تكن مشاعره واضحة نحوها ولم يكن هناك مبرر يجعله يفكر في أن يشتري لها شيئا، لكنه وجد نفسه يعود إلى المحل مرة أخرى وهو يدعو الله ألا يكون أحد قد ابتاع الخاتم، ولدهشته الشديدة أحس أن مسيو فايز كان قد خبأ الخاتم بعيدا عن أعين الزبائن كأنه كان يعلم بفراسة التاجر أنه سيعود ليبتاعه هو بعينه، فبمجرد أن دخل يحيى وطلب الخاتم وقبل أن ينتهي من وصفه كان مسيو فايز قد فتح الخزنة وأخرجه في علبته السوداء وسلمه له وعلى شفتيه ابتسامة انتصار وثقة.

لا يعلم لماذا ابتاعه؟ كان متأكدا أن الخاتم قد أعجبها وأسر لب الأنثى الساكنة بداخلها، والتي لا تستطيع أن تقاوم إعجابها بالمجوهرات الجميلة الثمينة مهما كانت إنسانة بسيطة لا تهتم بالمظاهر أو باقتناء البضائع الغالية البراقة، لكن تأكده من ذلك لم يكن سببا كافيا ليدفعه إلى شرائه لها، كان بداخله إحساس يؤكد له أنه سيأتي يوم سيهديها فيه هذا الخاتم، يوما سيصنع به لها مفاجأة ستدمع لها عيناها، لذا ابتاعه لها دون حتى أن يفكر في سبب هذه السعادة التي كانت تملؤه كلما تخيلها وهي عاجزة عن إخفاء مشاعرها المتناقضة عندما ترى الخاتم أمامها وتعلم أنه التفت إلى شيء بسيط قد لا يلتفت إليه أي إنسان يحبها.

و جاء اليوم، وأخرج الخاتم والسعادة تكاد ترفعه عن الأرض وتطير به، وذهب إليها حتى باب بيتها لتكتمل المفاجأة التي أراد أن يرى أثرها على وجهها، وقبل تلك اللحظة بدقائق، قبل أن يخرج الخاتم ويتلذذ بنظرتها وهي تراه وتفاجأ به وتحاول كبت مشاعرها ودموعها فتفشل وتترك لهما العنان، قبل كل ذلك بدقائق فسد كل شيء، أفسده كريم هذا الذي كلما تذكره أحس أنه يريد أن

يحطم كل ما حوله ليثأر لكبريائه التي تأبى أن تشعر ولو حتى مجرد شعور أنها تتنازع مع أحد على شيء حتى ولو كان هذا الشيء هو الحب. الحب الذي لم يجربه سوى الآن. رجل في الثلاثين من عمره، سافر والتحق بأصعب الأعمال وتعامل مع الناس بكل الطوائف والجنسيات وتحمل أثقل المسؤوليات وأثبت أنه شخصية قوية ثابتة لا يؤثر فيها شيء، رجل هكذا يأتي اليوم الذي يجد نفسه فيه في منتهى الضعف وقلة الحيلة. يفكر ويتصرف كالمراهقين. لماذا؟ لأنه لم يجرب الحب من قبل. ليس لديه أية خبرات ولا يعلم ماذا يجب عليه أن يقول أو يفعل في تلك المواقف ولا يجد من يسأله أو يستشيره، وحتى إن وجد أحدا فإنه سيخجل من أن يسأل نفس الأسئلة التي يسألها طلاب الثانوي وهو رجل ناضج محترم.

كان مستغرقا في أفكاره حتى أنه لم يسمع صوت الطرق على باب غرفته، ولم يشعر بصوت حفيف عباءة عايدة هانم التي دخلت في خطوات رشيقة ووقفت أمام الفراش تتأمله مبتسمة، وفي عينيها نظرة تكاد تزغرد من السعادة وقد اختلط بها حنان وتأثر الأم التي استيقظت ذات يوم لتفاجأ بابنها الصغير وقد صار رجلا كبيرا. انتبه على نبرتها المازحة وهي تقول:

- أحمدك يا رب، حققت لي أمنيتي اللي بقى لي سنين بادعي لك بيها.

اعتدل يحيى في جلسته مسرعا وقال هو يغلق العلبة السوداء محاولا إخفاءها في قبضته بحركه فضحت ارتباكه:

- أمنية؟ أمنية إيه دي يا ماما؟

فقالت في خبث وهي تتقدم نحو الفراش بخطوات وئيدة:

- أصل أنا كان نفسي طول عمري، أشوف واحد كده وهو قلقان ومشغول وبيفكر، اوعى كده اتأخر خليني أقعد.

قالتها وهي تزيحه لتجلس على حافة الفراش وتضم حواف شالها الفستقي اللون. أفرغ لها يحيى مساحة وهو يقول ساخرا:

- وشفتيه خلاص الحمد لله؟ استريحتي؟

- جدا، استريحت على الآخر.

اتسعت عيناه في دهشة سرعان ما تحولت إلى غيظ وهو يقول:

- بقى كده؟ ماشي يا ماما، استريحي براحتك وبلاش أنا.

صمتت محاولة كبت ابتسامتها، وقع بصرها على يده القابضة على العلبة السوداء فقالت في تعجب:

- مش عيب الهدية تفضل معاك لحد دلوقتي؟ مش كفاية إن إنت مشيت يوم عيد ميلادها من غير ما تديها لها.

لوى شفتيه في ضيق وهو يقول:

- ماما لو سمحتي ماتفكرينيش باليوم ده.

أجابته في عصبية لا تخلو من نبرة حانية:

- جرى إيه يا ولد إنت؟ هو كان إيه اللي حصل يعني؟ اثبت كده واركز، ماتخليش واحدة تعمل فيك كده.

فاعتدل في جلسته وهو يقول وقد اعتراه استفزاز شديد:

- يا سلام، ما الواحدة دي إنتي بتحبيها جدا، تنكري؟

- لأ مانكرش، أنا باحبها وعاجباني وداخلة دماغي، بس برضو عاوزاك تعقل وتركز يا سيادة السفير.

فصمت شاردا ببصره نحو الأمام وقال دون أن يحيل عينيه كأنه يرى أمامه إلهاما يصفه ويخشى أن يضيع من أمام عينيه:

- تفتكري يا ماما، لو واحدة كانت بتحب واحد زمان، وسابوا بعض، وبعدين قابلته تاني بعد كام سنة. تفتكري ترجع له ولا لأ؟

فصمتت قليلا مبتسمة وقد فهمت مقصده ثم قالت:

- على حسب.

فالتفت نحوها وتساءل مستنكرا:

- إزاي يعني؟!

فقالت والثقة تملأ كل حرف تقوله:

- يعني واحدة في شخصية يارا وطريقة تفكيرها ممكن آه ترجع له، بس في حالة واحدة.

فانتفض جالسا وهو يتساءل دون أدنى محاولة لإخفاء ما اعتراه من خوف وقلق:

- إيه هي؟

- لو كانت هي اللي سابته زمان وحاسة إنها ظلمته. إنما لو كان هو اللي سابها. لو عمل إيه. عمرها ما هتسامحه ولا هترجع له حتى لو عاملته كويس لما قابلته تاني بعد كام سنة صدفة في المطار.

زم شفتيه مفكرا في حيرة. من أين له أن يعرف ماذا حدث بينهما منذ سنوات ليستنتج إن كانت ستعود إليه أم لا؟ رسم ابتسامة على شفتيه وقال ممازحا ليستفزها وهو يضطجع مرة أخرى:

- إنما أنا شايفك بتحبها وبتدافعي عنها ومبسوطة بيها. أمال فين شغل الغيرة والحموات والحاجات دي؟

اختفت الابتسامة من على وجهها ومالت قليلا نحوه وهي تقول شبه هامسة:

- عاوز الحق؟ أنا ماسكة نفسي بالعافية. مش قادرة أتخيل إن فيه واحدة مهما كانت كويسة ومهما كنت باحبها تقدر تاخدك مني. بس اللي مصبرني ومسكتني إن يارا طيبة وبنت حلال ودخلت قلبي على طول.

ابتسم متأثرا بكلامها وتناول يدها ولثمها بامتنان وحب. دق جرس هاتفه المحمول فالتفتت عايدة وتناولته من على "الكمودينو" وألقت نظرة سريعة على الشاشة قبل أن تقول مبتسمة:

- اتفضل يا سيدي كلم. دي يارا.

انتفض جالسا وقلبه يدق بعنف لكنه سرعان ما تذكر خطته التي بدأها منذ يومين. تظاهر بالهدوء وهو يتناول المحمول من والدته وأجاب في نفس النبرة الباردة المتحفظة:

- أيوه يا يارا.

اندهشت عايدة عندما وجدت الهدوء يضيع من على ملامحه وهو يستمع إلى يارا. عقد حاجبيه في استنكار وقلق وهو يقول:

- اهدي بس. اهدي عشان أفهمك.

استمع إليها لدقيقة قبل أن يهتف في ذعر:

- إيه؟! مش معقول! طيب خلاص أنا جاي لك. إنتي فين؟ فيلا منصور بيه. طيب مسافة السكة وهابقى عندك.

قفز من على الفراش وأسرع يستبدل ملابسه في لهوجة بينما هتفت عايدة متسائلة في قلق:

- فيه إيه يا يحيى؟ يارا مالها؟

قال دون أن يكف عن ربط أزرار قميصه في سرعة:

- حاجة غريبة قوي حصلت يا ماما. الخزنة اللي في الدولاب الأزرق اللي حكيت لك عنها. اتسرقت!

انتفضت عايدة واقفة وهي تهتف في ذعر:

- إيه؟! مش ممكن! مش دي الخزنة اللي قلتوا إن لما تفتحوها هتفهموا كل حاجة؟ اتسرقت إزاي طيب وإنت قلت لي إن مافيش حد يعرف مكانها غير منصور بيه وشفيق؟

قال وهو يرتدي سترة البذلة مسرعا:

- ماعرفش يا ماما. أنا مش فاهم حاجة زيك. أديني رايح ليارا في فيلا منصور بيه عشان البوليس والتحقيق هناك.

خرج مسرعا وعايدة خلفه. تناول مفاتيحه من أمام باب الشقة وفتحه واتجه مسرعا نحو المصعد الذي كان بالصدفة موجودا في الطابق. فتح الباب ودخل وقبل أن يغلقه سمع صوت والدته وهي تهتف في قلق:

- ابقى طمني بالتليفون يا يحيى.

- حاضر يا ماما.

قالها ثم أغلق الباب وضغط الزر فانطلق المصعد هابطا في بطء تاركا له الفرصه ليتأمل نفسه في المرآة. اندهش حين رأى وجهه وهو يحاول محاولات فاشلة لكبت ابتسامته. فعلى الرغم من قلقه على يارا ودهشته مما حدث لكنه لم يستطع أن يمنع شعورا شريرا بالسعادة يملؤه. فخطة يارا لفتح الخزينة التي كان كريم سيشترك فيها لن تتم.

لمزيد من الكتب العصرية

(٣٩)

جلست منكمشة في أحد الصالونات القريبة من غرفة المكتب التي جلس بها وكيل النيابة وكاتبه يستقبلان الشاهد تلو الشاهد في جو مشحون بالاضطراب والحرج. حاولت جاهدة السيطرة على تلك الرعشة التي أصابتها منذ أن أبلغها شفيق بالخبر وطلب منها في عصبية لم تعتدها منه أن تحضر فورا إلى الفيلا لأخذ أقوالها.

أخذت الأفكار السوداء تنخر في رأسها مثل السوس وقد اعتراها شعور رهيب بالاضطهاد من الدنيا ومن فيها. لماذا كل هذا النحس يصاحبها في حياتها ولا يريد أن يتركها في حالها؟ عندما سمعت الخبر أصابها ذهول طغى على كل شيء بداخلها. أصابتها حالة من النكران لكل ما سمعته كأنه لم يحدث. اتصلت بيحيى على أمل أن يستطيع هو أن يعينها على التصديق. لم تفق من تلك الحالة إلا الآن عندما وجدت نفسها وسط الأحداث في فيلا منصور بك. أفاقت لتجد الضباط والعساكر منتشرين في كل ركن في المنزل. المحقق احتل غرفة المكتب ليستكمل التحقيق. شفيق يتحرك في كل مكان بسرعة كالمجنون وقد فقد ولأول مرة قدرته على السيطرة على أعصابه وردود فعله فبدا خير دليل على مثل "اتق شر الحليم إذا غضب". أفاقت لتدرك أن الخزينة الموجودة في "الدولاب الأزرق" والتي كانت تخطط لفتحها بعد يوم أو يومين، تلك الخزينة التي تحوي حل اللغز الذي أرهقها دون جدوى أو نتيجة. تلك الخزينة سرقت. أصبحت خاوية من كل دليل كان يمكن أن يعالج حيرتها وتخبطها في هذا العالم الجديد عليها. وهاهي ذي تجد نفسها فجأة وسط معمعة جريمة سرقة حدثت في مكان لم يمر أسبوع على وجودها فيه. تكاد تموت من الرعب كلما طرأت في مخيلتها فكرة أن تتجه أصابع الاتهام نحوها وتجد نفسها فجأة متورطة في سرقة خزنة منصور بك. آه يا منصور بك. ألا تكف عن إيذائي حتى وأنت راقد في غيبوبة خطرة بين الحياة والموت؟ ترقرقت دمعتان في عينيها عندما احتلها شعور قاتل بالضعف وقلة الحيلة أمام تدابير القدر الذي لا ينفك يخيب آمالها ويحطم كل خططها ويسلب منها راحتها واطمئنانها.

انتبهت على صوت هاتفها المحمول. ظهر اسم يحيى على الشاشة مبشرا بوصول من يستطيع حقا أن يساعدها ويعيد إليها بعضا من الأمل. أجابت في صوت أكثر هدوءا من المكالمة الماضية:

- أيوه يا يحيى. ماجيتش ليه لحد دلوقتي؟

- أنا واقف قدام باب الفيلا بس البوليس مش عاوز يدخلني.

- خلاص مش مهم، أنا بقيت كويسة. لو تقدر استناني نص ساعة باخدوا أقوالي وهاطلع لك على طول.

- أيوه طبعا أقدر، أنا مستنيكي في العربية.

ثم تردد قليلا قبل أن يسأل في قلق:

- إنتي بجد بقيتي كويسة؟

- آه والله ماتقلقش.

أسرعت تنهي المكالمة عندما وجدت شفيق يقترب منها في عصبية:

- مع السلامة دلوقتي عشان تقريبا جه دوري. سلام.

عندما أنهت المكالمة كان شفيق يقف أمامها وهو يقول محاولا كبت العصبية والغيظ اللذين احتلا كل تصرفاته منذ الصباح:

- اتفضلي يا يارا، حضرة وكيل النيابة عاوزك.

ازدردت ريقها في محاولة لتمالك أعصابها، نهضت في هدوء واتجهت نحو غرفة المكتب في خطوات حاولت مستميتة أن تملأها ثقة. طرقت الباب بأصابع ثابتة قبل أن تفتحه وتدخل وهي تحاول الحفاظ على مظاهر الهدوء والثقة على وجهها.

كان وكيل النيابة يجلس خلف مكتب منصور بك، وعلى الرغم من الهيبة التي كانت تحيط جسده الضخم في بذلة بنية أنيقة وقد أضفى شاربه المنمق احتراما من نوع خاص لا يمتاز به إلا رجال الشرطة و النيابة عندما يطلقون شواربهم، لكنه بدا ضئيلا جدا مقارنة بمكتب منصور بك الذي لم يحلم بالطبع مهما وصل إلى مناصب أن يجلس على مكتب مثله مصنوع من خشب الأبنوس اللامع، وقد زينته نقوش ذهبية رقيقة تتلاءم مع نقوش الستائر والسجادة والصالون الصغير الموضوع في جانب الغرفة، والذي امتلأت مائدته القصيرة - مثلها مثل المكتب نفسه - بتحف وكريستالات صغيرة تتناسب مع جو الغرفة العام وتتناسب مع بعضها البعض وكأنها أوجدت في الطبيعة كما هي موضوعة الآن بهذا النظام وتلك الرقة.

بجانبه، على طرف المكتب، كان كاتبا بسيطا قد سحب أحد مقاعد الصالون وجلس عليه، وقد وضع أمامه الأوراق وأمسك بيده القلم استعدادا لكتابة أي كلمة تخرج من أي فم في تلك الغرفة حتى ولو كان سعلة بسيطة.

رفع وكيل النيابة عينيه عما أمامه من أوراق حيث ألقى على يارا نظرة سريعة قبل أن يقول وهو يعيد نظره إلى الأوراق:

- اتفضلي.

إحساسها بأن فخامة غرفة مكتب والدها تطغى حتى على هيبة هذا الذي يبدو أن له مقاما كبيرا يشعر به هو شخصيا قبل أن يشعر به من حوله أعطاها ثقة عجيبة في نفسها، وشعورا بالفخر امتزج مع استنكارها بأن ثمة فخرا قد اعتراها بسبب منصور بك فقط لأنه والدها. تقدمت في ثبات وجلست على المقعد أمامه، لم تهتم بالالتفات نحوه حتى فرغ هو مما في يده ورفع بصره وقال في نبرة روتينية موليا كل اهتمامه إياها:

- الاسم والسن ومحل السكن والوظيفة، من فضلك.

- يارا منصور عبد السلام أبو بلاط، سبعة وعشرين سنة، ساكنة في ١٣٥ شارع عبد العزيز فهمي مصر الجديدة، حاليا رئيس مجلس إدارة مجموعة شركات أبو بلاط.

كانت مولية كل اهتمامها إلى الثقة التي نطقت بها الكلام حتى أنها لم تلتفت إلى نظرات الريبة التي حدجها بها وكيل النيابة قبل أن يتساءل في شك:

- إنتي تبقي رئيسة مجلس إدارة مجموعة أبو بلاط كلها؟

فأومأت برأسها وهي تجيبه بنفس الثقة:

- أيوه يا فندم، مؤقتا بموجب وصية منصور بيه لحد أما يخف ويقدر يرجع يدير أعماله بنفسه. لو حضرتك تحب تطلع على الوصية ومحضر الجمعية العمومية أنا ممكن أطلب من أستاذ شفيق إنه يجيبهم لك.

أسرع يقول وقد أحس أن الحديث بدأ يأخذ منعطفا بعيدا عن الجريمة:

- لا مافيش داعي، خلينا في قضيتنا أحسن، قولي لي يا يارا، إمتى كانت آخر مرة جيتي فيها الفيلا هنا؟

- من يومين، في الحفلة اللي عملتها المجموعة للوفد الأجني اللي جاي يعقد صفقة تلاجات لحفظ ونقل منتجات مصنع الألبان الخاص بالمجموعة، ودي كانت أول وآخر مرة آجي فيها الفيلا.

عقد الرجل حاجبيه مستنكرا وهو يتساءل:

- هو معقولة برضو يبقى منصور بيه والدك وماتزوريش فيلته ولا مرة لحد أما يبقى عندك سبعة وعشرين سنة؟

قالت وقد عاودها الملل الذي تشعر به كلما اضطرت لشرح علاقتها بوالدها لمن لا يعرفون عنها شيئا:

- آه معقولة، لو كان والدي مطلق والدتي من حوالي خمسة وعشرين سنة ومنقطع عنها وعني أنا كمان بشكل نهائي.

لم يبد عليه أنه شعر بالحرج لأنه جعلها تقول مثل هذا الكلام الموجع، صمت مفكرا للحظات قبل أن يزيح بعض الأوراق ويخرج من تحتها القرط الذي تركته يارا في غرفة خلع الملابس كذريعة لتعود مرة أخرى إلى الفيلا كما نصحها يحيى.

عندما رأت قرطها في يده شعرت برعشة تسري في جسدها وتذكرها باحتمال اعتبارها متهمة في تلك الجريمة مهما بدا ذلك غير منطقي على الأقل حتى الآن، لكنها سرعان ما استرجعت ثباتها وثقتها وهي تسمعه يسأل في خبث:

- تعرفي الحلق ده يا يارا؟

- أيوه، ده الحلق بتاعي، كنت نسيته هنا في الdressing room يوم الحفلة.

أعاد كلماتها في بطء مستفز كأنه يستوعبه:

- نسيتيه.. يوم.. الحفلة. أيوه بس ده إحنا لقيناه في حتة غريبة جدا، عارفة فين؟

تظاهرت بالبراءة وهي تتساءل وكأنها لا تعلم:

- لأ، فين؟

- لقيناه تحت حتة مش ملزوقة كويس في الموكيت اللي في أرضية أوضة اللبس.

قالت ببساطة جاهدت لتظهرها أمامه:

- عادي، ممكن يكون وقع مني وزيحته برجلي من غير ما آخد بالي فوقع في الحتة الغريبة دي.

تأملها في ريبة محاولا سبر أغوارها. أومأ برأسه متظاهرا بتصديقها قبل أن يسألها في تعجب:

- ناسياه بقى لك أسبوع. أسبوع وماخدتيش بالك إن الحلق ضايع منك؟

ارتبكت قليلا. لكنها تخلصت من توترها بسرعة بالضغط على أصابعها وهي تقول مرتجلة إجابة منطقية:

- ما هو أنا أصلي. ماباليسش حلقان إلا في المناسبات. عشان كده ماخدتش بالي إنه ضايع مني إلا من يومين. وقلت إني هابقى أكلم مدام كريمة عشان أستأذنها إني آجي آخده بس نسيت وانشغلت في شغل المجموعة.

قالتها وحمدت الله في سرها أن السرقة تمت قبل أن تتصل بكريمة وتطلب منها أن تأتي مع النجار لتأخذ مقاسات الخزينة الزرقاء كما كانت الخطة التي وضعتها. لو كانت السرقة تأخرت قليلا بعد أن تنفذ جزءا من خطتها لكان موقفها الآن حرجا جدا. وكيل النيابة يشك فيها لمجرد أنها تأخرت في السؤال عن قرطها. ماذا إذا كان سيفعل لو كانت نفذت جزءا من الخطة.

سمعا طرقا على الباب دخل على إثره عسكري أدى التحية لوكيل النيابة. قبل أن يعطي له ورقة مطوية أدى بعدها التحية مرة أخرى قبل أن ينصرف ويغلق الباب خلفه.

فتح وكيل النيابة الورقة وأخذ يقرأ فيها باهتمام. قبل أن يضعها أمامه ويضرب عليها في عصبية مكبوتة. وهو يضغط بيده الأخرى على عينيه في ضيق كأنه يحاول إخراج الإرهاق من رأسه. التفت نحو الكاتب وقال في ضجر:

- اكتب يا ابني. وقد بلغنا في ساعته. الّبت الساعة دلوقتي. أن خبير الخزن قد تمكن من فتح الخزنة المعنية ووجدها خالية من كل الأوراق والمقتنيات التي ادعى شفيق شوقي الشناوي بوجودها داخل الخزنة مما يؤكد حادثة السرقة التي تم الإبلاغ عنها. ومن الجدير بالذكر أن رقم الخزنة الذي اكتشفه الخبير هو ٣٠٥.

التفتت يارا نحوه في ذهول عند سماع الرقم. لقد كان يحيى محقا في تخمينه. تاريخ عيد ميلادها الذي هو نفس الرقم المكتوب في مفكرة ربما هو الرقم السري لفتح خزنة منصور بك الشخصية.

انتابها مشاعر مختلطة ومتناقضة لم تجد وقتا لتفسيرها وتحليلها. اضطرت أن تعود مرة أخرى إلى أسئلة المحقق الذي قال:

- ماعلش يا آنسة يار، ترجع لموضوعنا. أنا شايف إنك مش فاهمة قوي وأنا عاوز أفهمك عشان تفكري معايا وتساعديني في حل القضية دي.

لقد ظن وكيل النيابة أن ذهولها بسبب الكلام الذي أملاه على الكاتب منذ دقائق. تظاهرت بأنها متجاوبة معه فاستطرد قائلا:

- إمبارح قبل الفجر بساعة تقريبا واحد من الخدامين كان معدي بالصدفة في دهليز الدور التاني، سمع حركة غريبة في أوضة منصور بيه، دخل بالراحة فشاف في الضلمة خيال واحد بيقفل الخزنة وكان هيقفل الدولاب تاني لولا إنه حس بوجود حد في الأوضة. وقبل الخادم ما يعمل أي حاجة جري ونط من الشباك اللي كان مفتوح وهرب.

نظر وكيل النيابة إليها صامتا منتظرا منها أن تعلق على ما قاله، ولما لم تقل شيئا بادر هو متسائلا:

- تعرفي ده معناه إيه؟

نظرت إليه دون أن تعلم ماذا يجب عليها أن تقول، تساءلت في بلاهة:

- معناه إيه؟

حاول المحقق إخفاء دهشته من تلك البلاهة التي حلت عليها وهو يقول:

- كذا معنى، أولا الجاني قفل الخزنة وكان هيقفل الدولاب كمان عشان يأخر اكتشاف السرقة أطول وقت ممكن، ده لولا إن كان فيه حد معدي بالصدفة كان ممكن مانكتشفش السرقة لحد لما منصور بيه يقوم بالسلامة ويفتح الخزنة بنفسه. ثانيا، الحرامي ده محترف جدا لأنه قدر إنه يهرب من غير ما يتمسك أو حتى حد يشوف وشه، على الرغم من أن الفيلا كبيرة جدا والشباك اللي نط منه نسبيا عالي. كمان الخزنة اتفتحت من غير أي عنف كأن اللي فتحها هو مالكها أو يعرف أرقامها ومن غير ما يسيب عليها أي بصمات.

كانت يارا تنظر نحوه وهي غارقة في ذهولها كأنه يتحدث بلغة أجنبية عجز عقلها عن استيعابها وفهمها، كل تلك الحقائق أتت معا في جملة واحدة كصدمات متتالية فوق رأسها أفقدتها القدرة على التفكير في تفسير منطقي لكل ذلك. عاد وكيل النيابة إلى النبرة الجادة التي يلقي بها أسئلته وهو يقول:

- تفتكري بقى مين من اللي يعرفوا مكان الخزنة - اللي هما بالمناسبة مايزيدوش عن أربعة خمسة - يقدر يعمل خطة زي دي أو يأجر واحد محترف زي ده؟ وإيه هي مصلحته في كده؟ خصوصا وإن شفيق بيه قال إن الخزنة ماكانش فيها غير ورق شغل مش مهم قوي، يعني ولا كان فيه فلوس ولا حتى مجوهرات.

مضت دقائق من الصمت حاولت يارا خلالها أن تعيد تشغيل مخها الذي كان قد توقف عن العمل، بشيء من الصعوبة قالت ولا يزال الذهول يحتل وجهها وعينها:

- ماعرفش.

ضغط وكيل النيابة شفتيه محاولا الحفاظ على صبره الذي بدأ ينفد، ثم قال متصنعا البساطة:

- طيب خليني أعيد السؤال بشكل مختلف.

استمر التحقيق مع يارا لمدة ساعة على تلك الوتيرة دون أن يصل إلى شيء، ساعة استنفدت فيها كل قوتها وثباتها وأعصابها حتى إذا طلب منها التوقيع على أقوالها وقعت وخرجت في خطوات مسرعة وهي تكاد لا تصدق أنها تخلصت من هذا الكابوس. أبطأت خطواتها قليلا حتى توقفت قريبا من باب الفيلا الذي كان مواربا، ومن خلفه ارتفع حديث يدور بين شفيق وكريمة وقد بدا في حركة ظلهما أن الحديث به شيء من الحدة. كان شفيق يقول محاولا خفض صوته وكتم عصبيته:

- برضو ماكانش المفروض تتصرفوا من غير ما تقولوا لي يا كريمة، إزاي تبلغوا البوليس من غير ما تاخدوا رأيي؟

- وهي دي فيها رأي يا أستاذ شفيق؟ خزنة منصور أبو بلاط الخاصة اتسرقت ومن جوا فيلته. إزاي مانبلغش؟

- يا ستي هو أنا قلت إننا مش هنبلغ؟ أنا كنت هابلغ وهاتصرف بس بمعرفتي، مش آجي الفيلا الصبح ألاقي فيه فيلق احتلها والنيابة بدأت التحقيق وأنا آخر من يعلم.

- لو كان هو ده اللي مضايق حضرتك فاحنا آسفين يا أستاذ شفيق. بس أنا بصراحة شايفة إن الموضوع مايستاهلش من حضرتك كل العصبية دي، الولد اللي شاف الحرامي بلغ البوليس حتى قبل ما يرجع لي ومع ذلك أنا ماضايقتش.

سمعت شفيق يزفر في ضيق وهو يقول:

- مش فاهمين، ماحدش فيكم فاهم أي حاجة.

فتح شقيق الباب فجأة في عصبية، تفاجأ بوجود بارا أمامه فهدأ قليلا، بينما أخفت هي اضطرابها خلف تحية سريعة ألقتها وهي تجتاز الباب مارقة بجانبهما دون أن تنظر نحوهما، وكأنها خافت أن يتهماها بأنها كانت تتلصص عليهما. اجتازت الحديقة شبه راكضة كأن خروجها من الفيلا هو آخر خطوة تتخلص بها من هذا الكابوس المحير الذي أصبحت تعيش فيه، ما إن رأت أمامها سيارة يحيى حتى ألقت نفسها بجانبه في إعياء. نظر إليها في قلق من وجهها الشاحب ودموعها المكبوتة. في صوت خافت ضعيف قالت وهي تضغط على نفسها لتتجاوز إرهاقها وتتكلم:

- عاوزة أشرب قهوة، حالا.

(٤٠)

لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال الطريق، تاركا لها الفرصة لتريح أعصابها وتغمض عينها اللتين لم تفتحهما مرة أخرى حتى أحست أن السيارة قد توقفت تماما، عندئذ فتحت عينها وخرجت من السيارة متثاقلة كأنها فقدت حتى قدرتها على المشي.

جلسا على أول مائدة فارغة، طلب يحيى اثنين قهوة تركية ثقيلة دون أن يعطي فرصة للنادل ليعطي لهما القائمة. نظر نحوها منتظرا منها أن تتحدث لكنها ظلت صامتة كأن الفترة التي قضتها مغمضة العينين طوال الطريق لم تكن كافية لتخفف إرهاقها. ظلت ساهمة دون أن تنطق بكلمة واحدة وقد بدت الدموع المكبوتة واضحة في عينها منذرة بانهيارها القريب. أحضر النادل القهوة وقام بصبها في الفنجانين. أمسكت بفنجانها وأخذت ترتشف منه بسرعة وفي عصبية كأنها مدمن لم يتناول المخدر منذ فترة ووجده أمامه فجأة بكمية كبيرة. أفرغته كله في ثوان وأخذت تعبث بالفنجان نحو اليمين واليسار وهي شاخصة ببصرها نحو قاعه كأنها تحاول قراءة مستقبلها بين بقايا البن. بينما هي في الحقيقة كانت تحاول السيطرة على نفسها وبذل محاولة أخيرة لكبت انفعالها ودموعها. لكنها فشلت. لم تستطع التظاهر بالثبات أكثر من ذلك. وضعت الفنجان في عنف على الطبق حتى كادت أن تكسره ورفعت نحو يحيى وجها منهارا خطت الدموع فيه خطين لامعين وانطلقت الكلمات متدافعة من فمها يقطعها نشيج البكاء:

- لا لا لأ. أنا خلاص مش قادرة. أنا عاوزة أفهم. أنا مش فاهمة حاجة. أنا مش فاهمة الراجل ده عاوز مني إيه؟ الراجل اللي المفروض إنه أبويا ده عاوز مني إيه؟ طول عمره راميني. عمره ما فكر يشوفني ولا حتى يكلمني في التليفون أو يتطمن عليا. طول عمري عايشة يتيمة زي اللي أبوهم ميت ويمكن أكتر لأني عارفة إن أبويا عايش ومش سائل فيا. وخلاص اتعودت على كده. اتعودت على إني يتيمة ماليش أب. ليه فجأة يقتحم حياتي بالطريقة دي؟ ليه فجأة ألاقي نفسي مسؤولة عن استلام ودفن أخت عمري ما شفتها ولا عرفت عنها أي حاجة؟ ده أنا حتى ماعرفش لما كانت بتحب تصلي كانت بتروح الجامع ولا الكنيسة؟ ليه بعد كل السنين دي اللي كنت راسمة فيها في خيالي صورة عن الأب ده والأخت دي أكتشف حاجات تلخبطني وتخليني مش فاهمة أي حاجة. فجأة أكتشف إن أختي اللي كنت فاكرة إني مش في بالها أصلا ولا عمرها هتفكر فيا كانت فعلا بتفكر فيا

ويتكلم عني وعاوزة تشوفني، لا وكمان تبعت لي قبل ما تموت بساعات صندوق فيه حاجاتها الشخصية، حاجات ملخبطة كل ما أفتكر إني قربت أحل لغزها وأربطها ببعض ألاقي نفسي بارجع لنقطة البداية. ده حتى لون الصندوق الأسود لوحده لغز مش قادرة أفسره زي ما أنا مش قادرة افسر هي ليه بعتت لي الحاجات دي. عاوزة تقول لي إيه وليه اختارتني بالذات من دون الناس كلها؟

ثم صمتت قليلا لتمسح دموعها بكلتا كفيها قبل أن تستطرد في نفس العصبية:

- و منصور بيه ده كمان، بعد ما رماني كل السنين اللي فاتت دي وبعد ما أمي ماتت بحسرتها عليه وقهرتها بسبب أنه سابنا ونسينا كأننا ماكناش في حياته أصلا. بعد كل ده، أكتشف إنه كان عامل وصية موكلني فيها بإدارة كل أعماله وفلوسه، وإنه عامل رقم خزنته الخاصة على تاريخ عيد ميلادي، وإنه بيبني مدينة سكنية ضخمة مسميها باسم أمي، أمي اللي طلقها وسابها تربي له بنته لوحدها كأنها prostitute استمتع بيها شوية ورمى لها قرشين وسابها. إيه؟ هو الراجل ده كان فاكرنا ولا ناسينا؟ الراجل ده عاوز مني إيه؟

قالت آخر جملة وهي تضرب بكلتا كفيها على المائدة في عصبية. فالتفت يحيى حوله في توتر بعدما أحس أن الأنظار بدأت تتجه نحوهما وقال متوسلا:

- يارا اهدي أرجوكي، الناس بتبص علينا.

مسحت دموعها مرة أخرى وهي تنظر حولها في خجل بعدما أدركت أن صوتها قد ارتفع أكثر من اللازم، بينما استطرد هو محاولا أن يكون رقيقا حتى يستطيع أن يقوم بتبسيط الموقف في عينيها:

- يا ستي إذا كان على موضوع الصندوق فماتقلقيش، الخزنة ماكانتش آخر أمل لينا. لسه فيه حملة التدوير والتفتيش اللي هنعملها في المجموعة وإن شاء الله تيجي بفايدة.

زفرت في ضيق قبل أن تقول:

- يا يحيى الموضوع مش موضوع خزنة وصندوق، الموضوع ليه علاقة بحياتي كلها، أنا طول عمري لوحدي، حتى لما كانت ماما عايشة كنت أنا وهي لوحدنا، لا قرايب أب ياخدوا بحسنا ولا قرايب أم يهتموا بينا. ماما ماكانش عندها أخوات وكل قرايبها التانيين كانوا بيخافوا مننا، مش قادرين ينسوا إن أنا بنت الملياردير منصور أبو بلاط حتى لو كان الملياردير ده مالوش أي وجود في حياتنا من أصله. كنت أنا وماما عايشين ببعض ولبعض، المشاكل العادية كان ممكن تبقى كبيرة بالنسبة لنا

لمزيد من الكتب العصرية

بس كنا بنعديها، دلوقتي المشاكل كبرت. بقت أكبر مني وأنا لسه لوحدي.

أجهشت في بكاء لم تستطع كبته كأنها تنزف من كل جراحها دموعا تتساقط من عينها. اقترب يحيى ببطء وأمسك بيدها الموضوعة قريبا منه على المائدة وهو يقول في عتاب رقيق:

- إنتي مش لوحدك يا يارا ولو بعد كل ده حاسة إنك لوحدك يبقى ملوش لازمة كل اللي أنا باعمله.

خلصت يدها من يده برفق لتمسح دموعها وهي تقول متململة:

- يا يحيى أنا مقدرة كل اللي إنت بتعمله، والله أعلم من غيرك كنت هاقدر أستحمل ولا لأ. بس إنت برضو ساعات بتقلب كده وأرجع تاني أحس إني لوحدي.

عاد بجذعه إلى الخلف وهو يتساءل مندهشا:

- باقلب لوحدي أنا من غير داعي؟

فتحمست وهي تقول:

- أيوه، تقدر تنكر إن رد فعلك يوم عيد ميلادي كان over ؟

نظر إليها في غيظ قبل أن يمد يده في هدوء ويخرج العلبة القطيفة السوداء ويضعها مفتوحة على المائدة دون أن ينبس بكلمة.

نظرت إلى الخاتم في وجوم وقد اتسعت حدقتاها في دهشة شديدة، اختلطت بداخلها مشاعر كثيرة عجزت عن أن تفهمها أو حتى أن تظهرها على وجهها، ظلت تحملق في الخاتم دون أن تنطق بكلمة كأنها فقدت القدرة على النطق، كل ما كانت تدركه في تلك اللحظة هو أن قلبها كان يدق بعنف كاد أن يفتك به دون أن تجد له سببا محددا.

اقترب بوجهه منها وهو يقول بنبرة واثقة:

- عرفتي بقى ليه أنا رد فعلي كان كده؟ عشان سي كريم بتاعك بوظ لي المفاجأة دي.

ضغطت بشفتها العليا على السفلى لكبت ابتسامتها، ثم قالت بنبرة جادة تخفي خجلها وسعادتها:

- أولا كريم مش بتاعي، ثانيا أنا كمان ماكنتش أعرف إنه هييجي، أنا كمان اتفاجئت زيك والله.

رفع ذراعيه في الهواء وهو يقول في نبرة اختلط فيها الجد بالمزاح:

- ماليش فيه، أنا اللي ليا إن مفاجأتي باظت.

أفلتت منها ابتسامتها وهي تقول:

لمزيد من الكتب المصرية

- ولا باظت ولا حاجة.

ثم نظرت إلى الخاتم وقد عادت الدهشة تكسو وجهها مرة أخرى وهي تتساءل:

- بس إنت إزاي بجد خدت بالك إن الخاتم ده بالذات كان عاجبني؟

فعاد إلى الخلف واستند على المقعد وهو يقول في نبرة تمتلئ بالفخر:

- عشان تعرفي بس، أنا صحيح طيب بس مش سهل خالص.

ضحكا قبل أن يخفضا بصرهما وقد عاد الارتباك ليظهر على وجههما مرة أخرى، تغلب يحيى على ارتباكه والتقط الخاتم ومد يده الأخرى نحوها، ترددت قبل أن تمد يدها اليمنى وتضعها في يده، وضع الخاتم في أصبعها ونظر إليه في إعجاب وقال ممازحا:

- يا سلام، الله علي ذوقي.

فسحبت يدها وهي تقول متصنعة الغيظ:

- نعم؟ ذوقك ده إيه؟ الله على ذوقي أنا.

تأملها بعينين تفيضان بالسعادة ثم قال في رقة:

- كل سنة وإنتي طيبة.

جاهدت لترفع عينيها الخجلتين نحوه وهي تقول مبتسمة:

- و إنت طيب.

ثم ترددت قليلا قبل أن تقول في امتنان حقيقي:

- شكرا.

- العفو.

قالها في بساطة كأنه فعل شيئا واجبا لا يستحق عليه شكرا منها. خيم عليهما صمت تخللته ابتسامات دون أن يجدا ما يقولانه.

وفجأة دق جرس هاتفها المحمول الموضوع بينهما على المائدة وظهر اسم كريم على الشاشة، زفر يحيى كأنه يقول "مافيش فايدة" ثم نهض واتجه ليدفع الحساب بينما نهضت يارا خلفه وهي تقول في نبرات ضاحكة:

- يا يحيى، استنى بس، هو اللي اتكلم أهو أنا مالي؟

(٤١)

دخلت يارا مكتبها في خطوات مسرعة مضطربة بسبب استعجالها ووصولها المتأخر، وخلفها دخلت ليديا وهي تخطو مسرعة محاولة اللحاق بها وهي تهتف من بين أنفاسها اللاهثة:

- صباح الخير يا أنسة يارا.

- صباح النور يا ليديا. إيه فيه حاجة؟

- هو موضوع سرقة الخزنة ده صحيح؟

رفعت يارا عينيها من على الأوراق التي كانت تبحث فيها وهي واقفة خلف المكتب، ثم زفرت قبل أن تقول مخفية ضيقها:

- أيوه صحيح. الخزنة اللي في الدولاب الأزرق انسرقت.

عادت يارا إلى أوراقها بينما قالت ليديا في نبرة حائرة:

- معقول، طب إزاي؟

ثم تحولت نبرتها إلى التوسل وهي تقول وعيناها تمتلأن بالصدق:

- صدقيني يا آنسة يارا، بأمانة ربنا، لا أنا ولا رأفت طلعنا كلمة واحدة برا، ولا حتى لأقرب الناس لينا.

فنظرت يارا نحوها وهي تقول مبتسمة في لطف:

- يا ليديا أنا عمري ما شكيت فيكي إنتي ورأفت، أنا لو بافكر بالطريقة دي ماكنتش من الأول وثقت فيكم وقلت لكم على كل حاجة.

فأجابتها ليديا في شيء من الخجل بسبب تسرعها:

- أنا آسفة يا آنسة يارا، أنا ماكانش قصدي.

اتسعت ابتسامة يارا وهي تقول وقد رفعت رأسها مرة أخرى عن الأوراق:

- ماتتأسفيش يا ليديا، أنا مش عاوزاكي تتأسفي، أنا عاوزاكي بس تفهمي إن أنا بقيت دلوقتي معتمدة عليكو ١٠٠% بعد ما الفرصة التانية في إني أفهم واللي هي الخزنة طبعا ضاعت. عشان كده عاوزاكي إنتي ورأفت تركزوا وانتم بتدوروا في المجموعة، ماتسيبوش خرم إبرة ليه علاقة بالأسامي اللي في اللستة إلا وتجيبوا كل حاجة عنه بالتفصيل.

لمزيد من الكتب العصرية

قبل أن تجيب ليديا دق جرس هاتف يارا المحمول فأخرجته من حقيبتها وضغطت زر الإجابة، قبل أن تضعه على أذنها وتسنده بكتفها لتترك يديها طليقتين تعبثان وترتبان الأوراق وهي تتحدث:

- أيوه يا يحيى، إزيك؟ أنا كويسة الحمد لله، لا لا ماتجيش المكتب. أنا هاقضي النهارده كله في مصنع الألبان عشان هنعمل جولة وغدا واجتماع هناك للوفد الأجنبي. لأ خلاص هابقى أكلمك بالليل لما أرجع. سلام.

أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبتها وهي تقول:

- ماعلش يا ليديا قطعت كلامك، كنتي هتقولي إيه؟

تقدمت ليديا ووقفت ملاصقة لها ثم بسطت أمامها ورقتين متقابلتين وهي تقول شارحة:

- بصي حضرتك، دي أرقام الحسابات اللي إحنا بنتعامل من خلالها مع الشركات اللي بعض الأسامي اللي في اللستة ملاكها أو مساهمين فيها. أنا جبتها كلها وقارنتها بأرقام الحسابات اللي كانت في نسخة اللستة اللي إنتي سبتيها معايا بس مالقيتش ولا واحدة مطابقة للي في اللستة.

تأملت يارا الورقتين باهتمام قبل أن تقول:

- مجهود رائع يا ليديا، بس بصراحة أنا كنت متوقعة النتيجة دي.

- فعلا؟ إشمعنى؟

- مش عارفة ليه كان عندي إحساس إن أرقام الحسابات اللي على الـipad أرقام حسابات شخصية مالهاش دعوة بشغل الشركات والبيزنس العادي، بالذات وإنها في سويسرا وتحت قوانين عنيفة جدا على السرية في البنوك زي ما قال يحيى، المهم إني كنت حاسة إنها مش هتبقى زي الأرقام اللي عندنا وبنتعامل معاهم بيها على الأقل التعاملات الموثقة.

بدت الحيرة على وجه ليديا وهي تزم شفتيها مفكرة قبل أن تتساءل:

- طب وبعدين؟

فأجابتها يارا في بساطة:

- ولا قبلين، مافيش قدامنا دلوقتي غير المعلومات اللي رأفت قال إنه هيجيبها، دي أملنا الوحيد.

سمعا صوت خطوات تقترب من باب الغرفة، فأسرعت يارا تغلق الملف الذي يحتوي على قائمة الأسماء وأرقام الحسابات وتطويه، ثم أعطته لليديا التي أمسكته كأنه ملف عادي من ملفات

العمل، عندما دخل شفيق بوجه عابس يكشف عما يعتوره من ضيق وعصبية ونفاد صبر، شيء لم يعتده أحد من قبل، أن يبدو على وجه شفيق ما بداخله، وهو ما لاحظته يارا، منذ سرقة الخزينة وشفيق عاجز عن العودة إلى شخصيته الطبيعية التي كان لا يستطيع أحد أن يعرف ما بداخلها من مشاعر.

حاول أن يبدو هادئا وهو يقول:

- صباح الخير يا يارا، جاهزة ولا إيه؟ إحنا لازم نكون في المصنع بعد ساعة بالكتير والعربيات مستنيانا تحت.

- آه أنا جاهزة يا أستاذ شفيق، أنا بس كنت بادور على شوية ورق مهمين وجبتهم خلاص.

قالتها وهي تلوح له بملف يمتلئ بأوراق كانت قد أعدته أثناء حديثها مع ليديا. أومأ شفيق برأسه ثم التفت نحو ليديا قائلا:

- كويس، ليديا لو سمحتي انده رأفت وقولي له يسبقنا على تحت.

شحب وجه ليديا قليلا واضطربت وهي تقول في نبرة متقطعة:

- رأفت.. رأفت لسه ماجاش يا مستر شفيق.

قطب شفيق حاجبيه مستنكرا وهو ينظر في ساعة يده، قبل أن يرفع وجها مكفهرا يتطاير الشرر من عينيه وصاح غاضبا:

- نعم! بسلامته لسه ماجاش لحد دلوقتي؟! ليه؟ فاكر نفسه شغال في عزبة أبوه؟ يتأخر ويكروت في الشغل زي ما هو عاوز؟ يظهر إن قرصة الودن اللي قرصتها له مش كفاية.

تبادلت ليديا ويارا نظرات قلقة بينما صمت شفيق قليلا ليتمالك أعصابه قبل أن يقول وهو يلوح بأصبعه مهددا:

- ليديا، لما ييجي الزفت ده قولي له ياخد عربية من عربيات الشركة ويحصلنا على المصنع بأسرع ما يمكن وإلا هارفده، أقسم بالله العظيم هارفده.

بدا الذعر على وجه ليديا وهي تسمع تلك الكلمات بينما أسرعت يارا قائلة:

لمزيد من الكتب العصرية

- ماعلش يا أستاذ شفيق، بلاش رأفت ييجي المصنع النهارده. أصل أنا طلبت منه يجهز شوية ملفات وأوراق مهمين عشان يشرح لي فهم حاجات أنا مش فاهماها وهيحتاج يقعد في الشركة يحضرهم النهارده.

صمت شفيق قليلا وهو يضغط بأسنانه على شفته السفلى كأنه يضع فيها انفعالاته ثم قال مستسلما:

- ماشي، بلاش ييجي النهارده المصنع. أنا هابقى أعرف شغلي معاه بعدين. يلا يا يارا لو سمحتي.

التفت وخرج من الغرفة في خطوات عصبية دون أن ينتظر ردا. تناولت يارا حقيبتها مسرعة ودارت حول ليديا التي كانت لا تزال واقفة في مكانها كالتمثال وقد تملكها خوف شديد على رأفت بعدما رأت كل هذا الانفعال على وجه شفيق والتهديد الذي لفظه منذ قليل. أمسكت بذراع يارا لتستوقفها وهي تقول متوسلة والدموع تلمع في عينيها:

- آنسة يارا، أرجوكي تهدي مستر شفيق، لحسن يرفد رأفت بجد.

ابتسمت يارا التي كانت قد بدأت تلاحظ وتفهم مشاعر ليديا نحو رأفت والظلم الذي تتعرض له في المقابل.

قالت في نبرة مطمئنة وهي تربت على يدها التي تمسك بها ذراعها:

- ماتخافيش يا ليديا، ماحدش هيقدر يرفد رأفت وأنا موجودة، المهم قولي له يركز في شغله وفي موضوعنا.

سحبت يارا ذراعها بلطف وأسرعت لتلحق بشفيق مؤثرة تجنب إغضابه أكثر من ذلك خاصة في هذا اليوم الهام، بينما ظلت ليديا متسمرة مكانها في وسط الغرفة وقد زال عنها إحساس الخوف وحل محله إحساس بالسخط، السخط على نفسها التي تأبى في بعض اللحظات أن تتوقف عن هذا الحب المريض الذي يملؤها وتعجز عن التخلص منه. أليس هذا الحب هو سبب خوفها عليه وذعرها من مجرد التفكير في إمكانية خسارته لعمله وحرمانها من رؤيته كل يوم حتى إن كانت رؤيته تسبب لها ألما ويأسا يزدادان بمرور الأيام؟

(٤٢)

عندما دخل رأفت غرفة الاستقبال كانت ليديا واقفة خلف مكتبها تقوم بترتيب بعض الأوراق. كان وجهه متجهما يظهر ضيقا واضحا كأنه قد خرج لتوه من مشاجرة شوارع خاسرة. رمقته مسرعة ثم سألته دون أن تكف عن متابعة ترتيب الأوراق محاولة إظهار لا مبالاتها وتجهمها:

- اتأخرت كده ليه؟ كان المفروض تروح معاهم جولة مصنع الألبان. ده مستر شفيق مش طايقك.

زفر قبل أن يقول في عصبية:

- كان ورايا مشوار مهم اتأخرت فيه شوية. إيه الدنيا خربت؟ هيعلق لي المشنقة؟

نظرت ليديا نحوه في دهشة من كلامه. استنكرت لامبالاته واستهتاره بما قالته عن غضب شفيق الذي دائما ما يرتعب منه رأفت ويخشى إغضابه. حاولت إخفاء دهشتها والتظاهر بالطبيعية وهي تقول:

- لا مش هيعلق لك المشنقة. بس لولا الأستاذة يارا مانعاه كان زمانه بجد رفدك.

لوح بيده في استهتار وهو يقول:

- أحسن. خليني أخلص.

ازداد استنكار ليديا بعدما وصل استهتار رأفت إلى تلك الدرجة. إنه لا يستهتر فقط بغضب شفيق، ولكنه يستهتر بعمله كله. بوظيفته التي لا يملك سواها. بل إنه يجد في الرفد خلاصا له. ماذا وراءك يا رأفت؟ ما هذا الشيء الذي غيرك وجعلك تبدو شخصا آخر في عيون كل من يعرفونك؟ ما الذي يجعلك تستهتر بكل ما في حياتك وكأنه يعني شخصا آخر سواك؟ علام تستند في استهتارك هذا؟ أي أرض صلبة تضمنها وأنت تكاد تحطم أرضك التي تقف عليها الآن؟

أفاقت على صوته وهو يقول محاولا إخفاء عصبيته ونفاد صبره:

- شوفي لي أي عربية توصلني المصنع.

- مافيش داعي تروح. أستاذة يارا طلبت من مستر شفيق يسمح لك ماتروحش معاهم النهارده وتقعد في الشركة بحجة إنك هتجهز ملفات مهمة تشرحها لها لما تيجي.

زم رأفت شفتيه مفكرا وقد بدأ يهدأ قليلا ثم قال:

- وده طبعا عشان أخلص حاجات الموضوع التاني مش كده؟

- أيوه طبعا.

صمت قليلا قبل أن يقول وهو يهم بمغادرة الغرفة:

- طيب، أنا هاروح دلوقتي عشان ألحق أخلص قبل ما يرجعوا من المصنع. أول ما يوصلوا إديني خبر عشان آجي.

خرج رأفت بينما ظلت عينا ليديا عالقتين بالباب. لم تستطع أن تتخلص من تلك الأفكار التي أخذت تنشب بأظافرها في عقلها وقلبها. عقلها هذا الذي أحست أنها ستفقده من كثرة التفكير والحيرة، وقلبها الذي لم يعد يقوى حتى على أداء وظيفته الحيوية. لم يعد يقوى على الخفقان الطبيعي ليضخ الحياة في عروقها بعدما أصبح كالخرق المهلهلة من كثرة الألم الذي تعرض له.

أفاقت على صوت جرس هاتفها. اسم "أنجيل" والدة رأفت على الشاشة جعل قلبها ينقبض بشدة. ليس من عادتها أن تتحدث إليها بلا سبب هكذا وسط الأسبوع. تلك المكالمة غير طبيعية ولن تنتهي على خير. هكذا هتف لها قلبها وهي تضغط على الزر بأصبع مرتعش وتضع الهاتف على أذنها وهي تقول في محاولة للتظاهر بالمرح:

- آلو. إيه المفاجأة الحلوة دي يا طنط؟

أتاها صوت أنجيل ضعيفا ومرهقا وهي تقول محاولة أن يبدو صوتها طبيعيا هي الأخرى:

- إزيك يا ليديا يا بنتي؟ عاملة إيه؟

- الحمد لله. حضرتك كويسة؟

- الحمد لله يا بنتي. ربنا كبير.

صوت أنجيل لا يبعث على الاطمئنان وليديا لن تتحمل أي صدمات أخرى اليوم. تساءلت في توجس:

- خير يا طنط؟

أخذت أنجيل شهيقا في محاولة لتهدئة نفسها قبل أن تقول في نبرة متوسلة:

- ليديا أنا كنت عاوزة منك خدمة. ممكن تعدي عليا في البيت ضروري؟

ازداد القلق بداخلها لكنها تظاهرت بالطبيعية وهي تقول:

- آه طبعا يا طنط حاضر. بس ممكن بكرة عشان أنا ورايا شغل كتير النهارده؟

لمزيد من الكتب العصرية

- ماشي يا حبيبتي، بس عشان خاطري ماتتأخريش عن بكرة.

- حاضر يا طنط ماتقلقيش.

ازداد صوتها حماسا وهي تقول كأنها تذكرت شيئا فجأة:

- آه، ليديا اوعي رأفت يعرف حاجة عن الموضوع ده، تعالي في وقت هو مايبقاش موجود فيه وماتقوليلهوش أي حاجة. سامعاني؟

ازدردت ليديا ريقها بصعوبة وقد ازداد وجيب قلبها وأحست أنه سيتوقف بعدما سمعت هذا الطلب الغريب، هذا الطلب الذي يؤكد أن كل ما تشعر به صحيح وأن تلك المكالمة لن تنتهي على خير، هناك كارثة ستحل بها غدا عندما تذهب لزيارة والدة رأفت. لم تستطع أن تبذل مجهودا لتبدو طبيعية. قالت في صوت ضعيف محاولة إنهاء المكالمة بسرعة:

- حاضر يا طنط، ماتقلقيش.

قالت أنجيل في صوت خائف بعدما أحست انخفاضا في نبرة ليديا:

- مش هاوصيكي يا ليديا، اوعي.

أحست بضيق في تنفسها وهي تقول محاولة إنهاء تلك المكالمة اللعينة بأي طريقة:

- حاضر يا طنط حاضر، مع السلامة.

لا تعلم إذا كانت قد أغلقت الخط قبل أن تسمع صوت والدة رأفت وهي تنهي المكالمة أم لا. لقد تعمدت أن تسرع في إنهاء المكالمة لتستجمع شتات نفسها قبل أن تنهار تحت ضغط أنجيل عليها وضغط تلك المكالمة التي بذلت كلتاهما فيها مجهودا جبارا للتظاهر بالطبيعية على الرغم من أنهما لا تحتاجان إلى هذا التظاهر. فليديا هي الوحيدة التي تشعر بما تشعر به والدة رأفت وهي الوحيدة التي تعلم مثلها أن هناك شيئا غريبا يجعل رأفت شخصا آخر غير هذا الذي تحبه. مسكينة والدة رأفت، صوتها كان يدل على مدى الألم والقلق اللذين تشعر بهما. ولكن ليديا لم يكن لديها الوقت ولا المجهود الكافيان لتفكر في أي معاناة أخرى سوى معاناة نفسها. إنها تشعر باقتراب المصيبة، العاصفة التي ظلت رياحها تنذر بقدومها الوشيك منذ أيام طويلة، ستهب غدا وتقتلع في طريقها آخر أمل في نفسها وآخر شريان يغذي قلبها. مثلما يشعر المحكوم عليه بالإعدام باقتراب موته، نفس الشعور تشعر به ليديا. لقد صدر حكم الإعدام، والتنفيذ غدا.

لمزيد من الكتب العصرية

جولة مقتضبة ومبتورة، غير ما تخيلته يارا وما اقترن في ذهنها بما يجب أن تكون عليه جولة في واحد من أضخم مصانع المجموعة لإتمام صفقة ضخمة مع شركة أوروبية رأس مالها مليارات.

لم تستغرق الجولة كلها سوى نصف ساعة، كلما مر الوفد من أمام جزء في المصنع ألقوا عليه نظرة سريعة بلا مبالاة شديدة كأنهم غير مكترثين بمعرفة ما يدور في المصنع الذي سيضعون فيه ملايينهم، أو كأنهم قاموا بتلك الجولة مرات ومرات من قبل فأصبحوا يعرفونه عن ظهر قلب.

كانت يارا تعتمد على تلك الجولة لمعرفة المزيد عن المصنع وحركة الإنتاج فيه لكن أتى الواقع مخيبا لكل الآمال، بدا كأن الجميع يقومون بأداء تمثيلية فاشلة لإتمام شكليات ليس إلا، أعضاء الوفد وشفيق والموظفون والمهندس المكلف بالشرح والإجابة على الأسئلة حتى هاشم بدا كأنه يعلم أن ما يحدث لا يتعدى أن يكون مسرحية سخيفة فلم يكلف نفسه حتى عناء التمثيل مثل الباقين وبدا مستخفا وضجرا طوال فترة الجولة.

بعد ذلك التقى الجميع حول مأدبة الغداء التي كانت قد أعدت خصيصا للوفد الأوروبي، تناولت يارا طعامها في صمت، لم تتبادل سوى كلمات مقتضبة مع بعض الموظفين بينما انهمك شفيق وأعضاء الوفد في أحاديث جانبية مثل تلك التي ملأتها حفل استقبال الوفد في فيلا منصور بك.

انتهى الغداء ودارت فناجين الشاي والقهوة وبدأ الجالسون يتحركون في حرية ويتبادلون أماكنهم، نهض هاشم من مكانه واقترب في بطء حتى جلس بجانبها مباشرة، التفتت نحوه فوجدته ينظر نحوها مبتسما في ثقة، حاولت أن تخفي ارتباكها بابتسامة مفتعلة بينما بدأ هو الحديث متسائلا والابتسامة لا تزال على شفتيه:

fb.com/Sa7er.Elkotob/

- شكلك زهقانة.

تلجلجت قليلا قبل أن تقول وهي تفرك أصابعها:

- مش حكاية زهقانة، بس بصراحة الجولة كانت مخيبة لتوقعاتي، أنا تخيلت إني هافهم حاجات كتيرة قوي عن المصنع والصفقة، بس للأسف الجولة ماأضافيتليش أي حاجة.

فابتسم هاشم في سخرية وهو يقول في صوت منخفض:

- ما هي أصلا ماكانش ليها لازمة.

نظرت يارا نحوه مندهشة من تلك الصراحة المفرطة. إذا فشعورها حقيقي وتلك الجولة لم يكن لها أهمية، وهاشم يعلم ذلك لذا لم يكلف نفسه عناء التظاهر بالاهتمام. ولكن إذا كان حقا يعلم كل ذلك لماذا أتى ورافق الوفد؟ لماذا لم يفعل شيئا؟ حاولت أن تفتح فمها لتتساءل عن مقصده أو تقول أي شيء لكن هاشم تدارك كلامه بسرعة وتساءل وقد أعاد الابتسامة إلى وجهه:

- برضو مش ناوية تيجي تقعدي معايا في مكتبي شوية؟

رسمت يارا ابتسامة على شفتيها وهي تتذكر حديثها معه يوم الحفل وقالت مراوغة:

- ما احنا قاعدين أهو يا أستاذ هاشم.

اتسعت ابتسامته من مراوغتها قبل أن يقول:

- إنتي فاهمة قصدي كويس يا يارا، ماعتقدش إنك لحقتي تنسي كلامنا يوم الحفلة.

ساد الصمت لثوان حاولت يارا خلالهم أن تخفي ارتباكها بينما استطرد هاشم منهيا الحديث:

- علي العموم إنتي عارفة مكان مكتبي ومواعيدي في المجموعة. أنا مستنيكي.

نهض وتركها غارقة في حيرتها. هاشم يعرف شيئا. بل إنه يعرف الكثير ولا يكف عن محاولات إغرائها لتستعين به وهي لا تستغل هذه الفرصة لا تعلم لماذا؟ لقد أكد لها يحيى أن هاشم محل ثقة وأنه كان أقرب الناس لمنصور بك بعد شفيق، وحتى بدون أن يؤكد يحيى ذلك. إنها تشعر به. منذ أن قابلته عندما خطت داخل المجموعة لأول مرة كان استقباله مختلفا. استقبالا حانيا ذكرها بإحساس الأبوة الذي لم تجربه من قبل. إن هاشم كله هكذا بكل ما يفعله أصبح يمثل في مخيلتها نموذجا للأب الذي ليس له وجود في حياتها. لا تعلم لماذا تشعر نحوه بثقة وإعجاب وإحساس لم تشعر به من قبل، ولكنها أيضا لا تعلم لماذا هي مترددة في الاستعانة به؟ هل لأنه على الرغم من كل شيء كان قريبا من منصور بك ويشبهه؟ نعم إنها تشعر أنه يشبهه، ليس فقط في الشكل بل أيضا في الشخصية. إنها لم تقابل منصور بك من قبل وعلى الرغم من ذلك يوجد بداخلها هاتف يؤكد لها أن منصور وهاشم وجهان لعملة واحدة. أيمكن أن يكون ذلك سبب تجنبها له؟ لأنها ترفض أن تصدق أن منصور بك يشبه هذا الرجل الطيب الحاني أم لأنها تجد صعوبة في الوثوق بكل من كانوا أصدقاء أو قريبين من هذا الأب الغائب الذي تسبب في الكثير من مآسي حياتها مثلما تفعل مع شفيق؟ أو ربما تكون خائفة من أن يكون هاشم سببا في اطلاعها على

ما هي متخوفة من معرفته؟ من أن يقول لها أنها كان لها وجود في حياة منصور بك وربما؟ مئات الأسئلة تزدحم وتضطرب بداخلها ولا تعلم لها إجابة، كل ما تعلمه هو أنه على الرغم من خوفها لكن هاشم أصبح قريبا جدا من دخول تلك الدوامة التي تدور فيها هي ويحيى والتي لم يمر الكثير على انضمام ليديا ورأفت لها.

عندما استقلت السيارة عائدة إلى مقر المجموعة أخرجت هاتفها واتصلت بيحيى الذي أجابها مندهشا:

- هو إحنا مش اتفقنا ماتكلمينيش إلا لما جولة المصنع تخلص؟

فابتسمت وهي تقول في نبرة ساخرة:

- ما هي خلصت وأنا في العربية أهو وراجعة الشركة.

هتف مندهشا:

- معقولة؟! بالسرعة دي؟!

- تصور.

صمت مفكرا لثوان قبل أن يقول:

- طب ما تعدي عليا في مكتبي؟

- لا ماينفعش ورايا شغل مهم، ماتحصلني إنت على هناك؟ عاوزة أحكي لك على حاجات كتيرة وكمان احتمال يكون رأفت عرف يعمل حاجة في موضوعنا.

تساءل مستنكرا:

- هنقعد نتكلم في موضوع ربما وشفيق موجود؟

فقالت في محاولة لإخفاء مقصدها حتى لا يفهم السائق:

- لا ماتقلقش، مش هييجي على طول.

أجابها مستسلما:

- طيب ماشي، هاخلص شوية حاجات كده وأحصلك.

- ماشي بس ماتتأخرش، باي باي.

- مع السلامة.

(٤٣)

تعاملت ليديا وحاولت أن تبدو طبيعية وهي تتلقى الأوامر من يارا التي ما إن دخلت غرفة المكتب حتى قامت بفتح اللاب توب وانشغلت بتصفح البريد الإلكتروني، بينما أخذت تتناقش في بعض شؤون العمل مع ليديا التي أخذت ترد بإجابات مقتضبة وهي شاردة في مقابلة الغد، حتى انتبهت على صوت يارا وهي تتساءل في قلق:

- ليديا، مالك؟ شكلك مش كويسة.

أحست أنها تبذل مجهودا جبارا لترسم ابتسامة صفراء على شفتيها وهي تجيب:

- مافيش يا أستاذة، أنا كويسة.

قلبت يارا شفتيها في ضيق وهي تقول في نبرة حانية:

- يا ليديا أنا قلت لك قبل كده، لو حاسة إنك متضايقة أو عاوزة تتكلمي مع حد في أي وقت ماترددديش إنك تيجي تتكلمي معايا. أنا باعتبرك زي أختي، وهاكون مبسوطة إني أسمع لك.

أجابتها مبتسمة وهي تحاول إخفاء إرهاقها وإنهاء الحوار:

- أكيد طبعا يا أستاذة، أكيد، بعد إذنك.

استدارت وخرجت في خطوات بطيئة وهي تستميت لتحافظ على توازنها، لا يهمها أن تبدو طبيعية، فليبدُ يأسها وإحباطها واضحين على وجهها، إن ما لديها من مجهود ذهني بالكاد يكفيها لتبقى متوازنة.

زفرت يارا في ضيق وهي ترى أمامها ليديا الرقيقة الوديعة في تلك الحالة المزرية دون حتى أن تستطيع مساعدتها، ولكنها سرعان ما انشغلت واستغرقت في العمل المتراكم أمامها على الشاشة قبل أن تنتبه على صوت طرق على الباب دخل يحيى على أعقابه وتقدم نحو مكتبها مبتسما كعادته، رمق الخاتم في أصبعها ثم جلس وهو يقول والابتسامة لا تزال على شفتيه:

- بس سيبك إنتي، الخاتم برضو عامل شغل.

ابتسمت وقالت دون أن تحول عينيها من على شاشة اللاب توب:

- كنت خايفة يضيع مني في المصنع، بس قلت خلاص هالبسه وأبقى أحافظ عليه.

عقد حاجبيه وهو يتساءل مستنكرا:

- نعم، يضيع منك، ده أنا كنت أفرجك.

نظرت نحوه وهي تقول لتستفزه بابتسامتها:

- نعم، تفرجني؟ ليه بقى إن شاء الله؟

فقال مجيبا استفزازها:

- إنتي عارفة الخاتم ده بكام؟

- عارفة، أنا لو هاحافظ عليه مش هاحافظ عليه عشان تمنه، وإذا كان على الفلوس فأنا ممكن أجيب منه خمسة ستة دلوقتي حالا.

فاقترب قليلا وهو يقول مبتسما في خبث:

- أمال هتحافظي عليه ليه؟

فابتسمت مدارية خجلها وقالت وهي تضغط على زر جهاز النداء:

- هابقى أقولك بعدين. يا ليديا.

- أيوه يا أستاذة.

- تعالي ثانية لو سمحتي.

بعد ثانيتين دخلت ليديا بنفس الحالة دون أدنى تحسن، التفتت يارا نحوها وهي تتساءل في قلق:

- هو رأفت ماجاش يا ليديا ولا إيه؟

زفرت ليديا محاولة السيطرة على نبرتها وهي تقول:

- لا جه وحكيت له على اللي حصل، وراح يخلص الموضوع بتاعنا وقال لي أدي له خبر لما تيجوا.

- طيب خليه ييجي بسرعة عشان نلحق نقعد مع بعض شوية قبل شفيق ما يخلص جولته في مصنع البلاستيك.

- حاضر.

خرجت ليديا لتنفذ ما طلب منها بينما انهمكت يارا في سرد كل ما حدث في جولة مصنع الألبان وانطباعها عنها وعن ما قاله لها هاشم ويحيى يستمع في اهتمام، وقبل أن يقول لها أي شيء دخل رأفت وخلفه ليديا.

هتف رأفت وهو يلتقط أنفاسه:

لمزيد من الكتب العصرية

- مساء الخير.

- مساء النور.

قالاها معا قبل أن ينفرد يحيى بالحديث متسائلا:

- إيه يا رأفت، وصلت لحاجة؟

اتسعت عينا رأفت وهو يهتف في حماس:

- حاجات يا أستاذ يحيى، ده أنا لقيت كمية ملفات وصفقات وشغل، كتير قوي، وكلهم ليهم علاقة بالأسامي اللي الأستاذة يارا وريتها لنا.

اعتدلت يارا في جلستها وقالت وقد انتقل حماسه إليها:

- هايل، كويس يا رأفت، إنت وليديا بتثبتوا لي إني كنت صح لما قررت أقول لكم على كل حاجة وأطلب مساعدتكم.

تساءل يحيى في استعجال:

- المهم، فين الحاجات دي؟

- شيلتهم في مكتبي، خفت يكون فيه حد هنا ويشوف أو يعرف أي حاجة.

فهتفت يارا وقد بلغ حماسها مداه:

- ماتخافش يا رأفت مافيش حد هييجي قريب، روح جيبهم عاوزين نقراهم.

فقال رأفت في نبرة آسفة:

- ماعتقدش إنه ينفع، دول حاجة وأربعين ملف، مستحيل نقراهم النهارده كلهم.

فاستكمل يحيى قائلا:

- و مستحيل كمان نسيبهم هنا لا في مكتب منصور بيه ولا في المجموعة كلها، إحنا لازم نشوف مكان نشيلهم فيه يكون أولا بعيد عن هنا عشان السرية ويكون أمان نتطمن على الحاجة فيه ونعرف نتجمع فيه ونفحصهم.

ساد صمت بدت آثار التفكير على وجوههم خلاله قبل أن تتساءل يارا:

- ماينفعش نشيلهم عندي في البيت؟

فقال يحيى مسرعا:

- لاماينفعش طبعا، إنتي عايشة لوحدك يعني صعب نجيلك كل شوية وتقعد عندك بالساعات.

ثم شرد قليلا قبل أن يقول في نبرة يائسة كأنه يتحدث مع نفسه:

- ولا حتى عندي، لو اضطرينا نتأخر يوم وإحنا بنراجع في الحاجة ليديا ماينفعش تتأخر عندي، هتروح إزاي من غير عربية؟ ولا حتى ينفع تروح مع رأفت متأخر كده.

بدا الموقف معقدا لا حل له خاصة بعدما صمت الجميع وقد بدت آثار الضيق واضحة على وجوههم، فجأة قطعت ليديا الصمت قائلة في حماس لم يستطع أن يمحو ما بها من حزن وإن لمعت عيناها قليلا:

- عندي يا أستاذة.

نظر الجميع نحوها في اندهاش بينما تساءلت يارا مستنكرة:

- عندك فين يا ليديا؟

- في بيتي، مكان أمان ممكن نشيل فيه الحاجة وإحنا متطمنين وممكن نتجمع فيه براحتنا، وحتى لو اتأخرنا مافيش مشكلة هتحصل لي لأني هابقى في بيتي.

صمتت قليلا ثم استطردت بعدما وجدت آثار التردد على وجوههم:

- ماتقلقوش، مافيش حد عندي في البيت هيعرف حاجة عن موضوع ربما، أنا هاقول إنه شغل مهم وهاعرف أغلوش.

نظرت يارا نحو يحيى كأنها تستنجد به ليحسم الموقف، بعد ثوان من الصمت حسم يحيى الموقف قائلا:

- خلاص، هنشيل الحاجة عندك يا ليديا ومن هنا ورايح اجتماعاتنا هتكون عندك، حتى عشان نبقى براحتنا مش قاعدين طول الوقت خايفين أي حد يدخل علينا.

ابتسمت ليديا بعدما نجحت في إقناعهم بينما التفت يحيى نحو رأفت قائلا:

- بعد الشغل تاخد الحاجة وتوديها على بيت ليديا وإحنا هنسبقك على هناك، إحنا لازم نبدأ شغل النهارده.

ثم التفت نحو ليديا وهو يتساءل:

- إنتي ساكنة فين يا ليديا؟

- شبرا.

- كويس، بعد الشغل روحي بيتك عادي زي ما بتروحي كل يوم، وأنا ويارا ورأفت هنحصلك على هناك.

- و أنا هابقى أوصف لحضرتك بالضبط وأكتب لك كمان العنوان في ورقة بالتفصيل.

- و لرأفت كمان.

ابتسمت ليديا في ألم وهي تقول دون أن تنظر نحو رأفت:

- لا ماتقلقش يا أستاذ يحيى، هو عارف بيتنا كويس قوي.

انتصفت الثامنة عندما كان قد مضى ساعتان على جلوس يحيى ويارا في صالون منزل ليديا، فرحت والدة ليديا بهما وأمضت الساعتين في تقديم المشروبات والحلوى، وقد اندمجوا كلهم في أحاديث مرحة ولطيفة حاولت ليديا قدر الإمكان أن تضغط على نفسها وتشترك فيها مراعاة لآداب الضيافة من ناحية ومن ناحية أخرى لأنها كانت بالفعل سعيدة لوجودهما في منزلها، ولولا ما يعاني منه قلبها لاستمتعت بتلك السعادة كما ينبغي.

بدأ كلاهما يشعر بالإحراج خاصة بعد أن تأخر رأفت ومعه الملفات التي يجلسون هنا من أجلها. كانت يارا تنظر في ساعة معصمها عندما هتفت والدة ليديا في نبرة معترضة:

- بتبصي على الساعة ليه؟ ما إحنا قاعدين براحتنا أهو.

ابتسمت يارا وهي تقول محاولة إخفاء حرجها:

- إزاي بقى يا طنط؟ ده إحنا تقلنا عليكم قوي.

- لا ماتقوليش كده، ده حضرتك وأستاذ يحيى منورينا.

ابتسم كلاهما وهما يشعران بصدق السعادة التي تشعر بها والدة ليديا والتي بدت واضحة في نبرة صوتها والتماع عينها.

نهضت ليديا لتفتح باب الشقة، ليدخل رأفت حاملا مجموعة ضخمة من الملفات المليئة بالأوراق، فنهض يحيى مسرعا وحمل بعضها وهو يتساءل في ضيق:

- كل ده تأخير يا رأفت؟

- ماعلش يا أستاذ يحيى. مستر شفيق ماسابنيش أمشي إلا لما أخلص كل الشغل اللي ورايا. أنا قلت أقصر الشر وأعمل له اللي هو عاوزه عشان مايركزش معايا الفترة اللي جاية.

تقدمتهم ليديا نحو مائدة الطعام وهي تحثهم قائلة:

- تعالوا حطوا الحاجة هنا على السفرة.

وضع كلاهما الملفات على المائدة بينما ألقت والدة ليديا تحية مقتضبة على رأفت وذهبت دون حتى أن تسمع رده. مضى كل منهم يفحص الملفات بشغف بينما هتفت يارا في دهشة:

- إيه كل ده يا رأفت؟ دول كتير قوي.

- ما أنا جبت كل حاجة لقيتها لها علاقة بالأسامي اللي في اللستة حتى ولو من بعيد.

- وإزاي عرفت تخرجهم من المجموعة بالسهولة دي؟

- يا أستاذة أنا ليا طرقي برضو جوا المجموعة وأعرف أخلص حاجات كتير قوي. ده كفاية إن كل الموظفين عارفين إني مساعد مستر شفيق وحضرتك عارفة وضعه في المجموعة.

قلبت يارا شفتها دون أن ترفع عينها من على الأوراق وهي تقول:

- عارفة. المهم بس مافيش أي حاجة عن موضوع الملفات ده يوصل له.

- لا ماتقلقيش. أنا عامل حسابي.

فهتف يحيى قائلا في ضيق:

- كفاية رغي بقى وركزوا. خلينا نلحق نخلص أي حاجة النهارده.

اندمجوا في قراءة وفحص الأوراق. خاصة يارا التي بدت كأنها انفصلت عن العالم واستغرقت في قراءة كل حرف بتمعن شديد محاولة الوصول إلى أي خيط يمكن أن يفسر لها أي لغز من الألغاز الكثيرة التي تملأ حياتها. تفاصيل مشروعات مشتركة مع شركات من جنسيات مختلفة يمتلك فيها بعض من تلك الأسماء أسهما. الصفقات تتراوح ما بين أواخر الثمانينات والتسعينيات عندما كان الفاكس هو وسيلة الاتصال الأساسية وحتى الآن حيث طبعت الرسائل الإلكترونية وتم حفظها مع الملفات. هذا بالإضافة إلى محاضر اجتماعات وتقارير زيارات للوفود المختلفة أو زيارة منصور بك وشفيق لتلك الشركات بالخارج وعقود وأوراق وتفاصيل مختلفة. كلها أوراق عمل تبدو طبيعية جدا لصفقات من المنطقي أن تقوم بها مجموعة ضخمة مثل أبو بلاط جروب. لا شيء يثير الريبة

اللهم إلا صفقة أو اثنين لم يتما حتى النهاية دون سبب واضح وإن كان هذا لا يبدو أن يكون خيطا كافيا يمكن أن يقودهم إلى شيء. عندما أشار عقرب الساعة إلى الحادية عشرة مساء قاموا بوضع كل الملفات في إحدى ضلفات الخزينة الخشبية الموجودة بجانب مائدة الطعام، وإغلاقها بمفتاح أعطته ليديا ليارا حتى تطمئن إلى أن أحدهم لن يطلع على شيء بدون علمها، ودعوا ليديا التي وجدت أخيرا الفرصة لتنفرد بقلقها وأحزانها محاولة تهيئة نفسها لمقابلة الغد.

عاد رأفت إلى منزله وجلس أمام شاشة الكمبيوتر يفرغ شحنات الضيق في خانة الشات الزرقاء على الfacebook، أما يحيى فقام بتوصيل يارا حتى باب منزلها محاولا بطريقة غير مباشرة مستخدما أحاديث عامة إلهاءها عن اليأس الذي عاد ليتسرب إلى نفسها بعد أن بدا أن تلك الملفات لن تقودهم إلى شيء.

(٤٤)

ربع ساعة. خمس عشرة دقيقة وهي واقفة كالتمثال أمام باب منزل رأفت. ضغطت على نفسها ودخلت الشارع ثم تحملت أكثر وصعدت الدرج ثم، ثم توقف الزمن، وتحجر كل ما فيها: عقلها وعيناها وجسدها كله. لم تستطع أن ترفع يدها وتدق الجرس ولم تمتلك حتى الشجاعة الكافية لتستدير وتهرب من هذا الموقف بكل ما فيه.

انتبهت على صوت خطوات أحدهم وهو يمرق من خلفها ويستكمل صعود الدرج، أدركت مدى حرج وقفتها تلك التي يمكن أن تظل ملازمة لها لساعات إن لم تفعل شيئا. أخذت شهيقا طويلا واستجمعت فتات شجاعتها لتضرب الجرس. انتفض جسدها عندما سمعت صوته يرن داخل الشقة ولكنها أسرعت تتمالك نفسها عندما سمعت صوت خطوات والدة رأفت وهي تقترب من الباب. رسمت ابتسامة على شفتيها عندما وجدت أنجيل أمامها وقالت في نبرة حاولت أن تبدو مرحة:

- مساء الخير يا طنط.

- أهلا يا ليديا، ادخلي يا حبيبتي ادخلي.

خطت ليديا داخل الشقة وهي تسترق النظر نحو والدة رأفت في ارتياب. كما توقعت، أنجيل تخفي كارثة بداخلها، ألم شديد بدا واضحا على وجهها الشاحب وعينها المظلمتين وصوتها الضعيف المرهق، حتى خطواتها، بطيئة وضعيفة كأنها خارجة للتو من حالة إغماء شديدة.

جلستا معا على الأريكة المواجهة للباب وكل واحدة تستميت لتحافظ على قناع الطبيعية الذي تضعه على وجهها، وإن كانت والدة رأفت أقل حرصا من ليديا على ذلك فبدا واضحا كم إرهاقها وهي تسألها عن أحوالها وأحوال أسرتها وعملها.

كانت ليديا تجيب في توجس وقلبها يدق بعنف، منتظرة اللحظة التي سينفجر فيها البركان المستعر بداخل أنجيل والذي بدا واضحا أنها لن تتحمل إخفاءه أكثر من ذلك. عندما انتهت كل الأسئلة المفتعلة والإجابات المكررة صمتت أنجيل للحظة كأنها تسترجع الكلام من ذاكرتها، قبل أن ترفع رأسها وتقول بنفس النبرة الواهنة:

- ليديا أنا جاياكي هنا عشان عاوزة أسألك سؤال مهم جدا. جاوبيني عليه بصراحة أرجوكي.

ازدردت ليديا ريقها لتخفي توترها قبل أن تقول:

- خير يا طنط؟

صمتت أنجيل للحظة أخرى بدت كأنها دهر بالنسبة لليديا ثم ضغطت على شفتيها قبل أن تتساءل:

- هو رأفت، مسافر قريب تبع الشغل؟

بدا السؤال غريبا على أذني ليديا. أهذا هو السؤال الذي أحضرتها من أجله؟ أين الكارثة التي توقعتها؟ لا لا يمكن. إن الألم الواضح على وجه والدة رأفت يدل على أن هذا السؤال ما هو إلا بداية العاصفة. عقدت ليديا حاجبيها وهي تجيب في نبرة مستنكرة:

- لا يا طنط خالص. أصلا كل السفريات متأجلة اليومين دول بسبب اللي حصل لمنصور بيه والظروف اللي إحنا فيها، وحتى من غير الظروف دي، رأفت ماكانش هيسافر في أي حتة قريب تبع الشغل.

تساءلت أنجيل وهي تنظر في عيني ليديا كأنها تتوسلها أن تمد لها خيط نجاة:

- متأكدة يا ليديا؟

- أيوه يا طنط متأكدة.

أبعدت أنجيل وجهها وهي تومئ كأنها كانت متأكدة أن تلك هي إجابة السؤال، وإن بدا للحظة أنها أوهمت نفسها وأعطتها أملا كاذبا أن ليديا يمكن أن تجيب إجابة أخرى تنقذها بها. التمعت الدموع في عينيها وهي تضغط بأسنانها على شفتها السفلى لتكبت ألمها بداخلها حتى بدا كأنها ستنزف من كثرة الضغط.

كانت ليديا تراقبها وهي تتقلب على جمر من نار. ما معنى هذا السؤال؟ ولماذا يبدو على وجه والدة رأفت كل هذا الألم بسبب إجابتها تلك؟ كانت قد قررت ألا تسأل عن شيء حتى تخبرها أنجيل بنفسها لكنها لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك. لم تستطع أن تراعي حالتها وتنتظر حتى يعود وجهها إلى طبيعته أو أن تبدأ هي الحديث. تساءلت في نبرة متقطعة:

- خير يا طنط؟ ليه بتسألي السؤال ده؟

التفتت أنجيل نحو ليديا وتأملتها بشدة. كأنها اكتشفت للتو أنها الوحيدة التي تشاركها إحساسها برافت وهي الوحيدة التي يمكن أن تتفهم ألمها وتقتسمه معها. تحاملت لتنهض وهي تقول في صوت ضعيف:

- استنيني ثانية واحدة.

دخلت غرفة رأفت لثوانٍ قبل أن تخرج وهي تخفي شيئا بين يديها لم تستطع ليديا أن تستوضحه. قبل أن تجلس أنجيل مرة أخرى بجانبها وتمد يدها به نحو ليديا التي تحجرت نظرتها الذاهلة عليه وقد أحست أن قلبها سيتوقف من تدافع دقاته.

كانت والدة رأفت تمسك بيدها جواز سفر. جواز سفر لم تشك ليديا للحظة أنه لرأفت وقد بدأت بعض الخيوط تتشابك أمام عينيها وعقلها. عقلها الذي لا يزال يرفض ملامح الكارثة التي بدأت تتضح أمامها.

مدت يدا مرتجفة وتناولت الجواز. فتحته ببطء فباغتتها صورة رأفت في أول صفحة. تأملت عينيه وقد اختلطت بداخلها عشرات المشاعر المتناقضة. لماذا يا رأفت؟ أحست أنها ستفتح فمها وتسأل الصورة عسى أن تجد لديها إجابة؟ سببا واحد يبرر كل هذا الألم الذي تشعر به منذ أول يوم أحبته.

- لقيته مخبيه وسط حاجته وأنا باروق أوضته. عمره ما سافر برا قبل كده ولا احتاج لجواز سفر. تقدري تقولي لي هو عمل الباسبور ده ليه ما دام زي ما قلتي مش هيسافر قريب تبع الشغل ولا حاجة؟

كان صوت أنجيل يتردد في خلفية ذهنها بعيدا جداً. ما رأته في ثاني صفحة - والذي لم تلتفت إليه والدة رأفت - جعلها غير قادرة حتى على استيعاب ما يحدث حولها وما يقال بجانبها. كأنها فقدت صلتها بالعالم كله. لم تعد ترى أمامها سوى الصورة اللامعة لتأشيرة الولايات المتحدة الأمريكية وبجانبها صورة رأفت مرة أخرى، كأنه يمعن في تعذيبها.

تأشيرة لمدة ثلاثة شهور. لماذا يا رأفت تريد الذهاب إلى أمريكا؟ ماذا ستفعل هناك؟ ولماذا لم تخبر أحدا؟ ألهذا السبب بدوت متغيرا طيلة الفترة الماضية؟ ألهذا السبب تهمل عملك وتستهتر بحياتك وتبدو وكأنك شخص آخر غيرك؟ عندما كنت تقول أنك ستتأخر لأنك ذاهب لتجديد رخصة

لمزيد من الكتب الحصرية

السيارة كنت تكذب. كنت تتأخر لتقف هناك في طابور طويل على كورنيش جاردن سيتي منتظرا تأشيرة يحلم بها الملايين. ولكن لماذا تحلم أنت أيضا بها. ماذا تريد بالرحيل؟ وهل حقا ستبقى هناك ثلاثة أشهر فقط؟ لا. قلبها لا يصدق ما تقوله تلك التأشيرة. رأفت ينوي الرحيل بلا عودة. رأفت لن يعود.

نظرت نحو أنجيل التي كانت لا تزال تتحدث. لم تهتم ليديا بكلامها قدر ما اهتمت بتلك النظرة في عينيها. تلك النظرة التي تؤكد أن قلب الأم بداخلها يشعر بنفس الشعور. رأفت لا ينوي العودة مرة أخرى.

كانت ليديا لا تزال تنظر داخل عيني أنجيل عندما أنهت كلامها. نظرت نحو ليديا محاولة فهم تلك النظرة الشاردة على وجهها منتظرة منها أي إجابة على كل ما قالته. انتبهت ليديا لتدرك أنها يجب أن تتحدث. أن تتغلب على ألمها وتتحدث وتبتسم وتحاول أن تختلق أي سبب تبرر به ما فعله رأفت وتقنعها به. وتظل تفعل ذلك حتى تصدقها أو تتظاهر بتصديقها لأنها تعلم أنها مهما فعلت لن تستطيع إقناعها بما ليست هي مقتنعة به. تحاملت لتبتسم وهي تقول متظاهرة بالتباسط:

- يا طنط ماتكبريش الموضوع. مش يمكن يكون رأفت عامل لك مفاجأة وعامل الباسبور ده عشان تسافري إنتي وهو تقعدوا عند راجي كام يوم في اليونان؟ ولا إنت ماوحشكيش ابنك الكبير؟

ابتسمت أنجيل في مرارة وهي تقول:

- يا سلام؟! وماعمليش ليه أنا كمان باسبور؟ ولا هو ناوي يسافر لوحده؟

ارتبكت ليديا قليلا قبل أن تقول محاولة اختلاق أي كذبة:

- ما هو أكيد كان ناوي يعمل لك باسبور إنتي كمان بس ظروف الشغل عطلته.

أدارت أنجيل وجهها والابتسامة المريرة لا تزال على شفتيها. إنها تعلم جيدا أن ليديا تقول أي شيء لتخفف عنها وتخفف عن نفسها. استندت بكوعها على فخذها وهي تمسك رأسها بكفها بعدما أحست بارتفاع ضغط الدم. هتفت ليديا في قلق:

- مالك يا طنط؟

رفعت أنجيل رأسها في وهن وقالت وهي تتحامل لتنهض:

- ثانية يا ليديا، هاخش آخد دوا الضغط.

- آجي أساعد حضرتك؟

- لا مافيش داعي. استنيني بس دقيقة واحدة.

اختفت أنجيل داخل الشقة بينما عادت ليديا تتأمل جواز السفر وقد عاد الألم الذي حاولت إخفاءه أمام أنجيل يزحف على وجهها مرة أخرى. انتفضت عندما سمعت صوت خطوات على الدرج تبعها صوت مفاتيح. إنه رأفت. لا تريد أن تراه ولا تريده أن يراها. لا تتحمل أي مواجهة معه كما أنه لا يجب أن يعلم أنها تحدثت مع والدته في شأن جواز سفره. دون أن تفكر ألقت بجواز السفر على الأريكة وأسرعت تختبئ داخل غرفة الصالون المظلمة بينما تركت الباب مواربا حتى تستطيع أن ترى ما سيحدث في الخارج.

دخل رأفت وأغلق الباب خلفه. تقدم داخل الصالة في خطوات بطيئة ثم توقف فجأة عندما لمح جواز السفر ملقى على الأريكة. ثبت مكانه وقد امتزجت آثار الدهشة والخوف على وجهه. لقد خبأه جيدا بين حاجياته حتى لا تجده والدته. ما الذي أتى به إلى هنا؟ مد يدا مرتجفة والتقطه والذهول لا يزال يحتل وجهه. لا يوجد سوى تفسير واحد لا يريد أن يتخيله. التفت عندما أحس بحركة خلفه ليجد نفسه واقفا وهو يحمل الجواز بين يديه أمام والدته. كأنه متهم ضبط متلبسا بدليل إدانته. لم تنطق بحرف. اكتفت بالابتسامة المريرة على شفتيها والنظرة الثاقبة في عينيه. عينيه اللتين زاغتا من هول الصدمة. لم يتخيل أن تعرف والدته شيئا الآن ولم يستعد للدفاع عن نفسه أو قول أي شيء. أحس كأنه قد تلقى ضربة مبرحة على رأسه أفقدته قدرته على التفكير أو حتى الاستيعاب.

أخيرا فتح فمه. بدأ يتمالك نفسه ويزدرد ريقه ليبلل حلقه الجاف. ظل للحظات فاتحا فمه دون أن يدري ماذا يجب عليه أن يقول. ولكن أمام نظرة والدته لم يسعه سوى أن ينهار ويقول الحقيقة. قال وعيناه تمتلآن بالتوسل:

- صدقيني يا ماما. بالأمانة. أنا كنت ناوي أقول لك على كل حاجة. بس في الوقت المناسب.

عقدت أنجيل يديها أمامها وهي تقول في استخفاف:

- كنت ناوي تقول لي على إيه بالضبط؟

تردد قليلا قبل أن يقول:

- على إلي.. مسافر.
- ما أنا عرفت. مسافر فين بقى إن شاء الله؟
صمت قليلا قبل أن يقول وهو يغض بصره:
- أمريكا.
عقدت أنجيل حاجبيها وهي تهتف مستنكرة:
- أمريكا؟! مسافر تعمل إيه في أمريكا؟!
بدا الارتباك واضحا على وجهه قبل أن يستسلم قائلا:
- مهاجر.

تلقت أنجيل الصدمة بثبات. بدا الألم على وجهها للحظة واحدة ثم أخفته مسرعة. وإن لم تستطع أن تمنع نفسها من الجلوس على طرف الأريكة بعد أن أحست أنها يمكن أن تسقط مغشيا عليها. استفزه صمتها. نظراتها وحدها كانت كافية لتشعره بأنه متهم ومذنب. انطلق يدافع عن نفسه وقد أوجعه اتهام أمه الصامت الذي يعلم جيدا أنها محقة فيه:

- بتبصي لي كده ليه؟ أيوه مهاجر. رايح أشوف لي حتة تانية أعيش فيها عيشة عدلة. أحس إني بني آدم حر ومحترم. عايش من غير ضغط نفسي وظلم بسبب دين أو رأي أو شغل وفلوس أو حتى بسبب زحمة شوارع ورشاوي وقرف. أروح في بلد أشتغل وآخد على قد شغلي وأعيش وأتبسط. ماحدش يضطهدني أو ياكل حقي. ما إنتي شايفة ابنك راجي. ماهو كمان من ساعة ما راح اليونان مارجعش. عارفة ليه؟ عشان لقي عيشة أحسن وحياة أنضف. ما تردي عليا. ولا إنتي عاجباكي عيشتنا دي؟

كان صدره يعلو ويهبط من فرط الانفعال بينما كانت أنجيل تتابعه بعينين ماتت بهما كل المشاعر. ساد الصمت لثوانٍ قبل أن تقول في ثقة وتحدٍ:

- اوعى تكون فاكر إنك بالكلمتين الفارغين دول هتخليني أصدق إنك عاوز تسافر عشان الحرية والظلم وكلام الكتب ده. إحنا عيشتنا كويسة وأحسن من ناس تانية كتير. إنت وأخوك اللي اتمردتوا من ساعة أبوكم ما مات ومابقاش فيه حد يملى عينكم. طب هنفرض إن إنت كلامك

صح، تقدر تقول لي الأمريكان هيدوك إقامة ليه؟ هيرضوا بيك ليه؟ هتفيدهم بإيه؟ لا إنت أحمد زويل ولا مجدي يعقوب عشان حتى يدوك تأشيرة يومين على بعض.

صمت قليلا قبل أن يقول شبه متحدٍ:

- أنا خلاص خدت فيزا بتلات شهور.

اتسعت حدقتاها في دهشة وهي تتلقى هذا الخبر الجديد، تساءلت مستنكرة:

- تلات شهور، طب وبعد التلات شهور ما يخلصوا كنت هتعمل إيه؟ كنت هتكسر الفيزا وتعيش تغسل صحون وتسلك بلاعات لحد لما يقبضوا عليك في يوم ويرحلوك زي المجرمين.

بدا أنه لا مفر من الاعتراف بكل شيء، هكذا كان يفكر في صمت قبل أن يقول غاضا بصره:

- لا ما أنا.. كنت عامل حسابي على كل حاجة.

نظرت نحوه في استنكار مطالبة بالمزيد، بينما أخذ رأفت نفسا طويلا ليخفف من تدافع دقات قلبه قبل أن يشرح في صوت متردد:

- أنا بقى لي ست شهور باكلم واحدة أمريكانية على النت، اتعرفت عليها على الfacebook وحبينا بعض واتفقنا على الجواز. كنت عامل حسابي أول ما أوصل أمريكا أتجوزها وآخد الجنسية وأشتغل مع أبوها. أبوها عنده سلسلة محلات لبس وإكسسوارات في لوس أنجلوس. هاعيش معاهم وأشتغل معاه وشوية شوية ممكن أشاركه في شغله ويبقى عندي المشروع بتاعي في أمريكا وأخلف عيال ياخدوا الجنسية وأعيش بقى عيشة عدلة. وكنت هابعت أجيبك تعيشي معايا. أول ما أظبط أموري كنت...

كان يتحدث في حماس عندما نهضت أنجيل فجأة وصفعته على وجهه. صمت والذهول يحتل ملامحه بينما استرسلت هي في صوت مبحوح وقد امتلأت عيناها بالدموع:

- اخرس، إنت أناني مابتفكرش غير في نفسك، حتى البنت اللي إنت بتكلمها على النت دي، إنت مابتحبهاش، إنت عاوز تستغلها وتستغل فلوس أبوها. فكرت وخططت ولا كأن ليك أم ليها حقوق عليك، ولا كأني مابقاش ليا غيرك في الدنيا.

اندفع يقول وهو يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة:

- ما أنا قلت لك إني كنت هابعت أجيبك تعيشي معايا.

- طب وافرض أنا ماوافقتش؟ كنت هتعمل إيه؟

صمت، أحنى رأسه دون أن ينطق بكلمة. لم يستطع أن ينطق بشيء، فالإجابة التي يملكها لا يقوى على النطق بها، ابتسمت في مرارة بينما تأكد لديها كل ما كانت تشعر به بقلب الأم بداخلها. قالت محاولة التمسك بثباتها وكبت دموعها:

- شفت بقى إنك أناني. إنت قلت بينك وبين نفسك أنا هاقول لأمي تيجي معايا. وافقيت خير وبركة. ماوافقتش مش مهم. إنت كده ولا كده مسافر، وأنا بقى مش هاموت لو فضلت لوحدي. ما أنا ليا أهل وجيران هياخدوا بحسي. المهم إن خطتك العبقرية تتنفذ ومستقبلك اللي إنت راسمه توصل له مهما كان التمن، يا أترمي هنا لوحدي يا أضطر أسافر معاك وأسيب بلدي وبيتي.

ارتفعت نبرة صوتها وهي تقول في إصرار وثبات عجيبين:

- طب وغلاوة أبوك يا رأفت، أبوك اللي لو كان عايش ماكانش زماني مقهورة القهرة دي بسببك إنت وأخوك. ما أنا سايبة البلد دي ولا خارجة من البيت ده إلا عشان أتدفن جنبه. سافر يا رأفت. روح عيش العيشة الحلوة جنب السنيورة الأمريكانية. مع ستين ألف سلامة.

التفتت ودخلت غرفتها وأغلقت الباب في عنف. انتفض بسبب صوت الباب. ظل واقفا لدقائق ثابتا في وسط الصالة كأن الدنيا قد توقفت من حوله وتوقف هو أيضا معها. لقد انكشف كل شيء قبل موعده. كارثة لم يحسب لها حسابا من قبل أو حتى يتوقع حدوثها. لقد اكتشف للتو أنه مجرم، أجرم في حق أمه وحق نفسه. وأكثر ما يوجعه هو أن كل اتهام اتهمته به والدته صحيح، صحيح جدا حتى ولو لم يعترف هو من قبل بذلك. إنه بالفعل أناني، لا يفكر إلا في نفسه. والدليل على ذلك أنه لا يزال يريد أن يستكمل مخططه حتى بعد ما حدث. لقد هيأ نفسه من قبل أنه لا محالة من وجود ضحايا. لكنه لن يتراجع، تلك هي فرصة عمره، لن يتركها تضيع، حتى ولو دهس قلبه وقلب أعز الناس لديه في الطريق.

بخطوات بطيئة منهكة ورأس منكسة دخل غرفته وأغلق الباب خلفه.

ساد الصمت في الصالة لحظات قبل أن يفتح باب الصالون وتظهر ليديا، شاحبة ومنهكة. كأنها تحولت إلى شبح أو زاد عمرها خمسين سنة في تلك الفترة القصيرة التي رأت وسمعت خلالها كل ما حدث. استندت على الحائط وهي تضع يدها على صدرها الذي أحست أن هناك سكينا مغروزة به.

هنا بين ضلوعها حتى اخترق قلبها مباشرة وتركها ذاهلة غير قادرة على استيعاب الدنيا حولها أو حتى قادرة على أخذ شهيق يساعدها على التمسك بالحياة.

بدأ صدرها يعلو ويهبط بشدة وقد أخذت تصدر صوت نشيج متقطع وجسدها كله ينتفض. كأن هناك ستارا أسود أسدل أمام عينيها يمنعها من التفكير أو حتى التصرف بإرادتها. كأنها منقادة. كأن الألم الذي بداخلها هو ما يتحكم فيها الآن وليس عقلها. ركضت. فتحت الباب وهبطت الدرج ركضا حتى كادت أن تسقط. عندما أصبحت في الشارع لم تعرف إلى أين تتجه. وجدت نفسها تركض مرة أخرى بلا هدف محدد ودون أن تدرك حتى شكل الشوارع والبيوت حولها. كأنها أول مرة تخطو في تلك المنطقة التي ولدت وعاشت فيها طيلة حياتها. ركضت وركضت وركضت منقادة بألمها وبأسها. ركضت وصوت نشيجها يلفت الأنظار نحوها. يتأملها الناس في استنكار بينما لا ترى هي أي شيء من خلف دموعها سوى يأس يستفحل ودنيا تنهار.

(٤٥)

عندما فتحت والدة ليديا الباب ورأت يارا أمامها هتفت في وجه شاحب وهي تتعلق بذراعها وتجذبها إلى الداخل:

- أستاذة يارا. الحقيني.

اختفت الابتسامة من على وجه يارا وأسرعت تدخل وتغلق الباب خلفها وهي تتساءل في قلق:

- خير يا طنط سميرة؟ فيه إيه؟

- ليديا. من ساعة ما رجعت دخلت أوضتها وقفلت على نفسها بالمفتاح. مش عاوزة تفتح لي ولا ترد عليا.

ربتت يارا على كتفها وهي تقول:

- طب اهدي يا طنط ماتخافيش. إنتي ماتعرفيش هي مالها طيب؟

- ماعرفش أي حاجة وهاموت من القلق.

ثم صمتت للحظة قبل أن تهتف في عصبية وهي تلوح بيدها في غيظ:

- الله يقطع الحب وسنينه. يعني هو اللي خلق رأفت ده ماخلقش غيره؟

بوغتت يارا بصراحة والدة ليديا في الإفصاح عن مشاعر ابنتها. ولكنها تمالكت نفسها مسرعة وقد أدركت أن حالتها السيئة هي ما جعلها تقول هذا الكلام بتلك الصراحة المفرطة. قالت محاولة تهدئتها:

- ماتخافيش يا طنط. هي أوضتها فين؟

أشارت سميرة نحو باب على اليمين وهي تقول:

- أهيه.

اقتربت يارا في بطء ثم طرقت على الباب طرقتين خفيفتين قبل أن تهتف في تردد:

- ليديا. افتحي. أنا يارا.

مرت لحظات قبل أن تسمع صوت المفتاح وهو يدور في القفل. مدت يارا يدها وفتحت الباب ثم التفتت نحو والدة ليديا وقالت ملاطفة لتمنعها من الدخول:

- ماعلش يا طنط. سيبيني أدخل لها لوحدي.

تراجعت سميرة مستسلمة والقلق لا يزال يملأ ملامحها. دخلت يارا وأغلقت الباب بهدوء. كانت ليديا جالسة على فراشها وقد أعطت ظهرها للباب. تقدمت يارا نحوها في بطء حتى أصبحت أمامها مباشرة. لم تستطع أن ترى وجهها الذي كانت قد أحنته وقد السدل شعرها وغطى كل ملامحها. جلست يارا على ركبتها حتى تستطيع أن ترى وجهها. عندما وضعت يدها على ذراعي ليديا رفعت وجهها الذي كان لا يزال شاحبا ومنهكا وقد رسمت فيه الدموع خطوطا سوداء.

هتفت يارا في فزع وهي تضغط على ذراعيها:

- مالك يا ليديا؟

لم تستطع أن تتحدث. فقط عادت إلى البكاء مرة أخرى بينما أسرعت يارا لتجلس بجانبها وتدعها تدفن رأسها في صدرها لتفرغ دموعها كلها في حضنها.

أخذت يارا تربت عليها وقد ملأ صوت بكاء ليديا ونشيجها أذنها واخترق عقلها. اخترق عقلها وعاد به خمسة أعوام إلى الخلف. لقد ذكرتها ليديا بنفسها. كانت مثلها ضعيفة ومهزوزة. نفس ما يحدث الآن حدث من خمسة أعوام. لا تعلم ماذا فعل رأفت بليديا ولكنها تعلم جيدا ماذا فعل كريم بها. تتذكر تلك الأيام. بكل تفاصيلها تمر الآن أمام عينيها مثل شريط السينما عندما بكت مثل ليديا وانهارت وانتابتها نوبات ضيق التنفس. وأحست أن الدنيا قد انتهت عندما تركها كريم. ولولا وجود أمها بجانبها لما استطاعت أن تعبر تلك المحنة. السؤال الذي يلح عليها الآن ولا تعلم له إجابة: هل لا يزال هذا الضعف يسكنها أم أن ما مرت به جعلها قوية وقادرة على اجتياز أي محنة جديدة؟ هل هي قوية الآن كما تتخيل أم أنها لم تواجه أي مشكلة أخرى لتختبر مدى قوتها وتحملها؟ ماذا إن تركها يحيى أو ظلمها. هل ستنهار مثلما انهارت منذ خمس سنوات ومثلما تنهار ليديا الآن بين يديها؟

انتبهت على صوت يحيى ورأفت في الخارج. بينما انتفضت ليديا واقفة وهتفت صارخة في عصبية:

- مش عاوزة أقابله. مش عاوزة أشوفه.

نهضت يارا. أمسكت بذراعيها في رفق وأجلستها مرة أخرى وهي تقول محاولة تهدئتها:

- حاضر. ماتخافيش. اقعدي بس واهدي كده وأنا هاطلع أقول لهم يمشوا.

عندما خرجت من الغرفة كان يحيى ورأفت واقفين في منتصف الصالة، بعدما فتحت لهما والدة ليديا ودخلت دون أن تنطق بكلمة، خاصة بعدما رأت رأفت أمامها. نظر يحيى نحو يارا نظرة مستفسرة بينما كان الضيق لا يزال يحتل وجه رأفت من أثر ما حدث بينه وبين والدته منذ قليل.

حاولت يارا أن تتظاهر بالطبيعية لتحافظ على كرامة ليديا خاصة أمام رأفت وهي تقول:

- ماعلش يا جماعة مش هنقدر نكمل قراية ملفات النهارده عشان ليديا تعبانة شوية، عندها برد وسخنة ولازم تاخد دوا وتنام.

سادت لحظة من الصمت قلب يحيى فيها شفتيه في ضيق بينما أحس رأفت أنها فرصة يفر بها من العمل اليوم، فهو لا يتحمل حتى أن يتحدث مع أحد، إن حالته سيئة لدرجة تجعله يريد أن يجلس وحده لأطول فترة ممكنة ولم يترك منزله ويأتي إلى هنا إلا لأنه فقط قد وعد يارا ويحيى، أما في غير ذلك فهو لا يريد حتى أن يترك غرفته.

تحرك نحو الباب وهو يقول:

- طيب، ما دام كده بقى أنا هامشي، عندي شوية ظروف ولازم أبقى في البيت. حضرتك جاية بكرة المكتب؟

- ماعرفش، المفروض إن أنا وأستاذ شفيق عندنا meetings بكرة في تلات بنوك عشان قروض مشروع الشريفة ومش عارفة إذا كنت هالاقي وقت أعدي على المجموعة ولا لأ. على العموم لو احتجت حاجة هابقى أكلمك.

أومأ رأفت برأسه دون أن ينطق بكلمة قبل أن يفتح الباب ويخطو خارج الشقة، ولكنه توقف فجأة قبل أن يغلق الباب خلفه، لا يعلم لماذا فعل ذلك لكنه وجد نفسه يلتفت نحو يارا ويتساءل في تردد:

- يعني.. هي ليديا كويسة؟

أخفت يارا دهشتها من هذا التصرف وتكلفت الابتسام وهي تقول:

- آه ماتقلقش، دول شوية انفلونزا مش أكتر.

أومأ مستسلما قبل أن يختفي ويغلق الباب الذي ظلت يارا محدقة نحوه دون أن تفهم شيئا، هل رأفت يعلم أن ليديا في حالة سيئة بسببه؟ وإن كان يعلم فلماذا لا يفعل شيئا؟ وما هو السبب في

كل ما يحدث الآن؟ هل واجهها وجرحها عن قصد؟ أم أنه فعل شيئا أحزنها دون أن يدري وهو بالفعل لا يدرك ما هي فيه؟ أفاقت على صوت يحيى وهو يتساءل:

- هتيجي أوصلك ولا جاية بعربيتك؟

أسرعت تقول:

- لا توصلني ده إيه؟ أنا عاوزاك تروح الصيدلية اللي جنب بيتي، إن شاء الله هتلاقي الصيدلي اللي اسمه أشرف هو عارفني كويس، قول له إنك من طرفي وقول له يدي لك منوم بريح ليديا لبكرة الصبح، أو يدي لك المهدئ اللي كنت أنا باخده، مش فاكرة اسمه أصلي آخر مرة خدته كان من أربع سنين، المهم هات أي حاجة تنيمها لبكرة وخلاص.

نظر يحيى نحوها في استنكار بعدما سمع هذا الكلام الغريب، يارا كانت تأخذ مهدئات، لماذا؟ تساءل مبديا استنكارا آخر:

- منوم ليه؟ إنتي مش بتقولي إن ليديا عندها برد؟

دفعته نحو باب الشقة وهي تقول في نفاد صبر:

- هابقى أقول لك بعدين، بس يلا بسرعة روح هاته وماتتأخرش.

ذهب يحيى بينما أخذت يارا تبذل محاولات عديدة لتهدئة والدة ليديا والتخفيف عنها وإقناعها بأن ابنتها على ما يرام، وبعد مضي نحو ساعة حضر يحيى حيث أعطاها الدواء وقال في اقتضاب محاولا إخفاء استنكاره مما عرفه من الصيدلي:

- الراجل بيقول لك المهدئ اللي كنتي بتاخديه ده قوي ومابيتصرفش إلا بروشتة، وإداني بداله المهدئ ده بيقول لك خفيف ومالهوش آثار جانبية. إديلها كبسولتين.

أخذت يارا العلبة ومعها كوب ماء، ودخلت مرة أخرى إلى غرفة ليديا حيث أقنعتها بتناول القرصين ثم ظلت بجانبها حتى اطمأنت إلى أنها هدأت واستسلمت للنوم.

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب في هدوء بينما أقبلت نحوها سميرة متلهفة فهدأتها يارا قائلة:

- ماتقلقيش يا طنط هي كويسة. خدت المنوم ونامت ومش هتصحى قبل بكرة الصبح. خليها تريح على الآخر. معاها أجازة مفتوحة، وأنا إن شاء الله هاعدي أتطمن عليها بكرة.

كانت الدموع تنزلق من عيني سميرة وهي تقول في امتنان:

- شكرا يا أستاذة يارا. أنا مش عارفة أقول لك إيه؟

ابتسمت يارا وهي تقول في تأثر:

- ماتقوليش حاجة. ليديا زي أختي. تصبحي على خير.

كان يحيى يتابع حديثهما دون أن يجد ما يقوله. أحس أن موقفه محرج للغاية لذا استراح عندما سمع تلك الجملة التي أذنت بالرحيل. ألقيا التحية على والدة ليديا وخرجا من الشقة في هدوء.

علي الدرج رن جرس هاتف يارا المحمول وما إن رأت اسم كريم على الشاشة حتى أحست أنها ستلقي بالجهاز في بئر السلم لتتخلص منه. إن ما حدث الآن مع ليديا نكأ بداخلها جراحا قديمة وأعاد إليها واحدة من أسوأ ذكريات حياتها والتي كان كريم بطلها الأساسي. لذا أحست أنها لن تتحمل أن تتحدث معه أو حتى ترى اسمه على شاشة هاتفها في تلك اللحظة. أخرست الجرس دون أن تجيب بينما رمق يحيى ما فعلته هي في صمت دون أن ينطق بكلمة.

كان الوقت متأخرا ولم يكن أي منهما مستعدا للحديث لذا لم يتحدثا كثيرا قبل أن تستقل يارا سيارتها وتذهب. بعدما اطمأن على رحيلها استقل يحيى سيارته وانطلق بها في شوارع القاهرة وقد عادت الحيرة تأكله وتأكل عقله وأفكاره بعدما ذكره ما حدث بأن كريم هذا لا يزال له وجود.

(٤٦)

- الوفد الأوروبي سافر.. فجأة.

كانا يجلسان في صالون مكتب يحيى. عندما اتصلت به وأخبرته أنها ستمر عليه في مكتبه بعد قليل. فكر أنه ربما تكون تلك فرصة مناسبة ليحاول التحدث معها بصدق. ليس من السهل عليه أن يفصح لها عما يشعر به نحوها على الرغم من أنه يعلم جيدا أنها تشعر به بل وتبادله بعضا من هذا الشعور. لكنه أيضا غير قادر على تحمل كل تلك الحيرة التي اقتحمت حياته وأصبحت تلازمه دائما. لم يجرب من قبل كل هذا التناقض في المشاعر ببساطة لأنه لم يحب من قبل. لذا لا يعلم ماذا يجب عليه أن يفعل. عندما يشعر أو شبه يوقن أن يارا تبادله نفس الاحساس ولكنها أيضا لا تزال تعرف كريم هذا وتراه وتتحدث إليه. نعم يعلم أنه كان خطيبها منذ عدة سنوات وهو شيء يزيده حيرة وقلقا. ماذا يمثل لها كريم الآن؟ وهل يمكن أن تكون بداخلها تعقد المقارنات بينهما وتوازن بين أحاسيسها نحوه وأحاسيسها نحو كريم؟ هل تفكر مثلا في العودة إليه؟ أفكار سوداء تدور برأسه وتزيده حيرة. لم يعرف طيلة حياته شيئا سوى الاستقرار. يريد أن يستقر على شيء. يجب أن يتشجع ويدفع نفسه بقوة وإصرار ليتحدث معها ويستقر على شيء.

عندما دخلت تراجع قليلا عما اعتزمه. الهم الذي رآه على وجهها جعله يدرك أن هناك شيئا جديدا قد حدث وجاءت لتفرغه في الحديث معه. أشفق عليها وإن لم يستطع أن يمنع إحساسا بالسخط ينتابه لأنه لن يستطيع أن يستغل تلك الشجاعة التي واتته فجأة ولا يعلم متى يمكن أن تواتيه مرة أخرى. ولكنه لم يقل شيئا. ظل صامتا بينما استكملت هي كلامها دون أن تنظر نحوه. عيناها شاردتان في زجاج النافذة الموجودة خلف مكتبه في الجهة المقابلة وصوتها يكسوه الضيق والإرهاق:

- الوفد رجع فجأة من غير ما نمضي أوراق ولا عقود ولا أي حاجة. وبعد ما رجعوا بلادهم عرفت إن ورق الصفقة كان خلصان أصلا بس كان مستخبي وماطلعش إلا دلوقتي. والصفقة مشيت عادي والثلاجات وصلت. أنا كنت حاسة إن فيه حاجة غريبة من ساعة جولة المصنع. وإن الزيارة دي مالهاش أي لزمة.

صمت قليلا ليفكر قبل أن يقول:

- مش يمكن يكونوا عملوا الزيارة دي عشان يتأكدوا إن الشغل في المجموعة مش متعطل بسبب اللي حصل لمنصور بيه، ويتطمنوا على فلوسهم اللي ميحطوها في الصفقة دي؟

التفتت نحوه وهي تقول مدافعة في حماس عن إحساسها:

- لا يا يحيى، جولة المصنع ماكانش ليها لازمة وهما ماكانوش مهتمين فيها إنهم يتطمنوا على أي حاجة، حتى هاشم بنفسه قال إن الجولة دي مالهاش لازمة. طب بلاش ده، إنت مش فاكر أول يوم ليا في المجموعة لما الباشمهندس حسن قال لنا في الpresentation اللي عملها إن الصفقة متعطلة بسبب اللي حصل؟ ليه قال كده وشفيق وافقه على الرغم من إن كل الورق كان جاهز وخلصان؟

ثم صمتت قليلا لتلتقط أنفاسها قبل أن تقول وقد هدأ صوتها وعاد الضيق إليه مرة أخرى:

- حتى مشروع الشريفة، أنا حاسة إن فيه حاجة غلط.

عقد حاجبيه وهو يتساءل مستنكرا:

- إزاي يعني؟

زفرت وأسندت رأسها إلى الخلف وهي تقول:

- كل البنوك اللي رحنا نتفاوض فيها عشان ناخد قروض للمشروع حسيت إن شفيق بيتعمد يعطلها ويبوظها.

أعاد ما قالته وقد ازداد استنكاره من كلامها:

- بيتعمد يعطل القروض اللي إنتوا محتاجينها عشان مشروع مهم زي ده؟

التفتت نحوه وأومأت برأسها وهي تقول:

- أيوه، كل شرط بيقولوا عليه وكل تفصيلة بيحاولوا يحطوها في العقود بيعترض عليها حتى لو كانت شروط عادية.

مط شفتيه مفكرا قبل أن يقول وهو يرمقها مشفقا:

- طب مش يمكن يا يارا إنتي اللي إحساسك غلط ومركزة مع شفيق زيادة عن اللزوم؟

تأملته دون أن تعلم ماذا يمكن أن تقول، هل يمكن حقا أن تكون مخطئة في إحساسها؟ زفرت في استسلام قبل أن تقول:

- يمكن، بس اللي أنا متأكدة منه بقى إن شفيق متغير من ساعة موضوع سرقة الخزنة. من ساعة ما سمعته وهو بيتخانق مع كريمة عشان بلغت البوليس من غير ما ترجع له وأنا حاسة إنه بقى على طول متعصب ومتوتر، وتوتره ده هو اللي خلاه بدأ يغلط. وأنا حاسة إنه بسبب توتره ده أنا ممكن أعرف حاجة قريب.

لم يستطع أن يعترض أو يوافق، إنه إحساسها ولا يمكن له أن يعلق على صدقه أو كذبه. ساد الصمت للحظات دفنت يارا خلالهم وجهها بين كفيها محاولة تجاوز هذا الضيق الذي ينتابها، قبل أن ترفع رأسها وتنظر نحوه وهي تتساءل في ارتياب:

- مالك يا يحيى؟

بوغت بسؤالها لكنه تمالك نفسه مسرعا وهو يقول:

- مالي؟ باسمعك.

- لا، أنا حاسة إن فيك حاجة غريبة، إنت عاوز تقول حاجة؟

هي من بدأت الحديث، هي من حثته حتى يتكلم، إنه لا يريد أن يفتح هذا الموضوع الآن وهي مهمومة، ولكن هي من لاحظت التغير الذي طرأ عليه وهي من سألت، هكذا أقنع نفسه قبل أن يقول محاولا الالتفاف حول ما يريد:

- بصراحة يا يارا أنا حاسس إن من ساعة ما عرفتك واحنا عايشين في دوامة، ما بين موضوع دفن ريما وعزاها وبعدها موضوع الصندوق وتفسير ألغازه وأخيرا موضوع مجلس الإدارة والمشاكل اللي فيها، مش لاقيين وقت نتكلم مع بعض ونعرف بعض أكتر. أنا حاسس إن أنا محتاج إنك تعرفي عني حاجات كتير وأنا كمان أعرف عنك حاجات كتير، أكتر من الكلام العادي السطحي اللي اتكلمناه زمان في المستشفى، محتاج أحكي لك عن تفاصيل كتير في حياتي ومحتاج أعرف عنك حاجات كتير، يعني عن صحابك وحياتك كلها.

توتر قليلا في آخر الحديث بينما كانت يارا تتابعه وابتسامة خبيثة على شفتيها، نسيت كل الضيق الذي كانت تشعر به منذ قليل واندمجت مع هذا الذي يحاول أن "يلف ويدور" ليتأكد من مشاعرها نحوه دون أن يعلم أنه بالفعل أصبح يحتل قلبها. قالت وعيناها تمتلآن بالخبث وظل الابتسامة لا يزال على شفتيها:

- إحنا فعلا مش لاقين وقت خالص نتكلم مع بعض.

اعتدلت في جلستها لتضع ساقها تحتها وهي جالسة قبل أن تقول في حماس:

- قول لي بقى، عاوز تعرف إيه عني؟

ارتبك قليلا من تلك المواجهة قبل أن يقول:

- مافيش حاجة معينة، عادي يعني.

حاول السيطرة على ارتباكه بعدما فتح حديثا وأصبح غير قادر على الخوض فيه، اتسعت ابتسامتها وهي تتأمله قائلة:

- إنت دبلوماسي شاطر يا يحيى، بس لازم تحمد ربنا إن مش كل الدبلوماسيين اللي بتتعامل معاهم فاهمينك زيي.

نظر نحوها في ارتياب دون أن يفهم مقصدها بينما استرسلت هي قائلة في بساطة:

- إنت عاوز تسألني عن كريم، بس مش عاوز تقولها بشكل مباشر، عاوزها تيجي بالصدفة كده وسط الكلام، صح؟

اختفى ارتباكه وبدأ يتحدث بثقة بعدما وجد أن الحديث أصبح بتلك الصراحة:

- و افرضي؟ إنتي مش عاوزة تحكي لي ولا إيه؟

اختفت ابتسامتها وهي تضغط شفتيها ثم قالت وهي تحني رأسها:

- لا أكيد عاوزة أحكي لك بس اليومين دول بالذات حصلت حاجات خلتني أفتكر الموضوع ده بكل تفاصيله وعمال يضغط على أعصابي طول الوقت. دي أصلها ذكرى سيئة جدا وبتتعبني كل ما بافتكرها، عشان كده أنا ماعتقدش إني هاقدر أحكي لك حاجة دلوقتي.

سأل محاولا التزام الهدوء ومراعاة مشاعرها وهو يستخلص أي شيء منها :

- هو.. هي دي المرة اللي قلتي لي إنها كانت آخر مرة تاخدي فيها مهدئات؟

انتابتها الدهشة من تذكره شيئا عابرا قالته وسط الكلام، لكن سرعان ما تحولت دهشتها إلى ابتسامة مرارة وهي تقول:

- لأ، أنا آخر مرة خدت مهدئات كان لما ماما الله يرحمها اتوفت. إنما لما أنا وكريم سيبنا بعض، دي كانت أول مرة أعرف يعني إيه مهدئات.

لمزيد من الكتب العصرية

صمتت قليلا لتتمالك نفسها ثم نظرت نحوه وهي تقول في نبرة متوسلة:

- سيبني براحتي يا يحيى. صدقني هييجي اليوم اللي هينفع أحكي لك فيه. أو بمعنى أصح، اللي هاقدر أحكي لك فيه.

صمت قليلا وقد تشتت إحساسه بين الضيق من عودته إلى حالة عدم الاستقرار وعدم الفهم وبين الشفقة عليها بعدما رأى كل هذا الألم في عينيها. لكنه لا يستطيع أن يضغط عليها لتحكي، ليس فقط إشفاقا عليها ولكن أيضا لأن كرامته ستمنعه. أومأ برأسه وهو يقول مستسلما:

- ماشي. براحتك.

ساد صمت ثقيل حاول كلاهما فيه التغلب على مشاعره المضطربة. قطعت الصمت قائلة لتغير دفة الحديث:

- طنط عاملة إيه؟

- كويسة. بتسأل عليكي.

أومأت وهي تقول في نبرة معتذرة:

- أنا عارفة إني مقصرة في حقها، بس أنا هاكلمها قريب والله.

- طب ما تيجي تزوريها؟

قالها في رقة حاثا إياها على العودة لزيارتهما في المنزل. ابتسمت وهي تومئ موافقة. نظرت في ساعة معصمها قبل أن تنهض وهي تقول:

- أنا لازم أمشي دلوقتي عشان عاوزة ألحق أعدي على ليديا أتطمن عليها.

نهض وهو يتساءل متذكرا:

- آه صحيح، هي ليديا مالها؟ إنتي قلتي إنك هتقولي لي بعدين.

قالت محاولة التظاهر بالطبيعية حفاظا على صورة ليديا أمامه:

- مافيش. يظهر إنها بتمر بأزمة نفسية وهي رقيقة بس حبتين.

صمت قليلا قبل أن يباغتها قائلا:

- رأفت. مش كده؟

اتسعت حدقتاها في دهشة وهي تتساءل مستنكرة:

- إنت إزاي عرفت؟

ابتسم وهو يقول في بساطة:

- يا بارا مافيش حد بيتردد كتير على مكتب منصور بيه ويعرف اللي شغالين فيه كويس ماخدش باله إن ليديا بتحب رأفت وهو ولا هو هنا.

صمتت وقد امتزجت بداخلها حيرة بسبب معرفة يحيى وألم وإشفاق على تلك المسكينة التي يعلم كل الناس مدى معاناتها إلا من تحبه. قالت في ضيق لتنهي هذا الموقف الحرج:

- هو تقريبا كده. بس أنا والله ماعرفش عشان هي ماحكتليش أي حاجة.

- طب وبعدين؟ الملفات محبوسة عندها وإحنا كده متكتفين مش عارفين نكمل قراية وتدوير.

مطت بارا شفتيها في حيرة قبل أن تقول:

- إنت عندك حق. هو أنا هيبقى منظري وحش بس أنا هاسألها النهارده بقى وخلاص. بس لازم تعمل حسابك إن بالشكل ده أنا وإنت بس اللي هنكمل لوحدنا قراية الملفات. لا ليديا هتقدر تعمل معانا حاجة ولا أنا هاقدر أجيب رأفت في بيتها في الظروف دي.

- مش مهم. المهم إننا نكمل قراية الملفات يمكن نلاقي حاجة.

أومأت برأسها وهي تقول موافقة:

- حاضر. باي باي.

اتجهت نحو الباب لكنها توقفت في المنتصف والتفتت نحوه وقالت في تردد محاولة طمأنته:

- يحيى. فيه حاجتين من ساعة ما لبستهم ماقلعتهمش تاني. سلسلة ربما والخاتم بتاعك. أظن ده يوضح لك إيه هما أكتر حاجتين شاغلين دماغي و...

ثم صمتت قليلا قبل أن تقول في ارتباك:

- وقلبي. واضح؟

ابتسم وهو يقول وقد أحس بقلبه يخفق بشدة:

- واضح.

التفتت لتداري خجلها وخرجت مسرعة بينما عاد هو ليجلس خلف مكتبه وقد عاد شيء من الاطمئنان يملأ قلبه. متى تنتهي تلك الدوامة التي يدوران فيها وتعيقه عنها؟ متى ينتهي كل شيء وتتفرغ له وتصبح مستعدة لما يريد أن يقوله لها؟

أحس أن صبره بدأ ينفد. لا يطيق تلك الحالة من عدم الاستقرار. يريد أن يستقر معها. ليس فقط استقرارا عابرا بمعرفة كل شيء عن موضوع كريم ولكنه يريد استقرارا دائما وأبديا معها. يريد أن يتزوجها.

عاد بمقعده إلى الخلف مندهشا بعدما باغت نفسه بتلك الكلمة الكبيرة. الزواج! لكنه عاد وتخلص من دهشته. وماذا في ذلك؟ إنه لم يعد صغيرا وسنه مناسبة جدا بالنسبة لها وبالنسبة للزواج. لا يجب أن يدهشه هذا التفكير. إنه يعلم جيدا أنه يحبها. ويتعجل اليوم الذي يكون فيه معها. وبالنسبة لرجل مثله في شخصيته ومكانته وأخلاقه لا يستطيع سوى أن يفكر بشكل واقعي مستقيم دون "لف ودوران". نعم. إنه يريد أن يتزوجها. ليس فقط لأنه هو الطريق الوحيد أمامه ولكن لأنه يريد هذا الطريق. يتمناه. يتمني أن يتزوج يارا.

متى يا رب تنتهي دوامة المشاكل التي تدور فيها وتشغلها عنه وتمنعه من أن يحقق حلمه معها. عندما ينتهي كل هذا سيطلب منها الزواج. نعم. سيتشجع ويطلب منها الزواج. إنه يتحرق شوقا ليراها وهي تتفاجأ وتخجل وتومئ موافقة وهي تدير عينيها بعيدا عنه.

اتسعت ابتسامته وهو يغلق عينيه ويعود برأسه إلى الخلف وقد أخذت مشاعر جديدة من نوعها تدغدغه وهو يتخيل يارا وهي زوجته.

(٤٧)

انتهى كل شيء. نعم لقد انتهى كل شيء. انتهى الحب وانتهت الأحلام. تحطمت على صخرة الواقع التي تفاداها هؤلاء الذين يدركون حقيقة الحياة بينما اصطدم بها الحالمون. المغفلون! تماما مثلما اصطدمت هي بها. ضيعت من عمرها سنوات وهي تحبه وتحلم به وباليوم الذي سيأتي إليها فيه ويعترف لها بحبه ثم فجأة يقفز خيالها إلى هذا المشهد الجميل. عندما ترتدي رداء أبيض وطرحة بيضاء وتقف بجانبه أمام المذبح والقسيس يتوج حبهما بالزواج. كانت غارقة في بحر من العسل. لم يتلق أثيرها كل الإشارات التحذيرية لتتوقف عن أوهامها وتسبح مسرعة هاربة من بحر العسل هذا قبل أن تصطدم بصخرة الواقع. لكنها لم تفعل. تجاهلت كل الإشارات وفضلت الغرق بين أمواج هذا البحر في الوقت الذي كان فيه رأفت يخطط وينفذ مخططه العبقري لتأمين مستقبله. معه حق. ماذا تكون هي بجانب الفتاة الأمريكية الشقراء الجميلة؟ وماذا يكون والدها بجانب هذا الآخر الذي يملك سلسلة محلات ملابس واكسسوارات؟ وماذا تكون شبرا بجانب لوس أنجلوس؟ وماذا يكون عمله الآن حتى لو كان في أكبر مؤسسة اقتصادية في مصر بجانب مشروع خاص به في أمريكا يدر عليه آلافا كل شهر؟ الإجابة. لا شيء. إن خطة حياتهما التي وضعتها هي تتضاءل وتختفي إن قورنت بالخطة التي وضعها هو. الإجابة المنطقية التي يقرها العقل هي لا شيء. ولكن مالها تتألم؟ ألم يوافق عقلها ويقر بالحقيقة؟ لماذا تتألم؟ لماذا تسجن نفسها في غرفتها وتمتنع عن الحديث مع كل من في المنزل وتظل بالساعات جالسة منكمشة فوق فراشها ملتصقة بالحائط البارد؟ نعم لقد وافق عقلها ولكن ما يؤلمها الآن ليس عقلها. إنه عضو آخر محبوس هاهنا خلف قفصها الصدري. طالما عذبها وعرضها للمهانة. قلبها هذا الذي أصبحت تكرهه على الرغم من أنه هو نفسه المسؤول عن الحب والكراهية. هذا هو من يتألم بداخلها. يتقلص كلما ازداد يقينها بأن رأفت لا يحبها. لم ولن يفكر فيها أو يضعها في حساباته مهما حدث. إنها أقل من أحلامه. إنها لا تستطيع أن تحقق له طموحه. إنها لا شيء. لا شيء بالنسبة له. ثم تبتسم. تبتسم في مرارة كلما تذكرت تلك الليالي التي استلقت فيها في فراشها ساعات تفكر فيه وتحلم به بينما هو جالس أمام الكمبيوتر يتحدث مع الأخرى ويمطرها بكلمات الحب. هل يحب تلك الأخرى بالفعل؟ هل أعجبته شخصيتها وانجذب لها وأراد حقا أن يعيش كل حياته معها. أم أنه يكذب عليها ويلعب بها ليستغلها

لمزيد من الكتب العصرية

ويستغل جنسيتها وأموال والدها كما قالت أنجيل؟ إن كانت الإجابة نعم فهو إذًا يحب امرأة أخرى غيرها. وهو ما يطعنها في قلبها. وإن كانت الإجابة لا فهو إذًا إنسان منافق وصولي مستغل. وهو ما يزيدها حيرة وألما. وفي الحالتين هناك حقيقة واحدة. لقد كان رأفت يعتبرها طيلة الفترة الماضية شيئا احتياطيا مثل "استبن" السيارة. بين كل فترة وأخرى يقول لها كلمتين حلوتين تنعشان أملها مما يزيدها تعلقا به فتظل بجانبه. موجودة وتحت أمره في حالة فشل خطته الأصلية. "هي هتروح فين يعني؟". يرن السؤال المهين في أذنها فتدفن رأسها بين ركبتها ويرتفع صوت نشيجها وتنهمر دموعها لعلها تغسل كرامتها الجريحة وتشفي قلبها المكلوم. ثم تهدأ. وتعود إلى نفس الدورة العقيمة من الأفكار المؤلمة. والحياة تستمر خارج غرفتها بينما الزمن قد توقف عند قدمها المضمومتين فوق فراشها.

- ليديا. افتحي يا حبيبتي. أنا يارا.

نهضت متثاقلة كأنها ترفع جبال همومها وتحملها بين يديها وهي تخطو في بطء نحو باب غرفتها. أدارت المفتاح فانفتح الباب في هدوء وأطلت يارا وهي تبتسم محاولة إخفاء ارتباها وارتباكها. أغلقت الباب والتفتت نحو ليديا التي جاهدت لتبدو بحالة جيدة وترسم ابتسامة ضعيفة على شفتيها. وهي تقول محاولة رفع نبرة صوتها كأنها نسيت الكلام من طول عزلتها:

- أهلا يا أستاذة.

ربتت يارا على ذراعها وهي تقول مبتسمة في حنان:

- إزيك يا ليديا؟ عاملة إيه؟

أومأت برأسها وهي تقول في استسلام:

- الحمد لله. اتفضلي.

جلست ليديا على حافة فراشها. وجلست يارا قبالتها على المقعد الصغير وقد أعطت لمرآة الزينة ظهرها. ومالت قليلا نحو الأمام مرتكزة بكوعيها على فخذيها وهي تقول عاتبة في رقة:

- طنط سميرة هتتجنن. بتقول إنك حابسة نفسك في أوضتك ومابتكلميش حد.

أخفضت ليديا عينيها وهي تقول في صوت ضعيف:

- مش قادرة أتكلم مع حد يا أستاذة يارا.

تململت يارا وهي تشعر بقليل من الحرج قبل أن تقول:

- ليديا أنا مش عاوزة أتقل عليكي، بس إنتي عارفة إن لو جه وقت وحبيتي تتكلمي أنا هابقى عاوزة أسمع لك.

أومأت ليديا وهي تقول مبتسمة تلك الابتسامة الخافتة:

- أكيد طبعا يا أستاذة.

ثم ثبتت يارا عينيها بداخل عيني ليديا وقالت كأنها ستهم بإلقاء محاضرة نابعة من تجربتها الشخصية:

- ليديا، طبيعي قوي إنك تمري بتجربة زي دي بس اللي مش طبيعي هو إنك تطولي فيها أكتر من اللازم، حياتك مش واقفة على شخص واحد أو حاجة واحدة، حياتك أكبر بكتير وإنتي قدام نفسك أهم من أي حد، فاهماني طبعا؟

أومأت ليديا في استسلام وأحنت رأسها وهي تقول محاولة كبت الدموع التي طفرت في عينيها:

- فاهمة.

سادت لحظات من الصمت الثقيل وبلغ حرج يارا مداه، إن ليديا مرهقة وحالتها سيئة بالفعل تماما مثلما توقعت فكيف يمكن إذا أن تتحدث معها في شأن الملفات ومتابعة قراءتها؟ إنها تشعر أن إقدامها على هذا الفعل هو درب من الوقاحة وعدم التقدير اللازم لمشاعر تلك الفتاة الرقيقة المجروحة، كأن ليديا كانت تقرأ ما يدور في ذهن يارا حيث أنها قطعت الصمت قائلة في نبرة معتذرة:

- أنا عارفة إن إنتم متعطلين بسببي عن قراية بقية الملفات. أنا آسفة والله يا أستاذة ماكانش بإيدي.

فأسرعت يارا تقول وقلبها يتراقص بعدما لاح لها مخرج من تلك الأزمة:

- لا ماتقوليش كده يا ليديا، أهم حاجة عندي إنك تبقي كويسة.

فصمتت ليديا قليلا مفكرة بينما يارا ترقبها وهي تدعو الله بكل قلبها أن تنطق ليديا بما تتمناه هي، وكأن الله استجاب لدعائها حيث قالت ليديا بعد فترة من التفكير:

- ما تكلمي مستر يحيى تقولي له ييجي دلوقتي وتكملوا تدوير في الملفات؟

فتصنعت يارا التملع قائلة:

- لا لا بلاش النهارده. مش عاوزين نضغط عليكي. خلينا نسيبك تستريحي شوية.

فأسرعت ليديا تقول في شبه رجاء:

- لا يا أستاذة أرجوكي. أنا حاسة بالذنب ومش عاوزة أعطلكم أكتر من كده. وبعدين أنا بصراحة بعني مش هاقدر أساعدكم دلوقتي فمافيش ضغط عليا ولا حاجة. إنتوا هتقعدوا في السفرة تكملوا شغل وأنا هاقعد هنا في أوضتي.

لم تجب يارا، كانت مشتتة بين الرفض وضياع تلك الفرصة أو القبول الذي يمكن أن يكون قلة ذوق منها، ولكن ليديا أنهت تلك الحيرة عندما استطردت متصنعة الحزم:

- يلا كلميه قبل ما النهار يعدي وتضيعوا وقت أكتر من كده. ولا تحبي أكلمه أنا؟

فابتسمت يارا وهي تقول كأنها استسلمت على مضض:

- لا لا خلاص. أنا هاكلمه.

خرجت يارا من الغرفة وهي تحاول جاهدة السيطرة على نفسها حتى لا تبتسم ويبدو حماسها وسعادتها، مراعاة لمشاعر هذا البيت الذي يضج بالحزن والقلق على الابنة الصغيرة، انزوت في أحد الأركان واتصلت بيحيى الذي ما إن أخبرته يارا بأنه يمكنه المجيء إلى بيت ليديا حتى انتقلت عدوى حماسها إليه، فانتفض تاركا عمله متجها نحو شبرا في سرعة فائقة وما هي إلا نصف ساعة حتى كان أمامها في صالة منزل ليديا، التي تحاملت وخرجت لتحييه وهي تجتهد لتبدو طبيعية دون أن تدري أنه يعلم ما بها، ساعدتهما في فتح الخزانة الخشبية ونقل الملفات إلى المائدة قبل أن تستأذن وتعود إلى غرفتها، بينما ذهبت سميرة لتعد لهما بعض المشروبات الساخنة وقد خالج قلبها بعض الارتياح بعد أن رأت ابنتها قد خرجت من غرفتها وتحدثت وابتسمت بعد أيام من العزلة والحبس الانفرادي، حتى لو كانت كل أفعالها تلك مصطنعة ولبضع دقائق فقط، يكفي أن رؤية ابنتها قد أعاد إلى قلبها بصيصا من الأمل مرة أخرى.

اندمج يحيى ويارا في قراءة الملفات وتصنيفها مرة أخرى، ومع الوقت بدا خيط رفيع من الضوء يداعبهما وسط هذا الغموض وهذا الظلام الذي يلف تلك الملفات العقيمة، فقد بدا لهما مع التقدم في البحث أن عدد الصفقات الغريبة التي انقطعت وانتهت فجأة بلا سبب محدد أو نتيجة

واضحة سواء بالنجاح أو الفشل يزداد، لقاءات واجتماعات وسفر وتقارير ثم لا شيء، لا يوجد عقود أو شيء يدل على أن المشروعات قد تم تنفيذها على أرض الواقع أو شيء يدل على سبب فشل تلك الصفقات. وعلى أقل تقدير كان يمكن أن يوجد في بعض الأحيان تقرير نهائي ركيك وغير مقنع فقط لإتمام إجراءات الحفظ. وكلما كبر عدد تلك الملفات التي كانوا يضعونها جانبا بعيدا عن الباقي كلما كبرت علامة الاستفهام خاصة وهما يعلمان أن كل تلك الصفقات مع شركات يمتلك فيها أو يديرها بعض من تلك الأسماء الموجودة في القائمة على ipad ربما.

قطع صوت رنين هاتف يارا تركيزها، نظرت بسرعة نحو الشاشة فراعها ظهور اسم رأفت، وضعت الشاشة أمام عيني يحيى لعله يستطيع مساعدتها في الخروج من هذا المأزق، قال يحيى في ارتياب:

- ده رأفت.

أجابت يارا في ضيق:

- أيوه. أعمل إيه؟ خايفة أرد عليه ليديا تسمعني وهي مش ناقصة تسمع حتى اسمه.

فصمت يحيى لثوانٍ قبل أن يقول:

- طب بلاش تردي.

- ماينفعش، أعتقد إنه فيه حاجة مهمة.

نهضت واتجهت نحو أبعد ركن في غرفة الطعام وهي تقول:

- أنا هارد بقى وهاوطي صوتي وربنا يستر.

ضغطت الزر ووضعت الهاتف على أذنها وهي تقول في صوت منخفض:

- آلو. أيوه يا رأفت. خير فيه حاجة؟

كان يحيى موزعا النظرات بينها وبين الصالون كأنه يراقبه حتى ينبهها إذا لمح أحدهم قادما، لكنه ركز بصره كله نحوها عندما سمعها تهتف قائلة:

- إيه؟ اتكلم بالراحة يا رأفت أنا مش فاهمة حاجة. إنت بتقول إيه؟ طب خلاص خلاص أنا جاية حالا.

أسرعت تجمع الملفات وتنظمها داخل الخزانة الخشبية في لهوجة، وهي تقول ليحيى بصوت مضطرب وقد ارتفعت نبرتها كأنها لم تكن هي التي خافت منذ قليل أن تسمعها ليديا وهي تتحدث عن رأفت:

- رأفت بيقول إن فيه حد اكتشف إن الملفات دي خرجت من الشركة.

فهتف يحيى في دهشة وقلق:

- حد مين؟! واكتشف إزاي؟!

- ماعرفش، مافهمتش منه أي حاجة. أنا لازم أروح المجموعة دلوقتي.

فقال يحيى في حزم وهو يعاونها في جمع الملفات وترتيبها في الخزانة:

- تروح، أنا لازم أعرف إيه اللي حصل.

أغلقا الخزانة مسرعين وألقيا تحيات مقتضبة على سميرة وطلبا منها أن تعتذر بالنيابة عنهما لليديا دون حتى أن ينتظرا ليودعاها. تركت يارا سيارتها وركبت بجانب يحيى الذي قاد سيارته بسرعة طائشة لم يقدم عليها من قبل.

هبط صمت ثقيل على الغرفة بعدما فرغ رأفت من حديثه. ظلت يارا شاردة ببصرها نحو الأمام وقد استندت بذقنها على يديها فوق المكتب، وبدا كأن عينيها زائغتان في النظر إلى شيء مجهول لا تعلمه، بينما جلس يحيى أمام المكتب وهو ينقر بأصابع متوترة، وفي قبالته جلس رأفت ممتقع الوجه كأنه قد انتهى للتو من التحدث عن مذبحة حدثت أمام عينيه. حاول يحيى السيطرة على توتره وهو يقول في نبرة متقطعة:

- رأفت اهدا كده وقول لي تاني إيه اللي حصل بالضبط.

ازدرد رأفت ريقه بصعوبة قبل أن يقول في صوت مرتعش وإن كان أكثر هدوءا من المرة السابقة:

- زي ما قلت لسيادتك، مستر هاشم استدعاني في مكتبه وقعد يزعق فيا بطريقة غريبة، أول مرة أشوفه عصبي كده. قال لي قول للريس بتاعك إنه يبقى غلطان لو افتكر إنه هو الوحيد اللي ليه عيون جوا المجموعة ويعرف كل حاجة بتحصل فيها، وإن هو قدر يعرف موضوع الملفات اللي أنا خدتها وحملة التدوير اللي عملتها. كان فاكر إن الموضوع ليه علاقة بمستر شفيق بس أنا قلت له إنه مايعرفش أي حاجة عن الموضوع، استغرب وافتكر إن أنا باشتغل لحسابي وهددني إنه

هيودبني في داهية ويبلغ مستر شفيق بكل حاجة. أنا خفت إنه يعمل كده بجد ويقول لمستر شفيق فاضطريت إني أقول له إن الملفات دي خرجت من المجموعة عشان خاطر الأستاذة يارا وإنها معاها دلوقتي، بس ماقلتلهوش أي حاجة تانية، وقلت له إنه مش من حقي أقول أي أسرار الأستاذة استأمنتني عليها وإنه لو عاوز يعرف أي حاجة يسألها هي. أنا آسف والله يا أستاذة إن أنا قلت له بس ده كان ممكن يقول لمستر شفيق ودي حاجة إنتي قلتي إنك مش عاوزاها تحصل.

فهتف يحيى في لهفة:

- و بعدين؟

- ولا حاجة. قال لي أقول للأستاذة إن هو مستنيها تيجي تزوره في مكتبه زي ما اتفق معاها قبل كده.

صمت رأفت ليلتقط أنفاسه بينما التفت يحيى نحو يارا التي كانت لا تزال شاردة كأنها لا تشعر ولا تسمع ما يدور حولها، قال يحيى في صوت هادئ محاولا إقناعها:

- بيتهيألي يا يارا إن الزيارة دي معادها جه خلاص، وإذا كان ممكن زمان إنك تختاري تستعيني بهاشم أو لا فدلوقتي مافيش مجال للاختيار، إنتي لازم تستعيني بيه وتطلبي مساعدته لأنه خلاص بقى جزء من الموضوع.

انتزعت نفسها من شرودها وتأملت يحيى للحظات وهي تفكر بعمق كأنها تتخذ قرارا مصيريا سيؤثر على حياتها ومستقبلها، نهضت وهي تتأرجح في حيرتها، اتجهت بخطى بطيئة نحو باب المكتب دون أن تتخذ حتى القرار بينها وبين نفسها، فتحت الباب ثم التفتت ونظرت نحو يحيى لآخر مرة كأنها تستنجد به ليدفعها الدفعة الأخيرة، أومأ برأسه وهو يبتسم ابتسامة حاول أن يتغلب فيها على قلقه ويكسبها رقة قدر المستطاع، لكنها لم تبتسم كأنه من العسير عليها أن تتخذ مثل هذا القرار وتبتسم في نفس الوقت. التفتت وخرجت من الغرفة دون أن تكون متأكدة حقا من أنها قد قررت أن تفشي سرها لهاشم فتح الله.

لمزيد من الكتب العصرية

(٤٨)

استرق الموظفون نحوها نظرات مستريبة فهم لم يعتادوا أن يروها تخطو هكذا في أروقة المجموعة بين المكاتب، لكنهم سرعان ما تشاغلوا عنها بما بين أيديهم من أعمال بينما لم تلتفت هي إلى أي شخص أو أي نظرات موجهة نحوها، كانت تبذل مجهودا خارقا لتحافظ على ثباتها وتقنع نفسها بالخطوة التي هي في طريقها للإقدام عليها. ليست مضطربة لأنها ستفشي سر ربما الآن، لا لا، هذا شيء لا يقلقها بالمرة فهاشم شخص يمكن الوثوق به، على الرغم من أنها لا تعرفه جيدا لكن خبرتها القصيرة معه وكلام يحيى عنه جعلاها تشعر بثقة نحوه واطمئنان من أنه لن يخذلها حتى إن لم يساعدها فبالتأكيد لن يفشي سرها. كل هذا لا يقلقها، إن ما يقلقها حقا ويجعلها ترتعب وتتردد مائة مرة قبل أن تتخذ القرار وهي تخطو تلك الخطوات المضطربة نحو مكتبه هو أنها متيقنة تماما من أن هاشم يعلم، يعلم أشياء كثيرة سيقولها لها، أشياء ستهدد تلك الصورة التي ظلت طيلة عمرها ترسمها في مخيلتها وتعيش ضحية لها. صورة أب ظالم ألقاها وألقى أمها بعد أن أصبح ثريا كأنه تزوجها للمتعة ثم طلقها بعد أن علم أنها حملت منه بالخطأ على غير الاتفاق، أب ينكرها ولا يتذكر حتى حقيقة وجودها في تلك الدنيا، وصورة أخت مدللة ومتعجرفة لا تهتم إلا بتفاهات حياتها وتتكبر حتى عن التفكير في وجود أخت لها من أم أخرى، تلك الصورة التي بدأت تهتز بعنف منذ أن وصلها هذا الصندوق الأسود وعرفت أن ربما كانت تتحدث عنها وتتمنى رؤيتها ومنذ أن علمت بالوصية التي كتبها منصور بك وأن رقم خزنته الخاصة هو يوم عيد ميلادها. لا تريد أن تعرف أكثر من ذلك، تخشى أن تعرف، تخشى أن تجد نفسها فجأة مذنبة أمام نفسها، تخشى أن تتحطم الصورة الكبيرة فتنهار معها حياتها التي ما هي إلا جزءا من تلك الصورة، "لماذا يا أمي لم تقصي لي أي شيء عن هذا الماضي وتركتني أرسمه في خيالي بمفردي دون أن تساعديني؟". انتفضت عندما أفاقت لتجد نفسها أمام باب مكتب هاشم، هاشم لا يملك سكرتيرة ولا حتى غرفة انتظار، لكن مكتبه هو أقرب مكاتب أعضاء مجلس الإدارة إلى مكتب منصور بك الذي أراد ذلك وأصر عليه، هكذا أخبرتها ليديا من قبل ذات مرة، منصور بك كان مصرا على أن تكون غرفة مكتب هاشم في مقر المجموعة قريبة جدا من غرفة مكتبه، حتى يكون هاشم بجانبه

لمزيد من الكتب العصرية

على الرغم من أنه لم يكن قريبا منه أو مستودعا لأسراره مثلما كان شفيق الذي كان يحتل هذا المركز وحده.

أخذت نفسا عميقا وضمت يدها اليمنى في قبضة شعرت فيها ببرودة أطراف أصابعها وبطن يدها، ثم رفعتها ببطء وترددت لحظة قبل أن تدفع نفسها وتطرق ثلاث طرقات مرتعشات لا يكاد يسمعهم أحد، بعد ثوانٍ سمعت صوت هاشم الرزين قادما من الداخل آذنا للطارق بالدخول. فتحت الباب في بطء وأطلت نحو الداخل بوجه حاولت أن تخفي شحوبه من أثر وجيب قلبها.

ما إن رآها هاشم حتى اتسعت ابتسامته الممتلئة ثقة ونهض واقترب منها وهو يقول مرحبا:

- أهلا أهلا. سعادة رئيسة مجلس الإدارة في مكتبي، إيه الشرف ده؟

صدمتها قليلا تلك النبرة المازحة لكنها جاهدت وتقبلت دعابته بابتسامة رسمتها على شفتيها، خاصة عندما وجدته محتفظا بابتسامته المرحبه ونظرته الأبوية الحانية. أشار لها ليجلسا في الصالون بعيدا عن المكتب مما زاد الجلسة حميمية كانت تحتاج إلى أن تشعر بها لتخفف من توترها. جلست على الأريكة وقد هدأ خوفها قليلا بينما جلس هاشم على المقعد قريبا منها وقال مبتسما وهو يضع ساقا على ساق في ثقة:

- اتأخرتي عليا يا يارا. القعدة دي كان لازم نقعدها من زمان قوي، من أول يوم جيتي فيه المجموعة.

ابتسمت دون أن تعلم بماذا يمكن أن تجيب على كلماته تلك، بينما استطرد هو متسائلا في تباسط من يتحدث مع طفلة صغيرة:

- هه، تحبي تبتدي إنتي ولا أبدأ أنا؟

عقدت حاجبيها مستنكرة السؤال، استغلق عليها فهم ما هذا الشيء الذي سيبدأنه، بعد لحظات من الصمت والنظرات المتبادلة أدرك هاشم أن يارا لا تفهمه فأومأ برأسه متفهما قبل أن يعيد ساقه إلى وضعها بجانب الأخرى وهو يقول مستسلما:

- يبقى هابدأ أنا.

ظلت صامتة ترقب في ارتياب، بينما زفر هو وشرد بنظره بعيدا عنها وبدأ يسرد بنبرة تمتلئ حنينا وظل ابتسامة على شفتيه:

- من أربعين سنة كنت أنا ومنصور أعز صحاب. كنا ساكنين في نفس العمارة في عابدين وبنروح المدرسة مع بعض وبنذاكر مع بعض ونلعب كورة في الشارع مع بعض. كنا مابنسيبش بعض. كنا صحاب.

ثم التفت إليها وهو يتساءل مبتسما:

- بتقولوا عليها إيه؟ أنتيم باين؟

فأومأت له مبتسمة قبل أن تعود إلى الاستغراق في بحر الذكريات الذي ألقاها فيه هاشم مستكملا:

- كنا صحاب أنتيم زي ما جيلكم بيقول. كبرنا ودخلنا الجامعة مع بعض. أنا دخلت حقوق ومنصور دخل تجارة بس ماكانش بيقعد في كليته أبدا. كان طول الوقت قاعد عندنا في مدرجات حقوق. عارفة ليه؟

ضاقت عيناها مستفهمة وإن كانت قد شعرت بظل الإجابة يلوح أمامها فاستطرد هاشم وهو يقول وقد اتسعت ابتسامته:

- أكيد عارفة. منصور كان طول الوقت لازق لي في كليتي عشان كان فيه بنت معايا في الدفعة البيه وقع في غرامها من ساعة ما شافها. البنت دي تبقى والدتك يا أستاذة.

هتفت يارا غير مصدقة:

- ماما.

- أيوه. شريفة حسين. دفعتي وزميلتي والبنت اللي أعز أصدقائي فضل أربع سنين الجامعة يحبها وييجي يقعد في كليتنا عشانها. لدرجة إن الدكاترة والمعيدين بقوا عارفينه أكتر ما هم عارفين طلبة حقوق نفسهم.

ثم صمت هاشم قليلا ليعود إلى جديته وإن ظلت الابتسامة على شفتيه وهو يقول:

- وشريفة كمان الله يرحمها كانت بتحب منصور قوي. كان كل يوم ييجي ويعمل نفسه قاعد معايا وهو عمال يبص لها من تحت لتحت وهي كانت بتعمل نفسها مش واخدة بالها وهي أصلا مركزة طول الوقت معاه. المهم. صعبوا عليا فقلت آخد فيهم ثواب وعرفتهم على بعض ومن ساعتها بقوا طول الوقت مع بعض ونسيوا عمك هاشم خالص.

جاهدت يارا لترد على مزاحه بابتسامة وتتجاوز كل المشاعر المختلطة بداخلها والدموع التي ترقرقت في مقلتيها، بينما استكمل هاشم قائلا وقد ازداد صوته حماسا كأنه يحكي أهم مشهد في فيلم شاهده:

- و في يوم في سنة رابعة اتخانقت شريفة مع دكتور ظلمها في امتحان، وخرجت من عنده وقعدت تعيط لوحدها ورفضت إنها تتكلم مع أي حد ولا حتى منصور، لكن أبوكي طول عمره دماغه ناشفة، مارضيش يسيبها وفضل يرخم عليها عشان تتحسن وتبطل عياط مافيش فايدة، ولما زهقت منه زعقت في وشه وقالت له يا تقول حاجة عليها القيمة يا تمشي وتسيبني في حالي. راح منصور خدها عند وقال لها طيب، عاوزة حاجة عليها القيمة؟ خدي دي، أنا باحبك يا شريفة وهاتجوزك أول ما نتخرج. طبعا شريفة اتخضت ووشها احمر وراحت واخدة حاجتها وقامت جريت وقعدت بعدها أسبوع مابتجيش الجامعة. راح أبوكي عند أكتر وفي آخر الأسبوع ده رجع جدك أبو شريفة يوم البيت من شغله وقال لها النهارده جالي واحد اسمه منصور عبد السلام زميلك في الجامعة طلب إيدك مني، تعرفيه ده يا شريفة؟ طبعا أمك تنحت، ماكانتش متخيلة إن منصور مجنون وعنيد كده، يا دوب عرفت تحرك رأسها عشان تفهم باباها إنها عارفاه. المهم عمي حسين الله يرحمه سأل عن منصور وقابل أهله وكل الحاجات دي وكلها شهر واتخطبوا رسمي، وأول ما اتخرجنا واشتغلنا أنا ومنصور في شركة استيراد وتصدير اتجوزوا على طول. روحي دوري في حاجات شريفة، لو كانت لسه شايلة قسيمة جوازهم هتلاقي اسمي في خانة الشاهد الأول. كنتي تعرفي إنني الموضوع ده؟

بصعوبة شديدة هزت يارا رأسها نافية، كانت في حالة لا تسمح لها بالإجابة أو حتى فتح فمها، الذكريات الجميلة التي استغرق هاشم في سردها ببساطة كانت مطارق تهوي على رأسها. أول حجر قذفه هاشم ليحطم جزءا من تلك الصورة التي حاولت يارا مستميتة الحفاظ عليها. كيف يمكن لها أن تصدق أن هذا الرجل الذي أول شيء كرهته فيه هو إهماله لأمها وجرحه لمشاعرها، هذا الرجل كان يحب أمها بهذا الجنون؟ ظل أربع سنوات يحبها ويحرص على البقاء بجانبها ويقوم بأفعال طائشة ليعبر لها عن مشاعره ويحتفظ بها كزوجة مستقبلية له؟ ماذا حدث إذا بعد ذلك؟ أين ذهب كل هذا الحب؟ لماذا ترك والدتها وطلقها وانقطع عنها بتلك القسوة كأنه تزوجها زواجا

تقليديا ولم يقض أهم سنوات حياته يحبها كل هذا الحب الذي يملأ عيني هاشم بكل هذا الحماس على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاما؟

لم يلتفت هاشم المستغرق في حماسه إلى التغير الذي طرأ عليها حيث استطرد مستكملا حكايته:

- و هتعرفي منين؟ دول لما اتطلقوا كان يا دوب عندك تلات سنين وأكيد شريفة ماحكيتلكيش أي حاجة. أنا عارفها طول عمرها كتومة. المهم، بعد جوازهم بسنتين يعني تقريبا أول ما إنتي اتولدتي ساب منصور شركة الاستيراد والتصدير وراح اشتغل في شركة سمسرة وأوراق مالية، هناك اتعرف على شفيق واتوطدت علاقته بيه وبدأت أنا أخرج من دائرة اهتمامات منصور واحدة واحدة لحد لما فجأة اكتشفت إن شفيق استحوذ عليه تماما، وإن أنا بقيت يا دوب صديق الطفولة والشباب بتاع الذكريات والقعدة الحلوة وبس.

كانت الابتسامة قد اختفت من على وجه هاشم، انطفأ حماسه واختفت لمعة عينيه وامتلأ وجهه بألم فشل في إخفائه:

- لما شفيق عرف إن منصور كان شغال في شركة استيراد وتصدير عرض عليه إنه يفتح شركة بتاعته لوحده، خصوصا وإنه كان بيغامر في السوق بعمليات صغيرة وهو شغال في الشركة الأولانية والتانية وليه شوية خبرة في السوق ومحوش مبلغ كويس. عمك شفيق ذكي، فهم إن منصور طموح وعنيد وذكي عمليا واجتماعيا ويقدر ينحت الصخر ويعافر عشان يوصل للي هو عاوزه، فهم إن منصور عنده الأدوات اللي ناقصة عند شفيق واللي هو محتاجها عشان يحقق أحلامه وطموحاته عشان كده قرب منه وكسب ثقته واستحوذ عليه وأقنعه إنه يفتح الشركة وإن هو يبقى شريك فيها. حطه في وش المدفع وقعد هو ورا وحسبته كانت صح على فكرة بدليل إن الشركة دي بقت دلوقتي أكبر مجموعة في البلد بعد خمسة وعشرين سنة بس.

صمت هاشم قليلا ليضع ابتسامة مريرة على شفتيه وهو يقول في نبرة ساخرة:

- المهم إن زي ما الشركة دي كانت وش السعد عليه في الشغل كانت برضو شؤم عليه، لأنه بعد ما أسسها بفترة قصيرة طلق شريفة وسابكم من غير ما يرجع لكم تاني لحد دلوقتي.

صمت هاشم وقد بدا أنه أنهى حكايته ونظر إلى يارا منتظرا ردها، أخذت تفرك يديها الباردتين وقد فقدت كل سيطرتها على نفسها وعلى مشاعرها التي ارتفعت بداخلها مثلما ترتفع أمواج البحر وقت

العاصفة وتصطدم بمنتهى القسوة بصخور الشاطئ فتفتتها. اصطدمت مشاعرها المتناقضة بقلبها المضطرب الذي لم يستطع أن يستوعب كل تلك الحقائق مرة واحدة. كل تلك الحقائق التي ظلت تجهلها طوال عمرها ظهرت فجأة لتفتح لها بابا لم تكن تعلمه وتكشف جانبا من شخصية منصور بك، جانبا صارت تخشى معرفته. ازدردت ريقها بصعوبة وقالت بصوت متحشرج ودمعتان تنزلقان من عينيها دون إرادتها كأنها تتخيل بحسرة شكل حياتها لو لم يحدث كل ذلك:

- ليه؟ ليه طلق أمي؟

ضغط هاشم شفتيه قبل أن يقول صادما إياها:

- عشان شريفة هي اللي طلبت الطلاق.

اتسعت حدقتا يارا في دهشة. هذا آخر شيء يمكن أن تتوقعه. كانت تعتقد طوال عمرها أن منصور بك هو من اتخذ هذا القرار ونفذه دون أن يعود إليها أو حتى يكترث لمشاعرها. تساءلت مستنكرة والدموع لا تزال ترسم خطين على وجنتيها:

- ماما هي اللي طلبت الطلاق، طب ليه؟ هما بطلوا يحبوا بعض؟

هز هاشم رأسه نافيا في أسف وهو يقول:

- بالعكس، كانوا بيحبوا بعض جدا. أنا متأكد إن شريفة فضلت تحب منصور لحد لما ماتت وإن منصور لسه بيحب شريفة لحد دلوقتي.

قاطعته يارا وهي تهتف في حدة وقد أحست أنها ستجن من كلامه المناقض للواقع الذي تعيش فيه:

- نعم! بيحبها! إزاي؟! لو كان بيحبها كان جه دفنها وأخد عزاها ووقف جنبي يوم ما لقيت نفسي فجأة لوحدي في الدنيا. مش يبعت لي شفيق ويجري هو يعمل بيزنس في أوروبا.

انطلق هاشم مدافعا عن صديق عمره الذي رغم كل شيء لا يزال يحتل مكانا متميزا بداخله:

- أبوكي ماسافرش أوروبا يعمل بيزنس يا يارا. أبوكي أول ما عرف إن شريفة ماتت من غير ما يشوفها لآخر مرة أو يعتذر لها هرب من مصر كلها على أوروبا، والكام شهر اللي قعدهم هناك كان بيتعالج من الاكتئاب في مصحة نفسية.

تراجعت بجذعها إلى الخلف وقد ألجمت الصدمة لسانها. منصور بك أصيب باكتئاب عندما ماتت أمها لأنه كان لا يزال يحبها؟ كيف يمكن أن تستوعب هذا الكلام الغريب. كيف يمكن أن تنزع

لمزيد من الكتب العصرية

الاعتقاد القديم الذي يؤكد قسوة هذا الأب وإهماله لأمها وتضع اعتقادا جديدا يناقض هذا القديم بل ويناقض حقائق كثيرة لا تزال غامضة في حياتها. أشفق هاشم على منظرها وعلى دموعها التي لم تتوقف فعاد إلى نبرته الحانية وهو يقول مبتسما:

- أبوكي مش وحش يا يارا زي ما إنتي فاكرة، وشريفة لما طلبت الطلاق ماكانتش كرهته إنما هي عملت كده عشان هي ماكانتش متطمنة لشفيق وكانت حاسة إن شغلهم فيه حاجات كتير غلط، وأمك كانت بتكره الغلط ورفضت إن إنتي تتربي من فلوس فيها شبهة حرام. ساعتها أبوكي اتعرض لصراع نفسي سخيف، كأن شريفة وشفيق بيتخانقوا جواه وللأسف شفيق هو اللي كسب في الآخر ومنصور طلق شريفة والتفت لشغله وبس، وجوازته التانية دي كانت مصلحة أو منظر اجتماعي مش حب خالص.

تساءلت يارا في ارتياب وقلبها يدق بعنف:

- حاجة غلط زي إيه؟ وحرام إزاي يعني؟

أخرج هاشم زفرة ساخرة من أنفه قبل أن يقول مبتسما في مرارة:

- تصدقيني لو قلت لك إني مش عارف، أنا كمان طول عمري وأنا عندي نفس الإحساس اللي كان عند شريفة، حاسس إن فيه حاجة غلط ومريبة بتحصل في المجموعة ماحدش يعرفها غير منصور وشفيق. بيتهيأ لي إنك خدتي بالك وقت الحفلة والجولة، دي مش أول مرة تحصل حاجات زي كده مع ناس زي الناس اللي كانوا في الوفد ده، طول عمري باحس إن فيه حاجات غريبة بتحصل في الخفاء وأظن إن إنتي وصلتي لنفس الاستنتاج بدليل نوع الملفات اللي إنتي خليتي رأفت يخرجها لك برا المجموعة.

أومأت يارا برأسها موافقة وهي تمسح دموعها، ثم التفتت نحوه وهي تتساءل مستنكرة:

- طب ليه يا أستاذ هاشم، ليه على الرغم من إنك حاسس إن فيه حاجات غريبة بتحصل من وراك وإن منصور بيه مابقاش يعتبرك صديق مقرب زي زمان وحط شفيق مكانك في حياته، ليه إنت لسه بتشتغل معاه وقريب منه؟

ابتسم هاشم في مرارة وقد ازداد الألم على ملامح وجهه وهو يقول:

- لأن منصور ماكانش مجرد صديق ليا، ده كان أخويا، وبما إني أكبر منه بست شهور وكنت إلى حد ما أعقل وأرزن منه، اعتبرته أخويا الصغير اللي لازم أستحمله وأخاف عليه وأفضل جنبه مهما عمل معايا ومهما حط ناس مكاني في حياته. وعلى فكرة منصور كان ضميره بيأنبه بسبب بعده عني وحاول بكل الطرق إنه يعوضني بدليل إنه أصر إن مكتبي يبقى قريب جدا من مكتبه، أقرب من مكتب أي عضو مجلس إدارة تاني. كل ده كان بيزود إحساس المسؤولية جوايا، وفضلت جنبه عشان أحميه من نفسه ومن الحاجة الغريبة اللي أنا ماعرفهاش واللي ممكن تنذيه وعشان وقت اللزوم أساعده.

ثم عاد إلى الخلف واستند على المقعد وهو يقول مشيرا نحوها:

- وأهو وقت اللزوم جه أهو.

ابتسمت، ابتسامة صادقة وهي ترى أن ظنها في هاشم كان صحيحا، هذا الرجل نبيل وعظيم جدا، أعظم مما تخيلت، هل كان منصور بك مثله أو حتى يشبهه؟ ولدهشتها أحست بجانب في قلبها، قطعة واحدة صغيرة من قلبها تتمنى لو أن منصور بك مثل هذا الرجل حتى لو تهشمت الصورة التي في مخيلتها تماما وأصبحت رمادا تدهسه بأقدامها. قاطع هاشم تفكيرها قائلا والابتسامة لا تزال على شفتيه:

- أنا خلصت حكايتي، مش ناوية تحكي لي إنتي بقى؟

مسحت يارا آخر دمعة سقطت من مقلتيها، واسترجعت جزءا من تماسكها وهي تقص على هاشم كل شيء حدث لها، منذ اليوم الذي استلمت فيه الصندوق حتى الآن، وهاشم يستمع في اهتمام شديد ووجهه لا يخلو من دهشة تزداد أو تقل تبعا للجزء الذي تحكيه يارا. وعندما انتهت يارا ظلت ترقب في ريبة وجه هاشم الذي شرد قليلا قبل أن يقول محاولا ترتيب أفكاره:

- يعني ربما انتحرت بعد ما بعتت لك الصندوق ده، والـipad اللي في الصندوق كان فيه أسامي وأرقام حسابات الناس اللي أنا طول عمري حاسس إن فيه حاجة غريبة في الشغل اللي بيننا وبينهم.

- حاجة غريبة ولا حاجة غلط؟

التفت هاشم نحوها متفاجئا من هذا السؤال الصريح لكنه سرعان ما تمالك أعصابه وقال وهو يهز رأسه مستسلما:

- ماقدرش أجزم بحاجة لأني ماعنديش دليل، ده مجرد إحساس وشكوك. كل اللي أقدر أقوله لك هو إنك ماشية في الطريق الصح.

زفرت يارا قبل أن تقول في ضيق:

- أيوه بس الطريق ده خلاص اتسد. الملفات مافيهاش أي حاجة زيادة عن اللي أنا لسه قايلاه، وحضرتك ماتعرفش أي حاجة زيادة، يعني أنا رجعت تاني لنقطة البداية. ليه ربما كان عندها أسامي الناس دول وأرقام حساباتهم وازاي جابت المعلومات دي؟ وهل فيه علاقة بين وجود معلومات عنهم على ipad ربما وبين شغلهم مع منصور بيه؟! والأهم ليه ربما انتحرت بعد ما بعتت لي الحاجة؟! وليه أصلا بعتت لي أنا بالذات الصندوق ده؟

طفرت دموع أخرى في عينيها، دموع الحيرة التي استطاعت تلك المرة أن تكبتها، وإن لم تستطع أن تخفي ألمها عن هاشم الذي أشفق عليها بشدة فاقترب وأمسك بيدها، وهو يقول في نبرته الأبوية الحانية التي تحبها وتضعف أمامها:

- يارا يا بنتي، الصندوق ده حكمته مش جواه، حكمته في الأحداث اللي حصلت لك حواليه وبسببه، ماتتعبيش دماغك بأسئلة لو ليكي نصيب تعرفي إجابتها هتعرفيها مهما حصل. لو فيه طريق تسعي فيه اسعي من غير تفكير بس لو الطريق اتسد ماتحيريش نفسك وتعذبي روحك، وخليكي واثقة إن ربنا هيعمل لك اللي فيه الخير. ويمكن تكون ربما بصندوقها ده هي السبب في إن حاجات كويسة تحصل لك يمكن حتى أحسن من إنك تفهمي سر الصندوق نفسه زي إنك تدخلي المجموعة وترأسيها وإنك تتعرفي أكتر على أبوكي وأختك الله يرحمها وتقربي منهم ومن حياتهم اللي عيشتي طول عمرك بعيدة عنها.

ولم يكن هاشم يعلم أن ما يتحدث عنه هكذا بكل بساطة هو أكثر ما يخيف يارا ويثير اضطرابها.

## (٤٩)

عندما دخلت غرفة المكتب لم يكن رأفت موجودا، لم تجد أمامها سوى يحيى جالسا على الأريكة تحت النافذة العريضة بجانب مائدة الاجتماعات. ما إن رآها حتى انتفض واقفا والقلق يملأ ملامحه وعينيه اللتين تعلقتا بها في لهفة. اقتربت منه في خطوات منهكة وهي تجتهد لتضع ابتسامة صفراء على وجهها الشاحب من أثر البكاء قبل أن تلقي بنفسها على المقعد وتلقي برأسها إلى الخلف محاولة استعادة قوتها وقدرتها على مواصلة الركض في تلك الحلبة التي انقطع نفسها من العَدْو فيها.

عاد يحيى ليجلس بجانبها وهو يهتف في جزع:

- شكلك معيطة؟ إيه اللي حصل؟

زفرت ثم التفتت نحوه متسائلة:

- فاكر يا يحيى أول مرة جيت لكم البيت؟

و على الرغم من القلق والضغط النفسي الذي كان يشعر به لكنه ابتسم عندما تذكر هذا اليوم المحبب إلى قلبه وهو يقول:

- أيوه طبعا فاكر.

- فاكر ساعتها لما واجهتني بحقيقة إني ماجرتش أفتح الـipad عشان كنت خايفة أعرف حاجة تهد الصورة اللي في خيالي؟

أومأ برأسه وهو يحاول اكتشاف ما ترمي إليه يارا التي زفرت قبل أن تقول في نبرة بطيئة وهي شاردة:

- أهو هاشم عمل عليا أكبر حملة عرفني فيها حاجات كتيرة كنت خايفة أعرفها، وماقدرتش لا أعترض ولا أهرب.

نظر يحيى نحوها مستنكرا وقد استغلق عليه فهم أي شيء. ابتسمت يارا ومضت تحكي له كل ما حدث مع هاشم في صوت لم تحاول إخفاء ضعفه وإرهاقه، وعندما انتهت نظر نحوها يحيى مفكرا قبل أن يتساءل في خبث:

لمزيد من الكتب العصرية

- وإنتي بقى متضايقة عشان السكة اتسدت في وشنا ورجعنا لنقطة البداية في موضوع الصندوق بتاع ريما؟

زمت شفتيها قبل أن تقول:

- هي دي فعلا مشكلة، بس مش هو ده اللي مضايقني دلوقتي.

- أمال إيه اللي مضايقك؟ إنك عرفتي؟

أومأت مستسلمة قبل أن تقول في صراحة لم تتوفر حتى بينها وبين نفسها:

- أيوه، اللي كنت خايفة منه حصل. لما عرفت أكتر، كل حاجة جوايا اتلخبطت، مابقيتش فاهمة المفروض أحب مين وأكره مين، كل الأسس اللي كنت بانية عليها حياتي بتقع وكل المفاهيم والحقائق المسلم بيها بقى فجأة مشكوك فيها. إزاي عاوزني بسهولة كده أصدق إن الراجل ده كان بيحب ماما ولسه بيحبها لحد دلوقتي، وإنه فضل يحبها كل فترة الجامعة وعمل حاجات مجنونة عشان يتجوزها، إزاي بس يا يحيى؟!

ضغط يحيى شفتيه مفكرا. كلامها منطقي جدا، من الصعب إقناعها بشيء ظلت طوال عمرها مقتنعة بعكسه؟ ابتسم وهو يقول متجاهلا الجو المشحون المحيط بهما:

- بس عارفة، أنا نفسي مش مصدق. أنا أعرف منصور بيه من زمان لأنه كان صاحب بابا الله يرحمه، عمري ما كنت أتخيل إنه كان شخصية مجنونة كده في شبابه وإنه ممكن يكون بيحب واحدة بالقوة دي، طول عمري فاكر إنه بيعامل مراته سيرين هانم بتقليدية وحيادية لأن هو شخصيته كده، حازمة وصارمة وتقليدية حتى مع مراته، ماكنتش أعرف إنه بيعمل كده لأنه مابيحبهاش وقلبه مع واحدة تانية سايبها من أكتر من خمسة وعشرين سنة.

ابتسمت يارا في مرارة قبل أن تقول في سخرية:

- إيه جو الأفلام ده؟

ضحك يحيى من تعليقها الذي بدا إلى حد ما حقيقيا، ولكنه سرعان ما كف عن الضحك عندما انفتح الباب ودخل شفيق الذي نظر نحو يحيى في ارتياب لكنه تمالك أعصابه وقال محاولا الابتسام:

- أهلا يا أستاذ يحيى.

لمزيد من الكتب العصرية

- أهلا يا أستاذ شفيق.

ثم التفت نحو يارا وقال في نبرة ذات مغزى كأنه يوجهها إلى يحيى:

- أنا كنت فاكرك قاعدة لوحدك. عشان فيه شغل مهم كنت عاوز أخلصه معاكي. بس خليها وقت تاني بقى.

فأسرع يحيى ناهضا وهو يقول:

- لا لا يا أستاذ شفيق مافيش داعي، أنا كنت هامشي دلوقتي.

ثم التفت نحو يارا وأشار لها قائلا:

- ابقي كلميني، سلام.

خرج يحيى من الغرفة، بينما نهضت يارا واتجهت في خطى متثاقلة نحو المكتب وألقت بنفسها على المقعد وهي تقول في نبرة متضجرة وصوت هاشم لا يزال يرن في أذنها، " كان شريفة وشفيق بيتخانقوا جواه وللأسف شفيق هو اللي كسب في الآخر":

- خير يا أستاذ شفيق؟ شغل إيه ده؟

جلس شفيق على المقعد أمام مكتبها وهو يقول:

- هو فيه غيره؟ مشروع الشريفة.

انتابتها رعشة وقد تذكرت والدتها ومنصور بك الذي اختار هذا الاسم بنفسه. لكنها تمالكت نفسها وتساءلت في ضيق:

- ماله؟

زفر وهو يقول متصنعا الضيق:

- واضح كده إننا مش هنعرف نتفق على أي قرض مع أي بنك بعد المفاوضات العقيمة اللي عملناها معاهم.

زمت يارا شفتيها قبل أن تقول في غيظ:

- ماهو لو حضرتك كنت تساهلت معاهم شوية كان زماننا واخدين القروض وبدأنا نكمل المشروع. إنما حضرتك كنت بتعترض على أي شرط مهما كان منطقي وواقعي، أي بنك في الدنيا يتمنى إنه

يتعامل مع مجموعتنا ومع ذلك مش عارفين ناخد أي قرض لحد دلوقتي، كأننا شوية عيال لسه متخرجين وبنبدأ مشروع من الصفر.

رفع شفيق يده مقاطعا إياها وهو يقول في حسم:

- باقولك إيه يا يارا، من الآخر كده وضع مجموعتنا دلوقتي لا يسمح إننا ناخد قروض ونزود ديوننا، ده ممكن يعمل لنا مشاكل مع المساهمين ومجلس الإدارة ومشاكل مالية ماحناش قدها.

هتفت يارا في عصبية مكتومة دون أن تكون مقتنعة تماما بما قاله:

- يعني عاوزني أعمل إيه؟ ألغي المشروع؟

هتف شفيق في ذعر:

- لأ طبعا، مشروع زي ده لو اتلغى يبقى خراب بيوت، إنتي عارفة إحنا صارفين عليه كام لحد دلوقتي وعلينا فيه التزامات قد إيه؟

فزفرت يارا قبل أن تقول في استسلام وقد بدأ صبرها ينفد:

- طب عاوزني أعمل إيه يا أستاذ شفيق؟

صمت شفيق قليلا وبدا كأنه يستعد للخوض في حديث خطير ثم قال في حزم:

- مافيش غير حل واحد، إننا نمول المشروع ده من حساب منصور بيه الشخصي.

نظرت يارا نحوه وعقدت حاجبيها مستنكرة دون أن يبدو أنها استوعبت شيئا مما قاله، بينما تساءل شفيق متظاهرا بالدهشة:

- إيه يا يارا مالك استغربتي كده ليه؟

تململت قليلا وحاولت أن تتجاوز اندهاشها من هذا الاقتراح الغريب، ومن أن شفيق قد تجرأ وتطرق في تفكيره إلى الحساب الشخصي لمنصور بك مما يؤكد كل كلمة قالها هاشم عن استحواذه عليه، قالت متظاهرة بأن هذا هو كل ما يشغلها:

- لا مش مستغربة، بس، الوصية تسمح لي بالتصرف في أعمال المجموعة بس، إنما أي ممتلكات أو حسابات شخصية أنا ماليش حق في التصرف فيها.

- آه بس ده في حالة الحسابات الموجودة جوا مصر مش الحسابات اللي برا مصر.

اتسعت حدقتاها في دهشة من هذا الكلام الأغرب، ثم تساءلت في ارتياب:

- مش فاهمة.

أخذ شفيق شهيقا ومضى يشرح مستفيضا:

- منصور بيه عنده حساب في بنك Lombard Odier في جنيف في سويسرا ماحدش ليه الحق إنه يسحب منه في حالة عدم قدرة منصور بيه غير الورثة الشرعيين، يعني ربما الله يرحمها ومصطفى بيه اللي لسه في كندا وحضرتك.

تجمدت ملامحها وقد عجزت عن استيعاب كل تلك الصدمات مرة واحدة. ظل شفيق ناظرا نحوها منتظرا منها إجابة تريحه. تحاملت على نفسها وقالت حتى لا يلاحظ شفيق توترها وصدمتها:

- أيوه بس أكيد سحب الفلوس وتحويلها هيحتاج إجراءات. وأكيد الحساب ده موجود ضمن تركة منصور بيه حتى لو كان برا مصر.

قال شفيق وهو يعرف أنه يلقي بآخر قنبلة لديه:

- لأ، الحساب مش ضمن تركة منصور بيه لأنه حساب سري.

أحست أن قلبها يدق بعنف وأن مخها قد توقف تماما عن الاستيعاب أو العمل. ظلت الكلمات ترن في أذنها كصوت السياط الذي يطرقعه المكاري في الهواء "حساب سري"، "مش ضمن التركة". لم تلتفت جيدا إلى شفيق الذي أنهى الحديث قائلا في آلية:

- وبالنسبة للإجراءات، ماتخافيش، أنا هاعرف أظبط إن الفلوس تدخل مصر كأنها فلوس تعاملات بيننا وبين عملاءنا في سويسرا وفي أوروبا وإنها متحولة على حسابات المجموعة بشكل طبيعي. المهم اعملي حسابك إن خلال أسبوعين بالكتير هتسافري سويسرا تجيبي الفلوس عشان نلحق نكمل المشروع. أنا هاخلص لك إجراءات السفر كلها ماتقلقيش.

ثم نهض وأخرج ورقة من جيبه وضعها أمامها وهو يقول في بساطة:

- لو لسه مش مصدقة دي تفاصيل الحساب، وجهزي نفسك للسفر بسرعة.

صمت وتأملها وهي لا تزال في نفس حالة الجمود والاندهاش. تساءل في شك:

- ماشي يا يارا؟

أومأت برأسها دون أن تنطق بكلمة بينما اعتبر شفيق ذلك ردا كافيا فالتفت وخرج من الغرفة تاركا إياها في حالة يرثى لها. بصعوبة شديدة بدأت تفيق من صدمتها وقد بدا أن كل الأفكار في مخها قد

لمزيد من الكتب المصرية

تشوشت وهي تحاول جاهدة السيطرة عليه وعلى نفسها، وقد مضى عقلها يعمل بسرعة خارقة يحاول ربط أي شيء من كل الخيوط المبتورة أمام عينيها. هل يمكن أن يكون هناك علاقة بين صندوق ربما وبين...؟ لا لا! لا يمكن! ثم عادت واستنكرت رفضها لوجود تلك العلاقة. لمَ لا. أليس هذا هو ما توقعته منذ البداية. أمسكت برأسها تحاول السيطرة عليها وتحاول تهدئة نفسها لتستوعب كل المفاجآت التي وجدت نفسها فجأة غارقة فيها، نظرت إلى الورقة التي وضعها شفيق أمامها، بيد مرتعشة فتحتها ومرت بعينيها سريعا على الكلام دون أن تعي معناه، ثم بدأت الحروف والأرقام تتضح شيئا فشيئا. أول ما صدمها كان المبلغ الموجود في الحساب، ٥٢٤ مليون دولار، هذا يعني أن هذا المبلغ بالعملة المصرية يعادل كل ثروة منصور بك ونصيبه في المجموعة. منصور بك لديه ما يعادل ثروته في حساب سري في سويسرا، كيف ولماذا؟ لم تستطع أن تجد وقتا للإجابة على تلك الأسئلة فقد التقتها صدمة أخرى أشد من الأولى جعلتها تمد يدها مسرعة وهي تحاول السيطرة على أنفاسها اللاهثة وتخرج المفكرة الكحلية من حقيبتها. بيد مرتعشة ومتوترة فتحت الصفحة الأولى وقارنت بنظرات زائغة الأرقام الموجودة في المفكرة بالأرقام الموجودة على الورقة. سقطت المفكرة من يدها وأحست أن قلبها سيتوقف وأن عقلها قد أصابه شلل تام عندما تأكدت أن رقم حساب منصور بك السري في سويسرا هو الرقم الذي سجلته ربما في المفكرة التي أرسلتها في صندوقها الأسود.

## (٥٠)

كانت يارا جالسة على المقعد الخشبي الطويل وهي تستند بمرفقيها على اللوح الرخامي الذي يفصل الصالة عن المطبخ في شقة داليا، التي كانت منهمكة في تحضير الطعام وبدت وكأنها غير مستمعة بالمرة لكل ما استغرقت يارا في سرده منذ ما يقرب الساعة، حتى صاحت يارا حانقة من عدم اكتراثها:

- أنا بقى لي ساعة باحكي وإنتي ولا إنتي هنا. طب حسسيني إنك سامعاني.

أجابتها داليا دون أن تنظر نحوها أو تتوقف عن تقليب الملوخية: -

- ما أنا سامعاكي. مش لازم يعني أسيب اللي في إيدي وأبحلق فيكي عشان أبقى سامعاكي.

- ما إنتي مابترديش عليا خالص.

تركت داليا الملعقة الخشبية وأمسكت بالسكين وثمرة بطاطس انهمكت في تقشيرها وهي تقول:

- أرد عليكي أقول إيه؟ أنا بصراحة شايفة إنك مكبرة الموضوع على الفاضي.

هتفت يارا في دهشة:

- أنا مكبرة الموضوع على الفاضي؟! طب بلاش كل اللي هاشم قاله لي، الحساب اللي في سويسرا ده مش حاجة غريبة؟!

فرفعت داليا كتفها في عدم اكتراث وهي تقول دون أن تحول عينيها عما بين يديها:

- لا مش حاجة غريبة. بالعكس دي حاجة طبيعية جدا. إذا كنتي إنتي بنفسك اللي توقعتي زمان إن رقم الحساب ده ممكن يكون بتاع منصور بيه، وبعدين لو منصور أبو بلاط ماعندهوش حساب في سويسرا. مين اللي هيبقى عنده؟ جوزي الكحيان اللي جدته كانت بتبيع جبنة قريش في حواري القلعة؟

توقفت يارا عن شرب الشاي وابتلعت ما في فمها بسرعة حتى لا تلفظه من بين شفتيها الضاحكتين قبل أن تقول مستنكرة:

- يخرب بيتك يا دوللي. يعني يبقى كويس قوي لو محمد سمعك؟

- ما يسمع. لعلمك بقى أنا باقول له الكلام ده في وشه.

فتساءلت يارا مندهشة:

- وبيسكت لك؟

فمطت داليا شفتيها وهي تقول:

- لأ.. هو ده بيسكت؟ بيقول لي الله يرحم جدك الباشا اللي كان بيسرح بعربية البليلة في السيدة.

ارتفع صوت يارا ضاحكة بشدة وهي تهتف في نبرة متقطعة محاولة التوقف عن الضحك:

- بعد ما جمع إلا أما وقق. هو ده بيبقى جد ولا هزار؟

فابتسمت داليا وهي تقول:

- لا هزار طبعا. لو مش هزار كان زمانه طلقني من بدري.

ابتسمت يارا ثم انكمشت ابتسامتها مرة أخرى وقد شردت للحظات وهي تمسح بأصبعها على حافة الكوب الذي بين يديها قبل أن تقول وقد انتاب صوتها مسحة من الحزن:

- تفتكري ليه ربما كتبت رقم حساب منصور به لوحده في النوتة؟ عشان مالحقتش تكتبه على الـipad ولا كان صعب عليها إنها تحط اسم باباها مع أسامي الناس دول؟

فتساءلت داليا مستنكرة:

- ليه يعني؟ مالهم الناس دول؟ إنتي مش بتقولي إنهم أحسن وأغنى ناس في العالم. ده كفاية اسمه إيه ده أليكس روبينسون اللي جه الحفلة؟

فقالت يارا في ضيق:

- أيوه، بس الناس دول هما برضو اللي هاشم شاكك في الشغل اللي بيننا وبينهم من زمان.

فهتفت داليا في تضجر:

- يادي هاشم، هو أنا كل ما أقول لك حاجة تقولي لي هاشم؟

فقالت يارا في غيظ من تضجر داليا وعدم اكتراثها:

- هو إنتي ليه يا داليا مش حاسة بخطورة اللي أنا باقوله؟

ألقت داليا ما بين يديها في عصبية واقتربت من يارا واستندت على الناحية الأخرى من اللوح الرخامي وقالت في جدية:

- باقول لك إيه، كل الكلام اللي إنتي عمالة تحكي فيه ده مايدخلش ذمتي ببصلة، شوية الموظفين اللي إنتي لاماهم حواليكي وعاملالي بيهم فيلم ocean's eleven ده فضيهم بقى وركزي في مصلحتك.

عقدت يارا حاجبيها وهي تتساءل في حيرة:

- مصلحتي إزاي يعني؟

فهتفت داليا في نفاد صبر:

- مصلحتك يا هبلة يعني الغلبان ده اللي إنتي مجرجراه وراكي في كل حتة ومغلباه ومش عاوزة تخلصي بقى.

لاحت ابتسامة خجلى على وجه يارا فجاهدت لتخفيها وهي تقول متظاهرة بعدم الفهم:

- هو مين ده؟

رمقتها داليا في خبث وهي تقول:

- أيوه اعملي نفسك عبيطة بقى، يحيى، اللي إنتي مطلعة عينه في حكاياتك الفارغة دي، ومش مكفيكي كل ده؟ لا وكمان لسه بتعرفي لي اسمه إيه الزفت ده بعد كل اللي عمله زمان.

هتفت يارا في دهشة:

- مين؟ كريم؟ لا يا داليا كريم مالوش أي وجود حقيقي في حياتي دلوقتي.

- أمال ليه لسه بتعرفيه؟

فمطت يارا شفتيها وهي تقول في قلة اكتراث:

- مجرد معرفة قديمة، ومش أنا اللي مصممة عليها على فكرة، ده هو اللي مركز معايا.

- طب ويحيى؟

عادت الابتسامة تلوح على شفتيها وهي تقول متغابثة:

- ماله؟

- مجرجراه وراكي ومطلعة عينه وهو مستحملك. طب وآخرتها؟ هتسيبيه متعلق كده؟

أخفضت يارا عينيها وهي تقول متشككة في حزن:

- و مين اللي قال لك إنه متعلق؟ مش يمكن...

قاطعتها داليا قائلة في حدة:

- مافيش يمكن، يحيى بيحبك. بذمتك في راجل ممكن يستحمل بلاوي من واحدة زي بلاويكي دي إلا لو كان بيحبها؟

لمزيد من الكتب العصرية

ابتسمت يارا وهزت رأسها نافية في خجل بينما استطردت داليا قائلة:
- وإنتي كمان بتحبيه.
رفعت يارا رأسها في دهشة وهمت بالاعتراض بينما قاطعتها داليا قائلة:
- أيوه بتحبيه. بس خايفة. وأنا بقى عاوزة أقول لك حاجة مهمة تحطيها في دماغك. يحيى غير كريم. وخدي بالك لو لقيتي حد بيحبك ومستحملك وشايل همك بالطريقة دي وضيعتيه تبقى غبية.
فوخزتها يارا في ذراعها وهي تقول ضاحكة:
- خليكي محترمة ولمي لسانك.
فعادت داليا تلتقط البطاطس وتستكمل تقشيرها وهي تقول ضاحكة:
- والله لما أبقى مش محترمة أحسن ما أبقى غبية.
ابتسمت يارا والتقطت قطعة كعك قضمتها قبل أن تقول وفمها يمتلئ بها:
- حلوة الكيكة دي. ابقى اديني طريقتها.
- يعني هتعمليها لمين؟ لما تبقي تتجوزي أبقى أديها لك تعمليها للمحروس.
قفزت يارا من فوق المقعد وقالت وهي تلتقط حقيبتها وتضعها على كتفها:
- باقولك إيه، إنتي فايقة ورايقة وأنا مش فاضية لك. أنا ماشية.
قالت داليا وهي تتصنع عدم الاكتراث:
- أحسن. يلا اتكلي من هنا. أنا اللي مش فاضية لك أنا ورايا طبيخ أسبوع وعيال جايين من المدرسة.
ابتسمت يارا وقالت وهي تتجه نحو باب الشقة:
- ابقى كلميني.
نظرت داليا نحوها وقالت في حزم:
- أنا مش هاكلم حد. إنتي اللي هتكلميني المرة اللي جاية وأحسن لك تبقى ساعتها عارفة معاد الفرح.
فتحت يارا باب الشقة وهي تهتف في دهشة:

- فرح مرة واحدة كده؟!

أشارت داليا نحوها بالسكين وهي تقول في حزم:

- ده أحسن لك.

ضحكت يارا وأطلقت نحوها قبلة في الهواء وقالت وهي تخرج وتغلق الباب خلفها:

- سلام يا أم العيال.

هبطت الدرج قفزا في سعادة. استطاعت داليا بحديثها عن يحيى أن تجعلها تلقي جانبا كل همومها وحيرتها ولا تفكر في شيء سوى في هذا الذي أصبحت الآن متأكدة من أنها لم تعرف شيئا عن الحب قبله، وكأنها كانت تنتظر داليا لتأتي وتؤكد لها أن يحيى يحبها وأنها تحبه، كأنها كانت لا تعلم هذا، كأنها تفاجأت الآن فقط بكل المشاعر التي بداخلها فأسرعت تستغلها وتفرح بها، قادت سيارتها وهي غارقة في أحلامها وقد ارتسمت ابتسامة حالمة على شفتيها انشغلت بها عن صوت المذيع في الراديو حتى طغى عليه صوت محمد منير:

- جالتلي بريدك يا ولد عمي.. تعا دوج العسل سايل على فمي.. على مهلك علي ما باحمل الضمي.. على مهلك علي ده أنا حيلة أبوي وأمي.

وجدت نفسها تهز كتفيها متراقصة مع صوت التصفيق المصاحب للنغمات النوبية، ومضت تغني مع الكلمات التي لا تفهم بعض معانيها ولا تحفظها جيدا مدفوعة بتلك السعادة التي تشعر بها وكأن الدنيا كلها تحولت إلى حفل لمحمد منير تتراقص فيه الأشياء قبل الأشخاص.

أغلقت الراديو عندما وصلت أمام باب منزلها وإن استمرغناؤها بصوت خفيض وهي تلملم أشياءها وتستعد للهبوط. رن جرس هاتفها فتوقفت عن الغناء، لم تهتم بتأمل النمرة التي ظهرت والتي يبدو أنها لا تعرفها ففتحت الخط وأسندت التليفون على أذنها بكتفها ويداها تستكملان ترتيب حاجياتها. سمعت صوت رجل غريب يهتف في هدوء واتزان:

- أستاذة يارا أبو بلاط؟

- أيوه أنا. مين معايا؟

- لا حضرتك ماتعرفينيش ومش مهم تعرفيني. المهم إنك تفهمي الكلام اللي هاقوله دلوقتي كويس قوي.

لمزيد من الكتب الحصرية

توقفت يداها عن الترتيب ومدت يمناها وألصقت التليفون جيدا بأذنها وهي تهتف في ارتياب:

- مين بيتكلم؟

ظل الصوت هادئا وإن ازداد صرامة وهو يقول:

- قلت لك إنتي ماتعرفينيش واسمعيني كويس لو سمحتي. اللي إنتي بتدوري عليه أحسن لك تنسيه خالص. الملفات رجعيها تاني بهدوء جوا المجموعة وكأنها ماطلعتش من مكانها. والحاجات اللي ربما بعتيها لك أحسن لك تتخلصي منها في أقرب فرصة وتنسيها تماما. بالعربي كده انسي كل اللي حصل لك من يوم ما وصل لك الطرد لحد دلوقتي وكأنه ماحصلش في حياتك. ماتستهونيش بكلامي وتطلعي غبية زي أختك. أديكي شفتي الأسامي اللي في اللستة وعارفة كويس هما ممكن يعملوا إيه. وقبل ده كله أديكي شفتي إيه اللي حصل لريما لما استهونت بينا وبكلامنا وعملت اللي في دماغها. كانت آخرتها إننا رميناها من فوق سطح عمارتها زي شوال الفحم. فكري كويس في كلامي واعرفي إننا سهل جدا نوصل لك ونخلص معاكي بس إحنا برضو لسه عاملين خاطر لمنصور بيه ومش عاوزين تبقى آخرته معانا إننا نخلص له على بناته الاتنين.

أغلق الرجل الخط دون أن ينتظر منها إجابة. ظلت للحظات غير قادرة على استيعاب ما حدث. لم تستطع حتى أن ترفع الهاتف من على أذنها كأن مخها قد توقف تماما عن العمل. بصعوبة شديدة حركت يدها وألقت الهاتف بجانبها قبل أن تعود بها مرة أخرى لتمسك بثمرة جوز الهند الذهبية المتدلية تحت عنقها. بدأ عقلها يستوعب قليلا ما حدث. لقد تلقت للتو تهديدا صريحا بالقتل من شخص لا تعرفه بعد أن أعاد على مسامعها كل ما حدث لها في الأيام الماضية كأنه كان يتابعها خطوة بخطوة.

و لكن بدلا من أن تنجرف خلف إحساسها بالخوف والرعب كما يجب أن يحدث لها وجدت دموعها تنساب بغزارة وقد اشتد ضغط يدها على الثمرة الذهبية مثلما تشعر هي بوجود يد تعتصر الآن قلبها وتغرس أظافرها في لحمه بلا رحمة. كأن كل القهر والحسرة والندم والألم قد تجمعوا بداخلها بعدما أدركت شيئا جعلها تكره نفسها قبل أن تكره أي شيء أو أي شخص آخر في الدنيا: ريما لم تنتحر. ريما قتلت. ويبدو أنها قتلت لأنها كانت تحاول أن تكون إنسانة جيدة لا تخشى تهديدا يدعوها للتخلف عن عمل شيء صالح كانت مؤمنة به.

لمزيد من الكتب العصرية

## (٥١)

عندما فتحت أم حمدي باب الشقة أخفت دهشتها خلف ابتسامة طيبة وهي تهتف في سعادة:

- آنسة يارا؟ أهلا وسهلا. اتفضلي.

خطت يارا داخل الشقة في تردد. خطوات ثقيلة منهكة وعينان مرهقتان من كثرة الدموع التي ذرفتها والدموع التي قاومتها ووجه سكن في كل ملمح من ملامحه إحساس عميق بالذنب وكأنها محملة بكل أوزار الدنيا. حاولت أن تتماسك وهي تهتف في صوت ضعيف ومبحوح:

- طنط عايدة موجودة يا أم حمدي؟

أجابت وهي تحاول إخفاء ارتيابها من مظهر يارا:

- أيوه. اتفضلي استريحي وأنا هابلغها إنك هنا.

اختفت أم حمدي داخل المنزل بينما ألقت يارا بنفسها على الأريكة المواجهة للرواق الداخلي. زفرت محاولة التخلص من بعض من تلك المشاعر المحتدمة بداخلها كأنها صخور تحتك ببعضها البعض في عنف لتخلف شرارات من نيران تلذعها. منذ أن سمعت هذا الصوت الخشن الأجوف وهو يلقي بتهديداته في أذنها ويصدمها بما حاولت هي دوما تجنب معرفته حتى توقف عقلها عن العمل تماما حتى أنها لا تتذكر كيف ولم اتخذت قرار المجيء إلى هنا ولا كيف قادت سيارتها دون أن تصطدم بأي شيء. لا تتذكر حتى شكل الطرقات التي سارت فيها. كأن تلك الدقائق التي استهلكتها لتصل إلى هنا لم تكن موجودة في جدول وحسابات الزمن. فجأة أفاقت لتجد نفسها هنا. في المكان الوحيد الذي تشعر فيه ببعض من الأمان. بعقل يرفض العمل والاستيعاب ونفس خاوية وإحساس بشع بالذنب ينخر في صدرها ولا يعطيها حتى الفرصة لتتنفس في طبيعية.

أفاقت على صوت حفيف ثوب يقترب منها. كانت عايدة تخطو في روب منزلي أسود منقوش بورود كبيرة ملونة في غاية الأناقة. لم تجد وقتا لتستبدل ملابس المنزل بعد أن أخبرتها أم حمدي بوجود يارا. استغربت حضورها المفاجئ. انتابها شعور بالقلق تأكد عندما وصفت لها أم حمدي سريعا هيئة يارا المزرية فأسرعت تضع الروب على جسدها وخرجت نحوها في خطى متوترة وقد تيقنت من أن هناك شيئا ما قد حدث لتلك الفتاة المسكينة عندما رأت وجهها الممتقع وعينيها الغائرتين.

لمزيد من الكتب العصرية

نهضت يارا بصعوبة مستميتة لتحافظ على تماسكها. قبلتها عايدة وجلست على الأريكة الملاصقة لها وقالت في حنان محاولة إخفاء ارتيابها واستشفاف أي شيء:

- وحشتيني يا يارا يا حبيبتي.

فقالت يارا في نفس الصوت الواهن:

- وإنتي كمان يا طنط.

- إنتي عاوزة يحيى؟ هو مش موجود دلوقتي.

نظرت نحوها وهي تقول بصعوبة:

- ما أنا عارفة. أنا مش جاية له. أنا جاية لحضرتك.

ثم صمتت للحظة كانت كافية لتنهمر دموعها وهي تهتف في صوت متحشرج:

- أنا محتاجاكي قوي يا طنط.

اقتربت عايدة ووضعت يدها على ركبة يارا في حنان وهي تهتف في فزع بعد أن تفاجأت بدموعها:

- خير يا يارا؟ مالك يا حبيبتي؟

ازداد نشيجها وقالت وهي ترزح تحت ضعفها الشديد:

- أنا آسفة إني جيت فجأة. بس أنا مالقيتش حد تاني أروح له. لو كانت ماما عايشة كنت رحت لها. بس هي ماتت وسابتني لوحدي.

- ماتقوليش كده يا يارا. أنا زي ماما بالظبط. احكي لي. قولي لي إيه اللي حصل؟

مسحت جزءا من دموعها وإن لم يتوقف نشيجها وهي تقص المكالمة التليفونية في صوت متقطع وعندما انتهت هتفت عايدة في فزع:

- يا نهار أسود! ده تهديد واضح يا يارا. يعني الناس دي ممكن بجد تئذيكي.

قطبت يارا في استهانة وهي تقول:

- مش هو ده المهم يا طنط.

- أمال إيه المهم؟

صمتت يارا قليلا قبل أن تقول وقد عاودت دموعها الانهمار بشدة وقد ارتفع صوتها في حنق:

- ربما ما انتحرتش يا طنط. ربما اتقتلت!

ثم توقفت قليلا عندما أحست أن صوتها سيختنق وهي تتخيل شكل رجال ضخام مرعبين يقتحمون الشقة ويجرون ريما كدمية لا حول لها ولا قوة وقد أصابها ذعر وارتجاف في جميع أوصالها. ويصعدون بها الدرج وهي تقاوم مستميتة محاولة إفلات ذراعها من قبضاتهم الضخمة حتى يتألم ذراعاها ويصيبهما الوهن فيحملونها ويلقونها ويتركونها لتخترق الهواء البارد وهي تصرخ وقلبها يكاد يتوقف. فكل بوصة تقترب فيها من الأرض تدرك أن نهايتها قد حانت وأنها ستواجه المجهول الذي يغشاه كل الناس ويتركون الاستعداد له لمرحلة الشيب حيث يستسلمون لقدر لن يفيد الهروب منه. ثم فجأة ترتطم بالأرض وتشعر بألم عنيف ينزع أجزاء جسدها الصغير الرقيق من ترابطه قبل أن يسود ظلام الموت وتسيل دماؤها الدافئة النقية فوق أرض باردة لا تنتمي إليها ولا تستطيع أن تربت على جسدها المسجى في حنان كما كان يمكن أن تفعل أرض وطنها.

ازدردت يارا ريقها في صعوبة قبل أن تستطرد وقد بلغ حنقها مداه وازدادت دموعها:

- اتقتلت عشان كانت بتعمل حاجة صح، ماخافتش من تهديد وماتراجعتش عن حاجة هي مؤمنة بيها، وكل اللي فكرت فيه قبل ما تموت هي إنها تلحق توصل نتيجة اللي عملته لأي حد عشان يكمل بعدها. والحد ده اللي هي وثقت فيه وحبّته حتى من قبل ما تشوفه هو أنا. أختها اللي كانت فاكرة إنها بتفكر فيها وعاوزة تشوفها زي ما هي حاسة ناحيتها.

تقلصت ملامح وجه عايدة في إشفاق وهي ترى إحساس الذنب وهو ينتاب كل ذرة في وجه وجسد يارا، يقتحمها بلا رحمة ويطعنها بألف سكين حادة في اللحظة الواحدة فتبكي من الألم والذنب والحزن، وتزداد حدتها في تأنيب نفسها وهي تهتف في صوت مختنق ونبرات متقطعة:

- و في نفس الوقت كنت أنا راسمة لها صورة بشعة في خيالي، بنت مستهترة وتافهة ومغرورة ومتدلعة، مابتفكرش غير في اللبس والمكياج، عمرها ما فكرت فيا ولا جيت على بالها من أساسه. لو في يوم عرفتني أو حست بوجودي أو شافتني هتعاملني بكل احتقار وقرف، إزاي أنا ممكن بعد كل كده أسامح نفسي؟ إزاي هاعيش وأنا حاسة بكل الذنب ده ناحيتها من غير ما ألاقي فرصة واحدة أعوضها فيها عن ظني البشع ناحيتها أو أعتذر لها؟ أنا قرفانة من نفسي، أنا ماستاهلش إن يبقى عندي أخت زي ريما، ماستاهلش ثقتها فيا.

فجأة اختنق صوتها وأحست بشيء ثقيل يجثم على صدرها، شيء تعرفه جيدا على الرغم من مرور سنوات منذ آخر مرة زارها فيه، شيء جثم على صدرها لأول مرة عندما تركها كريم وصدمها في حبها له، وظل يزورها كضيف ثقيل حتى استطاعت بصعوبة أن تتخلص منه بعد وفاة والدتها ببضعة أشهر. إنها أزمة التنفس، كأن هناك حجرا ثقيلا أو جبلا يدهس رئتها في عنف ويحطم ضلوعها. أخذت تسعل بشدة قبل أن تتلاحق محاولاتها لأخذ شهيق بدا في تلك اللحظة كأنه أصعب شيء يمكن الوصول إليه. ارتمت إلى الخلف بوجه ممتقع وقد تصاعد صوت حشرجة أنفاسها اللاهثة وهي تحاول مستميتة استنشاق ولو ذرة هواء واحدة بينما يداها تضغطان بعنف على حواف الأريكة التي تجلس عليها كأنها تقبض بيدها على روحها التي أحست في تلك اللحظة أنها تترك جسدها بعنف.

ركزت كل حواسها في محاولاتها لاستنشاق الهواء وفقدت إدراكها لما يحيط بها، لم تفقد الوعي لكنها فقدت القدرة على فهم أو متابعة ما يحدث حولها، سمعت صوت عايدة وهي تهتف في ذعر، لم تستطع أن تميز كلماتها لكنها أحست بالذعر في نبراتها وحركاتها، أحست بأشياء كثيرة تحدث حولها وأشخاص يتحركون في سرعة وفزع، ثم أحست بأذرع تحملها وترقدها في مكان آخر لكنها لم تستطع أن تدرك ماذا يحدث أو تميز كلمة أو شخصا ممن حولها.

بعد فترة ما من الوقت أحست بأنفاسها تنتظم، إنها قادرة على التنفس الآن، تنفسا بطيئا لا يتناسب مع حاجة رئتها إلى الهواء لكنه جعلها تشعر بتحسن كبير، فتحت عينيها ببطء فرأت رجلا أصلع ممتلئا قليلا جالسا أمامها على الفراش يسحب من فمها بخاخة تشبه تلك التي كانت تساعدها على مواجهة أزماتها في الماضي، ابتسم لها في بشاشة واطمئنان على الرغم من هيئة العمل الجادة التي بدا عليها وقد شمر أكمامه وتناثرت حوله أدواته الطبية المختلفة، أدركت أنها لا تزال في منزل عايدة ويحيى وإن كانوا قد أرقدوها في غرفة لم تدخلها من قبل، خاصة عندما رأت عايدة هانم وهي تجلس بجانبها بنفس الروب المنزلي الأنيق وتتأملها بعينين دامعتين وابتسامة متلهفة، وأخيرا رأت أمامها يحيى، واقفا كتمثال، متجهما، لم تره من قبل متجهما هكذا حتى في أكثر الأوقات العصيبة التي مرا بها، إنه ليس قلقا عليها أو متلهفا أو حزينا، إنه متجهم في غضب، يخفي عينيه بعيدا عنها حتى لا ترى بركانا يثور فيهما.

وضع الطبيب البخاخة جانبا وهو يهتف مبتسما:

- حمد الله على السلامة يا أستاذة.

تساءلت في صوت ضعيف لم يتعاف بعد:

- هو إيه اللي حصل؟

فأسرعت عايدة تهتف في جزع:

- اللي حصل إني كنت هاروح فيها من خوفي عليكي. شكلك وإنتي مش عارفة تاخدي نفسك كان يرعب، لولا أم حمدي ماكنتش عارفة هاعمل إيه. هي اللي طلعت الدور العاشر ندهت لدكتور يونس وهي اللي كلمت يحيى.

تساءل الطبيب وهو منهمك في كتابة "روشتة":

- أستاذة يارا الأزمة دي حصلت لك قبل كده؟

تنحنحت يارا قبل أن تجيب في نفس الصوت الضعيف:

- أيوه، بس ده كان زمان قوي. بطلت تيجي من حوالي أربع سنين. ده أنا كنت افتكرت إني خلاص خفيت منها.

نزع الورقة التي كان يكتب فيها وأعطاها لعايدة هانم قبل أن يستطرد وهو يلملم حاجياته في الحقيبة:

- ماتخافيش إنتي كويسة جدا، أنا بس عاوزك تبقي أقوى من كده شوية قدام أي أزمة عشان تتجنبي النوبات السخيفة دي. كلي كويس وخدي الدوا ده واستريحي اليومين اللي جايين، أهم حاجة الراحة عشان جسمك منهك وتعبان، يعني حتى بلاش تتحركي من السرير لحد بكرة الصبح.

فهتفت يارا معترضة والابتسامة الواهنة عالقة على شفتيها:

- لا ماينفعش يا دكتور، أنا لازم أقوم أروح بيتنا حالا.

عندما سمع يحيى هذه الكلمات خرج من صمته الذي لازمه طوال الفترة الماضية، ازداد الغضب والتجهم على وجهه وهو يهتف موبخا إياها في عنف:

لمزيد من الكتب العصرية

- هو إيه ده اللي لازم تروحي؟! إنتي مش سامعة الدكتور بيقول إيه؟ إنتي تعبانة ومنهكة، فيه خطر عليكي لو قمتي من السرير، إزاي عاوزة تروحي تقعدي لوحدك بعد الحالة الزفت اللي كنتي فيها دي؟

توقف فجأة عن الصياح بعدما زجرته أمه بنظرة من عينيها، زفر في ضيق وتضجر والتفت نحو الطبيب الذي تشاغل عن هذا الموقف المحرج بجمع حاجياته وإغلاق حقيبته، هتف يحيى في غيظ مكتوم:

- اتفضل يا دكتور.

خرجا معا وقد خلفا جوا مشحونا في الغرفة، ظلت يارا تتابع يحيى بعينين مبهوتتين تمتلآن بالدهشة، أول مرة تراه يصيح ويتعامل بمثل هذه العصبية، كان يمكن أن تجيبه وتقول له أن أزمات التنفس كانت تهاجمها بعد وفاة والدتها وهي بمفردها في المنزل وكانت تجيد التعامل معها، على الرغم من أن ما حدث لها اليوم كان عنيفا بدرجة جعلتها تشك في قدرتها على حماية نفسها مثل ذي قبل، لكنها لم تفتح فمها، استحوذت الدهشة على كل حواسها وهي ترى يحيى، الرجل الهادئ الوقور، يتحول إلى أسد شرس يزأر في وجهها وينتفض في غيظ وغضب، لماذا فعل ذلك؟ إنها مريضة وتستحق عطفه وقلقه عليها وليس كل هذا العنف وتلك الحدة.

أفاقت على يد عايدة هانم وهي تربت عليها في حنان قبل أن تقول مبتسمة لتواسيها:

- ماعلش ماتزعليش، هو يحيى كده، لما يبقى فيه حد بيحبه قوي في خطر وهو حاسس إنه عاجز ومش قادر يعمل له حاجة، بيبقى مش طايق نفسه وبيتنرفز على الحد ده كأنه بيطلع خوفه وقلقه في شكل غيظ وعصبية عليه، إنتي عارفة لما تعبت ودخلت العناية المركزة السنة اللي فاتت يسرا حجزت على أول طيارة جاية من دبي وسمى جات جري من البحر الأحمر، مش عشان خافوا عليا ولا عشان يحيى مايبقاش لوحده معايا إنما عشان يحوشوه عني لأنهم عارفين إنه حاسس بالخطر وخايف عليا ومش قادر يعمل لي حاجة. فكانوا خايفين لحسن أول ما الدكاترة يسمحوا له بالدخول يتنرفز ويتعصب عليا ويزعق لي وأنا لسه تحت أجهزة القلب مافُقتش حتى من البنج.

قالت يارا في نبرة منكسرة:

- أيوه يا طنط بس أنا بقيت كويسة، مافيش داعي إنه يحس بالخطر عليا.

- يحيى مش حاسس بالخطر بسبب الأزمة اللي جات لك إنما بسبب مكالمة التليفون والتهديد بالقتل، أصل أنا اضطريت أحكي له عن كل اللي حصل بعد ما خليناه يسيب شغله ويجي بسرعة. باقولك إيه، أنا مش عاوزاكي تشغلي بالك بأي حاجة، عاوزاكي تستريحي على الآخر، تاكلي وتاخدي الدوا وتنامي بدري عشان جسمك يستريح.

أجابت يارا والضيق والحرج يملان وجهها:

- أيوه يا طنط بس إزاي أنا هابات هنا؟

ابتسمت عايدة وهي تقول في نبرة متفهمة:

- أنا عارفة إيه اللي في دماغك، بس ده يا حبيبتي ظرف طارئ، حتى لو يحيى ماكانش اتعصب أنا ماكنتش هاسمح لك تروحي وتقضي الليل لوحدك وإنتي في الحالة دي، إنتي مش هتبقي لوحدك، أنا وأم حمدي بايتين معاكم في نفس الشقة ويحيى يبقى ينام في أوضة أخواته المقفولة بقالها زمن، أو حتى يبات معايا في أوضتي عشان تستريحي هنا في أوضته على الآخر، لو لسه خايفة أو محرجة أنا ممكن أخلي يحيى يروح يبات الليلة في أي أوتيل.

فأسرعت يارا تهتف معترضة وقد بلغ حرجها مداه:

- لا يا طنط مش للدرجة، ويعدين أنا مش قلقانة من كده، أنا بس مش عارفة الناس هتقول إيه لما ماروحش بيتي النهارده.

فقالت عايدة مبتسمة وهي تحكم الغطاء حول يارا:

- الناس مش هينفعوكي لو بعد الشر جرى لك حاجة وإنتي قاعدة لوحدك، يا ستي ولو حد سألك أو حاجة ابقي قولي إنك كنتي بايتة في الشغل أو عند واحدة صاحبتك، كفاية كلام بقى عشان مافيش فايدة من كل اللي بتقوليه ده، كده ولا كده إنتي مقبوض عليكي ومش هتعرفي تخرجي قبل على الأقل بكرة الصبح.

ابتسمت يارا دون أن تجد ما تقوله، هي وإن كانت تحاول العودة إلى منزلها مستخدمة حججا قد تبدو منطقية، لكنها لا تريد أن تبقى الليلة وحدها تحت رحمة أفكارها المتخبطة وإحساس الذنب الذي يعتصر قلبها والمرض الذي عاد فجأة بعد أن ظنت أنها قد تخلصت منه إلى الأبد.

ذهبت عايدة لتباشر أعمال المنزل وتركتها وحدها. أخذت تدير عينيها في أرجاء الغرفة. إنها غرفة يحيى، مكانه الخاص الأثير الذي يمضي به وقته. لا عجب أن تلك الغرفة الرقيقة المنظمة هي صومعته. تشعر به في كل ركن حولها. كأن الأثاث يشبهه والجدران تنطق باسمه. أخذت ترمق المرآة وخزانة الملابس والمكتبة الضخمة المليئة بالكتب بعينين امتزج فيهما سعادة بسبب وجودها وسط أشيائه ولوم بسبب موقفه الأخير والغضب الذي تحدث به معها كأنها تلوم الأشياء على ما فعله بها صاحبها.

أفاقت على صوت الباب. دخلت أم حمدي ووضعت أمامها طبقا كبيرا مليئا بالفاكهة الطازجة وكوب لبن دافئ ليريح أعصابها. ساعدتها على الجلوس قبل أن تخرج وتتركها مع عايدة التي أخذت تتجاذب معها أطراف الحديث وهي تراقبها حتى تتأكد من أنها قد تناولت كل طعامها. وبعد أن أنهته أتت أم حمدي فرفعت الأطباق وأحضرت لها الدواء فأخذته قبل أن تنزلق مرة أخرى في الفراش فأحكمت عايدة الغطاء حولها وخرجت وتركتها لتنام في هدوء كما أمر الطبيب.

أغمضت يارا عينيها ولدهشتها أخذت تذهب تدريجيا في النوم. يبدو أنها بالفعل منهكة وتحتاج إلى النوم والراحة. ولكن أكثر ما جعلها تستسلم بسهولة للنوم على الرغم من كل ما حدث لها وكل ما ينتابها من حزن وحيرة وقلق. وعلى الرغم من أن يحيى لم يحاول أن يتحدث معها أو يدخل الغرفة مرة أخرى بعدما خرج مع الطبيب كأنه يعاقبها بسبب قلقه عليها. أكثر ما جعلها تنسى كل هذا وتغفو بعمق هو إحساسا الأمان والاطمئنان اللذان ملآها بعدما وجدت كل هؤلاء يهتمون بها كل هذا الاهتمام. إحساسان لم تكن لتشعر بهما لو كانت عادت إلى منزلها وقضت الليل وحدها دون أن يكون هناك من يتابع طعامها ودواءها ويحكم حولها الغطاء أو حتى يغضب ويصرخ في وجهها لأنه قلق عليها.

لمزيد من الكتب العصرية

(٥٢)

عندما فتحت عينيها كانت السماء لا تزال مظلمة، أدركت أنها استيقظت قبل الفجر لأنها خلدت إلى النوم مبكرا جدا، حاولت أن تغمض عينيها وأن تعود للنوم مرة أخرى ولكنها اكتشفت أن جسدها قد أخذ ما يكفيه من الراحة وأنها تريد أن تنهض وتحرك عضلاتها المتيبسة من أثر الرقدة الطويلة. هبطت من الفراش، أحست بدوار خفيف لكنها تمالكت نفسها مسرعة، ارتدت روبا منزليا من الساتان الأبيض كانت قد تركته لها عايدة على حافة الفراش، أحكمت إغلاقه حول جسدها جيدا، وقفت لدقائق حائرة لا تعلم ماذا تفعل أو أين تذهب، جذبها شكل المكتبة الكبيرة الملاصقة للنافذة من حيرتها، أضاءت المصباح الصغير الموضوع بجانب الفراش واقتربت من المكتبة حتى إذا أصبحت أمامها مباشرة توقفت وعقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تتأمل الكتب المصفوفة بعناية فوق الأرفف، نظيفة وأنيقة ومنظمة، مرت بعينيها سريعا على العناوين، كلها تقريبا كتب في السياسة والتاريخ، كتب لأبرز المحللين السياسيين في مصر والعالم، مذكرات رؤساء وملوك وسياسيين كتبوها بأنفسهم أو كتبها أشخاص آخرون عنهم، كتب عن الحروب المختلفة التي مرت بها منطقة الشرق الأوسط وبضعة كتب عن الحروب العالمية الأولى والثانية، في أقصى الصف الأخير كان هناك بضع روايات لإحسان عبد القدوس ملقاة في شبه إهمال وإن كانت لا تزال منظمة ونظيفة مثل باقي الكتب. لا تعلم يارا لماذا ولد بداخلها إحساس يؤكد لها أن تلك الروايات ليس ملكا ليحيى وأنه لم يقرأها من قبل، كانت شبه موقنة أنها روايات عايدة هانم، يبدو من هيئتها ولون صفحاتها الباهت أنها كتب قديمة لم يتم إعادة طبعها حديثا، ابتسمت وهي تتخيل شكل عايدة وهي طالبة في الجامعة تشتري روايات إحسان عبد القدوس من على الرصيف أو من مكتبة صغيرة وتعود مسرعة إلى المنزل لتقرأها في شغف، وهي تهيم في خيالها مع أبطالها وتقارنهم بمراد – والد يحيى – هذا الذي نجح في الفوز بقلبها، لا تعلم لماذا تخيلت كل ذلك، إنها لا تعلم شيئا عن قصة الحب التي جمعت عايدة ومراد، لا تعلم حتى إن كانت قد أحبته وهي في الجامعة أم بعد ذلك، لكنها أحست من خلال كلمات يحيى العارضة أنه كان حبا قويا ذلك الذي جمعهما كل تلك السنوات. فجأة قفز ذهنها إلى والدتها، كأنها اكتشفت الآن فقط كم كانت تلك الأم رومانسية وضعيفة أمام حبها ومشاعرها، نعم كانت أمها رومانسية بشدة، كان عندها روايات كثيرة مثل تلك

تحتفظ بها من أيام الجامعة وتحرص على تنظيفها ووضعها في مكان مخصوص بعيدا عن أيدي كل الناس، كان يمكن أن تظل تلك القصة مبهمة أيضا لولا هاشم. إنها الآن تستطيع أن تتخيل شكل أمها وهي تلتهم تلك الروايات ويخفق قلبها كلما قارنت بطلا من أبطالها بمنصور، هذا الذي امتلك كل مشاعرها التي لا تملك ما هو أغلى منها. يا الله لقد بدأت الآن فقط تشعر بمدى مأساة أمها. تلك المأساة التي لا تنحصر فقط في أنها عاشت طوال عمرها بمفردها، يتهرب منها أقرب المقربين خوفا من نفوذ طليقها فوجدت نفسها مسؤولة عن تربية ابنها واحتضانها وحمايتها من دنيا هي نفسها غير قادرة على مواجهتها. إن المأساة أكبر من ذلك. مأساة أهم أسبابها هي تلك الرومانسية المفرطة التي طالما حاولت شريفة إخفاءها بلا فائدة. كيف استطاعت أن تتحمل كل تلك السنوات وهي تكبت بداخلها حبا ولد وترعرع في قوة وعنفوان. لم يزده الانفصال والطلاق إلا قوة وقدرة على تعذيبها؟ كيف تحملت الخذلان الذي شعرت به عندما تغير حبيبها حتى اضطرت أن تطلب منه الطلاق؟ إنها تعرف هذا الخذلان جيدا. أذاقها إياه كريم من قبل، ولكنها – يارا – لم تستطع أن تتحمله. سقطت في دوامة انهيار عصبي وأزمات ضيق تنفس على الرغم من أنها كانت أقل رومانسية من والدتها. كيف إذا استطاعت أمها أن تتحمل كل ذلك؟ كيف تحملت لطمة زواجه بأخرى غيرها؟ كيف استطاعت أن تتظاهر كل تلك السنوات بقوة هي لا تمتلكها وتجاهل لحقائق تطعن في قلبها مثل سكاكين حادة مؤلمة؟ هل كانت تعلم أنه كان هو أيضا لا يزال يحبها؟ بل هل حقا ظل يحبها طوال عمره كما قال لها هاشم؟ قبل ذلك كانت كل تلك الأفكار لن تزيدها إلا كرها لمنصور بك. أما الآن وبعد ما عرفته من هاشم لا تعرف بم يجب عليها أن تشعر؟ هل تشفق عليه؟ هل تكرهه؟ هل تختلق له الأعذار؟ ماذا تفعل؟ تخاف أن تكرهه وتحنق عليه مثلما كانت تفعل دائما ثم تكتشف ما يجعلها تندم على ذلك مثلما حدث لها مع ريما. لكنها أيضا غير قادرة على اختلاق أعذار كاملة له أو حتى التفكير في إمكانية أن يكون كل ما قاله هاشم حقيقيا. مأساة أمها تقف بينها وبين ذلك. لماذا عرفت. أما كان جهلها واستسلامها لما رسمته في خيالها عن هذا الأب وتلك الأخت أكثر إراحة لها مما تعاني منه الآن؟

خيوط الفجر تتسلل وتملأ السماء في هدوء. أدركت أنها لو ظلت واقفة في مكانها لأصابها الجنون من أفكارها المعقدة التي ستقودها حتما في النهاية إلى ريما وإحساس الذنب الذي أصبح أكبر من أن

تستطيع تحمله. تحركت نحو الباب وفتحته في هدوء خوفا من أن توقظ أحدا. خطت نحو الصالة في تردد. لا تريد البقاء في الغرفة لكنها أيضا تشعر بحرج شديد لأنها تتجول هكذا وحدها في المنزل. عندما أصبحت في منتصف الصالة شعرت بنسمات الفجر الباردة وهي تلذع وجهها وجسدها. كانت ستائر الشرفة البيضاء تتطاير في خفة وقد بدا خيال يحيى خلفها واضحا على الرغم من أن خيوط الفجر لم تتغلب على الظلمة المنتشرة في كل مكان.

تقدمت في هدوء، أزاحت الستائر. كان واقفا وقد أعطى ظهره لباقي الشقة واضعا يديه في جيبي سرواله الرياضي، وقد ثبت عينيه في الفراغ الممتد أمامه بينما لم تفارق علامات العبوس والتجهم وجهه كأنه خارج للتو من غرفته بعد أن وبخ يارا.

وقفت بجانبه دون أن تنظر نحوه. استرق نحوها نظرة سريعة لم يبد خلالها أي اندهاش ثم هتف في صوت مبتور وهو لا يزال يحدق في الفراغ أمامه:

- إيه اللي صحاكي دلوقتي؟

قالت دون أن تنظر نحوه:

- نمت بدري فطبيعي إني أصحى بدري.

ثم التفتت ونظرت نحوه وهي تتساءل:

- إنت إيه اللي مصحيك دلوقتي؟

- أنا مانمتش أصلا.

- ليه؟

بدا أنها تريد أن تتحدث بينما هو يتجنب ذلك. يشعر بنفس الحنق والضيق الذي يشعر به كلما أحس بخطر ما على إنسان يحبه فيحاول تجنب الحديث معه والاحتكاك به لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يمنع نفسه عن توبيخه وتسليط غضبه عليه دون أن يعلم سببا لذلك حتى لو كان هذا الشخص لا يد له في الخطر الذي يعترضه. أخرج يديه من جيبي السروال واستند بهما على سور الشرفة وهو يزفر في ضيق دون أن يجيب على سؤالها. ظلت صامتة منتظرة إجابته وعندما طال صمته وبدا أنه لا ينوي الحديث ويتهرب منه لم تجد بدا من إثارته. عقدت ذراعيها أمامها وهي تهتف في تحد:

- هو ده العيب بقى؟

نظر نحوها وهو يهتف مستنكرا:

- عيب إيه؟

- العيب اللي فيك. ما أنا قلت برضه مش معقول مايكونش فيك عيوب، بس عيبك طلع غريب قوي، إنت تقريبا اتحولت، بقيت حد تاني غير يحيى اللي أنا عارفاه. واحد حاسة دايما إنه فجأة هيصرخ فيا ويلطشني بالقلم.

مط شفتيه في ضيق قبل أن يهتف في صبر نافد:

- يارا إنتي عاوزة إيه بالضبط؟

- عاوزاك تهدا عشان أعرف أتكلم معاك.

التفت نحوها بكل جسده وهو يهتف في حدة:

- أتكلم معاكي في إيه؟ بعد التهديد اللي جالك وكل اللي حصل لك إمبارح ده عاوزانا نتكلم في إيه؟

أجابته وقد بدأت عدوى الحدة تنتقل إليها:

- ما هو علشان التهديد اللي جالي وعلشان كل اللي حصل إمبارح لازم تهدا عشان نعرف نفكر ونتناقش.

- نفكر ونتناقش في إيه؟

- في اللي جاي، عاوزين نشوف هنكمل إزاي في الموضوع بتاعنا بعد الحاجات الجديدة اللي حصلت دي؟

نظر يحيى نحوها في دهشة شديدة، كأنه لا يصدق أنها تفوهت بهذا الكلام، قال في عصبية شديدة وكل خلجاته تنتفض:

- موضوع إيه اللي هنكمله؟ يارا واضح إنك مش قادرة تقدري حجم الخطر اللي إنتي فيه، إنتي جالك تهديد صريح بالقتل، ومش من أي حد، ده من ناس تقريبا بفلوسهم ونفوذهم ومراكزهم بيتحكموا في العالم كله. يعني لو حسوا بنسبة واحد في الألف إن فيه أي خطر عليهم مش هيترددوا في إنهم يقتلوا ويحرقوا ويقوموا حروب كمان عشان يحموا نفسهم، والدليل ريما، واضح إنهم هددوها وإنها ماسمعتش الكلام فقتلوها.

أجابت يارا في حدة وقد بدأت الدموع تطفر من عينيها:

- ما هو عشان ربما أنا عاوزة أكمل، ماينفعش أبقى أقل منها، واضح إنها كانت بتحاول تكشف الناس دي وتعمل حاجة كويسة، ماخافتش من التهديد وكملت ولما حست فعلا إنها هتموت اختارتني أنا ووثقت فيا عشان أكمل بعدها، ماينفعش إني أطلع أقل من الثقة دي.

هتف يحيى في غيظ شديد:

- ثقة إيه اللي بتتكلمي عنها؟! وحاجة إيه الكويسة اللي ربما كانت عاوزة تعملها دي؟

- ماعرفش، وعشان كده لازم أكمل للآخر.

صرخ يحيى بوجه محتقن وقد بلغ غيظه مداه:

- تكملي إيه؟ إنتي ليه مش قادرة تفهمي إن حياتك في خطر؟ ومش إنتي لوحدك، كلنا في خطر، أي حد عرف أي حاجة عن موضوع الصندوق ده حياته في خطر.

هتفت يارا في ضيق وهي تهم بالانصراف من أمامه:

- خلاص يا يحيى، لو خايف على نفسك ابعد إنت، وأنا هاكمل لوحدي.

شعرت به يمسك بذراعها من الخلف، توقفت واستدارت على مضض لتصبح في مواجهته، زفر يحيى في ضيق وإن بدا أنه قد بدأ يعود لطبيعته مرة أخرى، اختفت آثار التجهم والغيظ، ذهب الاحتقان من ملامحه وحل محله ضيق مستسلم، أغمض عينيه وهو يلقي برأسه إلى الخلف كأنه ينتزع نفسه بصعوبة من ثوب هذا الشخص الغريب ليعود إلى نفسه الهادئة، نظر نحوها وهو يقول في نبرة هادئة متوسلة:

- يارا إنتي ليه مش قادرة تفهميني؟ أنا مش خايف على نفسي، أنا خايف عليكي، أنا ما صدقت لقيتك ومش مستعد إني أخسرك أبدا.

التمعت عيناها وهي تنظر نحوه وقد بدأ قلبها يخفق بينما استطرد هو قائلا في نفس النبرة:

- يارا أنا متلخبط، دي أول مرة أحس باللي أنا حاسه ده، حتى وقت الجامعة عمري ما حسيت بحاجة ناحية أي واحدة من كل الجنسيات اللي كانوا حواليا، طول السنين اللي فاتت وأنا مركز في شغلي بس، وبعدين فجأة وبعد ما كنت فاكر إن الوقت خلاص عدى وأنا قربت على التلاتين وفاتني القطر زي ما بيقولوا، فجأة الاقي نفسي باحبك.

لمزيد من الكتب العصرية

اتسعت حدقتاها في دهشة بينما دق قلبها بعنف حتى أحست أنه سيتوقف بين ضلوعها. لم تكن تتوقع أن يحيى يمكن أن يقول شيئا. هو نفسه لم يكن مصدقا أنه يمكن أن يمتلك الشجاعة الكافية ليصارحها بما يعتمل بداخله. بدا أنه غير مدرك لخطورة ما يقوله وتأثيره على يارا أو حتى مدى الشجاعة التي واتته والتي لو كان ظل شهورا يشحذ فيها لفشل ربما في الوصول إليها. حيث أنه استطرد في بساطة شديدة بينما يارا تحملق فيه مشدوهة وقد ترقرقت الدموع في عينيها:

- أنا تعبت يا يارا. وعمري ما حسيت ولا فهمت إن أنا كنت تعبان إلا بعد ما عرفتك وعرفت قد إيه أنا بابقى مستريح وأنا معاكي. وعشان كده أنا عاوز أفضل معاكي. مش مهم عندي موضوع الصندوق ده يخلص على إيه. كل المهم بالنسبة لي إنه يخلص بسرعة وآخدك وتطير على البلد اللي أنا هاروحها أيا كانت. الحركة الدبلوماسية صدرت بس أنا لسه مش متأكد تماما من بعثتي بسبب شوية مشاكل قربت تتحل خلاص وأنا كل اللي يهمني إني مش هاسافر المرة دي إلا وانتي معايا.

ازدردت ريقها لتبلل حلقها الذي جف بسبب أنفاسها التي تتابعت سريعا محاولة اللحاق بدقات قلبها. الذي كاد أن يتوقف من كثرة وثقل وجمال ما سمعته منه ورأته في عينيه وأحست به نحوه في دقيقة واحدة. بصعوبة شديدة حاولت أن تمنع دموعها من الانزلاق وقد بدأت كل حاسة من حواسها وكل عضو في جسدها يدرك أنه يعرض عليها الزواج بشكل غير مباشر. إنها لا تخدع نفسها فشخص مثله لن يحلق بها ويجوب معها أنحاء الدنيا الواسعة إلا وطرحتها البيضاء المثبتة في رأسها بتاج رقيق تطير خلفهما كأنها تضع حدا فاصلا بين شقاء الماضي وسعادة المستقبل.

فركت يديها الباردتين وقالت في صوت خافت خجول وقد أحنت رأسها متحاشية النظر في عينيه اللتين احتلتهما كل تلك الجرأة والصراحة بطريقة مفاجئة لم تستطع تحملها:

- أيوه يا يحيى بس. الموضوع ده مهم بالنسبة لي جدا. أنا مش مستعدة أطلع صغيرة قدام نفسي وقدام أختي الصغيرة.

اقترب منها خطوة اغتالت المسافة الموجودة بينهما. وضع يديه حول وجهها في رقة. تخللت أصابعه خصلات شعرها الفاحم المنسدل على جانبي وجنتيها اللتين ازدادتا احمرارا وهي تشعر لأول مرة بقربه منها دون أن يفصل بينهما أي فراغ وتشعر بوجهها وهو بين يديه كأنه يعيد تشكيله مرة أخرى بأصابعه. أحست برعدة في جسدها. ومضات أو شحنات كهربائية تنتشر فيها بسرعة البرق. تفصل

كل خلية عما حولها من خلايا، كأنها عبارة عن ملايين من الخلايا المنفصلة، تدور وتقفز وتنساب مثل مياه متدفقة في شدة وعنفوان بين صخور الجبال. فالسعادة التي شعرت بها في تلك اللحظة كانت أكثر مما يستطيع جسدها تحمله فتفتت إلى كل تلك الخلايا بينما تجمعت روحها وتماسكت محاولة التمسك بآخر ذرة من القوة لديها وهي تنظر نحو شفتيه اللتين هتفتا في صدق:

- وأنا مش مستعد إني أخسرك.

دون أن تعي أو تفكر وجدت نفسها تقترب منه، حطمت آخر ما تبقى من مسافة بينهما، بهدوء تسللت إلى حضنه، كأنها لم تجد كلاما كافيا يمكن أن تجيبه به فاختارت أن تجيب دون كلام. استقبلها بهدوء، كأن ما فعلته شيء عادي ومتوقع، طوقها بذراعيه وضغطها نحو صدره برفق، أحست أن خلاياها تهدأ وتتجمع وتترابط مرة أخرى، اختفت الرعدة من كل أوصالها، استرخت وكأن جسدها لم يعرف شيئا اسمه ترابط وانسجام الخلايا من قبل، أحس باسترخائها وهدوئها بين يديه، ازداد ضغطه وضمه لها كأنه يتأكد من أنها وافقت على أن تكون له، تحلق معه أينما ذهب وأن أحدا لن يستطيع أن يشعرها بالأمان سواه.

فجأة أحسا بحركة خلف الستائر، انفصلا بسرعة قبل أن تظهر أم حمدي وقد بدت آثار النوم في عينيها، نظرت نحوهما في دهشة تحولت إلى مكر امتلأ به صوتها وهي تهتف في استغراب مصطنع:

- هو إنتوا صحيتوا تصلوا الفجر زيي؟

حاول يحيى إخفاء ارتباكه وهو يهتف مجيبا:

- لا يا أم حمدي، ده أنا بس ماكانش جايلي نوم.

نظرت نحوه في ارتياب ثم التفتت نحو يارا وهتفت محاولة إخفاء ابتسامتها:

- وإنتي يا آنسة يارا؟

أجابت يارا محاولة تحاشي النظر إليها:

- أنا صحيت بدري.

حركت أم حمدي رأسها متظاهرة بتصديقهما قبل أن توجه حديثها نحو يارا في نبرة ذات مغزى:

- طب بركة إنك صحيتي قبل الشروق، خشي اتوضي وصلي الفجر على بال ما أجيب لك كباية لبن تشربيها وتدخلي تكملي نوم، إنتي محتاجة ترتاحي يا آنسة يارا.

ثم التفتت نحو يحيى وقالت بابتسامتها الماكرة:

- وإنت كمان يا أستاذ يحيى، صلي الفجر وادخل نام، كفاية سهر كده عندك شغل بكرة الصبح.

حركا رأسيهما في استسلام دون أن ينطقا بكلمة واحدة كأنهما طفلان ضبطتهما أمهما وهما يرتكبان إحدى الحماقات. افترقا وهما يختلسان نحو بعضهما البعض نظرات تمتلئ حسرة على فيض من كلمات طالما تاقا إلى تبادلها وجاء افتراقهما هذا ليفتح الباب على مصراعيه أمام تلك الكلمات قبل أن تأتي أم حمدي وتغلقه بنظرتها وابتسامتها الماكرتين.

لم يتوقف قلبها عن الخفقان بشدة وهي تصلي وتشرب اللبن الذي ما إن فرغت منه حتى قالت لها أم حمدي في دهاء وهي تظلم الغرفة تاركة إياها لتنام:

- اللبن ماكانش ليه لازمة، وشك مورد من غيره.

ابتسمت وبحركة لا إرادية مدت يدها ولمست وجنتيها، أحست بهما ساخنتين، رأت في الظلام ومن دون مرآة وجهها وهو "مورد" كما قالت أم حمدي، كأن الحياة الجديدة - التي ولدت فيها منذ قليل عندما انفصلت خلاياها والتحمت مرة أخرى مثل مولود جديد بين ذراعيه - استقبلتها بباقتين من الزهور نسقتهما على وجنتيها.

ارتمت إلى الخلف تاركة شعرها مبعثرا حول رأسها على الوسادة وعيناها معلقتان في الفضاء تسترجعان وتتأملان تلك اللحظة التي جمعتها معه منذ قليل، حاولت عبثا السيطرة على نفسها وعلى قلبها الذي أحست أنه سيتوقف مما انتابه من جنون، تقلبت بشدة في الفراش محاولة إخراج ما بداخلها من طاقة حتى تهدأ وتخلد للنوم، في النهاية احتضنت الوسادة بشدة ودفنت رأسها فيها وتركت النوم يتسلل إلى جفنيها وقد اتسعت ابتسامتها عندما بدأت تدرك أن رائحة تلك الوسادة هي نفس الرائحة التي شمتها وهي بين ذراعيه كأنه ترك رائحته على وسادته تلك ليؤكد لها أن ما حدث لم يكن حلما.

(٥٣)

استيقظت وقلبها لا يزال يدق، كان نومها متقطعا مليئا بأحلام بعضها حقيقية جميلة حدثت ويأبى عقلها الباطن إلا أن يسترجعها لتعيشها مرة أخرى أثناء نومها، والبعض الآخر من نسج خيالها الذي ظل خائفا طيلة الفترة الماضية من الإفصاح عما بداخله حتى جاء هذا الحدث الصغير الذي زلزلها فأفقدها القدرة على السيطرة على هذا الخيال الجامح وانطلقت أحلامها كنهر ظل حبيسا خلف سد شاهق لسنوات فما إن انهار هذا السد حتى اندفعت التيارات، التي على الرغم من عنفها لم تدمر شيئا مما مرت به بل أخذت تنحت الصخور على جانبيه مشكلة مناظر طبيعية آسرة تماما مثلما انطلقت أحلامها تنحت روحها برفق وحماس فتعيد تهذيبها وتجميلها بعد كل ما مر بها من ضربات عنيفة كادت أن تشوه روحها.

كأن الله بعث بك يا يحيى لتكون بجانبي في كل مرة أحتاج إليك فيها حتى في أكثر الضربات عنفا، تلك التي عرفت من خلالها ما حدث لريما ومررت بأكبر نوبة إحساس بالذنب يمكن أن يمر بها إنسان والتي كدت أن أنهار بسببها وأفقد نفسي وروحي بل وحياتي كلها جئت أنت لتحيطني بذراعيك دافعا عني شر طوفان كاد أن يقتلعني ومستبدلا به نهرا صافيا من الأحلام الجميلة التي هذبت روحي بدلا من أن تسحقها.

كانت الغرفة تمتلئ بأشعة الشمس الدافئة عندما قفزت من الفراش في حماس شديد، أحكمت الروب الأبيض حول جسدها، سوت خصلات شعرها التي لمسها يحيى منذ ساعات برفق كأنها تخاف أن تزيل آثار أصابعه من عليها، ألقت نظرة خاطفة على وجهها الذي كان لا يزال به بعض الشحوب، تمنت لو أنها تملك الآن شيئا من أدوات زينتها القليلة حتى تزيل هذا الشحوب فتلقاه مشرقة في هذا الصباح المميز لها وله، لكنها اكتفت بابتسامتها التي بدت جميلة ومشرقة جدا في طبيعية شديدة.

خرجت في خطوات رشيقة كفراشة تطير، تبحث عنه في أرجاء المنزل كما تبحث الفراشة عن رحيقها بين مروج واسعة، عيناها متلهفتان وخائفتان تتوقعان ظهوره أمامها في أي لحظة فتحاول السيطرة على قلبها الذي لا يزداد إلا خفقانا.

هدأت قليلا عندما وجدت عايدة هانم تجلس بمفردها في الصالون تتصفح جريدة. ما إن أحست بها حتى خلعت نظارة القراءة وألقتها مع الجريدة على المائدة المنخفضة قبل أن تنهض وتقترب منها قائلة بابتسامة تمتلئ حماسا وسعادة:

- حمد الله على السلامة. كده تخضيني عليكي كل الخضة دي.

جذبتها واحتضنتها بشدة كأنها تتأكد من سلامتها. جميلة تلك الأسرة بما تشملها به من عناق يعطيها إياه كل فرد فيها فيملؤها سعادة وإحساسا باطمئنان واهتمام لم تشعر به منذ أن رحلت والدتها وتركتها بمفردها في هذه الدنيا الواسعة.

خرجت من حضنها ونظرت نحوها بامتنان كأنها تشكرها على كل هذا الخوف الذي خافته من أجلها ثم قالت لتطمئنها:

- ماتخافيش يا طنط. أنا كويسة الحمد لله.

جلستا معا في الصالون قبل أن تقول يارا في استحياء كأنها طفل يطلب حلوى محرمة:

- طنط هو أنا ممكن أشرب قهوة؟

فحركت عايدة رأسها معلنة رفضها وهي تقول حازمة:

- الفطار واللبن والعصير الأول وبعدين نشوف موضوع القهوة ده.

ابتسمت يارا مستسلمة للأوامر المتعسفة المحببة إلى قلبها بينما نهضت عايدة واتجهت نحو المطبخ لتقوم بالإشراف على تحضير الإفطار. وقبل أن تختفي من أمامها تجرأت يارا قليلا وسألت عن يحيى. توقعت أن تقول لها أنه لا يزال نائما بعد أن ظل حتى الفجر بلا نوم لكنها فوجئت بعايدة تقول لها في قلة اكتراث قبل أن تختفي تماما:

- يحيى نزل الشغل بدري قوي النهارده.

اختفت الابتسامة من على وجهها. ظلت لثوانٍ جامدة في مكانها كأن الدماء قد توقفت عن السريان في عروقها. وجدت نفسها تمد يدها مسرعة نحو جهاز الهاتف الموضوع بجانبها وتطلب رقم هاتفه المحمول. لم تبغض شيئا في تلك اللحظة كما بغضت صوت تلك التي أخبرتها بأن الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح. ظلت تعيد محاولات الاتصال به بيدين باردتين وساقها لا تتوقف عن الاهتزاز في عصبية دون جدوى. نفس النتيجة في كل مرة. الهاتف مغلق.

حاولت السيطرة على نفسها عندما أقبلت عايدة وخلفها أم حمدي تحمل صينية الافطار التي وضعتها أمامهما وذهبت بينما انهمكت عايدة في حشو قطعة خبز بالجبن الأبيض لتأكله يارا التي تساءلت محاولة التظاهر بالطبيعية:

- ماتعرفيش ليه موبايل يحيى مقفول يا طنط؟

أجابتها دون أن ترفع عينيها عما تعده من طعام:

- تلاقيه في اجتماع مهم، هو دايما كده بيقفل موبايله في الاجتماعات. خدي كلي إنتي الساندويتش ده وماتشغليش بالك هو أكيد هيبجي على الغدا.

مضت عايدة تتحدث بينما كانت يارا تتابعها وهي تقضم الطعام بعقل نصف شارد، بذلت مجهودا جبارا لتخفي أمامها الخوف الذي أخذ يزداد بداخلها كلما تذكرت تلك الكلمة التي قالها يحيى والتي لم تعرها انتباها حتى تعذر عليها الوصول إليه. "أي حد عرف أي حاجة عن موضوع الصندوق ده حياته في خطر". ترن الكلمات في أذنها كمطارق من حديد تهوي على قلبها فتدهسه بعنف، مئات الأفكار والمشاعر تجتاحها في لحظة واحدة، يصيبها ذعر كلما تذكرت تلك الكلمات ثم تعود وتحاول طمأنة نفسها قبل أن تقفز أفكار سوداء أخرى تعتصر باطنها بعنف وتملؤها خوفا وإحساسا بالذنب.

ماذا إن أصابه مكروه ولم يشعر به أحد، ربما سقط هاتفه أثناء محاولة أحدهم الاعتداء عليه فتهشم، أو ربما اختطفوه وأغلقوا هاتفه حتى لا يصل إليه أحد، ثم تنفض عن رأسها كل تلك الأفكار وتحاول طمأنة نفسها بأن لا أساس لكل ما تهذي به نفسها القلوق وأنه ربما يكون بالفعل منهمكا في اجتماع هام، ألم يقل لها بأن الحركة الدبلوماسية صدرت وأن بها بعض المشاكل؟ إذا فتلك الأيام تمتلئ بأعمال شاقة واجتماعات وأشياء من هذا القبيل، صحيح أنها لا تفقه شيئا في سير العمل داخل وزارة الخارجية لكنها تحاول التشبث بأي خيط واهن تطمئن به نفسها، ثم أن التهديد كان من نصيبها هي وإذا فكر أحدهم في فعل أي شيء سيكون معها وليس معه، هي الأساس، هي الأهم. ولكن هذا الخاطر يقودها إلى فكرة أخرى قاتلة، إذا حدث ليحيى أي شيء فسيكون بسببها، بسبب إصرارها على استكمال هذا الشأن حتى النهاية دون التفكير فيما يمكن أن يحدث من عواقب. تلتفت نحو عايدة فيأتي صوتها المنهمك في الحديث والضحك من بعيد جدا

تكاد لا تعي منه أي شيء ولا يبقى أمامها سوى إحساس بشع بالذنب، أبشع مما شعرت به نحو ريما، علي الأقل هي لم تكن السبب فيما حدث لريما أما إذا حدث أي شيء ليحيى فستكون هي السبب، هي المذنبة في حقه وحق أمه وحق نفسها، استمر تقريعها لنفسها بلا هوادة، تؤنبها على عنادها وتتمنى لو يعود بها الزمن عدة ساعات لتقول ليحيى عكس ما قالته وتنهي هذا الشأن تماما، حتى وإن أحست أنها أقل من أن تتحمل مسؤولية ثقة ريما فيها فهذا أهون بكثير من أن تخسر يحيى بسبب حماقتها وتسرعها.

ظلت تدور في دوامة من الأفكار المتناقضة طيلة فترة تناولهما الإفطار والقهوة، تتابع ما يحدث حولها وأحاديث عايدة هانم بنصف عقلها وتستغل أصغر الفرص التي تتركها فيها وحيدة لتعيد محاولات الاتصال بيحيى دون فائدة.

أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها التي ظلت ملقاة طوال الليل في نفس المكان الذي تركتها فيه قبل أن تصاب بالأزمة، كان مغلقا هو الآخر بعد أن فرغت بطاريته، أسرعت لتضعه على الشاحن الخاص به في محاولة يائسة لتبقي كل وسائل الاتصال مفتوحة، ما إن أنارت الشاشة حتى رن معلنا وصول مكالمة، اهتز الهاتف بين يديها المضطربتين لكنها سرعان ما أصيبت بالإحباط عندما وجدت أن رأفت هو من يتصل بها، ما إن أجابت حتى هتف رأفت في حماس بنبرة غير مصدقة:

- أستاذة يارا، إنتي كنتي فين طول المدة اللي فاتت؟

- ماعلش يا رأفت أصل موبايلي كان فاصل شحن.

- أيوه بس حضرتك كمان مارجعتيش البيت.

تململت قليلا قبل أن تقول محاولة إنقاذ الموقف:

- أصلي اضطريت أبات عند واحدة صاحبتي.

خافت ألا يصدقها رأفت لكنه بدا أنه لم يلتفت إلى سبب غيابها بقدر ما التفت إلى الاطمئنان عليها:

- الحمد لله إن حضرتك كويسة، ده احنا اتخضينا عليكي جدا لدرجة إن مستر شفيق كان ناوي لو ماظهرتيش لحد الساعة اتناشر الضهر ميبلغ البوليس.

هتفت يارا في ذعر:

- لا بوليس إيه يا رأفت، كلمه قول له مايعملش كده وقول له إن أنا كويسة وجاي المجموعة دلوقتي كمان.

أسرعت ترتدي ملابسها في عجالة شديدة، يجب أن تثبت وجودها الآن في المجموعة وتمنع شفيق من أن يقوم بإبلاغ الشرطة، لو فعل ذلك فسيعلم الجميع أنها أمضت ليلتها هنا في بيت يحيى وهو شيء لا تريد أن يعرفه أحد حتى لا تهتز صورتها أمام موظفيها وأمام الرأي العام الذي أصبح فجأة يهتم بها بعد أن أصبحت رئيس مجلس إدارة مجموعة أبو بلاط. لم تفلح محاولات عايدة في إقناعها بتمضية اليوم معها، تعجبت بأن هناك أعمالا كثيرة يجب أن تقوم بها في المجموعة، شكرتها وطبعت قبلة على وجنتها وأوصتها أن تجعل يحيى يتحدث إليها عندما يعود أو يتصل بها على الهاتف.

ما كادت تنطلق بسيارتها حتى كلمها شفيق على هاتفها، اطمأن عليها ووبخها على ما سببته لهم من قلق ثم أنهى مكالمته قائلا في حزم:

- أشوفك بعد ساعتين في الشركة ويكون معاكي باسبورك عشان إجراءات السفر لسويسرا.

في البداية لم تدرك ما قاله لكنها سرعان ما تذكرت كل شيء عن مشاكل العمل والحساب السري الذي يجب أن تسافر خلال أيام لتقوم بسحب النقود منه والعودة سريعا لإنقاذ الشركة بتلك السيولة الضخمة التي أودعها منصور بك خارج البلاد في تكتم غريب تحوم حوله الشبهات ليس فقط بسبب سريته وضخامته ولكن لوجود خيط يربطه بما أرسلته إليها ربما.

تبخر إحساس الاطمئنان الذي كانت تنعم به منذ قليل ومضت تقود سيارتها نحو المنزل لتحضر جواز سفرها قبل الذهاب إلى المجموعة وقد عاد عقلها إلى تشتته بين مشاكل العمل وصندوق ربما والسفر إلى سويسرا وأهم من كل ذلك خوفها على يحيى.

لمزيد من الكتب العصرية

(٥٤)

سار رأفت خلفها من الباب حتى المكتب وهو يلاحقها بكلمات متضاربة عن سير العمل خلال اليومين الماضيين وعن القلق الذي انتابهم بسبب اختفائها المفاجئ، كانت تستمع إليه بنصف عقلها بينما أفكارها كلها تدور حول يحيى الذي لم تستطع الوصول إليه حتى الآن.

توقف رأفت فجأة عن سرده المتواصل وقال متذكرا:

- آه على فكرة، فيه واحد كان بيسأل عل حضرتك طول الوقت من إمبارح ومش عارف يوصل لك ولما عرف إن حضرتك ظهرتي وجاية على هنا جه من شوية وقعدته يستنى في غرفة الانتظار بعيد عن المكتب.

أفاقت يارا من شرودها وتساءلت في تعجب:

- مين ده؟

- ماعرفش.

تساءلت في استنكار:

- يعني إنت يا رأفت استقبلته وقعدته يستنى من غير ما تسأله على اسمه؟

فقال رأفت في ضيق:

- ما هو شغل السكرتيرات ده أنا مافهمش فيه، وبصراحة أنا بقى لي كذا يوم شايل شغل المكتب كله لوحدي.

ثم تساءل محاولا إخفاء تردده خلف تظاهره بالضيق:

- هي ليديا هترجع من الأجازة إمتى بقى؟

حملقت يارا في وجهه لبرهة كأنها كانت قد نسيت أن هناك فتاة رقيقة مجروحة، منذ أن قررت سجن نفسها في غرفتها تحول هذا المكتب بدونها إلى مكان كئيب بعد أن حرم من أهم مصادر بهجته وإشراقه، جذبت نفسها من شرودها وقالت في حسم:

- أنا اديت لليديا أجازة مفتوحة، ترجع براحتها وقت ما ترجع، روح دخل لي الراجل اللي مستني ده.

تنهد في ضيق قبل أن يلتفت ويترك الغرفة مستسلما منصاعا لأمرها بينما تبعته هي بنظرة حائرة، لم يخف عليها اضطراب رأفت وهو يلقي بسؤاله، لماذا يصعب عليها أن تفهمه؟! إنها شبه موقنة

بأنه هو سبب ما يحدث لليديا وبأنه يعلم ذلك أو على الأقل يعلم أنها تتعذب بسببه طيلة الوقت. وبالرغم من ذلك يتجاهلها ويمعن في تعذيبها بانصرافه عنها وعندما تختفي يتحايل ليسأل عنها، تظاهره بالضيق من العمل تكذبه نظرة عينيه المتلهفة على معرفة موعد عودتها. هل هو مدعٍ؟ أم حائر في مشاعره؟! ولكن ما لا تعلمه يارا أن رأفت نفسه عاجز عن فهم ما يفعله أو ما يشعر به. ماله هو بليديا تعود أو لا تعود؟ ألا تكفيه حياته التي تحولت فجأة إلى جحيم منذ هذا اليوم المشؤوم الذي اكتشفت فيه أمه خطة هجرته؟ من يومها وهي تتجنبه وتتحاشى الحديث معه أو حتى رؤيته، طالما أنه في المنزل تجلس في غرفتها ولا تخرج منها أبدا. لا تنظف غرفته أو تصنع له طعاما كأنها بالفعل اعتبرت نفسها لم تنجب رجلا اسمه رأفت. ألا يكفيه كل هذا الهم الذي يحيا فيه؟ لماذا يشغل نفسه بليديا ومرضها وغيابها؟ ألم يتوصل إلى أنه لا يحبها وأنها لا تهمه في شيء؟ لماذا إذا تأتي تلك الخواطر إليه ويجد نفسه فجأة يسأل عنها متظاهرا أمام الناس وأمام نفسه بأنه متضايق من تحمل أعباء عملها.

كانت يارا مستغرقة في قراءة بعض الأوراق عندما سمعت صوت صرير باب المكتب. رفعت رأسها لترى من هذا الذي ظل يسأل عنها ثم أتى سريعا ليراها عندما علم بعودتها. اتسعت حدقتاها في دهشة عندما وجدت أن هذا الرجل لم يكن إلا كريم. تقدم نحوها وقد اكتسى وجهه بعلامات التجهم وبدا أنه يخفي غضبا لن يلبث أن يقذفه في وجهها. قفزت ابتسامة كادت أن تفلت منها رغم انشغالها وقلقها. على الرغم من مرور كل تلك السنوات وعلى الرغم من كل ما حدث تجد نفسها لا تزال قادرة على فهم كريم حتى دون أن يتحدث. تعلم متى يكون متضايقا بحق ومتى يتعمد التظاهر بغضب شديد ليطغى على من أمامه فيكيل إليه اتهامات غاضبة متتابعة ليضعه في موقف ضعف وينتصر عليه. هذا ما سيفعله الآن وما أدركته هي وتعلم جيدا كيف تواجهه. على الرغم من كل ما حدث له وما مر به لم يتغير كريم كثيرا. لا يزال طفلا صغيرا. ربما أصبح طفلا مهذبا أكثر مما مضى، لكنه في النهاية لا يزال طفلا. استقبلته في هدوء وجلست معه في الصالون الصغير بجانب مائدة الاجتماعات. ظلت صامتة بينما أخذ هو يتململ منتظرا أن تبدأ هي وتسأله عن سبب تجهمه وعندما لم يجد منها أي بادرة لم يطق الصمت أكثر من ذلك. هتف فجأة متظاهرا بكبت غضبه:

- كنتي فين إمبارح؟

أجابت وهي تنظر نحوه في هدوء:

- كنت بايتة برا.

قال وقد استفزته إجابتها وهدوؤها:

- ما أنا عارف إنك كنتي بايتة برا وإنك مارجعتيش بيتك طول الليل، أنا سؤالي واضح، كنتي فين بالضبط؟

عقدت يديها قبل أن تتساءل وهي تنظر نحوه في ثبات:

- و ده يهمك في إيه؟

هتف في عصبية:

- يارا، ماتستغفلنيش، جاوبي على سؤالي من غير لف ودوران.

انتفضت وهي تهتف في حدة:

- إيه أستغفلك دي؟ كريم لو سمحت تحافظ على ألفاظك.

أجابها في غيظ:

- يعني المفروض أنا أحافظ على ألفاظي وإنتي ماتحافظيش على تصرفاتك وتروحي تباتي في بيت يحيى بتاعك؟

اتسعت حدقتاها وهي تهتف في دهشة:

- إنت بتراقبني يا كريم؟

زفر ساخرا وهو يقول في غرور:

- مش محتاج أراقبك عشان أعرف، إنتي ناسية أنا مين؟ أنا بتليفون واحد عرفت كل حاجة عن سي يحيى ده ولما ماعرفتش ألاقيكي إمبارح رحت تحت بيته ولقيت عربيتك راكنة. يعني حضرتك كنتي لوحدك في بيت واحد عازب الساعة اتنين الفجر.

أحست بالدماء تغلي في عروقها وهو يتهمها بهذا الاتهام المشين ويخاطبها بتلك الطريقة المتسلطة. صرخت في غضب:

- أولا أنا ماكنتش بايتة في بيت واحد عازب، ده بيت عيلة وكان بايت معانا مامته والست اللي بتشتغل عندهم، يعني ماكنتش معاه لوحدي. ثانيا بقى إنت مين إداك الحق إنك تدور ورايا وتيجي تحاسبني بالطريقة دي؟ تبقى لي إيه عشان تيجي تتكلم معايا بالتحكم ده كله؟

بدأت تهزمه بمنطقها، تململ قليلا قبل أن يقول محاولا الحفاظ على تظاهره بالغضب وإن خفت حدة صوته قليلا:

- إزاي بقى؟ إنتي ناسية إنك كنتي خطيبتي؟

- كنت زمان، إنما دلوقتي مافيش أي حاجة بيننا وإنت مالكش أيّ حق تعمل اللي إنت بتعمله ده.

قرر تغيير استراتيجيته معها بعدما وجد أنها لم تضعف أو تلين أمام اتهاماته بل بالعكس واجهته بنفس غضبه وأكثر، قال في صوت خفيض يمتلئ لوما وكأنها جرحته بكلماتها:

- لا يا يارا، أنا ليا حق أخاف وأغير عليكي كمان، عشان أنا لسه باحبك.

لم تنخدع بنبرته الناعمة بل ازدادت يقينا بصحة ما تفعله، أجابت دون أن تفقد حدتها في كلمات واضحة حاسمة:

- كريم، بلاش الطريقة دي لو سمحت عشان أنا من الأول جدا فهمتك إن مستحيل اللي كان بيننا زمان يرجع تاني، أنا ماخدعتكش فماتجيش دلوقتي تقول لي إنتي اللي خلتيني أرجع أحبك وليا حق عليكي.

اضطرب قليلا وهو يراها تدحض كل أسبابه، أخفى اضطرابه خلف نبرته العصبية وهو يهتف:

- أنا ماكنتش هاقول كده وأنا فاكر كويس كل كلمة قلتيها، بس أنا كمان كنت قلت لك إني ماوعدكيش إني أقدر أتحكم في مشاعري ناحيتك، حاولت بس ماقدرتش يا يارا، لسه باحبك.

هدأت قليلا وإن لم تقتنع بكلامه، أجابته محاولة التحلي بالصبر لتنهي هذا الحوار السخيف:

- كريم لو سمحت ماتاخدنيش بذنب حاجة جواك أنا ماليش دعوة بيها لأن أنا اللي كان جوايا عمره ما هيرجع تاني، بعد كل الزمن ده وبعد كل اللي حصل بيننا مستحيل أرجع أحس بحاجة تاني ناحيتك زي زمان.

امتلأ وجهه باليأس وهو يتساءل مغتاظا:

- ليه يا يارا؟ أنا دلوقتي أقوى من زمان ومافيش حد هيقدر يقف قدام حبي ليكي ولا حتى عيلتي كلها. ولا ده يعني عشان سي يحيى ظهر في حياتك فجأة وملاها بموضوع ربما ده؟
بدأ صبرها ينفد، لا ينقصها أي ضغط عصبي أكثر مما هي فيه منذ الصباح، هتفت في حدة دون أن تكترث كثيرا بمراعاة مشاعره أوحتى تنمق ما تقول:
- الموضوع مالهوش دعوة بيك ولا بعيلتك ولا حتى بيحيى، الموضوع ليه علاقة بيا أنا، أنا اللي اتغيرت يا كريم، يارا اللي حبّتك زمان مش موجودة جوايا دلوقتي، اللي كان بيبهرني فيك زمان مابقاش بيبهرني دلوقتي واللي كنت باحبه زمان بقى عادي جدا بالنسبة لي دلوقتي والأحلام اللي كنت باحلم بيها زمان مابقتش واقعية دلوقتي، أنا ماباكرهكش يا كريم بس مابقاش ينفع أرجع أحبك، حتى لو حاولت مش هاعرف، صدمة وجرح اللي حصل زمان ضيع في علاقتنا دي حاجة مهمة جدا اسمها الثقة.
ظل كريم صامتا للحظات محاولا استيعاب تلك الغريبة التي يراها لأول مرة، إنها امرأة أخرى غير تلك التي كان يستطيع التأثير عليها في الماضي، حاول عقله أن يرفض الهزيمة، فتح فمه ليجيبها ولكن في تلك اللحظة انفتح باب المكتب وظهر يحيى فجأة ممسكا بملف شفاف به ورقة واحدة في يده، كان يبدو على وجهه الإجهاد وقلة النوم ولكن ما إن رأى كريم أمامه وهو يجلس بجانب يارا وبهذا القرب ضاع الإرهاق من ملامحه وحل محله جمود وغيظ حاول جاهدا أن يخفيه وهو يرمقهما في ارتياب دون أن ينطق بكلمة واحدة.
انتفضت يارا واقفة كأنها تذكرت فجأة كل خوفها عليه، اقتربت منه في خطوات مسرعة وهي تهتف في جزع:
- يحيى، إنت كنت فين؟؟ أنا قلقت عليك جدا.
رمقها مسرعا ثم عاد ينظر نحو كريم في ارتياب وهو يقول في نبرة مبتورة:
- كان عندي شغل مهم.
حل للثواني صمت مشحون انتباه كريم عندما نهض واتجه نحوهما في اعتداد وهو يقول متظاهرا بالثقة كأنه لم يسمع بأذنيه كل ما قالته يارا في غضب منذ قليل:
- أنا هامشي يا يارا، بس هابقى أشوفك تاني عشان لسه ماخلصناش كلامنا.

لم ينتظر إجابة، مر من خلف يحيى وهو يرمقه بنفس النظرة التي رمقه بها يوم عيد ميلاد يارا عندما أفسد عليه مفاجأته لها ثم خرج من الغرفة في هدوء تاركا خلفه توترا وغيظا لم تلتفت إليهما يارا التي كانت مشغولة بالاطمئنان على يحيى، هتفت قائلة:

- شغل إيه ده اللي تزلك بدري قوي وخلاك قافل موبايلك طول الوقت ده؟

لم يجب على سؤالها، فقط مد يده بالملف الذي كان يحمله، تناولته وهي تنظر نحوه في دهشة وإن بدأ يخالجها بعض القلق والاضطراب، لم تكن الورقة إلا صورة لمقال في صحيفة إنجليزية لم يبد اسمها واضحا، المقال كان عن خبر وفاة ريما متأثرة بجراحها بعد سقوطها من سطح البناية التي كانت تقطن بها مع والدتها، وفي الفقرة الأخيرة كان هناك إشارة واحدة إلى أن هناك شخصا يقطن بالبناية المقابلة قد قام بالإبلاغ عن أنه كان قد رأى في نفس الليلة أشخاصا يحملون ريما ويقذفونها من فوق السطح مما يعني أنها جريمة قتل وليست حادثة انتحار، إلا أن الشرطة لم تعتد كثيرا بكلام هذا الشاهد لأنه معروف عنه أنه سكير يحتسي الخمر بشراهة ومن المرجح أنه كان يتوهم كل ذلك وهو فاقد للوعي، خاصة وأنه لا يوجد دليل واحد يثبت صحة هذا الكلام.

رفعت يارا عينين مذعورتين نحو يحيى الذي قال بسرعة وإن ظل التجهم يكسو ملامحه:

- أنا كلمت واحد صاحبي إنجليزي كان معايا في الكلية في لندن بقى سياسي مهم وعنده علاقات قوية هناك، طلبت منه يسأل في الموضوع ده، قال لي إن الكلام ده صحيح إلا أن احتمال القتل ده تم التعتيم عليه بأوامر عليا، حتى مافيش أي جرنان تاني نشر الموضوع ده، قال لي إن الموضوع شكله خطير وطلب مني إني ماتكلمش فيه.

نظرت يارا نحوه غير مصدقة، تساءلت والدهشة تحتل كل ملامحها:

- معقولة أوروبا يبقى فيها فساد بالشكل ده؟ أنا كنت فاكرة إن التعتيم والحاجات دي موجودة هنا بس.

- الفساد موجود في كل حتة يا يارا حتى ولو بنسبة ضئيلة، وبعدين ده مش فساد عادي، مش راجل أعمال دفع رشوة عشان مناقصة ترسي على شركته، كان واضح جدا من الأسامي اللي على الـipad إن الموضوع يخص ناس بيتحكموا في سياسة العالم كله، كمان قتلهم لريما وتهديدهم ليكي يدل على أن الموضوع مش سهل، واضح إن فيه خطر بشع على مصالحهم أو فيه حاجة هما

خايفين إنها تتعرف، يبقى من الطبيعي انهم يحاربوا بكل شراسة حتى لو اضطروا يلجؤوا للفساد في بلاد مافيهاش فساد كتير.

بدا كلامه مقنعا لها وإن ظلت غير قادرة على الاستيعاب أو حتى السيطرة على الرعدة التي انتشرت في جسدها والدموع التي طفرت من عينيها. عادت تقرأ الخبر مرة أخرى في جزع شديد والألم يعتصر قلبها على تلك الأخت الصغيرة المسكينة التي تم الغدر بها في حياتها وبعد موتها. لم تلتفت إلى يحيى الذي لم يختف التجهم من ملامحه حتى بعد ما حل بها من جزع وألم. ظل يرمقها في جمود دون أن ينفوه بكلمة. صورة كريم ونظراته الواثقة المستفزة ظلت تحتل عقله وتشل تفكيره عن أي شيء سوى هذا الغضب المكتوم الذي أحس به يسري في عروقه في تلك اللحظة. كلما ظن أنه تخلص منه عاد ليقفز في حياته مرة أخرى، منذ اليوم الأول الذي رآه فيه في المطار وهو يأتي دائما بغتة ليفسد سعادته ويزيده حيرة وغيظا. ما يزيد غيظه أيضا هو حيرته في أمر يارا. كلما ظن أنه تأكد من مشاعرها نحوه يظهر كريم وتعامله هي بطبيعية شديدة فيعود شكه يوخزه ويؤرقه. لقد مل كل ذلك، يجب أن يعرف منها صراحة أيهما تحب وتفضل. لا يكفيه ما حدث بينهما البارحة. يريد كلاما ووعودا واضحة. إن كانت تحبه فعليها أن تختاره الآن. سيضعها أمام الاختيار وعليها أن تقرر الآن.

امتلأ إصرارا وهو يهتف في نبرة واضحة وحاسمة:

- أنا عرفت النهارده الصبح إن المشاكل اللي كانت في بعثتي الدبلوماسية بالرغم من صدور الحركة من شهر تقريبا اتحلت، وتم التأكيد خلاص على إني هابقى في بعثة نيودلهي ومسافر أول سبتمبر.

رفعت رأسها ونظرت نحوه دون أن تفهم كل ما قاله. كان تفكيرها مشلولا من أثر كل ما عرفته عن موضوع ربما منذ لحظات، لم يترك لها الفرصة لتستوعب الصدمة الأولى عندما عاجلها بتلك الأخرى. لم يكترث بالجزع الذي رآه في عينيها. استكمل في نفس النبرة الهادئة المتلئة بالحسم:

- يعني مافيش قدامنا إلا تلات شهور بس تقريبا عشان نخلص كل إجراءات السفر والجواز.

اتسعت حدقتاها وهي تنظر نحوه في استغراب شديد. ما حدث بينهما البارحة كان شبه تأكيد على نواياه في الارتباط بها، ولكنه يختلف تماما عن هذا الوضوح المخيف الذي يتحدث به الآن وهو

يضعها في حسم أمام خيار مصيري ووسط كل تلك الظروف المعقدة التي تحيا فيها، هتفت غير مصدقة ثقل الكلمة التي تنطق بها:

- جواز!

أجابها بنفس الثبات:

- أيوه جواز، أمال إنتي كنتي فاكرة كلام إمبارح ده معناه إيه؟

ازدردت ريقها والصدمة لا تزال تسيطر عليها، قالت في نبرة متقطعة محاولة العثور على كلمات تتناسب وما يضطرم بداخلها:

- أيوه بس ده قرار مهم ومصيري، صعب إني آخده وأنفذه فجأة كده في فترة قصيرة، خصوصا وإن أنا عايشة في لخبطة مالهاش آخر، رئاسة المجموعة وموضوع ريما وألف حاجة تانية.

أجابها ببرود وهو لا يزال محتفظا بتجهمه ونبرته المبتورة:

- رئاسة المجموعة شفيق ممكن يمسكها ويديرها بكل بساطة زيك وأحسن منك كمان، وموضوع ريما خلاص خلص يا يارا. إحنا ماتعرفش إيه هو أصلا الموضوع اللي ريما كانت قاصداه بكل اللي عملته ده، وحتى لو عرفنا، مافيش معانا أي دليل لأي حاجة، إيه يعني شوية أرقام حسابات لناس زي دي؟ ما هو ده شيء طبيعي ومش دليل على أي حاجة.

نظرت نحوه غير مصدقة. إنه يتحدث مثلهم، يقلل من قدر هذا الشيء الذي أصبح يملأ حياتها بسبب ارتباطه الوثيق بتلك الأخت التي تشعر نحوها بمائة إحساس متضارب أبرزهم الإحساس بالذنب والذي تشعر أنها لن تتخلص منه إلا إذا نفذت ما تريده ريما منها والذي يشكل لها مشكلة كبيرة لأنها لا تعلمه. الشيء الوحيد الذي يبقي الأمل بداخلها ويمنحها قدرا من الثقة يعينها على المواصلة هو مساعدة يحيى لها واهتمامه. أما أن يتخلى عنها فجأة هكذا فهو ما لن تتحمله. صحيح أنها كادت تتخلى عن تمسكها بهذا الموضوع بعدما أصابها الرعب بسبب اختفاء يحيى في الصباح ولكنها وجدت كل عنادها وتمسكها يعود إليها مرة أخرى كأنها نسيت كل خوفها بعدما اطمأنت إلى وجوده أمامها. هتفت بصوت مبحوح:

- أنا مش مصدقة يا يحيى، إنت اللي بتقول كده؟ ده أنت تقريبا الوحيد اللي كنت مؤمن بيا وبتساعدني.

بدأ يفقد هدوءه وهو يجيبها في عصبية:

- كنت باساعدك لما كان فيه حاجة أساعدك عشانها، إنما دلوقتي مافيش، كل طريق كان ممكن يوصلنا زي الخزنة وشغل الشركة وحتى هاشم فتح الله طلع مابيوصلنش لأي حاجة، ده غير إننا اكتشفنا إن استمرارنا يعتبر انتحار، يبقى إيه اللي يخلينا نستمر؟ عاوزين نكمل حياتنا ومستقبلنا مع بعض يا يارا، تمسكك ده مالهوش أي معنى غير إن فيه حاجة تانية غير موضوع ريما وإنتي بتستخدميه بس كمبرر.

هتفت وقد بدأت دموع تلمع في عينيها:

- حاجة تانية إيه اللي بتتكلم عنها دي؟

أجابها في ثبات وقد امتلأت عيناه ببريق غريب، كأنه ينتوي المجازفة بفتح هذا الجرح الآن ومواجهته مهما كانت النتيجة:

- حاجة زي كريم مثلا.

صدمت من كلامه، آخر شيء كانت تتوقع أن يقوله، ضاقت عيناها أثناء محاولتها للاستيعاب قبل أن تهتف في استنكار:

- كريم؟! إيه علاقة كريم بالموضوع ده؟!

زفر يحيى في نفاد صبر قبل أن يقول محاولا كبت غضبه:

- يارا إنتي مش ملاحظة إنك دايما بتهربي من إنك تحكي لي أي حاجة عن موضوع كريم؟ ده غير إنه دايما موجود في حياتك ومن غير أي مبررات، تفتكري إزاي أنا ممكن أتقبل موضوع زي ده؟ أنا تعبت من الحيرة والتردد والتفكير من غير ما أوصل لأي نتيجة ومن غير ما إنتي تحاولي حتى تساعديني وتثبتي لي صدق حبك ليا.

صمتت يارا قليلا محاولة تنظيم تنفسها ثم قالت في نبرة منكسرة وقد طفرت الدموع من عينيها:

- أنا باحبك بجد يا يحيى، وموضوع كريم ده ماكنتش باحب أتكلم فيه لأنه بيؤلمني لما باحكيه مع أي حد مش معاك إنت بس، إنت غلطت لما ربطت موضوع ريما وموضوعنا بكريم، يحيى لو سمحت ماتخليش الغيرة تعميك.

عادت العصبية إلى صوته وهو يهتف:

- أنا الغيرة مش عاميانى يا يارا. أنا عاوز أحط معاكي خطوط حياتنا دلوقتي وبكل وضوح.

انتقلت عدوى عصبيته إليها وهي تقول:

- يحيى إنت لازم تقدر ظروفي.

ازدادت عصبيته هو أيضا وهو يهتف:

- إنتي كمان لازم تقدري ظروفي وظروف شغلي.

أفلتت منها كلماتها في غمار عصبيتها:

- يحيى ماتبقاش أناني.

نظر نحوها وقد احتلت الصدمة ملامحه وتوقفت الكلمات على حافة شفتيه، هدأت نبرته وهو يقول غير مصدق:

- أنا أناني يا يارا؟! أنا؟! بعد كل اللي عملته عشانك ده بتقولي عليا أناني؟! بقى عشان باحاول أوفق بين شغلي وحبي ليكي أبقى أناني؟

لم تجد كلاما لتجيبه به، ربما تسرعت عندما قالت مثل هذا الكلام، لكن الآن وفي ظل تلك الظروف لا يوجد أي فرصة للتراجع، استدارت دون أن تجيبه، أعطته ظهرها واتكأت على حافة المكتب محاولة السيطرة على اضطرابها وغضبها وحيرتها وشعورها بالذنب من أنها سبب تلك النظرة المنكسرة في عينيه، ساد صمت طويل، لم يجرؤ أحدهما على قطعه بالكلام أو حتى بالحركة لأنهما يعلمان جيدا أنهما وصلا لطريق مسدود، أي كلمة أو حركة في تلك اللحظة لن تكون سوى بداية لقطيعة وفراق لا يحتمله أي منهما مهما حدث بينهما.

ارتجفا عندما سمعا صوت رنين هاتف يارا المحمول، تماسكت ومدت يدها لتلتقطه من على المكتب، تحجرت عيناها وهي ترى الاسم الظاهر على الشاشة، "ندى العجرودي"، كيف نسيتها، إنها آخر أمل لها ليتم إنقاذها من كل هذا الغموض واليأس والإحساس بالذنب الذي تعيش فيهم، إنها مرفأ النجاة الوحيد لمسؤوليتها نحو ريما ولحبها وربما لحياتها كلها.

ضغطت الزر ووضعت الهاتف على أذنها محاولة السيطرة على نفسها وهي تهتف:

- آلو، أيوه يا ندي.

جاءها صوت ندى وهي تهتف متحمسة:

- يارا، عاملة إيه؟ واحشاني جدا.

- وإنتي كمان، أنا كويسة الحمد لله، إنتي عاملة إيه؟

- كويسة كويسة، ركزي بس معايا، مش هتصدقي، نادر أخيرا رد عليا.

هتفت يارا في صوت مبحوح وقد أخذ قلبها يخفق بعنف:

- فعلا؟

أجابت ندى بنفس الحماس:

- أيوه، بعت لي message على الfacebook من شوية، مش هتصدقي المفاجأة التانية، نادر موجود في مصر.

- في مصر؟!

- أيوه لسه واصل من ساعتين، وعاوز يشوفك النهارده، دلوقتي حالا كمان لأنه مسافر بالليل.

هتفت يارا في اضطراب تحت وطأة كل تلك الصدمات التي تلقتها:

- طب، طب فين وإزاي؟

- عارفة grand cafe اللي موجود على الكورنيش في المعادي؟

أحست أن عقلها توقف، هي حتى غير قادرة على تذكر الطرق والأماكن، وجدت نفسها دون تفكير تفعل ما تعودته دائما، الاستعانة بيحيى الذي كان يتابع ما تقوله بلهفة حاول إخفاءها، التفتت نحوه وهي تهتف مستنجدة:

- تعرف تروح grand café اللي على كورنيش المعادي؟

قال محاولا إخفاء ارتيابه:

- آه طبعا.

عادت يارا تتحدث في الهاتف قائلة:

- أيوه أعرف أروحه.

- حلو قوي، هو قاعد مستنيكي هناك دلوقتي حالا، روحي له بسرعة لأن واضح إن فيه حاجات كتيرة لازم تقولوها.

أنهت يارا المكالمة مسرعة، لملمت حاجياتها بيد مرتعشة وقد شحب وجهها وازدادت دقات قلبها عنفا، هي توشك على معرفة شيء خطير، شيء سيقلب حياتها، لا تعلم لماذا انتابها هذا الشعور لكنه كان قويا جدا بحيث كان من المستحيل التشكك فيه. كان قويا إلى درجة أنها أحست برعب غريب يجتاحها ويسيطر عليها، توقفت فجأة وأخذت تتنفس بعمق بعدما أحست أنها الآن في إحدى حالات الضعف التي تغزوها فيها نوبات ضيق التنفس، يجب أن تتماسك، لا وقت للضعف أو التخاذل، يجب أن تستمر في الطريق للنهاية مهما كان هذا الذي ستعرفه في النهاية، اقترب منها يحيى ببطء، هتف محاولا إخفاء قلقه:

- إنتي كويسة؟

تأملته لثوانٍ في صمت لتستوعب ما يحدث ثم قالت محاولة التظاهر بالتماسك:

- أيوه، يلا بينا بسرعة، نادر مستنينا ولازم أقابله قبل ما يسافر، نفسي أفهم أي حاجة.

(٥٥)

فشلت كل المحاولات في إخفاء اضطرابها، كان شحوب وجهها كفيلا بفضح ما يعتمل بداخلها من قلق شديد، وعلى الرغم من إحكام كلتا قبضتيها حول يد حقيبتها المعلقة على كتفها لكن ذلك لم يمنع ارتعاش يديها المبللتين بعرق بارد ينضح من كل مسامها. لماذا كل هذا الخوف والقلق؟ ألأنها على بعد خطوة واحدة أو ربما أقل من معرفة الحقيقة؟! وماذا في ذلك؟! لقد مرت بما هو أسوأ؟! وهل هناك أبشع من حقيقة مقتل ربما وليس انتحارها؟ بالطبع لا يوجد. ولكن ليس هذا هو ما يثير كل هذا الاضطراب بداخلها. مهما عظم ما ستعرفه الآن عن ربما فهو بالطبع لن يكون أفظع مما عرفته. هذا القلق الذي يحرقها من الداخل ليس له علاقة بما ستعرفه عن ربما. إنه بسبب ما ستعرفه عن منصور بك. هذا الرجل الذي كانت مستريحة عندما كانت كل الأسباب والظواهر تؤدي إلى شعور واحد تجاهه، ولم تعصف بها الحيرة إلا عندما تشتتت الحقائق حوله فأصبحت لا تعلم بم يجب عليها أن تشعر نحوه؟ بالحب؟ بالكره؟ بالسخط؟! وحيرتها تلك لم تكن أقل من خوفها من الحقيقة المطلقة التي كانت متأكدة بأنها ستقلب حياتها رأسا على عقب. شيء بداخلها كان يؤكد لها أنها ستعرف الكثير اليوم ليس فقط فيما يخص ربما ولكن أيضا منصور بك. كل الشواهد تؤكد ذلك وخاصة طلب نادر مقابلتها خلال اليوم الوحيد الذي أتى فيه إلى القاهرة. ألم يكن الجهل أفضل من كل تلك الحيرة؟ ألم تكن الصورة الوهمية التي رسمتها مخيلتها مريحة لها أكثر من تلك الحقيقة التي كلما تكشف منها جزء ازداد ألمها وخوفها وتخبطها؟

عندما خطت داخل المكان كانت معظم الموائد خالية. أعصابها لم تتحمل كثرة البحث عن شخص يشبه هذا الذي رأته في الصورة، انتابتها للحظة رغبة في الهروب من الموقف برمته، كادت أن تتراجع لولا أن أحست بيد يحيى على ظهرها تدفعها برفق كأنه يعلم ما دار بخلدها بينما أشار بيده الأخرى نحو مائدة تقع في أبعد ركن في المكان كله، ملتصقة بالسور هي وشاب كان يقف بجانبها مستغرقا في تأمل السماء والنيل الذي كان يجري تحت قدميه مباشرة بينما ترك حاجياته وفنجان قهوته الخالي على سطحها، على الرغم من بعد المسافة بينها وبينه لكنها عرفته عي الفور، هو نادر بلا أدنى شك. اقتربت في خطوات مترددة ومضطربة مستميتة لتحافظ على توازنها وتمنع الارتعاشة التي أصابت جسدها، وعلى الرغم من ذلك استطاعت أن تتأمله جيدا، يرتدي سروالا "بيج" واسعا

وقميصا أبيض في منتهى البساطة. ذقنه غير حليقة تماما وشعره المجعد أطول مما كان عليه في الصورة حتى أنه اضطر لضمه خلف أذنه بشيء لم تتبينه جيدا لتشابه لونه مع لون خصلات شعره.

عندما وصلا هي ويحيى بجانب المائدة مباشرة هتفت بصوت خافت متلجلج كأنها تخاف أن تلفت انتباهه:

- أستاذ نادر؟

التفت نحوهما كأنه استفاق للتو من ثبات عميق. مضت لحظات قبل أن يكتمل استيعابه، وعندما أدرك ما يدور حوله ضاقت عيناه وهو يتأملها جيدا. تقلصت ملامحه بألم عابر لم يلبث أن أخفاه خلف ابتسامة صفراء رسمها على شفتيه وهو يجيب بترحاب شديد ولكنة لبنانية متميزة:

- أهلين ست يارا.

جاهدت لتبتسم ابتسامة تليق بترحابه هذا الذي أبداه دون أن يحاول التأكد من شخصيتها كأنه يعلمها من قبل. التفت نحو يحيى وهو يقول في ثقة:

- أهلين أستاذ يحيى.

لم يستطع يحيى أن يخفي اندهاشه وهو يهتف وقد اتسعت حدقتاه:

- حضرتك تعرفني؟

اتسعت ابتسامته كأنه كان يتوقع اندهاشه هذا ثم أجابه في بساطة:

- إيه بعرفك. لما بنحكي أكتر راح خبرك ليش بعرفك. اتفضلوا.

تبادل يحيى ويارا نظرات مستريبة وهما يجلسان بجانب بعضهما البعض، وأمامهما جلس نادر الذي أخذ يتأمل يارا بعينين تلتمعان بالألم وابتسامة تمتلئ بالحسرة. توقفت الدنيا من حوله لدقائق بدت طويلة جدا ليارا التي كانت قد وصلت إلى أقصى حالات الشد العصبي وهي تشعر بنفسها محاصرة بنظراته. لم يشعر بحرج موقفه ولا باضطراب يارا ولا باندهاش يحيى. لم يقطع الصمت إلا عندما أراد ذلك. هتف بصوت بدا ضعيفا رغم محاولاته للسيطرة عليه دون أن يتوقف عن تأملها:

- بتعرفي إنك بتشبهي لريما؟ كتير بتشبيها.

بدت مأخوذة، ليس بما قاله، فهي تعرف ذلك جيدا، ولكن بتلك النظرة في عينيه. نظرة امتزج فيها الصدق بالحزن والتأثر بسبب الفقدان والفرح بسبب رؤية من تشبه من فقدها والانكسار من أحاسيس استيقظت فجأة واحتدمت واختلطت بداخله. يبدو أنها لم تكن الوحيدة التي خافت واضطربت بسبب هذا اللقاء. حاولت أن تجيبه أو حتى تبتسم، لكنها فشلت. توقفت الكلمات في حلقها وتجمدت الابتسامة على شفتيها، لم ينقذها سوى النادل الذي قطع الصمت والتوتر ليقوم بأخذ طلباتهم بسرعة.

بعد أن ذهب النادل التفت نادر نحوهما وقد بدا أنه استعاد توازنه واستطاع السيطرة على ملامحه وصوته وكلامه وهو يقول:

- شو؟ بتحبوا تبدؤوا ولا أبدأ أنا بالحكي؟

أسرع يحيى مجيبا وقد بلغ فضوله مداه خاصة بعدما اندهش بحقيقة أن نادر يعرفه:

- إحنا ماعندناش حاجة نقولها يا أستاذ نادر، ماعندناش غير أسئلة، وأعتقد إن طلبك إنك تشوفنا في اليوم الوحيد اللي جيت فيه القاهرة معناه إن إنت عندك أجوبة وكلام كتير عاوز تقوله.

ابتسم نادر وهو يقول:

- صحيح.

اختفت الابتسامة من على شفتيه قبل أن يغمض عينيه ويزفر بحرقة شديدة لتهدئة نيران مندلعة بداخله. عادت مسحة من الألم تكسو وجهه وهو يقول:

- أنا ما كان بدي أحكي شي ولا حتى اجي ع القاهرة. كل الحكي والذكريات وحتى شكل النيل بيحيي جوايا ألم كنت باحاول انساه. بس مو بيدي. كان لازم اجي وشوفك يا ست يارا واحكي لك ع كل شي كِرما لريما وتنفيذا لآخر وصية وطلب طلبتني ياه.

خفق قلبها واتسعت حدقتاها وهي تهتف في دهشة شديدة:

- ريما طلبت منك إنك تيجي القاهرة مخصوص عشاني؟

ابتسم وهو يقول مؤكدا:

- إيه صدقيني، بس ما تخلينا نسبق الأحداث. خليني ابدأ من الأول.

صمت لدقائق حتى وضع النادل فناجين القهوة أمامهم وانصرف. ارتشف من قهوته وابتلعها كأنه يبتلع مرارا يملأ حلقه وأطلق زفرة أخرى مهينا نفسه وإياهما لما سيقوله. تأمل قليلا دوائر البن المتشكلة على حواف فنجانه. رفع رأسه وبدأ حديثه وقد ارتسمت ابتسامة حالمة على شفتيه كأنه يرى أمامه كل ما يحكيه. بينما حبست يارا أنفاسها وخف نبضها وهي تغرق فيما تسمعه:

- كان بعدي طفل صغير لما بي وامي تركوا لبنان وقت الحرب الأهلية وراحوا ع لندن. دانية اتولدت بلندن بعد ما استقرينا هنيك وصار النا شغل وأعمال وحياة كاملة. ولما خلصت الحرب وهديت الأمور صرنا نرجع كل شوي نزور أهلنا هنيك إنما حياتنا كلها ضلت متل ما هي في بلندن. من شي سنتين أنا كنت إنسان مختلف تماما. إنسان مشتعل حماس من أجل القضايا السياسية. كان كل اللي عم يشغل تفكيري هو السياسة والحرب وأخبار المقاومة بفلسطين والحرب بالعراق والخلافات بلبنان والأوضاع السياسية المختلة بالبلاد العربية كلها. وفي وسط كل ها الحياة المضطربة المشتعلة المظلمة بالسخط والظلم ظهر خيط من نور. شعاع بسيط دخل حياتي بخفة وهدوء وصار يفتح لإلي كل يوم طاقة أمل وسلام ما كنت أعرفهن أبدا.

صمت قليلا واتسعت ابتسامته وهو يقول:

- من سنتين انتقلت أختي من مدرستها لمدرسة جديدة واتعرفت ع ربما وصاروا أصدقاء قبل ما أنا كمان اتعرف عليها. وهيدا الشعاع الرقيق الجميل اللي كنت بحكي عنه كان مصدره عيون ربما.

أطلق زفرة ساخرة قبل أن يستطرد:

- أنا ما بتغزل بجمال عينيها متل ما بيحكوا بالأغاني والأفلام. أنا بحكي عن نظرة عيونها.

عاد بجسده واستند على ظهر المقعد وأطلق آهة وهو يقول:

- آه من النظرة بعيونها. والله ما كانت يتحكي شي ولا بتقول لي شي. بس النظرة بعيونها كانت بكل الحكي. أول مرة أضبط حالي بفكر بشي غير المقاومة والنضال والسياسة. أول مرة أشعر بشي متل هيك. فجأة ومن دون أي مقدمات. وجدت بنت بتنظر لإلي بشكل مختلف. مفتونة بشخصيتي. مستعدة تقعد تسمع لحكيي ساعات من دون ملل. وإذا حبت توصل لإلي رسالة بحبها وإعجابها ما كانت بتستخدم شي غير عيونها وأفعالها. ربما كانت أكبر من دانية بس كانت معها بنفس العام الدراسي لأنها ما كانت منيحة بالدراسة. فجأة صارت بتهتم بالدراسة والامتحانات بس لأن دانية

لمزيد من الكتب العصرية

قالتلها إني كنت متفوق بدراستي بالجامعة. صارت تتابع الأخبار وتناقشني بكل شي بيصير بالمنطقة وتفاجئني وتبهرني وتأسرني كل يوم أكتر من اللي قبله.

كان يتحدث بحماس وعيناه تقطران عشقا غريبا. عشقا مفقودا لم يبق منه إلا ذكرى كان يحاول نسيانها ولكنه عندما اضطر لتذكرها وسردها غمرته واحتلته وصار كأنه طوال كل ما مضى من وقت كان لا يحيا إلا بها ولا يتحدث إلا عنها. كأن كل محاولات النسيان كانت تجري فقط لأنها يوما ما ستصب في بحر التذكر. كأن أحاسيس اللحظات الأولى استيقظت فجأة بداخله فأصبح حائرا أيهم يتذكر أولا.

- و في يوم سوينا بحديقة بيتنا شي احتفال صغير لأصدقاءنا العرب بلندن ودعينا لها صديق لبي كان في زيارة للندن لمدة يومين. الصديق هاي كان منخرط بالعمل السياسي وإله صلات كتيرة وبيعرف كتير عن اللي بيصير بالمنطقة. هايده الصديق كان بيحكي معي وفجأة سألني إذا كانت بنت منصور أبو بلاط عايشة بلندن متل ما حكوا له؟ ما بعرف ليش ما اطمنت لسؤاله. ولقيتني بدال ما احكيله إنها إيه عايشة بلندن وإنها موجودة هون بالحفلة سألته ليش عم يسأل عنها؟ بمنتهى البساطة قال لي إنه بده يعرف كيف بيكون شكل بنت هايده الرجل اللي صار له أكتر من عشرين سنة بيساعد في توريد السلاح لكل الاضطرابات بالمنطقة من دون ما حدن يعرف شي عن حقيقته إلا قلة قليلة حتى ما بتقدر تحكي كتير بها الشغلة.

حدقت يارا نحوه بعينين امتلأتا بالذعر وعدم التصديق قبل أن تهتف بصوت مبحوح دون أن تحاول أن تخفي هذا الذعر:

- سلاح؟!

صمت لحظة ليرمق الخوف والدهشة والفضول على وجهيهما قبل أن يلقي بقنابله بهدوء:

- نعم. هيدا هو بالضبط اللي ربما ضلت تفتش عنه حتى اتأكدت منه. منصور بك من أهم موردي الأسلحة بمناطق الاضطرابات والقلاقل بالشرق الأوسط وأفريقيا خلال العشرين عام الأخيرة.

ازدردت يارا ريقها بصعوبة قبل أن تتساءل وهي تفرك يديها الباردتين في خوف:

- قصدك إنه تاجر سلاح في السوق السودا؟

أطلق نادر زفرة ساخرة وهو يجيب:

- لا يا ست يارا، السوق السودا هاي بتضم صفقات صغيرة، تجار غلابة يا دوب يهربوا كميات قليلة للعصابات والجماعات المسلحة الغير مؤثرة من دون علم الحكومات وعادة هيدا الصفقات بتعد خرقا للقوانين وبيعاقب عليها، إنما منصور بك ما شاء الله مو مجرد تاجر، منصور بك جزء من منظومة عالمية كبيرة.

صمت لحظة قبل أن يستطرد قائلا:

- شركات السلاح الكبيرة بأوروبا وأمريكا بتكون شركات خاصة أو حكومية أو خاصة بس عم تسوي بعض أعمالها وصفقاتها بترتيب من حكوماتها، كل شركة بتحتاج تسوي لحالها شبكة ضخمة من الـagents أو الوكلاء السريين والسماسرة والوسطاء والتجار والميسرين أو الـfacilitators، كل هادول بيكون لهن دور رئيسي في عقد وتنفيذ صفقات السلاح سواء كانت هاي الصفقات بتتم بشكل رسمي بين الدول أو بشكل خفي فيما يعرف بالسوق الرمادية، مو هيك يا أستاذ يحيى؟

ابتسم يحيى نصف ابتسامة قبل أن يستفيض شارحا محاولا تذكر كل ما يعرفه عن هذا الشأن بينما تتابعه يارا بعينين ذاهلتين:

- مضبوط، شركات السلاح بتعقد صفقاتها في سوقين، إما السوق الدولية العادية اللي بيتم فيها صفقات شرعية بين دول مصدرة ودول مستوردة أو state to state deals، وإما السوق الرمادية ودي ببساطة عبارة عن صفقات سلاح بتوافق عليها حكومات الدول المصدرة للسلاح بس بتتم من خلال تجار أو dealers بتتفق معاهم الحكومة دي عشان ماتتورطش مع حكومات الدول المستوردة أو الحركات والمنظمات اللي الدولة المصدرة بتحرص على وصول السلاح ليها، النوع ده بيسموه برضو عمليات المخابرات أو العمليات القذرة لأنه التجار دول بيقدروا من خلال قنواتهم الغير قانونية مساعدة مسؤولين كبار في دول عظمى في توصيل سلاح لمنظمات سياسية في مناطق مشتعلة أو حساسة أو لإرهابيين من غير ما المسؤولين والسياسيين دول يتورطوا تورط مباشر في التعامل مع الجماعات دي أو بمعنى آخر off the record deals أو صفقات غير موثقة أو غير مسجلة رسميا.

استطرد نادر ليكمل حديث يحيى مسرعا:

- بالضبط، في حالة السوق الرسمية الوكيل بيكون إله دور في إقناع الحكومات المستوردة ليشتروا من الشركة اللي عم يشتغل لحسابها، إما من خلال نفوذه أو الlobyying والضغط اللي بيمارسه في دوائر صنع القرار بالحكومة المستوردة أو من خلال تسهيل تقديم الرشاوي للمسؤولين، وفي حالة السوق الرمادية ممكن يكون دوره في تسهيل النقل والتخزين من خلال تقديم الرشاوي أو التغطية على الشحنات المنقولة أو يكون دوره في تسهيل وتمويه عمليات تسديد تمن السلاح أو توصيل الرشاوي والعمولات، وهيدا كان أهم دور لمنصور بك لأنه طبعا من خلال شركاته ومشاريعه وتواجدها في مناطق كتيرة بالعالم إلى جانب حسابات البنوك الكتيرة اللي بيشتغل بيها قدر يكون جزء من منظومات معقدة وسرية من الشركات والحسابات البنكية يللي بتبتكرها شركات السلاح لتوصل من خلالها المصاري أو الفلوس لوكلائها وعملائها وليتم من خلالها تسديد تمن الصفقات من دون لفت النظر أو إثارة الشبهات، منصور بك مارس كل هيدا كوكيل سري لعدة شركات أجنبية وساعد في صفقات توريد أسلحة لحروب أهلية وعرقية خلال العشرين سنة الأخيرة.

تساءلت يارا بعينين زائغتين ونبرة غير مصدقة:

- حروب أهلية وعرقية؟!

زفر نادر قبل أن يقول في بساطة كأنه خبير يتحدث:

- إيه للأسف، نحنا ما بنعرف كيف دخل ل ها العالم أو كيف كانت البداية، بس اللي ربما قدرت تتاكد منه هو دور منصور بك في وصول أسلحة للحرب الأهلية بلبنان ولبلاد كتيرة بأفريقيا كان مفروض عليها حظر دولي لتوريد أسلحة، متل الأسلحة اللي وصلت لرواندا من غرب أوروبا وقت الحرب الأهلية والإبادة الجماعية اللي صارت هنيك بين ١٩٩٠ و١٩٩٤، وأسلحة اتوردت للكونغو من مخزون السلاح اللي اتبقى بدول شرق أوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وقت الحرب الأهلية بين ١٩٩٨ و٢٠٠٣، وأسلحة من بولندا لأحد الأطراف المتنازعة بالحرب الأهلية بالصومال عام ١٩٩٢، وأسلحة من روسيا والصين للسودان وقت أزمة إقليم دارفور في فترة ما بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، هيدا طبعا غير الأسلحة اللي اشترتها أمريكا من دول تانية وشحنتها بالسر لأفغانستان وقت الحرب الباردة، ما بعرف إذا كان منصور بك اتورط بكل هاي الصفقات أو جزء منها ودرجة تورطه بكل

لمزيد من الكتب العصرية

صفقة. هو ما كان من الوكلاء الكبار الرئيسيين اللي ممكن بعد سنين يظهر اسمه في الوثائق أو بالكتب والأبحاث اللي بيسويها باحثين لكشف المشتغلين بتجارة السلاح. بس المؤكد إنه كان إله دور ب على الأقل بعض منها.

لحظة صمت قبل أن يقول يحيى محاولا ربط الحقائق:

- و لو ربطنا الكلام ده بالأسامي اللي موجودة على الipad هنلاقي إن اللي حصل مع ربما ده طبيعي جدا. اتقتلت وبعدين الموضوع اتوضب عشان يبان إنه انتحار مع التعتيم على كل حاجة ممكن تبوظ الترتيب كله. ده شيء طبيعي جدا وحصل كتير في مجال تجارة السلاح. إحنا بنتكلم في أكتر تجارة تاريخها مليان بالفساد والرشوة حتى في أكتر البلاد ديمقراطية وأكبر المؤسسات التشريعية والحكومات الأمريكية والأوروبية. وموضوع القتل اللي يبان انتحار ده مش حاجة جديدة أبدا عليهم.

لم يبد على يارا أنها اهتمت بكل ما قاله يحيى الذي ما إن أنهى كلامه حتى هتفت متسائلة في حنق:

- أبوه بس إزاي ربما عرفت؟! وإيه اللي خلاهم يقتلوها؟

زفر نادر قبل أن يستطرد قصته:

- بعد هيدا الحكي طلبت من صديقي هاي إنه ما يحكي بها الشغلة أبدا خاصة هون بالحفلة. كنت خايف ربما تعرف أي شي ع القليل ت اقرر شو اللي لازم سويه بها الشغلة. بس اللي ما كنت عامل حسابه هو إن ربما تكون سمعت كل الحكي اللي صار بيناتنا.

اتسعت أحداقهما في ذعر بينما هتف يحيى متسائلا:

- سمعت إزاي؟!

- أنا والزلمة كنا واقفين بأول الحديقة بالقرب من باب البيت ولما تركته ودخلت اكتشفت إن ربما كانت واقفة خلف الباب وسمعت كل الحوار. طبعا انهارت وضليت بعدها أيام يقنع فيها إنه ها الزلمة كذاب وما بيفهم بشي وإنها لازم ما تصدق اللي سمعته وتتساه. خوفي عليها وحبها اللي اكتشفت فجأة قد ايش هو مسيطر علي خلاني قررت إنه حتى لو كان هيدا الحكي صحيح إلا أنه ها الشغلة لازم ما تنفتح مرة تانية أبدا كرما لربما ولإحساسها وحبها العنيف لبيا. بصعوبة قدرت أقنعها إنها تنسى كل شي وتكمل حياتها بطبيعية. بس بعد هيك اكتشفت إنها تظاهرت بالاقتناع

وإنها ضلت شهور بتبحث بالخفي بها الشغلة حتى قدرت تتوصل لكل المعلومات والحقائق اللي جزء كبير منها كان موجود بخزنة منصور بك بالدولاب الأزرق اللي هي كانت كاتبة اسمه والرقم السري لخزنته بالدفتر، ربما قدرت تعرف رقم الخزنة وفتحتها ولقت فيها أوراق ومستندات مرعبة، أسامي السياسيين ورجال الأعمال اللي كتبتهن باللستة وصفاتهن بالنسبة لشركات السلاح والصفقات اللي صارت وأرقام حساباتهن اللي بيوصل لهن العمولات والرشاوي عليها وتفاصيل بعض الشبكات المعقدة اللي حكيت عنها من شوي وكيف المصاري كانت بتدخل شركات وحسابات المجموعة وتخرج منها لحسابات هادول العالم وحتى رقم حساب منصور بك الخاص، وبالأيام اللي كان منصور بك بيسافر لهن لندن أو بيسافروا كلهن لأي بلد تاني بأوروبا كان بيتركهم ويطلع يلاقي عالم يتناقش معهن في تفاصيل شغل وصفقات وربما قدرت تراقبه بكام مرة وتصوره معهن، ربما سجلت كل شي وبحثت بكل اتجاه منشان هيك أنا بعرفك يا أستاذ يحيى لأن جزء من بحث ربما كان معرفة كل معارف منصور بك المتورطين معه بها التجارة بس الحمد لله اتأكدت إنه لا غبار عليك.

قالها مبتسما فابتسم يحيى في اطمئنان بينما هتفت يارا التي لم تلتفت لابتساماتهما والصدمة لا تزال تحتل كل كيانها:

- و مين طلع متورط معاه؟

مط نادر شفتيه وهو يقول في غير اكتراث:

- ما كان في حدن من اللي بيشتغلوا بالمجموعة متورط بها الشي، منصور بك كان فاصل تماما بين أعمال المجموعة والتجارة التانية، ما كان حدن بيعرف أي شي أو على الأقل حقيقة الأشيا الغريبة اللي بتصير وإن الصفقات المربية أو هاي اللي ما بتتم للنهاية ما هي إلا صفقات وهمية للتغطية على مصاري وتعاملات شركات السلاح غير منصور بك وأكيد طبعا شريكه الأساسي، الأستاذ شفيق.

زفرت يارا في سخرية عند سماع الاسم، بينما تساءل يحيى في حيرة:

- بس ليه شفيق قال للبوليس إن الخزنة كان فيها ورق شغل مش مهم؟! ماخافش إنهم لما يفتحوها يلاقوا الورق اللي أنت قلت عليه دلوقتي؟

مط نادر شفتيه وهو يقول في قلة اكتراث:

- يمكن شفيق كان واثق إنه العالم بللي بيتعاملوا معهن بالخارج هن اللي سرقوا الخزنة. ومادام قدروا يوصلوا لها يبقى أكيد أخدوا كل اللي فيها منشان هيك ما كان بيفرق شو اللي بيقوله للبوليس، وحتى لو ما كانت هاي الفكرة مرقت ع باله. كان بدك يعني يقول لهن على حقيقة الأوراق ويفضح حاله ويفضح منصور بك من دون ما يكون متاكد إن الورق موجود بالخزنة؟ شفيق أذكى من هيك. أكيد فكر إنه يقول أي شي لحد أما يفتحوا الخزنة وبعدها يتصرف على أساس شو جواها.

أومأ يحيى مقتنعا بكلامه بينما كانت يارا تستمع إليهما وقد عقدت ذراعيها أمام جسدها وشردت ببصرها نحو النيل دون أن تنطق بكلمة واحدة، وقد كسا وجهها غضب وحزن والتمعت في عينيها دموع مكبوتة أبى السخط بداخلها أن يتركها تسيل أمام كل تلك الحقائق المخزية. ساد صمت مشحون بالتوتر قطعه يحيى متسائلا في تباسط ليخفف من الحدة التي احتلت الأجواء حولهم خاصة بعدما رأى كل هذا الألم في عيني يارا وفشلها في إخفاء سخطها:

- واضح إن ربما كانت بتقول لك على كل حاجة؟

ابتسم نادر ابتسامة تشي بما في داخله من ألم وهو يقول:

- ربما ما حكت لي على أي شي إلا متأخر جدا. حكت لي وأطلعتني على كل الأوراق والمستندات اللي قدرت تحتفظ بصور منهن. حكت لي على كل شي عرفته ما عدا أهم شي صار بسببه كل اللي صار.

ضاقت عينا يحيى محاولا فهم ما يرمي إليه بينما التفتت يارا نحوه في تردد وقد أحست بما سيقوله نادر الذي استطرد في ألم:

- ربما ما حكت لي إنه بمرة وهي بتصور منصور بك مع سياسي معروف بأحد الفنادق بلندن شافها الBody Guard تبع ها الزلمة وصورها، وطبعا هادول الناس عرفوا بسهولة مين هي وشو بتسوي واتصلوا فيها وهددوها بالقتل لو ما اتراجعت. خافت علي منهن وخافت إني أضغط عليها لتتوقف عن كل اللي كانت ناوياه، ولما اتاكدت إنها راح تموت، أقنعتني أنا ودانية إننا نستغل فرصة سفر أمها ونروح معها ع بيروت ت نزور أهلنا من دون ما تقولنا شي. وفي اليوم اللي وصلتنا ع المطار الضهر رجعت ع فرع شركة البريد البعيد عن بيتها. اختارت الفرع الموجود بنفس البناية اللي بها الgym اللي كانت بتتردد عليه حتى ما يشك اللي كانوا عم يراقبوها، وأرسلت لإلك يا ست يارا

لمزيد من الكتب العصرية

مفاتيح توصلك للحقيقة اللي اكتشفتها بعد ما اتخلصت من باقي المستندات الصريحة الواضحة حتى ما يقعوا بايد حدا تاني، وأرسلت لي جواب ع بيروت، خافت تبعت لي email أو message خوفا من إنه تكون حساباتها الإلكترونية مخترقة، بالجواب حكت لإلي على التهديد واللي هي متأكدة إنه راح يصيرلها وطلبت مني إني أحاول أتواصل معك وأقول لك على كل الحقيقة قبل ما تودعني بالآخر، وبنفس اليوم بالمسا، قتلوها.

صمت ليكبت دموعا التمعت بعينيه حتى لا تنزلق أمامهما، لكن يارا لم تستطع، انزلقت دموعها حارة على وجنتيها وهي تتساءل في نبرة ضعيفة كأنها تتوسل إليه ليريحها ويخبرها بالحقيقة حتى لو حطمت تلك الحقيقة كل أوهامها التي كانت ترتاح لها في الماضي:

- ليه ربما اختارتني أنا بالذات يا نادر؟

مط نادر شفتيه وهو يقول في حيرة:

- ما بعرف، يمكن لأنك إنتي الوحيدة اللي ما كنتي تقدري تمنعيها من مواصلة هيدا الشي اللي بدأته ولا كان حدا هيفكر إن الأدلة معك هلا وبوذيك متل ما كان ممكن يصير لإلي أو لأي شخص قريب من ربما، أو يمكن لأنك إنتي كمان ابنة منصور بك وهيدا المصاب اللي صاب ربما بعد ما عرفت كل شي عن بيها بيصيبك إنتي أيضا، مو متأكد، بس الشي اللي أنا متأكد منه منيح هو إن على الرغم من إن ربما ما كانت تعرفك بس عن جد كانت بتحبك.

هتفت يارا في صدمة:

- بتحبني أنا؟!

اتسعت ابتسامة نادر وهو يستطرد مؤكدا:

- إيه والله كانت بتحبك، كانت تحكي وتقول "يا نادر أنا بحب أختي حتى من غير ما أعرفها"، كان بدها تعرف كل شي عنك وعن أمك، كان بدها تشوفك وتقعد تحكي معك وتبوح لإلك بأسرارها وتحكي لك عني وعن قصة حبها معي، كانت بتقول إنه أجمل إحساس هي انحرمت منه إحساس الأخ أو الأخت كأن فيه جزء ناقص منها وما بده يكمل إلا بيكي، بس بعد هيك كانت تبتسم بسعادة وتقول إنها مو راح تنحرم منه طول عمرها لأنها عن قريب راح تيجي ع مصر وتفتش عليكي وتقابلك

ويصير لها عن جد أخت كبيرة وصديقة تستند عليها طول عمرها، بس يا خسارة، ما لحقت حتى ترجع ع وطنها.

صمت نادر مرة أخرى وقد بدت آثار الألم واضحة على وجهه، بينما أبعدت يارا عينيها المبللتين وشردت مرة أخرى نحو النيل كأنها تخشى أن يرى أحد كل هذا الإحساس بالذنب الذي عاد ليعذبها مرة أخرى بعد كل ما سمعته من نادر عن تلك الأخت الرقيقة الحنونة الشجاعة، التي بنت حولها في الماضي أوهاما صارت الآن تخجل منها ومن نفسها لأنها يوما ما فكرت بتلك الطريقة في ربما بينما كانت هي تتحرق شوقا لرؤيتها والقاء نفسها بين أحضانها.

أحس يحيى بحرج شديد من كم الألم البادي على وجهيهما فتساءل في تباسط محاولا كسر الصمت وتخفيف حدة التوتر:

- وهتعمل إيه دلوقتي يا أستاذ نادر؟ هتشترك في العمل السياسي؟

مط نادر شفتيه قبل أن يقول:

- لا لا، اليوم أنا صرت كتير مختلف عن قبل هيك، آخر شهرين غيروا في أشيا كتيرة، صرت أكره الحرب والسياسة، حتى النضال بأي بلد صار إله أبعاد سياسية واختلافات داخلية مقززة، إذا انضميت لأي معسكر ما راح صير مناضل من أجل الوطن وبس لكن غصب عني راح حارب وناضل من أجل اختلافات سياسية ما إلها علاقة بالهدف الأساسي اللي بدي اوصل له، كأن حالنا السيء مو كفاية، وصار السياسيين والقادة يخترعوا خلافات بينهم ت يزودوا مصيبتنا ومصيبة أرضنا، ما راح أقبل إن حدا يستغل حماسي لأغراض شخصية، بس بنفس الوقت ما راح أقدر كون سلبي ولا ساعد في شي، منشان هيك استغليت شهادتي الإنجليزية وحصلت على وظيفة بإحدى لجان الإغاثة بالأمم المتحدة بالشرق الأوسط، من ناحية راح أضمن إني ضل أتردد على البلاد العربية ومن ناحية أخرى راح أخدم وساعد أهلي المتضررين من أذى الداخل قبل أذى الخارج.

ثم تدارك مغيرا دفة الحديث بعدما تذكر أمرا هاما:

- آه كنت راح أنسى، فيه حدا كلم يارا وهددها؟

نظرت يارا نحوه بنفس النظرة الحزينة دون أن تجيب بينما قال يحيى في ضيق:

- أيوه كلموها وهددوها، وأكيد هما دلوقتي عرفوا إننا قابلناك وعرفنا منك كل حاجة.

حرك نادر رأسه في استهانة وهو يقول:

- لا مو بالضروري، أنا ما جيت ع القاهرة إلا لما اتاكدت إن ما في حدن يراقب يارا ولا يراقبني، وسويت كل شي حتى ما حدا يعرف أمر السفرة هاي، يعني مو بالضرورة يعرفوا إننا اتقابلنا.

عقد يحيى حاجبيه وهو يتساءل مستنكرا:

- طب إزاي عرفوا إن الصندوق معاها وإننا بندور في ملفات الشركة إذا ماكانوش بيراقبوها؟

رفع نادر كتفيه وهو يقول:

- ما بعرف، بس أنا متأكد إن ما فيه حدا يراقب يارا، أنا قدرت أتأكد من هيك، على العموم، ديروا بالكوا ع حالكوا، هادول الناس مجرمين وما بيمزحوا.

فابتسم يحيى وهو يقول:

- و إنت كمان يا أستاذ نادر خد بالك من نفسك.

ابتسم نادر في مرارة وهو يقول:

- لا خلاص، ما عاد تهمني حياتي، يساووا اللي بدهن ياه، أنا بس اتاكدت من شغلة المراقبة هاي قبل ما آجي على القاهرة حماية لإلك إنتي يا ست يارا، إنما أنا ما بيهمني، أنا عايش بس ملشان أمي وأختي إنما بعد ربما خلاص، ما بقى فيه شي أخاف على حياتي منشانه.

تساءل يحيى في حيرة:

- طب إحنا المفروض نعمل إيه بالحاجة اللي معانا دي؟ بعد ما خزنة منصور بيه اتسرقت أعتقد إن المعلومات اللي معانا فقدت جزء كبير من أهميتها.

زفر نادر قبل أن يقول:

- شوف يا أستاذ يحيى، ربما كان عندها فرصة كبيرة إنها تتخلص من كل شي وما تقول لحدا أو إنها تنشر كل المعلومات وتفضح هادول الناس وتفضح بيها معهن، بس هي ما سوت شي، وماتت من دون ما تتخذ قرار، لا قدرت تقتل ضميرها وتخفي الحقيقة وتدمرها ولا قدرت تؤذي بيها وتسيء لإله. يمكن هي لما بعتت كل شي لإلك يا ست يارا ظنت إنك راح تاخدي القرار أسرع منها لأنك ما تعرفي بيك ولا بتحبيه متل ما كانت ربما بتحبه وبالتالي مو هيكون صعب عليكي إنك تنشري كل هاي المعلومات، بس شو لازم تسوي هلا ما بعرف، حتى ربما ما طلبت مني بالجواب إني أقول لك

على شي محدد تسويه، هيدا قرارك، بس أعتقد إن بما إن الخزنة اللي بالدولاب الأزرق اتسرقت يبقى خلاص ما بقى فيه شي يثبت صحة الكلام اللي راح تنشروه، وهيك راح تجيبوا لإلكن المتاعب بلا داعي.

التفتت يارا نحوه وهتفت في حدة والدموع تطفر من عينيها:

- يعني إيه بلا داعي؟! يعني ربما تموت وفي الآخر مافيش حاجة من اللي هي كانت عاوزاه تحصل؟

ابتسم نادر بعدما رأى حماسها وفهم ما يدور بداخلها قبل أن يتساءل في هدوء:

- ومين قال لك إنه هيدا هو اللي كانت ربما عاوزاه؟ مين قال لك إن ربما كان بدها إن بيها يتفضح؟

ازدادت حدتها وهي تهتف غير مصدقة:

- أظن هتقول لي تاني إنها كانت بتحبه؟ حتى بعد اللي عرفته عنه؟

لم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يجيب في ثقة:

- إيه، كانت بتحبه، حتى بعد اللي عرفته، لأن اللي عرفته هيدا كانت حقيقة منصور أبو بلاط، إنما ربما ما كانت بتحب منصور أبو بلاط، ربما كانت بتحب منصور، منصور بس، فهمتي علي؟

نظرت نحوه دون أن تنبس بكلمة، عيناها تنضحان بغضب وسخط عجيبين، يكاد يفتك بها الغيظ بسبب تلك الأخت التي ما كرهت أباهما حتى آخر يوم في عمرها بينما يارا لا تعرف حتى الآن كيف تحبه، استطرد نادر قائلا في هدوء وكأنه يلقي على مسامعها خلاصة تجربته في الحياة:

- اسمعيني منيح يا ست يارا، ربما ماتت بسبب العالم هادول، بس مو وحدها، ربما مو هي أول واحدة يقتلوها ومو هي أكتر واحدة تستحق الانتقام من أجلها، الملايين اللي ماتوا بالمناطق والحروب اللي حكيت لك عنهن ما وجدوا حدا ينتقم لهن مع إنهن ماتوا بسبب نفس العالم وحتى من دون ما يسووا أي شي. الحقيقة اللي بدك تنشريها واللي راحت أدلتها واختفت، كل الناس بتعرفها، كل الناس بتعرف مين اللي بيغذي الخلافات بيناتنا ويزودها بالسلاح والمال والوقيعة. ما فيه شي جديد باللي راح تقوليه، حتى الأسامي كلها معروفة، يمكن اسم منصور بك هو الشي الجديد. بس شو هي الفايدة؟ بلادنا بيها ألف منصور بك وكل يوم راح يصير ألف غيره، على الأقل منصور بك كان به شي مختلف، شي خلى ربما تظل تحبه حتى بعد كل اللي عرفته واللي صار، يمكن راح تستغربي من كلامي هاي وتظني إني جبان أو تتساءلي كيف اللي بيقضي معظم وقته بين ضحايا

لمزيد من الكتب المصرية

هادول المجرمين مو متحمس لأن حقيقتهم تنفضح وتبان. بس أنا بدي قلك شي. نحنا مو ضحايا حدن. نحنا ضحايا أنفسنا. وهادول المجرمين ما كان راح يبيعوا سلاح لإلنا إذا ما كان لاقوا حدا منا بده يشتري.

صمت نادر قليلا قبل أن يستطرد قائلا:

- الشي المختلف اللي كان عند ربما هو الأدلة اللي عرفت مكانها. والأدلة خلاص راحت واختفت. وناس متل هادول العالم ما فيه حدا بيقدر يحاكمهن حتى لو معه دليل. فما بالك لو مو معه؟ روحي اقري وشوفي شو اللي صار لوكلاء وتجار السلاح اللي خربوا العالم ووردوا أسلحة لمناطق مفروض عليها حظر بيع سلاح وخرقوا كل القوانين. يا إما ما صار لهم شي أبدا يا إما اتقبض عليهن والتحقيق اتقفل بتدخل حكومات أوروبا وأمريكا يا إما اتحكم عليهن بأحكام مخففة بعد ما عقدوا اتفاقات وتسويات مع الحكومات اللي معظمها كان بيعرف كل شي سووه من البداية. وبكل الأحوال بينتهي بمعظمهم الحال بحياة فخمة ومريحة بمنتجعات أوروبا مستفيدين من ثغرات النظام القانوني الدولي ومتخبيين ورا غطاء محكم من السياسيين الأقوياء ووكالات الاستخبارات. ست يارا أنا مو بكسر مجاديفك متل ما بتحكوا بالمصري. أنا بس بحكيلك رأيي. والمنطق اللي بحكيلك ياه مو جاي من فراغ. هيدا خلاصة تجربة ممكن تكون قصيرة لكنها ما اتوفرت لكتير من الناس اللي بمتل سني. ساوي اللي بدك ياه واللي شايفاه صحيح والله يوفقك ويحميكي. بس اتذكري إنه متل ما كانت ربما بدها تنشر الحقيقة كانت كمان ما بدها بيها يلتذي ولو حتى بالكلام. لأنه مو راح يصير غير الكلام وبس صدقيني. بس حتى هيدا ربما ما كانت بدها إنه يصير. والرغبتين كانوا متساويين عندها في الوقت اللي الفرصة كانت سانحة قدامها والأدلة كلها موجودة بخزنة منصور بك وهي معها نسخة منهن.

خيم صمت ثقيل عليهم. كل شارد في دنيا خاصة به. نادر يقاوم الألم الذي كان يظن أنه نسيه حتى اكتشف الآن فقط أنه كان حيا بداخله طوال الوقت. يارا تتمزق بين ألم وحيرة وإحساس بالذنب والندم. مشتتة بين مائة إحساس نحو أختها ونحو أبيها ونحو نفسها وفي نفس الوقت تبذل مجهودا خارقا لتكبت دموعها وانفعالها. ويحيى يعلم كل ما يدور بداخلها ويشفق عليها من تلك الحيرة

وهذا الألم، خاصة بعدما رأى هذا السلوك العدائي الذي بدأ يظهر في انفعالاتها لتداري به التمزق الذي تشعر به والذي بدا واضحا جدا في الدموع الحبيسة في مقلتيها.

نظر نادر في ساعته قبل أن يقول ممهدا لإنهاء المقابلة:

- بدك تعرفي أي شي تاني يا ست يارا؟

تأملته قليلا وهي تحاول تمالك نفسها حتى لا يحدث لها أي من النقيضين: الانفعال أو الانهيار، سألته في نبرة حاولت أن تكون طبيعية وإن لم تخل من شيء من التوسل:

- ليه الصندوق كان لونه أسود يا نادر مع إن ربما ماكانتش بتحب اللون ده؟

ابتسم نادر ابتسامة حاول أن يخفي بها ألما حل بوجهه بعدما مرت بعض الذكريات أمام عينيه وهو يجيب:

- ما كان أسود يا يارا، كان لونه بين الأسود والبني المحروق، شي متل لون قشرة الكوكونت.

همست يارا في دهشة وقد لاحت شكل السلسلة الذهبية أمامها وتردد في أذنها اسم المجموعة التي أخبرها بها مسيو فايز:

- كوكونت؟!

لوح نادر بيده في الهواء وهو يقول:

- آسف، بقصد جوز الهند، ربما أصلها ما كانت تعرف اسم الكوكونت بالعربي، ما درست لغة عربية بالمدرسة ومعظم تعاملاتها حتى مع أمها كانت باللغة الإنجليزية، منشان هيك كانت دايما تحكيه كوكونت وأنا كنت دايما مازحها بسبب هيك.

عاد الألم يكسو ملامحه بعدما تذكر تلك اللحظات الجميلة بينه وبينها ولكن يارا لم تنتبه وعادت تتساءل في إلحاح:

- ليه طيب اختارت صندوق باللون ده وهي مابتحبهوش؟

- هي ما اختارت شي، هيدا الصندوق أنا اللي كنت جبته لإلها بعيد ميلادها اللي فات وحطيت لها فيه الهدايا اللي جبتلها ياها، واخترته بها اللون وأنا بعرف إنها ما بتحبه ت امزح معها.

زفر مبتسما قبل أن يستطرد:

- ربما كانت كتير متفاءلة ومرحة وبتكره الحزن والتشاؤم وأي شي مرتبط بالنكد حتى الألوان الداكنة وخاصة الأسود، كانت بتقول إنه معظم الحاجات اللي بتضايق الإنسان وتنكد عليه ما هي إلا أوهام صنعها بخياله وغلف بها حقيقة مش لازم تكون حقيقة رائعة لكنها على الأقل أجمل من أوهامه اللي عايش فيها، حاجة متل قشرة جوز الهند، داكنة وناشفة وخشنة، بس لو ما انخدعت بها وما يئست منها وقدرت تفتحها راح تلاقي جواها عصير مسكر وفاكهة طعمها حلو أحلى من الأشيا السخيفة اللي ممكن تكون اتصورت إنها موجودة خلف ها القشرة، أنا دايما كنت أختلف معها، هي متفاءلة جدا وأنا واقعي وأكاد أكون متشائم بزيادة، كنت أقول لها إن فيه ناس كتيرة المآسي بحياتهن مو أوهام صنعوها بخيالهن، إنما حقيقة واقعة ومؤلمة، كانت تغيظني أكتر وتقول لي إن أكيد كل حقيقة مؤلمة وقاسية في خلفها حكمة جميلة وحقيقة أحلى منها أيضا متل ما الطبقة البيضة المسكرة لازقة بقشرة جوز الهند الداكنة من جوا، ولما كنت اتعصب وحاول أنصب لها فخ وأثبت لها إن رأيها خطأ، كنت أسألها عن شو هي الحقيقة الجميلة المتخفية خلف المأساة الموجودة ببلدي وبلاد تانية كتيرة حوالينا، كانت بكل بساطة تقول لي إنها ما بتعرف بس هي واثقة إن الله إله حكمة وإنها أكيد راح تظهر بالوقت المناسب.

صمت قليلا يستجمع نفسه وقد وصل لمعان عينيه إلى أقصى درجة، كأن الدموع التي نجح في إخفائها كل هذا الوقت لم تتحمل كل تلك الذكريات التي اضطر لتذكرها وسردها الآن، استكمل محاولا إخفاء ألمه ومقاومة دموعه بابتسامة حائرة:

- و الله ما بعرف من وين كانت بتجيب كل ها القوة والتفاؤل، كل ما بسترجع كلامها بادرك إني كنت قدام فيلسوفة صغيرة ما كنت مقدر قيمة آراءها وغرابة إنها تكون بها السن الصغيرة ومتربية بها البيئة وعندها متل ها الآراء القوية، آخر وصية كتبتها لإلي بالجواب كانت...

صمت فجأة وأدار وجهه باذلا مجهودا خارقا ليسيطر على حشرجة صوته ويمنع دموعه التي كانت على حافة عينيه، نظر نحوه يحيى مشفقا بينما تعلقت به عينا يارا التي عادت الدموع تخط خطوطا شفافة على وجنتيها وهو يحاول أن يبدو متماسكا وهو يستكمل قائلا:

- كانت هيك بالحرف "إياك والتشاؤم، الجبناء فقط هم من يتشاءمون لأنهم لا يجدون ما هو أسهل من الاستسلام للتشاؤم، فالشجاع الحقيقي هو من يملك شجاعة التفاؤل"، وعلى الرغم من

إن كل الجواب كان بالإنجليزي إلا إن ها الجملة بالذات كتبتها باللغة العربية وما بعرف كيف قدرت تكتبها، متل ما قلت لكن ربما ما كانت بتعرف عربي منيح، حتى جوز الهند ما كانت بتعرف اسمه بالعربية.

عاد ليصمت مرة أخرى محاولا كبت ألمه والتغلب على دموعه، سادت فترة من الصمت كانت كافية حتى يتماسك نادر مرة أخرى وتفرغ يارا شحنات دموعها بعد أن سيطر عليها استيعابها لحقيقة أن ربما لم تكن فقط تشبهها في الشكل والمضمون بل وأيضا في الظروف المحيطة بها، هي أيضا كانت تعيش على الأقل آخر عامين من عمرها تلك الحالة التي وصفها لها يحيى من قبل، كانت تعيش في دنيا غريبة ومختلفة عما بداخلها بدليل استغراب نادر من أن يكون لفتاة في مثل عمرها ومثل بيئتها تلك الآراء الفلسفية، مدت يدها وأخرجت السلسلة الذهبية من خلف ملابسها، اتسعت ابتسامة نادر ما إن رآها قبل أن يقول:

- أول ما شفت مجموعة كوكونت هاي، جبت السلسلة بسرعة لربما وأهديتها لها بعيد ميلادها، كان قصدي امزح معها وضايقها، قلت لها شايفة حتى السلسلة الذهب لما فكروا يسووها على شكل جوز الهند ملأوها فصوص لونها داكن، ساعتها ابتسمت وقالت لي بمنتهى الثقة إنها راح هي بنفسها تخلق خلف القشرة الملبانة فصوص داكنة الطبقة الحلوة المسكرة وإنها لتسوي ها الشغلة راح تستخدم أهم وأقرب ناس بحياتها.

مد يده وأخرج مفتاحا ذهبيا صغيرا من جيب قميصه، أطلقت يارا شهقة دهشة عندما رأته بين أصابعه، أدركت أن كل ما ظنته كان حقيقة، المفتاح ظهر في الوقت المناسب، ربما جعلته يظهر في الوقت المناسب، كانت محقة عندما وثقت بها.

دون أن تخلع السلسلة من رقبتها، اقتربت حتى أصبحت ثمرة جوز الهند الذهبية الصغيرة في متناول يد نادر الذي أمسكها وقلبها، أدخل المفتاح في الفتحة الصغيرة وأداره برفق فصدرت عنه صوت "تكة" اللسان الذي انفتح أخيرا.

بيد باردة تناولت يارا الثمرة الذهبية وفتحتها ببطء وقلبها يكاد يتوقف من شدة خفقانه، وعندما أصبحت الثمرة مفتوحة على مصراعيها أدركت يارا أن تلك الطبقة البيضاء الحلوة التي صنعتها

ربما داخل ثمرة جوز الهند الخاصة بها لم تكن إلا صورة صغيرة على كل جانب، الأولى لنادر، حبيبها، والثانية لمنصور أبو بلاط، أبيها.

عندما توقف بسيارته أمام منزلها لم يعرف كيف يقطع الصمت الذي دام منذ أن تركا نادر حتى الآن، طوال الطريق لم تنبس بكلمة واحدة، ظلت عاقدة ذراعيها أمام صدرها ومولية رأسها نحو النافذة وعلى وجهها تقطيبة تستخدمها لتكتم دموعا كانت لا تزال تترقرق بعينيها وتخفي سخطا وغضبا ويأسا استطاعوا أن يتملكوها ويسيطروا عليها سيطرة تامة.

كان يحيى يعلم ما بداخلها من ألم حاولت أن تخفيه خلف قناع الحدة الذي ترتديه الآن، بينه وبين نفسه قرر أن يتحمل أي رد فعل يصدر منها أو أي انهيار ينتابها خاصة بعدما حدث بينهما في المجموعة وما تبعه من لطمات عنيفة تلقتها من نادر وحديثه عن ريما ومنصور بك، ولكن رد فعلها فاق كل ما كان يتوقعه عندما هتف في صوت متردد خافت:

- يارا.

التفتت نحوه في عصبية وقاطعته بحدة والشرر يتطاير من خلف دموعها المكتومة:

- مافيش داعي تتعب نفسك وتألف كلمتين حلوين وتيجي بعد يومين تقول لي أنا آسف مش هاقدر أكمل معاكي، أنا هاريحك وهاخلص الموضوع كله دلوقتي حالا حتى عشان تعرف تخلص إجراءات سفرك براحتك وتشوف مستقبلك من غير أي مشاكل ومن غير ما أنا أبقى السبب في ضياع مستقبلك، وكمان عشان أنا مش مستعدة أسمع نفس الكلام السخيف ده مرتين.

عقد حاجبيه في استنكار وقد تملكته صدمة شديدة من رد فعلها الذي فاق توقعه ومن كلامها الغريب، كرر كلامها متسائلا وقد أثقلت الدهشة لسانه:

- مرتين؟

فازدادت حدتها وهي تستطرد قائلة في تحد لا مبرر له:

- أيوه مرتين، مش إنت كنت عاوز تعرف ليه خطوبتي أنا وكريم اتفسخت؟

علي الرغم من الصدمة التي كانت تتملكه بسبب الموقف لكنه لم يستطع أن يخفي شيئا من الفضول زحف على وجهه عندما فاجأته بأنها قررت الآن إخباره بما ظل يسعى طويلا لمعرفته. لم تنتظر منه ردا، أدارت نظرها بعيدا عنه وهي تستطرد في نفس النبرة الحادة الغاضبة:

لمزيد من الكتب الحصرية

- كريم هو اللي سابني، عشان أهله ضغطوا عليه. قالوا له دي واحدة أبوها رماها وسابها تتربى بعيد عنه طول عمرها حتى مافكرش يحضر خطوبتها ولا يعرف اتخطبت لمين. مالهاش كبير ولا راجل تقدر ترجع له لو عملت حاجة كده ولا كده. مالهاش حد يلمها وتخاف منه ويقف لها لو غلطت، ده غير طبعا إن أبوها طلق أمها ورماها كل الفترة دي يعني احتمال كبير يكون الطلاق حصل بسبب عيب فيها وفي أخلاقها وأكيد بنتها هتطلع زيها.

ثم التفتت نحوه واستكملت في عنف حاولت أن تكتم به دموعها المترقرقة في مقلتيها:

- و ده حصل أيام ما كان أبويا ده من أغنى وأشرف رجال الأعمال في مصر. فما بالك دلوقتي بعد ما طلعت مش بس بنت أب راميني ومش سائل فيا لأ وكمان طلع مجرم وبيشتغل في الأسلحة. فاكرني هاستنى لحد أما تيجي تقول لي ماعلش آسف مركزي وعيلتي وأخلاقي مايسمحوليش أتجوز واحدة زيك؟ لا أنا مش مستعدة أسمع نفس الكلام السخيف ده مرة تانية، وعشان ماحرجكش أكتر من كده أديني باقولها لك بنفسي، اعتبر كل اللي بيننا انتهى يا أستاذ يحيى ويا ريت تنسي إن إحنا أصلا اتقابلنا.

ارتدت حقيبتها وهبطت من السيارة قبل أن تغلق بابها بعنف شديد وتختفي بخطوات سريعة في مدخل العمارة، تاركة إياه غارقا في دهشة شديدة من رد فعلها وكلامها الغاضب الحاد وهذا القرار العجيب الذي أبلغته به قبل أن تهرب من أمامه دون أن تترك له الفرصة ليستوعب أو يفتح فمه ليجيبها أو حتى ليستبقيها.

المزيد من الكتب العصرية

(٥٦)

كان يحيى رافعا ذراعه ومستندا بها على الحائط عندما فتحت يارا الباب بوجه مصفر وعينين ذابلتين لم تتذوقا شيئا من النوم طوال الليل. لم تندهش كثيرا عندما رأته أمام باب منزلها فهي تعلم أنه يحاول الوصول إليها منذ البارحة دون فائدة. خاصة بعد هذا الكلام السخيف الذي قالته له في غمرة انفعالها والذي أحست فيما بعد بالندم بسبب تسرعها في التفوه به بتلك الحدة. ولكن ما حدث لها البارحة فتح كل جراحها في وقت واحد ولم يترك لها فرصة للتفكير المتروي.

قلب شفتيه في ضيق وهو يقول معاتبا:

- معقول كده؟ موبايلك مقفول ومابترديش على تليفون البيت من إمبارح.

هتفت في خجل وهي تتحاشى النظر نحوه:

- ماعلش. ماكنتش قادرة أتكلم مع حد.

- طب اتفضلي خشي البسي وحصليني على تحت عشان نروح نقعد في أي حتة.

تقلصت ملامحها وهي تقول محاولة التهرب بنبرة منهكة:

- يحيى لو سمحت. أنا فعلا مش قادرة أتكلم.

قاطعها قائلا بصبر نافد:

- باقول لك إيه. أنا هاقعد أتكلم معاكي يعني هاقعد أتكلم معاكي. لو ماجيتيش معايا هادخل وأقعد معاكي هنا في شقتك. وعلى فكرة البواب شافني وأنا طالع فأحسن لك إن أنا أنزل دلوقتي بسرعة وإنتي تحصليني بعدها لحسن الراجل يفتكر حاجة كده ولا كده.

ثم التفت ليهبط الدرج وهو يهتف حاسما دون أن ينتظر منها ردا:

- أنا مستني تحت في العربية.

عندما استقرا على إحدى الموائد أسرع يحيى بالإشارة إلى النادل فهتفت يارا في دهشة لم تمح آثار الإرهاق التي كانت لا تزال بادية على وجهها وصوتها:

- هو إحنا لحقنا نشوف هنطلب إيه؟

فأجابها ممازحا وقد قرر بينه وبين نفسه أن يتخذ من المزاح طريقا ليخفف عنها وطأة إرهاقها وثقل الموقف برمته وساعده على ذلك السعادة التي بالرغم من كل شيء كان يشعر بها. سعادة

مبعثها اطمئنان امتلأ به منذ أن أخبرته يارا بحقيقة ما حدث لها مع كريم، فعلى الرغم من السياق السيء الذي علم من خلاله لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بسعادة غامرة، خاصة بعدما تأكد بنفسه أنه من المستحيل أن يتجدد أي شيء بداخلها نحو كريم بعد الذي فعله بها في الماضي:

- هو فيه غيرها؟ أكيد هنطلب قهوة، ما إحنا كل أما نحب نتكلم مع بعض لازم نشرب قهوة، ده أنا هيجي لي انسداد شرايين بسبب القهوة اللي باشربها معاكي.

جاهدت لتبتسم ابتسامة خافتة أجابها هو بابتسامة أوسع عندما وجد أن طريقته بدأت تؤتي ثمارها قبل أن يلتفت للنادل ويملي عليه طلبهما، عاد لينظر نحوها وهو يقول مبتسما بنبرة اختلط بها الجد بالمزاح:

- بس أنا لو مت مش هيبقى بسبب انسداد الشرايين، إنما بسبب الشلل اللي إنتي هتجيبيهولي إن شاء الله، ممكن تفهميني إيه الفيلم العربي اللي إنتي عملتيهولي إمبارح ده؟

فالتمعت عيناها بالدهشة وهي تتساءل:

- أنا عملت فيلم عربي؟

- أيوه طبعا، قال إيه يا ريت نلمي إن إحنا اتقابلنا واعتبر كل اللي بيننا انتهى يا أستاذ يحيى، طب أنا هافوت لك كل حاجة، إنما إيه أستاذ دي؟ تصدقي إن دي هي أكتر حاجة ضايقتني.

لم تستطع أن تمنع ضحكة خافتة من أن تصدر من بين شفتيها الشاحبتين بينما استطرد يحيى قائلا في نبرة ضاحكة:

- آه والله، وبعدين إنتي ناسية إن ماما هي صاحبة قرار إن لا أنا أقولك يا آنسة ولا إنتي تقولي لي يا أستاذ، إزاي بقى تكسري أوامر الكبيرة بالطريقة دي؟

ثم صمت لحظة قبل أن يقول مبتسما في تخابث:

- بس عارفة؟ كل الكلام الفارغ والعصبية بتوع إمبارح دول خلوني أخيرا أفهم حاجات كتيرة ماكنتش فاهمها.

ضاقت عيناها وهي تتساءل في فضول:

- قصدك إيه؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول في شبه لوم محاصرا إياها بعينيه:

- قصدي إني أخيرا فهمت إنتي ليه كنتي مترددة طول الفترة اللي فاتت دي وعمالة تهربي مني، حضرتك كنتي لسه عايشة في تجربة قديمة وخايفة إنها تتكرر تاني. بس اللي أنا مش قادر أصدقه، إزاي إنتي تخيلتي إني ممكن أكون زي كريم ولا أعمل حاجة زي اللي هو عملها؟ إنتي لسه ماعرفتينيش كويس ولا إيه؟

زفرت قبل أن تقول في أسف شديد:

- اعذرني يا يحيى، التجربة القديمة دي ماكانتش مجرد تجربة حب فاشلة وبس، أنا كل ما أفتكر إن أبويا ده خلاص مالهوش وجود في حياتي لا بخير ولا بشر يطلع لي فجأة من غير سبب ويقلب لي الدنيا كلها، والتجربة دي كانت أعنف وأقوى مرة أتأذي بسببه لدرجة إني ساعتها كرهته وكرهت حياتي وحسيت كمان إني نفسي أصرخ في وش أمي وأسألها اتجوزتي راجل زي ده ليه؟ ساعتها أنا كنت صغيرة وضعيفة ومتعلقة بكريم وماستحملتش الصدمة، إنت عارف أنا حصل لي إيه بعدها؟ انهيار عصبي ومهدئات وأزمات ضيق تنفس زي اللي جات لي وأنا في بيتكم وأعنف كمان، ولولا أمي الله يرحمها كان زماني دخلت مصحة نفسية.

عقد يحيى حاجبيه وهو يهتف متسائلا في دهشة:

- ياه!! كل ده وماحكيتيليش أي حاجة؟!

ابتسمت في مرارة وهي تقول:

- كنت فاكرة إن الكلام في موضوع كريم ده هو أكتر حاجة ممكن تتعبني وتقلب عليا المواجع، بس بعد كلام إمبارح طلع إن فيه حاجات تانية بتوجع أكتر وبرضو بسبب نفس الراجل، منصور أبو بلاط.

أجابها في ضيق:

- أه هنرجع بقى لنفس الكلام العبيط تاني؟

قاطعهما النادل ليضع فنجاني القهوة أمامهما وعندما انصرف التفت يحيى نحوها وقال بنفس النبرة المعاتبة:

- وبعدين تعالي هنا، إزاي ممكن تتخيلي إني أحاسبك على أفعال أبوكي؟ أبوكي اللي مش بس إنتي

شخصية منفصلة عنه لا وكمان مالكيش أي علاقة بيه طول عمرك؟ يبقى الأول بقى إني أطلع أبويا الله يرحمه من تربته وأجيب أمي وأقعد أعاتبهم وأهزأهم عشان فضلوا يعرفوا الراجل ده ويحبوه ويحترموه واحد من العيلة من غير ما ياخدوا بالهم من أي حاجة من اللي هو كان بيعمله.

أجابته في عصبية تشي بما يحتمل بداخلها من ألم:

- يا بعني والدك ووالدتك مهما كان درجة قربهم منه في الأول وفي الآخر يا دوب أصدقاؤه. إنما أنا بنته، حبيته أو ماحبيتوش، عرفته أو ماعرفتوش مش هتفرق، في الأول وفي الآخر أنا بنت الراجل ده، بنت منصور أبو بلاط، أنا بنت مورد أسلحة ومجرم،-دي حقيقة مش هتتغير.

فارتشف من قهوته في هدوء لا يتناسب مع عصبيتها ثم قال ناظرا بداخل عينيها مباشرة:

- ممكن تكون دي فعلا حقيقة، وحقيقة سيئة جدا كمان، بس مش مهم الحقيقة، المهم إنني رد فعلك ناحيتها هيبقى عامل إزاي، هل هتتعاملي معاها على أنها حقيقة مؤلمة لازم تتجاوزيها وتتغلبيها وتكملي حياتك بعدها ولا هتفضلي تكبريها وتضخميها لحد أما تتحول من حقيقة مؤلمة بدرجة واحد لوهم كبير مؤلم بدرجة ألف تفضلي حابسة نفسك جواه؟

هتفت في حيرة وعدم فهم:

- مش فاهمة؟ إنت عاوز تقول إيه؟

فزفر قبل أن يقول:

- هافهمك أنا قصدي إيه، إنتي رحتي أمريكا قبل كده؟

- لا.

فتساءل ممازحا:

- يعني متخرجة من الجامعة الأمريكية وعمرك ما رحتي أمريكا قبل كده؟

فتساءلت مبتسمة في دهشة:

- إيه العلاقة؟

فابتسم وهو يلوح بيده قائلا في استهانة:

- يا شيخة اقعدي كده وإنتي عاملة نفسك فيلسوفة وإنتي مش فاهمة حاجة أصلا، المهم، أمريكا دي فيها حتة كده اسمها كاليفورنيا عارفاها؟

لمزيد من الكتب الحصرية

فقالت مبتسمة وهي تحاول مجاراته في المزاح لتتوصل إلى مقصده:

- أسمع عنها.

فعادت الجدية تكسو ملامحه وهو يسرد قائلا:

- كان فيه في القرن الـ١٩ في حتة تانية كده في أمريكا اسمها كونيكتيكت شركة أسلحة اسمها Winchester Repeating Arms Company .

ثم نظر إليها رافعا حاجبيه ليلفت انتباهها إلى تشابه موقفها مع ما سيقصه، قبل أن يستطرد قائلا بينما استغرقت يارا في الاستماع بكل حواسها لتلك القصة الجديدة عليها:

- الشركة دي كانت بتنتج بندقية ونشستر المشهورة أو Winchester rifle، اللي استخدمت كتير جدا في الحرب الأهلية في أمريكا بين الشمال وولايات الجنوب المنفصلة وبرضو في الإبادات اللي عملها الرجل الأبيض ضد الهنود الحمر لدرجة إنهم سموها The gun that won the west عشان معظم الهنود كانوا موجودين في الغرب لما كانت البندقية بتستخدم كتير ضدهم. الشركة دي كانت ملك لواحد اسمه أوليفر ونشستر وابنه ويليام ونشستر، ويليام اتجوز واحدة اسمها سارة، سارة ونشستر، كانوا عايشين حياة سعيدة ومترفة لحد لما خلفوا بنت ماتت بعد ولادتها بست أسابيع بس، وبعد موت الطفلة بكام سنة مات ويليام وساب سارة وحيدة من غير أسرة ولا أولاد وثروة حوالي عشرين مليون دولار ده غير أسهم تعمل لها أرباح حوالي ألف دولار يوميا. سارة بعد موت أقرب الناس ليها بقت مهتمة جدا بفكرة الموت والأرواح والعالم الآخر عشان كده بعد موت ويليام بفترة قليلة راحت لوسيط روحي في بوسطن، الوسيط ده قال لها إن اللي حصل لبنتها ولجوزها ما هو إلا لعنة أرواح كل الناس اللي ماتت بسبب البندقية اللي كانت بتنتجها شركة ونشستر، وإن الأرواح دي كانت بتنتقم بقتل الطفلة وقتل ويليام وإن الدور دلوقتي عليها هي، وعشان تكسب رضا الأرواح دي وفي نفس الوقت تحمي نفسها منهم لازم تسافر لغرب أمريكا أو المكان اللي مات فيه معظم أصحاب الأرواح دي سواء من الهنود أو جنود الحرب الأهلية وتبني بيت كبير جدا ماتبطلش تبني وتوسع فيه طول الوقت لأن لو البناء وقف ساعة واحدة بس، سارة هتموت. وفعلا، سافرت سارة لكاليفورنيا واشترت أرض وبنت عليها قصر خرافي وعينت مهندسين وعمال مايبطلوش بناء في بقية البيت اللي هي فضلت عايشة في الجزء اللي خلص منه، وفضلت عايشة كده لمدة ٣٨ سنة،

٣٨ سنة البناء شغال ٢٤ ساعة طول السنة وهي حابسة نفسها في بيت عامل زي المتاهة. أبواب بتفتح على حيطان مسدودة وسلالم مابتطلعش على أي مكان ودواليب جواها أوض واسعة ومتاهات الواحد ممكن يتوه فيها ساعات. كل ده عشان تلخبط أرواح الضحايا وتعرف تهرب منهم في المتاهات دي. وصل بيها الخوف لدرجة إنهم قالوا إنها كانت مابتنامش في نفس الأوضة يومين ورا بعض عشان الأرواح ماتعرفش مكان ثابت ليها. ولما ماتت سابت قصر رهيب اتكلف حوالي خمسة مليون دولار في الوقت ده وبيتكون من ١٦٠ أوضة وعشر آلاف شباك ومتاهات مالهاش أول ولا آخر. طب أنا موافق على فكرة إن شركة جوزها والبندقية اللي كانت بتنتجها كانوا السبب في موت آلاف مالهمش ذنب دي حقيقة. بس تفتكري الخوف والحبسة اللي هي عيشت نفسها فيهم لمدة ٣٨ سنة دول برضو حقيقة؟

لم تعرف كيف تجيبه. أطرقت صامتة بعدما فهمت مقصده وأحست أنه محق في كل ما قاله. بينما استطرد هو قائلا:

- ما تفتكري نظرية قشرة جوز الهند أو الكوكونت اللي ربما الله يرحمها اخترعتها. على فكرة بقى أختك الصغيرة طلعت أجدع منك.

استندت بجذعها على ظهر المقعد وقالت في ضيق وهي تفرك عينيها:

- وربما دي كمان. هم لوحده.

رن جرس هاتفه فمد يده ليخرجه من جيبه وهو يجيبها في استهانة:

- ولا هم ولا حاجة. ماتكبريش الوهم وتعيشي نفسك فيه تاني.

نظر في شاشة المحمول ثم نظر نحوها وهو يقول في نبرة ذات مغزى:

- ده شفيق.

تقلصت ملامحها في ضيق عندما سمعت اسمه وقالت متضجرة:

- يووه. ماتقولهوش إن أنا معاك.

- ماينفعش طبعا ده زمانه قالب عليكي الدنيا.

ضغط على زر الإجابة ووضع الهاتف على أذنه وهو يجيب في نبرة طبيعية:

- آلو أيوه يا أستاذ شفيق. أنا كويس. لا متخافش يارا معايا من الصبح بس موبايلها فاصل شحن.

ثم تبدلت ملامحه التي احتلتها صدمة شديدة وهو يستمع إلى الطرف الآخر ثم هتف في ذهول:

- إيه؟ معقولة؟ طيب خلاص إحنا جايين حالا. مع السلامة.

أنهى المكالمة وأسرع يطلب الحساب من نادل كان يمر بجانب المائدة بينما تابعته يارا بعينين قلقتين ثم تساءلت في فضول:

- فيه إيه يا يحيى؟

فألقى في وجهها الخبر وهو منهمك في إخراج النقود من جيبه:

- منصور بيه فاق.

اتسعت حدقتاها في دهشة شديدة ألجمت لسانها واحتلتها حتى أحست أن أطرافها قد تثلجت وأنها أصبحت غير قادرة على الحركة. بصعوبة شديدة استطاعت أن تفتح فمها وتنطق في صوت متلجلج وعينين زائغتين:

- و إنت قلت له إن إحنا جايين فين؟

- في المستشفى طبعا.

ما إن نطق بتلك الكلمات حتى انتفضت يارا في ذعر وهي تهتف مبهوتة:

- لا طبعا. أنا مش هاروح المستشفى دي تاني، مش عاوزة أشوف الراجل ده.

ترك يحيى ما في يده وتأملها لثوانٍ قبل أن يتساءل في نبرة ذات مغزى هي تعلمه جيدا:

- مش عاوزة تشوفيه ولا خايفة تشوفيه؟

صمتت، لم تعرف كيف تجيبه وقد واجهها بالحقيقة التي حاولت هي الهروب منها بينها وبين نفسها. نعم هي خائفة، مرعوبة، لا تريد لأي أوهام أخرى أن تتحطم ولا لأي حقائق أخرى أن تتجلى. ليست شجاعة مثل ربما وكفاها ما تكسر من قشور لثمار جوز الهند بحياتها. لا تريد أن تغامر بتحطيم تلك القشرة بالذات. فمهما كبر احتمال حلاوة ما بداخلها فهي لن تتحمل أي جرح قد تصاب به وهي تكسر تلك القشرة.

عندما لم تجبه نهض وهو يقول حاسما بعدما تأكد من صدق حدسه:

- يلا يا يارا. هنروح دلوقتي، إن شا الله حتى تشوفيه من بعيد وتمشي. بس لازم تكسري الخوف اللي جواكي ده.

وقف شفيق أمام باب العناية المركزة وقد تجلت حوله حالة من الاضطراب الشديد، انتقلت آثارها إليه وتجلت على ملامحه التي غشاها قلق شديد وشبه خوف لم يعتد أحد رؤيته على وجهه.

عندما رأى يارا ويحيى أمامه هتف في دهشة:

- كنتي فين من الصبح يا يارا؟

تولى يحيى الإجابة قائلا:

- ماعلش يا أستاذ شفيق موبايلها فصل شحن، المهم منصور بيه عامل إيه؟

فزفر شفيق وهو يجيبه في قلق:

- مش عارف، المفروض إن حالته الصحية مستقرة لأنه فايق بقى له تلات أيام، بس الراجل بتاعي اللي كنت سايبه هنا ماكانش عارف يوصل لي عشان يبلغني، وفضل إنه مايقولش لأي حد لحد أما قدر يوصل لي إمبارح بعد أما كلمتك يا يارا وقلت لك تيجي الشركة ومعاكي الباسبور.

هتف يحيى في دهشة:

- طب وليه ماقلتلناش إمبارح لما عرفت يا شفيق بيه؟!

أجاب قائلاً في ضيق:

- عشان فضلت إني أتطمن على حالته الأول قبل ما أقول لكم، منصور بيه بقى له حوالي شهرين في غيبوبة، كان فايق مش مدرك حاجة ومش فاهم حاجة ومش قادر حتى يتكلم، فأنا قلت أستنى لحد أما يسترد كامل وعيه ويقدر يتكلم ويتفاعل، بس يظهر إني كنت غلطان.

تساءل يحيى في ارتياب:

- ليه بتقول كده؟

زفر شفيق قبل أن يقول وقد عاد القلق يغزو صوته:

- عشان من ساعة ما بدأ يدرك ويستوعب وحالته النفسية سيئة جدا، ده حتى الدكتور بيفكر يستعين بدكتور نفسي.

تبادل يحيى مع يارا نظرات قلقة لكنه تجاهل كل ذلك والتفت نحو شفيق متسائلا وقد أصر على استكمال ما يريد:

- طب لو سمحت كنا عاوزين يارا تدخل تبص عليه بصة.

رفع شفيق كتفيه ومط شفتيه وهو يقول في حيرة:

- مش عارف هينفع ولا لأ. ثانية واحدة هادخل أسأل الدكتور.

دخل شفيق بينما التفت يحيى نحو يارا فوجدها ترتعد من الذعر، وقد ازداد شحوب وجهها وهي تجاهد لتتنفس بصعوبة شديدة حتى أنها خافت أن تصاب بالنوبة من شدة الرعب الذي تحكم بقلبها حتى أحست أنه سيتوقف من شدة الخفقان.

ربت على كتفها ليطمئنها عندما انتبها فجأة على صوت صراخ يأتي من داخل العناية المركزة. لم يكن سوى صوت منصور بك. عرفته يارا ليس لأنها سمعت صوته من قبل ولكن بسبب ما كان يصرخ به:

- جاية ليه؟! جاية تشمت فيا أنا وبنتي اللي ماتت!! مش كفاية إنها عملت نفسها رئيس مجلس إدارة وورثتني وأنا لسه عايش؟!

لم تستطع أن تستمع إلى المزيد. لم تشعر بنفسها وهي تستدير وتركض مبتعدة بأقصى ما تملك من قوة. أخذت تركض في أروقة المستشفى وعلى درجاتها وقد تقطعت أنفاسها المهورة من نشيج البكاء أثناء الركض دون أن تشعر بأي شيء مما حولها. حتى وصلت عند سيارة يحيى في أماكن وقوف السيارات فارتمت عليها واستندت بكل جسدها الذي أخذ ينتفض من بكاء حاد استنزف كل قوتها حتى كادت تسقط لولا أن أحست بيد تمسك بذراعها وتجذبها حتى تلتفت.

كان يحيى يتبعها راكضا حتى وجدها ترتمي وهي في تلك الحالة المزرية على سيارته. عندما جذبها من ذراعها أحس كأنه يجذب دمية لا حول لها ولا قوة تتحرك كيفما تريد أن تحركها اليد الممسكة بها. أحس بها تكاد أن تسقط وهي تترنح تحت وطأة الألم حتى اضطر أن يمسك بذراعها الأخرى حتى تستطيع الوقوف منتصبة أمامه. لم يجد كلاما ليقوله لها وهي تنتفض بين يديه منخرطة في بكاء حار وقد تجلت وجيعتها واضحة في عينيها ووجهها المنتفخ وآهاتها المكتومة حتى أنه شعر ببعض من تأنيب الضمير لأنه هو الذي دفعها للمجيء إلى هنا ومواجهة هذا الموقف الذي لم يتوقع أن يكون بمثل هذا السوء أو تلك القسوة.

أحس بضعفه وهو لا يملك أن يفعل لها أي شيء. كل ما استطاع أن يفعله هو أن يلف ذراعيه حولها ويضغطها برفق نحو صدره محاولا تهدئة انتفاضاتها المتكررة دون أن يتفوه بكلمة.

لماذا الحزن وعلام الندم؟ كانت تجلس في فراشها منكمشة عندما قالت لنفسها إن الأمر كله يتلخص في كلمتين: أب يكرهها وينفر منها وأخت فقدتها إلى الأبد. هل يوجد أبسط من هذا التحليل أو أصغر من هذا التلخيص لحياتها كلها؟ هل يستطيع أي شخص في العالم أن يختزل حياته في جملة واحدة مفيدة بتلك الطريقة الصادقة؟ وإذا عادت بذاكرتها قليلا إلى الوراء تجد أن تركيب الجملة لم يختلف كثيرا وان اختلف مضمونها بشدة حيث إنها كانت في الماضي أبسط من الآن، مجرد: أب وأخت لا يشعران بوجودها. ترى أيهما أفضل وأكثر إراحة لها. عندما كانت تجهل كل شيء أم عندما أضحت على علم بكل شيء؟ عندما كانت تحيا في وهم رسمته بخيالها واطمأنت له وعاشت على أساسه أم عندما اصطدمت بحقيقة تختلف تمام الاختلاف؟ ألم يكن الوهم أفضل وأكثر إراحة لها؟ علي الأقل لم تكن مشتتة بين أحاسيس شتى: إحساس بالحزن على فقدان تلك الأخت الصغيرة دون أن تنعم بهذا القرب الحميمي الجميل كما تنعم به أي أختين. والندم على ما كانت تظنه بها من قبل واكتشفت كم كانت ظالمة فيه. وإحساس بالخزي من حقيقة هذا الأب التي ألصقت بها رغما عنها. وإحساس بالحيرة من أفعاله المتناقضة التي يدل بعضها على الحب والاهتمام بينما لا يكون البعض الآخر سوى دليل واضح على الكراهية والنفور. ما هذا الأب الغريب؟ من هو بالضبط؟ رجل أعمال ناجح وشريف لا يشك أحد في نزاهته أم مورد أسلحة ومجرم؟ أب أرغمته الظروف على الابتعاد أم هو من اختار ذلك؟ أيحبها حقا ويتذكرها أم يكرهها أو على الأقل يتحاشاها؟ ولكن لماذا تسأل نفسها كل هذه التساؤلات؟ ألم يكفها ما عرفت من حقائق؟ أحقا تريد أن تعرف المزيد؟ وهبها عرفت إجابات تلك الأسئلة. هل تظن أن تلك الإجابات ستكون أفضل مما سبق معرفته؟ لا تحسب ذلك. فكسر المزيد من قشور ثمار جوز الهند الداكنة لن يجلب مزيدا من العصير حلو المذاق أو الفاكهة البيضاء الطيبة. ولكن أيقع العيب على النظرية أم على ثمارها هي دون غيرها من البشر؟ هذا ما لا تعلمه. ولكن ما بالها تتألم هكذا؟ ألم تسترجع كلام يحيى وتقتنع به. ألم تقتنع بأنها يجب أن تحيا الحقيقة في حجمها الأصلي مهما كان ألمها مركزا بدلا من أن تحولها إلى وهم كبير ممتد الألم؟ بلى هذا صحيح لكن ليس هذا ما يؤلمها الآن. ما بك يا يارا؟ هل وقعت في الخطأ الذي ظللت طوال عمرك تتحاشينه؟ هل راودك الأمل واستمعت له ولو

لبضع دقائق؟ إذا فأنت تستحقين كل ما يحدث لك. ولكن، أحقا تستحق كل هذا؟ أتستحق هذا الإحساس بالرفض الذي طعنها به عندما سمعته يتفوه بهذا الكلام بعدما بدأت تراودها نفسها بأمل أن يكون بالفعل قد ابتعد عنها دون إرادته وأنه لم ينسها أو ينس أمها طوال تلك السنوات الماضية؟ أهذا هو ما دفعها إلى حافة الانهيار البارحة وجعلها تركض في أروقة المستشفى كالمجنونة وهي تبكي بكاء ظنت من شدته أن صدرها يحترق بداخلها؟ لولا يحيى ساعدها على استعادة هدوئها وأوصلها إلى منزلها. ثم زفرت وهي تنتقل بتفكيرها إلى يحيى، إلى متى سيستمر تفهمه؟ هل حقا لا تهمه كل تلك الحقائق أم سيتغير عندما تذهب السكرة لتجد أمامها نسخة أخرى من كريم؟ لا تريد أن تظلمه ولو حتى في تفكيرها ولكن تجربتها الماضية لا تترك لها الفرصة لتتمادى في الثقة والأمل خوفا مما قد يصيبها الخذلان به من ألم.

انتبهت على صوت جرس الباب، نهضت متثاقلة في ضيق وهي تظن أن يحيى قد حضر مثلما فعل البارحة على الرغم من أنها أجابته منذ قليل وأكدت له أنها بخير. ولكن ما إن فتحت الباب حتى اتسعت حدقتاها في دهشة شديدة عندما وجدت شفيق يقف أمامها، أسرعت تستعيد توازنها وهدوءها، أعادت إلى ملامحها الجمود وهي تشير بيدها له حتى يدخل دون أن تتفوه بكلمة. خطا شفيق إلى الداخل في ثقته المعهودة والتي يبدو أنه قد استعادها تماما بعدما عاد منصور بك من غيبوبته. بينما خطت يارا خلفه وهي تبذل مجهودا جبارا لتسيطر على شحنات الغضب والضيق التي انتابتها منذ أن فتحت الباب ورأته أمامها.

توقف في منتصف الصالة فأشارت نحو أحد المقاعد وهي تضغط على نفسها قائلة:

- اتفضل يا أستاذ شفيق.

- لا مافيش وقت أقعد. أنا لازم أكون في المطار بعد نص ساعة.

تساءلت في دهشة:

- مطار؟

لم يعر دهشتها وتساؤلها أي اهتمام، استطرد حديثه قائلا في بساطة:

- أنا كان لازم بس آجي لك عشان أنفذ آخر طلب طلبه مني منصور قبل ما أسيب مصر.

صمت قليلا، ولما لم يجد منها أي رد سوى نظرات الترقب في عينيها استكمل قائلا:

لمزيد من الكتب المصرية

- منصور عاوزك تروحي له المستشفى عشان عاوز يشوفك.

فغرت فمها من أثر الدهشة وهي تتراجع خطوة إلى الخلف، عقدت حاجبيها في استنكار وهي تهتف في حدة:

- نعم؟! أستاذ شفيق إنت نسيت إيه اللي حصل إمبارح؟ ده تقريبا طردني ومن قبل حتى ما يشوف وشي.

- اللي حصل إمبارح كان غلطتي، أنا ماكانش المفروض أقول للدكتور قدامه، كان لازم آخده على جنب وأكلمه.

فقالت شبه صارخة في غيظ:

- و دي كانت هتفرق؟

- أيوه طبعا.

ثم زفر قبل أن يقول في شبه استعطاف:

- يا يارا، منصور لما فاق من الغيبوبة كان كأنه لسه عارف دلوقتي حالا خبر وفاة ربما، مش زينا بقى لنا عارفين فوق الشهرين، ده غير إن الجلطة والغيبوبة أثروا على قدرة المشي عنده وده زود أزمته النفسية، الدكاترة بيقولوا إنه كله هيتساوى بالعلاج الطبيعي بس طبعا ماحدش يعرف الموضوع هياخد وقت قد إيه ونسبة نجاحه كام في المية، عشان كده كان عنده حالة هياج عصبي خلته يخرج عن شعوره ويقول الكلام ده، بس لما هدي واستعاد وعيه ورجع زي الأول طلب يشوفك.

فعقدت ذراعيها وهي تهتف ساخرة:

- بس منصور بيه بتاع الأول اللي إنت بتقول عليه ده ماكانش بيطلب يشوفني ولا كان بيعبرني من أصله.

مط شفيق شفتيه مفكرا قبل أن يتخلص من نظرات الاستعطاف ويعود إلى جرأته وبروده وهو يقول:

- بصي يا يارا بصراحة كده عشان ماتلفش وندور على بعض، إحنا عرفنا كل حاجة إمبارح، عرفنا موضوع الصندوق اللي ربما بعتته وكل اللي إنتي بتعمليه من ساعتها مع يحيى ورأفتَ وليديا.

لمزيد من الكتب العصرية

حاولت أن تتظاهر بالتماسك بعدما صدمها بكلامه، تساءلت بصوت خافت محاولة إخفاء توترها:

- عرفتوا إزاي؟

- الناس اللي برا كلمونا وقالوا لنا بعد ما عرفوا إن منصور فاق.

ثم زفر ساخرا قبل أن يقول:

- إحنا ماكناش نعرف أي حاجة عن ريما واللي بتعمله، ولا أنا كنت أعرف أي حاجة عن اللي إنتي بتعمليه، وهما ماقالوش أي حاجة لما الوفد بتاع صفقة التلاجات جه مصر، كان المفروض إنهم جايين عشان يتطمنوا إن مرض منصور مش هيأثر على تقفيل آخر شغل بيلنا وبس من غير ما يجيبوا سيرة أي حاجة تانية، وواضح طبعا إنهم حاولوا يتصرفوا معاكي مباشرة بس لما منصور فاق، فضلوا يتعاملوا معاه هو أحسن.

هزت يارا رأسها وهي تبتسم في مرارة قبل أن تقول:

- قول كده بقى، منصور بيه عاوز يقابلني عشان ياخد الحاجة اللي عندي ويأمن نفسه ويأمن شغله مش كده؟

فأجابها في نبرة حازمة دون أن يتأثر بسخريتها:

- لا مش كده، منصور بيه عاوزك تروحي له عشان يحميكي.

نظرت نحوه في ارتياب من كلامه بينما استطرد هو قائلا في نفس النبرة الحازمة:

- اسمعي يا يارا، مافيش حد يقدر يحميكي من الناس دول إنتي ويحيى ورأفت وليديا وأي حد تاني عرف أي حاجة عن الموضوع ده إلا منصور، هو الوحيد اللي يقدر يتفاهم مع الناس الكبار برا والناس الكبار هنا ويحط مصالح قدام مصالح ويعمل اللي يوقفهم عند حدهم ويحميكم منهم.

فهتفت في عصبية:

- ما دام هو يقدر يعمل كده، ماقدرش يحمي ريما ليه؟

- لأنه ماكانش يعرف.

نظرت نحوه مندهشة وهو يستكمل قائلا في ثقة:

- ماكناش نعرف أي حاجة من اللي ريما كانت بتعمله، هي ماقالتلناش وهما خافوا يقولوا لمنصور لأنهم عارفين إنه يقدر يحميها وخافوا ليحميها منهم من غير ما يقدر يأثر عليها فتفضحه وتفضحهم.

لمزيد من الكتب العصرية

عشان كده اتعاملوا معاها مباشرة ولما يئسوا منها قتلوها، وافتكروا إن الموضوع خلص حتى بعد لما مالاقوش الحاجة اللي فيها كل المعلومات في شقتها، لكن بعدها بشوية اكتشفوا إن الحاجة معاكي، حاولوا يتعاملوا معاكي زي ما تعاملوا مع ربما بس لما منصور فاق فضلوا إنه هو اللي يتصرف، خاصة وإن خلاص أكتر حاجة كانت مخوفاهم اللي هي الورق اللي في خزنة منصور واللي ربما كانت عارفة مكانه هما عرفوا ياخدوه زي ما شفتي.

ثم صمت قليلا تاركا لها الفرصة لتستوعب قبل أن يقول في هدوء:

- اسمعي يا يارا، أبوكي مش وحش زي ما إنتي متخيلة، يمكن يكون اللي عرفتيه عنه صدمك بس ده مش الجانب الوحيد في شخصيته، وإن كان كمان الجانب ده هو ماختاروش قوي بنفسه زمان.

صمت قليلا قبل أن يقول محاولا إخفاء مقصده خلف جملة ملتوية:

- فيه اختيارات كتيرة في حياة منصور اتفرضت عليه من الناس والظروف واللي حواليه.

زفرت ساخرة وهي تتذكر كلام هاشم عن شفيق واستغلاله لمواهب منصور وكيف أنه بشكل أو بآخر كان السبب في طلاق منصور بك من أمها، بينما استطرد هو قائلا:

- أما بقى الموضوع العائلي اللي بينكم فدي حاجة ماحدش له دعوة بيها، قرار انفصاله عنك وبعده عن حياتك ده كان قراره هو بينه وبين شريفة هانم الله يرحمها، ماقدرش أدافع عنه أو أبرر له، دي حاجة لازم تسمعيها منه هو شخصيا وإن كان برضو أحب أقول لك إنه عمره ما نسيكي ولا عمره كان مستريح وإنتي بعيدة عنه.

حاولت السيطرة على الدموع التي ترقرقت في عينيها وهي تقول في مرارة:

- مرة بيحبني ومرة بيكرهني، مرة بيفكر فيا ومرة مش في باله أصلا، هو الراجل ده عاوز مني إيه بالضبط؟ إذا كان بيحبني ليه فضل بعيد عني كل ده وليه لما رحت له إمبارح قال الكلام اللي قاله؟! وإذا كان بيكرهني ليه عامل رقم خزنته بتاريخ عيد ميلادي وليه كتب الوصية دي مادام شايف إني كده هابقى باستولى على رئاسة مجلس الإدارة وباورثه وهو عايش؟!

عقد شفيق يديه أمامه وهو يلقي بآخر قنابله في هدوء:

- منصور بيه ماكتبش أي وصية، الوصية دي مزورة وأنا اللي عملتها.

لمزيد من الكتب العصرية

اتسعت حدقتاها من هول المفاجأة التي تلقتها منه، حاولت أن تتحدث أو تتساءل لكنها فشلت حتى في إدراك الصورة الكاملة لما قاله شفيق الذي استكمل موضحا بنفس النبرة الهادئة الباردة:

- أنا اللي زورت الوصية دي وزورت اللي يثبت إنها مسجلة وموثقة واتفقت مع رئيس الشؤون القانونية في المجموعة إننا مانطلعهاش في اجتماع مجلس الإدارة عشان ماندبش فرصة لأي حد وخصوصا هاشم إنه يزنقنا ويكتشف أي حاجة، خبينا الموضوع كله لحد لما طلعناها في الجمعية العمومية اللي أنا عملت المستحيل عشان تحصل وعشان أرتب إجراءاتها بسرعة وبدقة وعشان ناخد موافقتها على تعيينك رئيس مجلس إدارة، كان كل همي إني أدخلك جوا المجموعة وجوا شغلها ومشاكلها.

تساءلت في حيرة وهي تمسك برأسها كأن الصدمة قد أصابتها بدوار:

- ليه؟! ليه كنت عاوز تعمل كده؟!

ابتسم شفيق نصف ابتسامة وهو يتساءل في خبث:

- إيه أخبار باسبورك؟ ماجبتهوليش ليه عشان سفرية سويسرا؟

نظرت نحوه مستنكرة بينما بدأت بعض الخيوط تتكشف أمامها. اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- لسه مافهمتيش؟ ال ٥٢٤ مليون دولار اللي في حساب سويسرا، نصيبي ونصيب منصور من الشغل التاني، كان كله محطوط في الحساب السري ده باسمه على أساس إننا هنبقى نتحاسب في الوقت المناسب، بس بعد اللي حصل لمنصور بيه مع وفاة ربما ووجود مصطفى بيه في كندا ماتبقاش حد غيرك قدامي من الورثة الشرعيين اللي ليهم الحق في السحب من الحساب ده. لو منصور كان لا قدر الله جرى له حاجة، كل الفلوس دي كانت هتروح علينا. عشان كده اضطريت أستعين بيكي بطريق غير مباشر عشان أعرف أجيب الفلوس دي من غير ما إنتي أو أي حد تاني يشكوا في حاجة.

تساءلت في شرود دون أن تنظر نحوه:

- عشان كده كنت بتتعمد تعطل أي قرض مع أي بنك عشان تعرف تقنعني أسافر أجيب الفلوس؟

فابتسم شفيق وهو يقول:

لمزيد من الكتب العصرية

- بالضبط كده، بس دلوقتي خلاص، منصور فاق وخلصنا حسابنا كله مع بعض وأنا مسافر دلوقتي وهاستقر نهائيا برا مصر. اللي خلاني آجي هو حق الصداقة اللي بيني وبينه واللي خلاني أوافق أنفذ آخر طلب له وهو إني آجي أشرح لك الموقف وأطلب منك إنك تروحي تقابليه. مش بس عشان هو عاوز يشوفك ولا عشان يحكي لك كل حاجة جواه إنما كمان عشان هو الوحيد اللي يقدر يحميكي منهم إنتي وكل اللي معاكي. مش لازم تبقي خايفة على نفسك بس. خافي عليهم هما كمان. فكري كويس يا يارا قبل ما ترفضي.

ثم التفت واتجه نحو باب الشقة تاركا إياها غارقة في حيرتها وشرودها الذي أفاقت منه في آخر لحظة فهتفت تسأله قبل أن يغلق الباب خلفه:

- أستاذ شفيق. هما الناس دول عرفوا إزاي كل التفاصيل دي؟! عرفوا إزاي إن ريما بعتت لي الحاجة؟!

فابتسم شفيق ابتسامة ساخرة كأنه تذكر شيئا مضحكا ثم قال في هدوء لا يتناسب مع ما قاله والابتسامة لا تزال عالقة على شفتيه:

- ابقي اسألي رأفت.

أغلق الباب خلفه بينما تسمرت هي في وقفتها محملقة في الباب الخشبي دون أن تصدر منها أي حركة. وقع الجملة كان ثقيلا عليها حتى أنها لم تستطع أن تستوعبه. ظلت واقفة مكانها كالتمثال بينما عقلها يعمل بسرعة غير مصدق كل الاحتمالات المخيفة التي مرقت به في تلك اللحظة. أفاقت على صوت هاتفها، كان يحيى يتصل بها. تمالكت أعصابها قليلا وهي تجيبه:

- ألو. أيوه يا يحيى.

بعدها بعشر دقائق كانت تقفز على درج عمارتها مسرعة في جنون بعد هذا الخبر الذي أنبأها به يحيى قبل أن يطلب منها الحضور فورا إلى منزل ليديا.

(٥٨)

كانت يارا جالسة على الأريكة في منزل ليديا شاردة بعينيها بعيدا عن يحيى ورأفت اللذين استغرقا بوجهين مبهوتين في الاستماع إلى ليديا التي أخذت تتحدث بعينين تمتلئين إحساسا بالذنب والضيق:

- صدقيني يا أستاذة هو ده اللي حصل، إحنا كنا كلنا برا البيت ولما رجعنا لقينا الدرفة مفتوحة وكل الملفات مختفية وماقدرناش نعرف مين دخل البيت ولا دخله إزاي وإحنا مش موجودين.

أجابتها يارا في هدوء دون أن تستعيد عينيها من شرودهما:

- أنا مصدقاكي يا ليديا، مش مهم الملفات اتاخدت، ماكانش فيهم حاجة مهمة، المهم هما إزاي أصلا عرفوا إن هما موجودين هنا.

رمقت رأفت وهي تنطق بآخر جملة، لكن أحدا لم يلحظها أو ينتبه لنبرة صوتها المتشككة، حيث أطرقت ليديا متحاشية النظر إلى يارا أو يحيى في خجل من موقفها ومتحاشية النظر أيضا نحو رأفت الذي تراه لأول مرة من ذلك اليوم المشؤوم الذي استمعت فيه إلى اعترافه لوالدته حين تحطمت كل آمالها وأحست أنها تكره نفسها وتكرهه ولا تطيق حتى النظر إليه، بينما لم يلتفت رأفت إلى تلميحها لأنه كان غارقا في عالم آخر، عقله يعمل بسرعة رهيبة، يربط الخيوط المبتورة ويقارن أحداث الستة أشهر الماضية ببعضها فيتأكد ظنه، ثم يقارنها مرة أخرى بما حدث خلال الأسبوع الأخير فتتسع عيناه في ذهول من النتيجة البشعة التي توصل إليها ويكاد ينفجر من الغيظ والحنق على غبائه وحماقته وطمعه الذي وضعه في هذا الموقف المشين.

تحدث يحيى وهو يتململ في حيرة ممزوجة بدهشة:

- أنا هاتجنن، إزاي بيعرفوا عننا كل حاجة كده وخطوة بخطوة، أكيد مراقبيننا، بس نادر قال إنه اتأكد بنفسه إنهم مش بيراقبونا، ما هو يا إما هو غلطان يا إما هما زارعين أجهزة تصنت في مكتب منصور بيه وفي بيوتنا وتليفوناتنا.

كان رأفت لا يزال غير مصدق ما سيتفوه به عندما قال بصوت مبتور وعينين ذاهلتين مكملا ليحيى حديثه:

- يا إما فيه حد وسطنا بيوصل لهم أخبارنا.

نظر يحيى وليديا نحوه في استنكار غير قادرين على استيعاب هذا المعنى المخيف الذي ألقاه في خيالهم بقوله هذا بينما كانت يارا عكسهما. نظرت نحوه غير متفاجئة وهي تنطق باتزان وهدوء:

- ليه يا رأفت عملت كده؟

فانتفض رأفت وهو يقول مدافعا وقد اتسعت عيناه في رعب من هذا الاتهام:

- أنا مش خاين يا أستاذة، ومش واطي. أنا بس، مغفل.

قالها في نبرة منكسرة قبل أن يحني هامته ليداري الخزي الذي ملأ عينيه ويتجنب النظر إليهم. كانت ليديا تقف مشدوهة كالتمثال عندما اقترب منه يحيى في هدوء وهو ينقل بصره بينه وبين يارا في ارتياب قبل أن يتساءل:

- أنا مش فاهم حاجة؟ مغفل إزاي يعني؟

زفر رأفت قبل أن يقول دون أن يرفع عينيه محاولا السيطرة على صوته المرتجف باعترافه بحماقته وخجله:

- أنا بقى لي حوالي خمس شهور باطلع كل أخبار مكتب منصور بيه برا وأنا مش واخد بالي، من ست شهور تقريبا اتعرفت على واحدة أمريكانية على الـfacebook وبقينا بنتكلم كل يوم واتعودنا على بعض، أنا بصراحة لقيتها فرصة كويسة عشان أسيب مصر وأروح أمريكا وآخد الجنسية وأشتغل مع أبوها، وهي كانت مبسوطة قوي بالقرار ده وقعدت تشجعني وتقنعني إنها سعيدة إني هاسيب الدنيا كلها وأروح لها. وعشان أخليها تحبني أكتر وتثق فيا أكتر كنت باحكي لها عن كل حاجة في حياتي، كل كبيرة وصغيرة وبالذات طبعا في الشغل، كل حاجة كانت بتحصل في مكتب منصور بيه كنت باقول لها عليها. وطبعا لما حضرتك جيتي وقلت لنا على موضوع ربما لقيتها مغامرة حلوة أحكيها لها وأحسسها بأهميتي في المجموعة وفي مصر كلها. ماكنتش واخد خوانة. كنت فاكر إن مافيش خطر من أي نوع، طالبة عايشة في أمريكا عمرها ما هتيجي مصر وحتى لو حكت الكلام ده لأي حد في أمريكا مش هيأثر علينا هنا. فجأة وبدون أي مقدمات، من أسبوع تقريبا، الأكاونت بتاعها اختفى من على الـfacebook، اتمسح كأنه ماكانش موجود، اتجننت، حاولت أبعت لها جواب على العنوان اللي هي كانت كاتباه في حسابها، طبعا ماجاليش أي رد، ماكنتش فاهم أي حاجة لحد دلوقتي.

صمت قليلا مزدردا ريقه ليبلل حلقه الجاف قبل أن يستكمل في نبرة تمتلئ سخرية ومرارة:

- دلوقتي بس فهمت، فهمت إن أنا الشاب الأهبل اللي استغلوا طمعه وطموحه وزقوا عليه بنت ملونة ضحكت عليه واستغفلته وخدت منه اللي هي عاوزاه وعملته جاسوس وهو مش واخد باله.

ثم رفع رأسه مترددا ونظر نحو يارا وهو يقول أسفا في نبرة تشي بكم الخزي الذي يشعر به:

- أنا آسف يا أستاذة، أنا ماستاهلش ثقتك ولا ثقة منصور بيه ولا ثقة أي حد.

كانت ليديا تنظر نحوه مبهوتة غير قادرة على تصديق بقية القصة التي أودى أولها بأجمل أحلامها وأتى آخرها على كل ما تبقى منها بينما كانت يارا تستمع دون أن يبدو على وجهها أي تعبير، لم ينطق سوى يحيى الذي تقلصت ملامحه بالحنق وهو يهتف وجسده كله ينتفض بغضب لم يتوقعه منه أحد بهذا الشكل:

- أسف ده إيه يا سي رأفت؟! هو إنت كسرت النضارة بتاعتها؟ إنت فاهم نتيجة عملتك دي إيه؟ إنت كنت السبب في إن الخزنة تتسرق وإن ناس تهجم على البيت ده وتسرق اللي فيه، إنت السبب إن احنا كلنا دلوقتي في خطر، الناس دول مابيهزروش، تخيل بقى لما ناس زي اللي إنت شفت أساميهم يحطونا في دماغهم ويبقوا عارفين بكل كبيرة وصغيرة عننا. وده ليه؟ لأننا وثقنا في حضرتك واعتبرناك راجل يعتمد عليه.

لم يستطع كل من رأفت وليديا أن يفهما كل ما تفوه به، فهما لم يعرفا شيئا عما قاله نادر لهما ولا توجد لديهما أدنى فكرة عن الحقيقة التي اطلع عليها يارا ويحيى الذي لم يلتفت لذلك واستمر وقد تحولت نبرة صوته إلى شبه الصراخ قائلا:

- بتقول لها آسف، أقول لك بقى على حاجة هتفاجئك، ربما مانتحرتش، ربما اتقتلت، أقول لك على حاجة تانية كمان؟ يارا من يومين جالها تهديد صريح بالقتل. فاهم، اتفضل بقى وريني هتعمل إيه يا سبع الرجال؟

نهضت يارا وقاطعته قائلة في توجس بعدما رأت درجة الانفعال التي وصل إليها والحالة المزرية لرأفت في المقابل:

- يحيى.

صمت يحيى وإن كان وجهه لا يزال ينطق بكم الغضب المستعر بداخله بينما انطلق رأفت هاربا من الموقف برمته، خرج وأغلق باب الشقة خلفه متحاشيا النظر إلى أي من الموجودين، وما إن اختفى خلف الباب حتى سقطت ليديا جالسة على الأريكة وانخرطت في بكاء حاد لم تستطع السيطرة عليه فتركت دموعها تنساب أمام يارا ويحيى بعدما وجدت أن كل شيء ينهار أمام عينيها حتى احترامها واحترام الناس له. نظرت يارا نحو يحيى في ضيق وأسرعت تجلس بجانب ليديا واحتضنتها محاولة تهدئتها. مضت دقائق لم يرتفع فيها سوى صوت نشيج ليديا قبل أن يتجه يحيى مسرعا في خطوات حانقة نحو باب الشقة ويفتحه ويختفي على الدرج غير ملتفت لنداء يارا، التي التقطت حقيبتها وأسرعت لتلحق به بعد أن ألقت ببضع كلمات لليديا التي لم تستمع إليها ولم تشعر بكل ما يحدث حولها وهي منخرطة في بكائها.

لحقت به عندما وصل عند باب العمارة، أمسكت بذراعه لتوقفه وهي تهتف في دهشة محاولة السيطرة على أنفاسها اللاهثة:

- فيه إيه يا يحيى؟ أنا مش بانده لك؟

وضع يديه في خصره وهو يقول رافعا رأسه في غيظ مكتوم:

- يارا، سيبيني دلوقتي أنا مش طايق نفسي.

- فيه إيه يا يحيى؟ إنت بتقلب فجأة كده ليه؟ من النقيض للنقيض، ماعندكش وسط؟!

نظر نحوها مندهشا وهو يهتف في انفعال:

- يظهر إنك لسه مش حاسة بالمصيبة اللي إحنا فيها؟ إحنا كلنا في خطر حتى الباشا اللي عامل نفسه خيبب ده.

فقالت محاولة تهدئته:

- أنا عارفة كل اللي إنت بتقوله، رأفت غلطان وإنت عندك حق، بس هو مش السبب الأساسي في كل اللي بيحصل وإنت انفعلت عليه بزيادة.

فزفر محاولا تهدئة نفسه قبل أن يتساءل في نفاد صبر:

- طب عاوزاني أعمل إيه دلوقتي؟

شردت لدقيقة قبل أن تتخذ القرار وتقول في نبرة حاسمة:

- ماحدش هيعمل حاجة، أنا اللي هاعمل كل حاجة، أنا هاروح لمنصور بيه.

عقد حاجبيه وهو يتساءل مستنكرا:

- تروحي له فين؟!

قالت وقد ازدادت نبرتها حسما كأنها تأمر نفسها بهذا الفعل:

- في المستشفى، لازم أروح له، هو الوحيد اللي هيقدر يحمينا زي ما شفيق قال.

هتف في دهشة:

- شفيق! إنتي شفتي شفيق إمتى؟

- تعالى وصلني المستشفى وهاحكي لك كل حاجة في السكة.

(٥٩)

بضع دقات خفيفة على الباب قبل أن يفتحه يحيى في بطء ويدخل بوجه مبتسم، وخلفه يارا بوجه شاحب حاولت قدر الإمكان أن تملأه بالجمود والحيادية وعدم الاكتراث. بينما كان قلبها ينتفض بداخلها من هذا القرار الذي أخذته فجأة وكادت تتراجع عنه عندما أصبحت في مواجهته.

كان جالسا في فراشه، ملامحه هادئة متزنة، رفع عينيه من خلف منظاره ذي الإطار الأسود ليرى من القادم إلى غرفته، عندما وقع بصرها عليه خفق قلبها بعنف، أول مرة تراه في الحقيقة وهو مستيقظ وواعٍ ومدرك لما حوله وقادر على أن يراها ويتحدث معها، كم يشبهها، إنه بالفعل يشبهها، الشعر الأسود الفاحم والبشرة البيضاء والعينان الواسعتان العسليتان كأنهما الأصل لنسختين وضعت إحداهما على وجهها والأخرى على وجه ربما رحمها الله. بالرغم من امتلاء جسده ووجهه لكنه لا يزال يشبهها جدا، يشبهها إلى درجة جعلتها تشفق على أمها التي أدركت الآن فقط كم كانت تتعذب كلما نظرت في وجه ابنتها فترى فيه الأثر الواضح لهذا الحبيب الراحل والزوج المفارق.

نظر نحوها نظرة لم تجد متسعا لتفسيرها حيث أنه التفت نحو يحيى الذي قال مبتسما في سعادة حقيقية:

- حمد الله على السلامة يا منصور بيه.

ابتسم في اتزان وما زالت مسحة من الألم تغطي وجهه، أجاب بنبرة لم تخل من حميمية:

- الله يسلمك يا يحيى، ماعلش تعبتك معايا لما وقعت في مكتبك.

- تعب إيه بس؟ كل تعب يهون ما دام اتطمنا على سعادتك، ده حضرتك زي بابا الله يرحمه، هو أنا يعني ماكنتش هاعمل كده مع أبويا؟

انكمشت ابتسامته قليلا وهو يقول شاردا ببصره:

- الله يرحمه، كان أقرب لي من مصطفى أخويا.

- علي فكرة يا منصور بيه ماما إن شاء الله هتيجي تزور حضرتك، هي بس مستنية إن حضرتك تستريح شوية.

- أهلا وسهلا، عايدة هانم تنورني.

ابتسم يحيى دون أن يجيب وساد بينهم صمت مشحون أطرق خلاله منصور بك وتحاشت يارا النظر إليه بينما تململ يحيى قليلا من حرج الموقف قبل أن يقول متسحبا ليترك لهما فرصة للحديث:

- طيب أنا هاروح أعمل مشوار كده وبعدين أعدي آخد يارا، بعد إذنك يا منصور بيه.

- استنى يا يحيى.

توقف يحيى بينما التفت منصور نحو يارا وخاطبها لأول مرة متسائلا بنفس الابتسامة المتزنة:

- إنتي بتستأمني الولد ده ولا لأ؟

خفق قلبها بعنف لكنها تمالكت نفسها وهي تتساءل بنفس النبرة المحايدة:

- باستأمنه إزاي يعني؟

- يعني ممكن تديله مفتاح شقتك وإنتي متطمنة ولا تخافي يلطش حاجة كده ولا كده؟

اتسعت ابتسامة يحيى بينما غالبت يارا ابتسامة خاطفة وهي تقول في هدوء:

- لا ممكن أدي له المفتاح وأنا متطمنة.

- عظيم، يحيى، خد المفتاح منها وروح الشقة هات لي الصندوق وكل الحاجات اللي جواه، الصندوق ده لازم يفضل معايا حماية ليكم.

فقالت يارا في استنكار:

- أنا ممكن أروح أجيبه بنفسي لو الموضوع مهم كده.

فقال منصور في نبرة هادئة وإن لم تخل من حسم:

- لأ، يحيى هو اللي هيروح يجيبه عشان إنتي لازم تقعدي معايا، فيه حاجات كتير لازم تقوليها.

أحست بشيء من الاضطراب مختلط بسعادة غامضة وحزن لا تعلم من أين جاء وأحاسيس أخرى كثيرة لم تجد متسعا من الوقت لتدركها، حيث كان عليها أن تعطي المفتاح ليحيى وتصف له أين وضعت الصندوق ومحتوياته في غرفة نومها قبل أن تتصل بحارس العقار وتبلغه بأن يحيى سيذهب ليحضر شيئا من الشقة، ثم أعطت له رقم هاتف الحارس احتياطيا قبل أن يذهب ويتركها واقفة في منتصف الغرفة لا تعلم ماذا يجب عليها أن تفعل أو تقول وغير قادرة حتى على مبادرة الالتفات والنظر نحوه.

لم تنظر نحوه إلا عندما سمعت صوته الهادئ الرخيم يهتف باسمها لأول مرة قائلا في تودد متزن:

- تعالي يا يارا، اقعدي هنا.

نظرت نحوه ثم نحو المقعد الذي أشار إليه في تردد لكنها استجمعت نفسها وتقدمت في خطوات ثابتة واثقة كأنه تحداها بأن عرض عليها الجلوس فقبلت هي التحدي وجلست لأول مرة قريبا منه.

تأملها قليلا وهي تتحاشى النظر نحوه، سمعته يقول في نبرة لا تخلو من ندم لم تعرف أتصدقه أم تكذبه:

- أنا عارف إنك زعلانة مني، ممكن كمان تكوني بتكرهيني.

رفعت رأسها ونظرت نحوه وهي تقول في نبرة جامدة:

- أنا ماباكرهكش، ولا باحبك، أنا ماعرفكش أصلا عشان أحبك أو أكرهك.

ابتسم نصف ابتسامة مريرة وهو يقول:

- عندك حق، مافيش أي حاجة ممكن تعوضك عن السنين اللي عشتها بعيد عنك، بس صدقيني يا يارا، أنا ماكنتش سعيد وانتي بتكبري بعيد عني، بس أنا اضطريت أختفي من حياتك كلها لأن شريفة الله يرحمها هي اللي طلبت مني كده.

ابتسمت في مرارة وهي تهتف بنبرة خافتة ساخرة:

- آه وحضرتك ما صدقت.

صمت منصور متحاشيا الإجابة، أبعد نظراته المتضايقة عنها قبل أن ينظر إليها مرة أخرى ويقول متجاهلا الرد المباشر على جملتها الأخيرة:

- على فكرة هاشم زارني النهارده الصبح وقال لي إنه قعد معاكي وحكى لك على كل حاجة.

نظرت نحوه محاولة إخفاء اهتمامها بينما استطرد هو قائلا:

- قال لي إنه عرفك قد إيه أنا كنت باحب شريفة وإن مافيش حاجة في الدنيا كانت ممكن تتعبني أكتر من إني أبعد عنها غير حاجة واحدة بس.

صمت ليرى نظرات الاهتمام في عينيها قبل أن يستطرد قائلا فيما يشبه الندم:

لمزيد من الكتب المصرية

- إني أنزل في نظرها أو إنها تحتقرني، هو ده اللي خلاني أبعد عنها وعنك يا يارا طول السنين دي، ماكنتش هاستحمل إني كل ما أقابلها أشوف نظرة احتقار في عينيها بسبب الحقيقة المخجلة لشغلي التاني.

تساءلت يارا في توجس ممزوج بدهشة:

- هي ماما كانت عارفة؟!

زفر وهو يحرك رأسه نافيا قبل أن يقول:

- ماكانتش تعرف تفاصيل، بس سمعت طراطيش من كلامي مع شفيق وهي أصلا ماكانتش متطمنة له، كانت حاسة إني باعمل حاجة غلط ولما واجهتني ماقدرتش أكدب عليها، خيرتني ما بين إني أفضل عايش معاكم وأنسى الشغل التاني ده خالص، أو إني أكمل فيه بس أنسحب من حياتكم تماما، منعتني حتى من إني أكون موجود في حياتك.

صمت لوهلة محاولا إخفاء مسحة من الألم مرت بوجهه قبل أن يستطرد قائلا:

- قالت لي إني طول ما باعمل حاجة غلط وحرام، ما أنفعش أكون أب وقدوة لبنتها، حتى الفلوس اللي كنت بابعتها لكم مارضيتش تاخدها إلا لما حلفت لها إنها من أرباح المجموعة مش من الشغل التاني.

ابتسمت نصف ابتسامة وهي تقول ساخرة:

- ما هو حضرتك فاصل بين أرباح المجموعة والأرباح التانية.

- أيوه، وكنت ناوي إن أول ما...

ثم صمت قليلا ليتغلب على الألم الذي ألم به عندما كاد ينطق باسم ربما قبل أن يستطرد قائلا:

- كنت ناوي أول ما أختك تخلص جامعة، أكتب نص نصيبي في المجموعة باسمك والنص التاني باسم مصطفى والفلوس اللي برا أدي نصها لشفيق والنص التاني لها، بكده كل واحد يكون أخد نصيبه، وأخدها بعدها ونروح نعيش ونستقر في سويسرا.

أبعدت نظرها عنه وهي تقول بنفس النبرة الساخرة:

- يا خسارة، يا ريتك كنت عملت حسابك إنك تديني أنا فلوس الشغل التاني، يمكن كان زماني أنا اللي مت وماكنتش هتخسر حاجة.

لمزيد من الكتب المصرية

سادت فترة من الصمت بعد كلماتها الجارحة تلك حتى أنها كادت تندم على تسرعها فيما قالته وإن لم يختف الحنق والجمود من على وجهها، لم تلتفت نحوه حين قطع الصمت قائلا بنبرة تدل على ما بداخله من ضعف:

- عارفة إيه أحلى حاجة كانت موجودة في أختك؟ إنها كانت شبهك قوي. كانت بتعوضني عنك. بس ماكانش فيه حاجة في الدنيا كلها تعوضني عن شريفة.

التفتت نحوه وهتفت في حدة وقد ترقرقت الدموع في عينيها:

- و مادام ماكانش فيه حاجة في الدنيا تعوضك عنها. ماضحيتش عشانها ليه؟ ماسبتش الشغل التاني ده واخترتها هي ليه؟ أنا ماكنتش فاهمة زمان بس دلوقتي فهمت. لما كنت باسمعها وهي بتعيط كنت بافتكر إنها مقهورة عشان إنت ظلمتها وسيبتها بس دلوقتي أنا فهمت. ماما كانت بتعيط عشان كانت بتحبك، وكانت عاوزة تفضل شايفاك أحسن واحد، وإنت بتقول إن إنت بتحبها، يبقى ليه ماضحيتش عشانها؟ ليه مافضلتش معاها؟

أطرق منصور وضغط على شفتيه محاولا استجماع الكلمات قبل أن يقول في نبرة متقطعة:

- يارا إنتي مش فاهمة. فيه حاجات دخولها مش زي الخروج منها. ناس زي دول لو كنت فكرت ساعتها إني أنسحب ومانفذش شغلي معاهم. كان زمانهم مسحوني. أنا ماقدرش أنكر إني ساعتها كنت موهوم بالشغل والفلوس والثروة اللي هاكونها واللي عملت حسابي عليها وكان صعب أتخلى عنها. بس برضو. في الوقت ده وبعد كل اللي عرفته ساعتها. لو كنت فكرت أسيبهم كان زمانهم أذوني وأذوا كل حد قريب مني.

أطلقت زفرة ساخرة وهي تقول:

- ما إنت كملت معاهم. وإيه اللي حصل في الآخر؟ برضو أذوك. وفي أغلى حاجة عندك. بنتك.

انفعل وهو يجيبها متألما:

و إنتي فاكرة إن الموضوع ده سهل عليا؟ تفتكري كان بالساهل كده أقبل إن بنتي ماتت بسببي وإنها كمان كانت عارفة عني حقيقة بشعة زي دي؟

صمتت يارا قليلا حتى يهدأ ثم قالت دون أن تنظر نحوه وبنبرة مبتورة كأنها تكره أن تقول ذلك:

- بس على فكرة، ربما الله يرحمها كانت بتحبك. لو ماكانتش بتحبك. كان زمانها فضحتك من زمان.

أغمض منصور عينيه محاولا التغلب على ألم السكين التي غرزتها يارا في قلبه بكلماتها تلك قبل أن يقول في نبرة تمتلئ بالحسرة والندم:

- عارف، زي ما أنا عارف قد إيه إنتي كنتي هتحبيني لو كنتي كبرتي في حضني، وزي ما أنا عارف قد إيه إنتي وشريفة تعبتوا طول عمركم بسببي.

التفتت نحوه في حدة، عيناها تقطران غيظا من كلماته التي قطعت آخر حبل من حبال صبرها فانهالت كلماتها مختلطة باحمرار وجهها ودموعها التي خطت خطين لامعين على وجنتيها، لا تعرف لماذا انفجرت في وجهه هذا الانفجار المروع، لم يكن ما قاله مستفزا لتلك الدرجة لكن شيئا بداخلها لم يتحمل فانهمر كل ما حبسته بداخلها طوال عمرها وقذفت به في وجهه متواصلا مصحوبا بدموعها وحزنها وغيظها دون أن تترك له فرصة ليجيب أو حتى يلتقط أنفاسه المبهوتة من هول ما رآه على وجهها وفي عينيها وما سمعه منها:

- عارف؟! عارف إيه يا منصور بيه؟! إنت لو كنت عارف واحد في المية من اللي كنا عايشين فيه أنا وأمي ماكنتش سبتنا كل السنين دي، لو كنت عارف ماكنتش تقدر تبص في عينيا دلوقتي، عارف إيه؟ عارف يعني إيه اتنين عايشين خايفين طول الوقت؟ يعني إيه إن أنا عايشة على طول خايفة وعلى طول فاقدة الثقة في كل الناس؟ ما هو هاتطمن إزاي إذا كان رمز الأمان اختفى من حياتي بإرادته وبرغبته، عارف يعني إيه نبقى أنا وأمي عايشين كده في الدنيا لوحدنا من غير قرايب أب مانعرفهمش ولا قرايب أم واخدين جنب منها بسبب طليقها ونفوذه؟ عارف يعني إيه أبقى خايفة ماما يجرى لها حاجة في نص الليل وأنا طفلة ماعرفش أتصرف وهي تبقى خايفة يجرى لي حاجة في نص الليل وهي لوحدها ماتعرفش تتصرف؟ عارف يعني إيه يبجي واحد وعيلته يتقدموا لي مايلاقوش راجل يتكلموا معاه ويحسسهم إن البنت دي وراها ضهر بيحميها وإنه على الأقل هيسأل على العريس قبل ما يوافق عليه ويدي له بنته وأنا أبويا عايش على وش الدنيا؟ إنت عارف كريم سابني ليه؟ سابني عشان أمه قالت له دي واحدة أبوها راميها هي وأمها، مالهاش حد يقف لها لما تغلط، والله أعلم أبوها ساب أمها ليه، كريم عايرني بيك، عارف يعني إيه يتقال لي كلام زي ده وأنا عندي واحد وعشرين سنة من خطيبي اللي باحبه؟ عارف إيه أكبر مشكلة كانت شاغلانا أنا وماما وقت الخطوبة؟ مين هيبقى وكيلي يوم كتب الكتاب؟ لدرجة إنها فكرت تبعت تطلب من ابن عمها

اللي عايش في الدنيا إنه يبجي يبقى وكيلي لأن أبويا مش هيبجي أصلا يوم فرحي، عارف يعني إيه أمي تموت وأنا حتة عيلة يادوب مكملة اتنين وعشرين سنة وأواجه الموقف ده كله لوحدي؟ عارف يعني إيه أرجع من عزا أمي وأبات لوحدي في البيت وأصحى كل شوية على كابوس وأنهار في العياط من غير ما يكون أبويا جنبي؟ لا يا منصور بيه ماتقولش إنك عارف لأنك في الحقيقة ماتعرفش أي حاجة.

صمتت لتتمالك أنفاسها المتهدجة وتمسح دموعها بعدما أطلقت في وجهه بقذائف مأساة حياتها التي كان هو سببها الأول، حاولت أن تتحاشى النظر نحوه كأن ما قالته قد ذكرها فجأة بما يستعر بداخلها من اتهامات له وغيظ منه وشيء يأبى أن يتحول إلى كراهية مطلقة. ساد صمت ثقيل لم يقطعه إلا صوت تنهيدة متألمة أطلقها منصور قبل أن يقول في صوت ضعيف مستميتا ليمنع دموعه من الظهور على سطح عينيه الممتلئتين بالندم:

- أنا كنت عارف إن هيبقى فيه تمن لكل اللي وصلت له ده. بس ماكنتش متخيل إن التمن ده هيبقى غالي كده، كنت فاكر إن بعدي عنك إنتي وشريفة هو أقصى عقاب أنا ممكن آخده مقابل اللي باعمله، ماكنتش عارف إن العقاب الحقيقي أسوأ بكتير، ماكنتش عارف إن النهاية هتكون إني أبقى السبب في موت بنتي الصغيرة بعد ما تعرف عني كل الحقيقة وإني أسمع كل الاتهامات دي وأشوف كل الكره ده في عيون بنتي الكبيرة.

هتفت في حدة كأنه يتهمها بجريمة ليست هي متأكدة في قرارة نفسها من أنها لم ترتكبها:

- قلت لك إني ماباكرهكش، أنا ماعرفكش عشان أكرهك.

فتساءل في مرارة:

- و إنتي فاكرة إن دي حاجة سهلة؟ نظرات الاتهام في عينيكي وإحساسي إن أنا السبب في كل الألم اللي إنتي حاساه ده لوحدهم كفاية عشان يندموني على كل حاجة عملتها وعشان أعرف إن مافيش أي قيمة لكل اللي وصلت له قدام التمن الكبير ده.

صمت ليبتلع غصة ألمت بحلقه قبل أن يستطرد في صوت متألم ونبرة نادمة دون أن ينظر نحوها كأنه يعترف لنفسه ويواجهها:

- أنا كان ممكن أكون أسعد راجل في الدنيا لو كنت فهمت الدنيا صح، كان ممكن أكون دلوقتي رجل أعمال متوسط عندي شركة صغيرة ناجحة وحياة مستقرة، كان زماني لسه متجوز شريفة وعايش معاكوا طول السنين اللي فاتت، ومين عارف كان ممكن شريفة هي اللي تبقى أم ربما، مافيش حياة أجمل من كده. بس من خمسة وعشرين سنة أنا كنت مستعجل قوي، كنت عاوز فلوس بسرعة ونجاح سريع وقوي، كنت حاسس إني ذكي وأستحق أحسن من اللي أنا فيه ده ألف مرة وإني لازم ألاقي خمسين مجال أستغل فيهم ذكائي وشطارتي وأحولهم لفلوس وشهرة ونجاح. ساعتها شفيق قدر يقراني ويفهمني كويس، كنا لسه فاتحين شركة الاستيراد والتصدير وكان عندنا شغل في سوريا ولبنان مع رجل أعمال على علاقة بتاجر بيورد أسلحة للميليشيات في بيروت، طلب من شفيق إننا نساعد في تمويه توصيل شحنة تبع التاجر ده مقابل مبلغ خيالي وتسهيلات كتيرة في شغلنا العادي لأن التاجر ده له علاقات ونفوذ قوي جدا. شفيق اتحمس قوي ولما عرض عليا الموضوع قدر يضغط على كل الأوتار الحساسة جوايا عشان يقنعني، ماقصدش أحمله الذنب وأقول إن هو السبب لأن زي ما أنا عارف كويس إنه زقني واستغلني عشان تدخل مع بعض العالم ده زي ما أنا برضو عارف كويس إن أنا حسبتها وخدت القرار بكامل إرادتي، خفت في الأول بس الإغراء كان أقوى مني، حطيت رجلي على أول سكة صعب الرجوع منها. وافقت والصفقة تمت بنجاح وبعدها على طول لقيت شفيق جايب لي شغل تاني تبع وكيل سري كبير قوي كان بيشارك في تأمين تسديد تمن أسلحة كانت أمريكا وأوروبا بيوردوها لإيران وقت حربها مع العراق وده طبعا كان بيحصل في السر عشان موقف أمريكا المعلن كان مختلف تماما. الوكيل ده كان عاوز يدخل شركتنا ضمن شبكة شركات وحسابات في سويسرا اتعملت مخصوص عشان تأمين تسديد تمن الصفقة. وافقت وخدنا ساعتها عمولة خيالية ده غير طبعا إننا بدأنا نثبت رجلنا في العالم ده ونتواصل مع شركات أسلحة في أوروبا عشان نبقى وكلاء مباشرين لهم. كل حاجة كانت ماشية كويس بشكل رائع لحد لما شريفة حست إني باعمل حاجة غلط وواجهتني وساعتها ماقدرتش أكدب عليها، ولما طلبت مني إني أطلقها وأختفي من حياتكم تماما كنت موافق أكتر منها على القرار ده، مش عشان أنا عاوز أبعد عنها إنما عشان كان صعب عليا أشوفها وأنا عارف إني نزلت في عينها وبمكن كمان في قلبها.

ما تخشاه بدأ يحدث، بدأت تشفق عليه، بدأ قلبها يرق له، أرادت أن تقول له مرة أخرى أن مكانه لم يتغير في قلب أمها، لقد فهمت الآن كل هذا الغموض الذي كان يشمل حياة أمها، فهمت الآن أن تلك الأم لم تتوقف عن حب أبيها لحظة واحدة، أبيها، خفق قلبها بعنف عندما مرت تلك الكلمة بذهنها وهي تراه أمامها الآن، أحنت رأسها كأنها خافت أن يرى في عينيها ما مر بخاطرها وما أرادت قوله له، يجب أن تتماسك، لن يستطيع أن يمحو في دقائق ما عانته بسببه طوال سنوات عمرها.

استطرد بنفس النبرة المتألمة وبعينين شاردتين:

- مع كل نجاح كنت باحققه كنت باندم اكتر لأن مافيش حاجة كان ليها طعم من غير شريفة، ولما شريفة الله يرحمها ماتت ماعرفتش أعمل إيه، بقيت زي العيل التايه، إزاي شريفة راحت من غير ما تسامحني أو على الأقل أشوفها لآخر مرة؟ سافرت قعدت في مصحة يمكن أقدر أتعايش مع الحقيقة دي، مافيش حاجة كانت مصبراني على الدنيا كلها غير وجود ريما في حياتي، والغيبوبة دي ماكانتش إلا هروب من واقع ماقدرتش أستوعبه أو أستحمله، إزاي أقدر أصدق إن ريما كمان راحت مني؟! ولما فُقت وشفيق حكى لي على كل اللي حصل خفت في الأول، خفت منك ومن مواجهتك، كأني هاواجه شريفة بعد كل السنين دي، وعشان كده قلت الكلام اللي إنتي سمعتيه إمبارح، بس بعدها رجعت فرحت لما تخيلتك ماسكة رئاسة مجلس الإدارة وقاعدة على مكتبي، فرحت بيكي قوي بعد ما قارنت بين الطفلة الصغيرة اللي سبتها من خمسة وعشرين سنة وبين سيدة الأعمال اللي شفيق وهاشم حكوا لي عنها، وقالوا لي إنها تشبهني في حاجات كتير قوي.

صمت قليلا ثم لاح شبح ابتسامة على وجهه وهو يقول:

- و لما عرفت موضوع الصندوق اللي وصل لك ده فرحت أكتر لأني كنت خايف إن الموضوع كله يخلص من غير ما أشوفك، بس على قد ما اتضايقت عشان إنتي كمان عرفتي عن الحقيقة دي على قد ما اتبسطت عشان اتأكدت إن هيبقى فيه سبب يخليكي تيجي لي وأشوفك.

حقا؟! هل حقا أردت أن تراني يا منصور بك؟ هل حقا شعرت بالسعادة عندما تأكدت أنني سأحتاج إليك وسآتي لك؟ لقد كنت محتاجة إليك طوال عمري لكني لم أظن أن لجوئي لك سيفرحك يوما ما.

كان قلبها يخفق مضطربا بتلك الخواطر وهي تحاول كبت فرحة خافتة استيقظت بداخلها رغما عنها. كانت تتفادى النظر نحوه حتى لا يرى ما يدور بخلدها وهي تقول في نبرة جامدة:

- أنا جيت النهارده عشان فيه ناس كتير اتورطت معايا في الموضوع ده ومالهمش ذنب إن أي مشاكل تحصل لهم. إنما أنا عودت نفسي من زمان إني ماحتاجش لحد وبالذات ليك إنت. لأنك إنت كمان مش محتاج لي.

تساءل في نبرة شبه متوسلة:

- مين بس اللي قال لك كده؟

فهتفت وقد اختلطت الحدة بالعتاب واللوم والدموع في نظراتها ونبرة صوتها:

- إنت. إنت عمرك ما حسستني بكده. وحتى دلوقتي وإنت بتحكي. كنت بتقول إنك ندمان بسبب بعدك عن شريفة أو إنك عايش حياتك بس عشان وجود ربما. طب وأنا؟ أنا يا منصور بيه. إيه؟ ماندمتش عليا واحتاجت إني أسامحك زي أمي؟ ولا حتى احتاجت لوجودي في حياتك زي ما احتاجت ربما؟ شفت بقى إن أنا ماليش أي وجود حقيقي في حياتك؟ ودلوقتي إنت محتاج لي لأن مافيش قدامك غيري. ولو ماكانتش ربما اتوفت ولو ماكانش أي حاجة حصلت عمرك ما كنت هتفكر فيا ولا هتحس باحتياج لوجودي في حياتك.

أغمض منصور عينيه وزفر في ضيق وألم قبل أن يقول بنفس النبرة المتوسلة كأنه يستجدي منها أن تصدقه:

- أنا عمري ما بطلت تفكير فيكي يا يارا. عمري ما بطلت ألوم نفسي على بعدي عنك وعلى إني سبتك تتربي بعيد عني. عمري ما بطلت ندم على إني ماكنتش موجود جنبك يوم خطوبتك وعمري ما سامحت نفسي في كل يوم إنتي كنتي عايشة فيه لوحدك بعد وفاة شريفة الله يرحمها. بس كنت كل ما أفكر فيكي كل ما أخاف أكتر. أخاف أحاول أقرب منك فأكتشف إنك بتكرهيني أو أخاف إنك تصديني. كنت باخاف أشوف نظرات الاتهام في عينيكي. مش معنى إني ماجبتش سيرتك وأنا باتكلم دلوقتي إن أنا ماكنتش بافكر فيكي. بالعكس إنتي كنتي أكتر حد شاغل تفكيري. لأن في الأول والآخر شريفة كنت فقدت الأمل من ناحيتها وفي إنها ترجع تحبني أو تسامحني وربما كنت فاكر إني ضامنها ومش هاخسرها أبدا. إنما إنتي كنتي أكتر حاجة محيراني. لا أنا قادر أتشجع وأقرب منك

لأني خايف من رد فعلك ولا قادر أفقد الأمل فيكي لأني خايف من تأنيب ضميري لو اعترفت لنفسي إنك أكيد بتكرهيني، عشان كده كنت باتحاشى إني أعمل لك مكان واضح في حياتي لأني أصلا خايف أعرف طريقة تفكيرك فيا.

ابتسمت يارا في سخرية وهي تمسح دموعها، حتى أنت يا منصور بك كنت تخشى من معرفة الحقيقة. إنه شيء ورائي إذا هذا الخوف من معرفة الحقيقة، لكن ربما لم ترثه. ربما لم تخش يوما الحقيقة مثل أبيها وأختها، ربما لأنها الشخصية السوية الوحيدة في تلك الأسرة العجيبة.

قالت يارا في صوت خافت كأنها تستكمل حديثه:

- وأدي ربما راحت وشريفة كمان راحت مع إنها فضلت تحبك لحد آخر يوم في عمرها، بس في الآخر ماتبقاش ليك غيري أنا. وأنا كمان ماما راحت مني وكريم كمان راح زمان وما اتبقاش ليا غيرك إنت، وييجي يوم زي ده عشان أنا وحضرتك نعرف اللي طول عمرنا كنا خايفين نعرفه، واضطرينا نعرفه من بعض لأن ماتبقاش غيرنا دلوقتي.

تأملها منصور لثوانٍ قبل أن يقول محاولا إخفاء استعطافه في شكل اقتراح يقترحه عليها:

- طب ما تيجي نجرب بعض؟

نظرت نحوه في استغراب شديد من هذا الاقتراح بينما استطرد هو متحمسا:

- تعالي نجرب ننسى الخوف اللي جوانا من ناحية بعض، جربيني، مش يمكن أطلع أب كويس؟ وأعرف أعوضك عن كل الأمان اللي حرمتك منه طول عمري؟

كانت تنظر نحوه في استنكار وتردد وهي تهتف متسائلة في صوت مضطرب:

- أجربك إزاي يعني؟

ازداد حماسه بعدما وجد منها ميلا لتصديقه وهو يقول مبتسما في هدوء:

- احكي لي عن كل اللي حصل لك من ساعة ما جالك الصندوق لحد دلوقتي وشوفي إذا كنت هاقدر أحميكي ولا لأ.

ترددت واضطربت وخافت. لقد أتت بالفعل لتقص له كل شيء ليحميها هي وكل من يعرف أي شيء عن هذا الأمر. ولكن بصفته منصور بك صاحب هذا الشأن ورجل الأعمال ذو النفوذ القوي وليس بصفته منصور الأب الذي سيستمع لها ويحميها بسبب شيء بداخله يدفعه لأن يمنح لابنته

الأمان، هل حقا يمكن أخيرا أن تشعر بهذا الأمان الذي ما إن فقدته وهي طفلة حتى وجدت نفسها تفقد كل نوع آخر من الأمان والثقة؟ هل تخاطر وتوافق و"تجربه" كما طلب منها؟ أم كتب عليها ألا تشعر بهذا الأمان طوال عمرها؟ رباه، لقد أصبحت تخاف من كل شيء، حتى الإحساس بالأمان بسبب هذا الأب أصبحت تخاف منه، إلى متى ستظل عاجزة عن كسر تلك القشرة الخشنة الداكنة التي كسرتها ريما وحطمتها منذ زمن؟

بتردد ونبرات متقطعة بدأت تقص الحكاية من أول يوم، في البداية كانت تتحاشى النظر نحوه وتختصر في الوصف والحديث، مع الوقت وجدت نفسها تلتفت بين الفينة والأخرى لترى تعبيرات وجهه وهو يسمع حديثها الذي تحول تدريجيا إلى كلام متوازن ومترابط ثم أصبح مسترسلا ومليئا بالوصف والتفاصيل، وكلما ازداد اهتمامه بما تقول كلما ازدادت حماستها ونشوتها التي حاولت إخفاءها قدر الإمكان وقد وجدت نفسها أخيرا تلقي بحمولها على كتفه فيتحملها هو بنفس راضية مسرورة. لماذا حرمها من هذا الإحساس طوال عمرها؟ لا تعلم لماذا وجدت الحديث يتشعب منها ويصل إلى تفاصيل حياتها العادية بعيدا عما يتعلق بريما وصندوقها، أخذت تقص وتحكي وتصف كل شيء عن حياتها وهو يستمع وابتسامة رضا مرتسمة على شفتيه، وهو يراها قد أسقطت معظم الحواجز وفشلت في كبح جماح نفسها عن الحديث إليه بكل شيء وأي شيء مهما بدا تافها. لا تعلم كم من الوقت قد مضى في هذا الحديث عندما قالت مبتسمة في غمار حديثها عن عايدة ويحيى:

- ولولا طنط عايدة الأيام اللي فاتت مش عارفة كنت هاعمل إيه؟ عوضتني عن ماما الله يرحمها.

فابتسم منصور وهو يقول:

- عايدة هانم ست عظيمة وجوزها مراد الله يرحمه كان من أعز أصحابي، الصراحة مربيين ولادهم أحسن تربية. ده أنا حتى كان نفسي زمان أجوز ريما ليحيى.

خفق قلبها واتسعت حدقتاها وهي تهتف في دهشة:

- معقول؟! بس ده يحيى أكبر منها بكتير! بيتهيأ لي عشر سنين فرق كبير.

اتسعت ابتسامته وهو يتساءل متخابثا:

- بس تلات سنين فرق كويس قوي مش كده؟

لاح شبح ابتسامة خجل على شفتيها حاولت إخفاءها كما حاولت السيطرة على خفقات قلبها الذي لا يزال عاجزا عن تصديق هذا الموقف برمته، أبوها يتحدث عن يحيى في خبث كأنه يعلم كل ما يدور بداخلها وهي تخجل من حديثه معها.

لم ينقذها سوى رنين جرس هاتفها المحمول، أخرجته ونظرت إلى الشاشة قبل أن تهتف في استنكار:

- إيه ده؟! ده عم صبحي البواب.. معقول يكون يحيى لسه واصل دلوقتي؟ ده فات أكتر من ساعة.

أجابت الهاتف بينما أخذ منصور يتابع حديثها بعينين حائرتين:

- آلو، أيوه يا عم صبحي خير؟

- ...

- بالراحة يا عم صبحي عشان أنا مش فاهمة منك أي حاجة، هو الأستاذ يحيى جه وطلع الشقة؟

- ...

- مين في المستشفى؟

- ..

- إنت هنا دلوقتي في طوارئ المستشفى! ليه؟!

انتفضت واقفة فجأة وهي تستمع إلى الطرف الآخر وقد امتقع وجهها وتلجلج صوتها وهي تهتف في ذعر:

- إيه؟! إنت بتقول إيه؟! إزاي وفين؟! في شقتي أنا! طب أنا نازلة حالا، أنا جاية حالا، ماتتحركش من مكانك.

انطلقت مسرعة نحو الباب وقد تحول ذعرها إلى أقصى درجة، هتف منصور في قلق محاولا معرفة أي شيء قبل خروجها:

- فيه إيه يا يارا؟

دون أن تلتفت نحوه أو تهدئ من سرعتها هتفت في ذعر واضطراب وهي تركض خارجة من باب الغرفة:

- عم صبحي بيقول إن يحيى اتضرب بالرصاص في شقتي وإنه هنا دلوقتي في طوارئ المستشفى.

## (٦٠)

كان عم صبحي يسرد ليارا ما حدث وهما واقفان في طوارئ المستشفى بنبرة متلجلجة قائلا:

- أنا طلعت مع الأستاذ يحيى فوق واستنيته في الصالة. يا دوب مافاتش دقيقتين سمعت صوت كركبة وصوت حاجة مكتومة بعدها صوت حاجة بتهبد. دخلت بسرعة لقيت شباك الأوضة مفتوح والأستاذ يحيى واقع على الأرض وسايح في دمه. جريت على الشباك لقيت عربية بتجري في آخر الشارع الوراني. كان فاضي مالقيلش حد أزعق عليه يوقف العربية. رجعت للأستاذ يحيى. جيت أكلمه لقيت لسانه تقيل قوي. يا دوب بالعافية قال لي إن حضرتك موجودة في المستشفى دي وطلب مني أجيبه على هنا. زعقت على العيال شيلناه وجيبناه بسرعة.

كانت يارا تفرك يديها الباردتين وهي تستمع له في ذعر كاد قلبها أن يتوقف من شدته. هتفت متسائلة بصوت مبحوح:

- يعني إنت ماسمعتش صوت الرصاص؟

- لا. سمعت صوت مكتوم بس.

تساءلت بنفس الصوت المبحوح وفي اضطراب شديد غير قادرة حتى على تنسيق كلماتها:

- طب والدمّ كان كتير؟ كان فين؟

فأجاب صبحي في أسف:

- كان كتير يا أستاذة. أصلها جات في صدره.

كاد يغشى عليها عندما سمعت هذا الكلام. عمن يتحدث هذا الرجل؟ من هذا الذي فقد دماء كثيرة وتلقى رصاصة في صدره؟ أحست أن صدرها يؤلمها كأنها هي المصابة وليس هو. ولكنها لم تستوعب بعد. أنى لها أن تصدق أن يحيى هو هذا الملقى في الداخل لا تعرف عنه شيئا سوى حقائق مروعة مرعبة لا تصدقها ولا تعرف كيف حدثت أو لماذا؟

أسرعت نحو ممرضة خرجت من باب الغرفة التي كان عم صبحي يقف أمامها. سألت في صوت مذعور ونبرة راجية كأنها تتوسلها أن تطمئنها أن كل ما يحدث ليس حقيقيا وأن من أدخلوه منذ قليل هو أي شخص آخر غير يحيى:

- لو سمحتي. الراجل اللي جه من شوية. اللي جابه الراجل ده.

أشارت نحو صبحي دون أن تجرؤ على استكمال سؤالها. نظرت الممرضة نحوه قبل أن تقول في هدوء:

- آه الأستاذ اللي كان مضروب بالرصاص؟

إذا في حقيقة. يحيى تلقى رصاصة في صدره، أصابها دوار شديد فتمالكت نفسها بصعوبة وهي تومئ للممرضة التي قالت:

- دخل العمليات وكلمنا أهله وزمانهم جايين في السكة.

اتسعت حدقتا يارا في ذهول وهي تهتف في ذعر:

- أهله؟! أهله مين؟!

- كلمنا نمرة بيته ووالدته قالت إنها جاية على طول.

أمسكت يارا برأسها محاولة السيطرة على الدوار الذي اشتد به. عايدة هانم عرفت بما حدث ليحيى، يا الله كيف تلقت الخبر؟ كيف سيكون حالها عندما تصل؟! وكيف ستستقبلها يارا وهي غير القادرة على التحكم بهذا الارتجاف الذي ألم بكل أطرافها الباردة؟

بصعوبة شديدة طلبت من عم صبحي أن ينصرف ومضت تائهة بين أروقة المستشفى حتى عثرت على غرفة العمليات الموجود يحيى خلف أبوابها. جلست أمامها وهي غير قادرة على تصديق كل ما يحدث، كأنه كابوس مخيف. كيف يمكن أن تصدق أن يحيى مستلق على فراش خلف هذه الأبواب يعبث الأطباء بصدره هذا الذي ضمها إليه وغاصت فيه حتى وجدت إحساسا بالأمان لم تجده في أي مكان آخر. إنها حتى لا تعرف أي شيء عن حالته أو درجة خطورتها.

التفتت عندما أحست بصوت خطوات تقترب منها. كانت عايدة هانم تركض نحوها ممتقعة الوجه وقد تهدلت بعض خصلات شعرها من حجابها غير المستوي. ما إن اقتربت منها حتى هتفت في ذعر:

- ابني فين؟ يحيى فين؟

نهضت يارا وحاولت التظاهر بالتماسك وهي تقول:

- جوا في العمليات.

أطلقت عايدة شهقة رعب قبل أن تتساءل وقد تضاعف ذعرها وانتفاض جسدها:

- عمليات ليه؟ هو حصل له إيه؟

لم تستطع يارا أن تنطق بأي شيء مما تعرفه وهي تراها أمامها بتلك الحالة. قالت محاولة منحها اطمئنانا لا تشعر به:

- ماعرفش، بس خير إن شاء الله يا طنط ماتقلقيش.

لم تكد تنهي كلمتها حتى خرجت إحدى الممرضات من باب غرفة العمليات. أسرعت يارا نحوها وقلبها يكاد يتوقف من شدة الرعب وخلفها عايدة التي كادت تسقط من شدة الاضطراب والعجز عن السيطرة على نفسها. هتفت يارا متسائلة:

- لو سمحتي يا آنسة، يحيى عامل إيه؟

تفحصتهن الممرضة لثوانٍ قبل أن تتساءل:

- إنتوا قرايبه؟

كادت يارا أن تجيب لكنها فوجئت بلسانها عاجزا عن إيجاد صفة تربطها به فأسرعت عايدة تقول وهي على حافة البكاء:

- أيوه أنا أمه. أرجوكي طمنينا.

- أنا عاوزاكم تقعدوا وتهدوا لأن العملية لسه هتطول قوي.

تساءلت يارا في صوت مبحوح:

- هتطول ليه؟ هو حالته إيه؟

صمتت الممرضة لثوانٍ كانت كأنها سنواتٍ قبل أن تهتف بسرعة في نبرة مترددة:

- ادعوا له..

اختفت من أمامهن مسرعة كأنها تخشى مزيدا من الأسئلة. وقفت يارا متسمرة مكانها كالتمثال تنظر نحو الجهة التي اختفت فيها الممرضة بعينين زائغتين جمدت فيهما الدموع وقد شحب وجهها وتثلجت أطرافها. توقف عقلها عن العمل. ما معنى "ادعوا له"؟ ماذا تعني بتلك الجملة؟ انتبهت على صوت نحيب عايدة. التفتت نحوها فوجدتها تكاد تسقط وقد غمرت الدموع وجهها وأخذ جسدها ينتفض بشدة. أخرجت نفسها من حالة الجمود التي اعترتها بصعوبة وأسرعت تسندها حتى أجلستها على أحد المقاعد وجلست بجانبها تربت على كتفها في صمت بينما عيناها زائغتان في الفراغ. لا تعرف كم مضى من الوقت وهي في جلستها تلك؟ عايدة لا تتوقف عن البكاء وهي تارة

تربت عليها وتارة تفرك يديها الباردتين محاولة تمالك نفسها أمام عايدة حتى لا تزيد همها. ربما مضى أربع أو خمس ساعات دون أن تعرفا أي شيء عن هذا العزيز المستلقي في الداخل. لم يخرج أو يدخل أحد من غرفة العمليات ولم يحاول أحد أن يطمئنهن أو حتى يقول لهن أي شيء. أحست بخطوات مضطربة تقترب منهن. التفتت مسرعة فرأت امرأة محجبة في منتصف الثلاثينيات تقترب مسرعة في ذهول. أحست أن وجهها مألوف لكنها لم تجد وقتا لتفكر حيث فوجئت بها تتجه نحو عايدة وهي تهتف في خوف: ماما.

انتفضت عايدة ونهضت مسرعة وهي تهتف في دهشة:

- يمنى؟ إنتي عرفتي منين وجيتي إزاي؟! وفين جوزك وولادك يا بنتي؟

خرجت الكلمات متتابعة بسرعة من فمها كأنها تريد التخلص منها بسرعة لتسأل عما يحدث:

- كلمتك في البيت زي العادي لقيت أم حمدي بتقول لي إن جالك تليفون وإنك جيتي على المستشفى هنا. كلمتك على الموبايل لقيته مقفول. ماقدرتش أستحمل وماعرفتش أوصل لعلاء لأنه بايت في الموقع الليلة. سيبت الولاد عند جارتي وسيبت له معاها خبر وجريت على مطار الغردقة. بالصدفة لقيت رحلة طالعة القاهرة وفيها أماكن فاضية ركبتها. نزلت من الطيارة وجيت جري على هنا. فيه إيه يا ماما يحيى جرى له إيه؟

ضربت عايدة بكلتا يديها على جانبي رجليها وهي تهتف في قلة حيلة وبصوت يختنق بالبكاء:

- أخوكي بيروح مني وأنا مش عارفة أعمل إيه؟

ثم انخرطت في بكاء شديد لم تستطع يمنى أمامه أن تسألها مرة أخرى عن أي شيء. لم تجد أمامها سوى أن تحتضنها محاولة تهدئتها وهي تكتم دموعها بصعوبة على شيء لا تعلمه حتى الآن.

كانت يارا تتابعهن في ذهول كأنها تشاهد مسرحية لا دور لها فيها. كانت تتأمل هذا الكيان الذي تكون من الابنة وهي تحتضن أمها محاولة التخفيف عنها عندما أحست فجأة بعدم الانتماء للموقف برمته. كأنها دخيلة على أسرة أصيبت في أعز من تملك فانشغلت به حتى عن الالتفات إلى أي غريب يمر بها. انتفضت عندما أحست أنها يمكن أن تكون السبب في هذا المصاب. حقا. هي السبب فيما أصاب أعز مخلوق إلى قلبها؟ هي السبب في تلك الدموع التي تذرفها الوحيدة التي استطاعت ملء الفراغ الذي خلفته أمها برحيلها؟ نهضت من مكانها والذهول يحتل قسماتها وهي

تتأملهن مبتعدة في خطوات واهنة خافتة كأنها تخشى أن يلاحظن وجودها فيكِلن إليها الاتهامات التي تعصف برأسها وتكاد تقتلع قلبها الممزق بين أفكار سوداء ورعب هائل على يحيى الذي لا تعلم أي شيء عما يحدث له. أخذت تسير في أروقة المستشفى كالتائهة غير قادرة على تمييز أي شيء مما حولها أو حتى الاتجاه إلى مكان محدد، قادتها قدماها إلى حيث كانت منذ بضع ساعات، عند غرفة هذا الرجل الذي طلب منها أن تختبره ربما استطاع أن يمنحها الأمان، ها قد أتى الاختبار أسرع من المتوقع يا منصور بك، لقد تلقت على رأسها أعنف ضربة أفقدتها توازنها وتحكمها، عادت طفلة صغيرة تنشد الاطمئنان ولا يوجد أمامها غيرك، لن تختبرك، إنها بالفعل محتاجة إليك بكل ذرة في كيانها والفشل لا يعد احتمالا يمكن أن يقع كما كان ممكنا في حالة الاختبار، عندما رآها منصور أمامه في تلك الحالة انتفض وهو يهتف في قلق: إيه اللي حصل يا يارا؟

لم تستطع أن تفتح فمها لتجيبه، فقط تقدمت نحوه في خطوات مترنحة وهو يتابعها وقد ازداد خوفه مما يراه على وجهها، جلست بجانبه، نظرت نحوه فوجد نفسه يتغلب بصعوبة على تيبس عضلاته ويفتح ذراعه حيث استقر رأسها على صدره وأطلقت لدموعها الحبيسة العنان وهي تهتف في صوت ضعيف يقطعه نشيج البكاء بتلك الكلمة لأول مرة في حياتها:

- الحقني يا بابا.

(٦١)

خرج يحيى من غرفة العمليات ودخل غرفة العناية المركزة، الاسم وحده جعل عايدة تنهار باكية بينما أحست يارا بالدماء تتجمد في عروقها عندما تخيلت شكله مستلقيا على فراش يشبه هذا الذي كان يرقد عليه أبوها، موصولا بمائة جهاز يساعدونه على الحياة التي يبدو أنه واقف الآن على حافتها. لم يحاول أحد أن يشرح لهم الحالة أو يوضح لهم درجة خطورتها وبطبيعة الحال لم يكن أي منهم قادرا على سماع أي شيء بعد أن فوجئوا بإبلاغهم بدخول يحيى العناية المركزة ومنع الزيارة.

في اليوم التالي تركت يارا عقلها وقلبها على باب غرفة العناية المركزة وذهبت إلى منزلها حيث سبقتها الشرطة التي قام أحد الجيران باستدعائها لمعاينة موقع الحادث. عندما دخلت غرفتها كاد أن يغشى عليها عندما وقعت عيناها على بقعة الدم الهائلة المتجلطة على الأرض. يا إلهي! إنه دم يحيى! دمه هذا الذي كان يضخه قلبه والذي سمعت نبضه عندما ضمها إلى صدره فانصهرت فيه وأضحت أقرب إلى دمائه تلك حتى من الشرايين التي كانت تجري فيها.

ودت لو انحنت لتقبل دماءه، تجمعها في رفق بين يديها، علها تحظى بشيء منه يظل إلى قربها بعدما منعت حتى من رؤيته، ودت لو قطعت شرايينها الآن وأوصلتها بشرايينه لتجري دماؤها في جسده علها تعوضه عما فقد. عل شيئا منها يسكنه، عل قلبه ينبض بدمائها فيعلم كم تحبه. تحبه حتى أنها ما زالت تحيا في حالة نكران كاملة. غير قادرة على تخيل شكله راقدا بلا حول أو قوة وهو الذي كان مصدر قوتها وشجاعتها، غارقا في غيبوبة تقف كحائط منيع بينه وبين الشعور بها إذا اقتربت منه والابتسام لها والحديث معها كما كان يفعل دائما. أنى لها أن تصدق حقيقة عدم وجوده حولها الآن. أنى لها أن تصدق أنها إذا حادثته على هاتفه لتطلب منه العون في محنتها تلك أنه لن يجيبها. بمن تستعين في غيبته وهو الذي كان يملأ كل الغيبات؟

استمعت إليهم بنصف عقل أو ربما بلا أي عقل. فتشت أشياءها كما طلبوا منها. تأكدت من اختفاء صندوق ربما بكل محتوياته ماعدا السلسلة بالطبع لأنها كانت ترتديها. عادت مع الشرطي إلى المستشفى لمتابعة تطور الحالة التي كانت كما هي. يحيى في العناية المركزة لا يعرفون عنه أي شيء وعايدة منهارة في بكاء حاد بينما تجلس بجانبها ابنتها يمنى في قلة حيلة.

طلب الشرطي من إحدى الممرضات أن تخلي لهم غرفة ليتحدث فيها مع يارا منفردين. ما إن جلست أمامه حتى مضت تسرد له كل شيء وعيناها تبرقان بالغيظ من هؤلاء الذين فعلوا كل ذلك بيحيى وبداخلها رغبة جامحة لأن تفتك بهم جميعا. رغبة جعلتها تضرب بكل شيء عرض الحائط وتفصح بكل التفاصيل للشرطي الذي استمع إليها مذهولا وقد أخرسته الصدمة واعتلى وجهه قلق شديد من الأسماء التي سمعها والتفاصيل التي تتجاوز نطاق سلطته. لم يخف هذا القلق عن يارا التي تساءلت في نبرة شبه متهكمة بعدما أنهت حديثها:

- إيه يا حضرة الضابط إنت خفت ولا إيه؟!

تنحنح الشرطي محاولا كسب الوقت لإخفاء قلقه والتظاهر بالطبيعية وهو يقول:

- لا ماخفتش طبعا. بس، حضرتك واخدة بالك إن الموضوع كبير قوي؟

فقالت يارا في إصرار والنار المستعرة بداخلها تبدو واضحة في عينيها المتقدتين:

- مايهمنيش. أهم حاجة عندي إن حضرتك تسجل كل الكلام ده رسمي.

- ده شغل النيابة يا فندم. حضرتك تقدري تثبتي كل حاجة في محضر النيابة.

انفتح الباب فجأة قبل أن يكمل الشرطي حديثه وظهر منصور بك أمامهما جالسا على مقعد متحرك تدفعه إحدى الممرضات. انتفض كلاهما واقفا بينما اتجهت يارا نحوه مسرعة. أخذت طرفي المقعد من يدي الممرضة ودفعته ليصبح في مواجهة مقعدها وهي تتساءل في دهشة:

- إيه اللي نزلك من أوضتك يا بابا؟ إنت لسه تعبان.

فأجابها وآثار الضيق والإجهاد بادية على وجهه:

- أعمل إيه؟ إنتي سايباني فوق من غير ما تطمنيني ولا تقولي لي أي حاجة.

ثم التفت نحو الشرطي الذي أسرع قائلا:

- حمد الله على السلامة يا منصور بيه.

- الله يسلمك.

جلس مرة أخرى بينما تفحصهما منصور بك لثوانٍ قبل أن يوجه حديثه للشرطي قائلا في ثقة:

- واضح يا فندم إن يارا قالت لك على كل حاجة.

لم يستطع الشرطي إخفاء اندهاشه من فراسة منصور بك بينما تحاشت يارا توجيه نظراتها الحازمة نحوه كأنها تؤكد له عدم ندمها عما فعلت وإصرارها عليه.

ساد صمت ثقيل قطعه الشرطي قائلا في تردد:

- أنا متفهم يا فندم خوف الآنسة يارا وصراحتها واهتمامها بتوصيل الحقيقة، بس...

تلجلج عاجزا عن استكمال كلماته فقاطعه منصور قائلا في هدوء:

- بس الموضوع كله بقى خارج حدود سلطتك. أنا متفهم يا حضرة الضابط، وعشان كده أنا بأقول لك سيب الموضوع ده كله عليا، انا هاخلصه.

نظر الشرطي نحوهما في قلق مما سمعه قبل أن يقول مترددا:

- أيوه يا فندم بس أنا لازم أبلغ رؤسائي بكل اللي حصل.

فقال منصور في بساطة:

- قول لكل اللي إنت عاوزه، ومالكش دعوة خالص، الموضوع كله هيخلص من غير شوشرة، أنا ليا طرقي.

بدا الشرطي مستسلما أمام كلمات منصور الحاسمة ومستريحا لأنه سيتخلص من عبء هذا الخطر الذي وجد نفسه فجأة متورطا فيه بعدما وضعه القدر في ملابسات قضية بتلك التفاصيل المرعبة. أنهى الحديث واستأذن ليذهب مسرعا كأنه يهرب من التورط في المزيد.

بعدما أصبحا وحدهما في الغرفة التفتت يارا نحو منصور متسائلة في حنق:

- الكلام اللي إنت قلته ده معناه إن الموضوع كله هيخلص على مافيش.

أجابها منصور في هدوء:

- بالضبط كده، لأن مافيش أي حاجة زيادة ممكن تتعمل.

اتسعت حدقتاها في دهشة وغيظ وهي تقول:

- يعني إيه مافيش أي حاجة ممكن تتعمل؟! ويحيى اللي في الإنعاش ده إيه؟ حياته مالهاش تمن؟ رميته دي وقهرة طنط عايدة عليه مالهمش أي قيمة؟ بابا أنا مش هاسيب الناس دول، أنا لازم أفضحهم في كل حتة.

قال في هدوء محاولا إخفاء ألمه لأنها لم تلتفت إلى أن فضيحتهم هي فضيحة له هو أيضا:

- يارا أنا عارف إنك منفعلة وخايفة على يحيى، بس لازم تهدي وتفكري، تقدري تقولي لي هتفضحيهم إزاي؟ إيه الدليل اللي عندك ضدهم؟ كل حاجة كانت ممكن تدينهم خلاص اختفت سواء المستندات اللي كانت عندي في الخزنة أو حتى أرقام الحسابات اللي كانت عندك، والمستندات التانية اللي أنا وشفيق شايلينها في خزنة في بنك في سويسرا مش هينفع تعملي بيهم حاجة، مش بس عشان دول سلاح من أسلحتي اللي سويت بيها المشكلة معاهم عشان أحميكي إنتي وكل اللي يعرفوا أي حاجة عن الموضوع إنما كمان عشان الكلام اللي نادر قاله لك وإنتي حكيتي لي عنه ولا نسيتيه؟ الناس دي ماحدش بيقدر يحاسبهم ويعاقبهم حتى مع وجود مستندات وأدلة قوية في إيدين محاكم ومؤسسات محاربة الفساد في أكبر الدول. وأقدر أحكي لك عن ناس كتيرة قوي معروف عنهم كل اللي عملوه وبالأدلة وقضوا أو بيقضوا آخر سنين عمرهم في استجمام على شواطئ فرنسا وإيطاليا. عاوزة تفضحيهم هنا في مصر والشرق الأوسط وأفريقيا؟ طب هتطلعي تقولي إيه؟ الناس دول بيخربوا في بلادنا وبيوصلوا سلاح للحروب اللي فيها؟ طب وإيه الجديد؟ تفتكري الناس مش عارفة؟

صمتت يارا أمام حجته المنطقية. معه حق، لا تملك دليلا واحدا عما تعرفه ويعرفه كل الناس، لا جديد فيما تريد قوله ولن تستطيع فعل أي شيء، ولكن هل حقا سيمر كل ما حدث هكذا دون أن تفعل أي شيء؟ من سيطفئ تلك النار المستعرة بداخلها؟ كيف ستريح قلبها المتقد شوقا ولهفة وذعرا على هذا العزيز الغائب عن دنياها يصارع الموت وحده؟

انتبهت على صوت منصور وهو يستطرد قائلا:

- و إذا كان على حق يحيى فهو مش أول واحد يتئذي بسببهم وعايدة مش أول أم تحزن على ابنها بسببهم. لو هنتكلم عن الحق والتاريخ فيه ناس كتير قوي أولى بالحق ده أكتر من يحيى.

ثم صمت قليلا قبل أن يقول في ألم:

- و إذا كان عليا أنا فماتخافيش. عقابي أخدته تالت ومتلت. حساب سويسرا كله إديته لشفيق سافر بيه بعد ما ربنا عاقبني وأخد مني أغلى حاجة في حياتي. ربما ماتت بسببي وبعد ما عرفت حقيقتي. مافيش عقاب أصعب من كده ولا حتى السجن أو الإعدام اللي كان ممكن أتعاقب بيهم لو

كان الموضوع اتطور، يعني أنا حصل لي نفس اللي حصل لناس تانية كتير بسببي، بس أنا مش هاقدر أستحمل أكتر من كده، مش هاقدر أخسرك إنتي كمان يا يارا.

لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك، تركت مقعدها وجثت أمامه على ركبتيها، وضعت كفيها على ركبتيه ونظرت نحوه بعينين ترقرقت فيهما الدموع وقالت في استعطاف يخلو تماما من أي لوم:

- مش إنت قلت إنك تقدر تحميفا؟

زفر منصور قبل أن يقول في توسل كأنه يخشى أن تفقد بوادر ثقتها فيه:

- أيوه أقدر أحميكم، بس هما كانوا أسرع مني، الظاهر إنهم كانوا مراقبين شفيق لما جالك، ولما لاقوكي بعدها نزلتي من غير ما تاخدي معاكي الصندوق وماجيتيش على عندي على طول، افتكروا إنك مش ناوية تنفذي طلب شفيق، لخبطتهم وخوفهم خلوهم يقرروا يخلصوا الموضوع بنفسهم، بعتوا واحد يجيب الحاجة من بيتك بس للأسف في نفس الوقت إحنا بعتنا يحيى، الراجل اتفاجئ بيه داخل عليه، خاف واضطرب واضطر يتعامل معاه بالسلاح، وطبعا كان مسدس كاتم صوت عشان كده إحنا لازم نحمد ربنا إن البواب كان معاه وإلا لا قدر الله ماحدش كان هايحس بيه وكان هيفضل مرمي في الشقة لوحده لحد أما يروح فيها.

سالت دموعها حارة على وجنتيها وهي تتخيل شكله وهو راقد على الأرض يفقد دماءه ببطء ومعها جزء من روحه المعلقة الآن بين السماء والأرض مصطحبة معها جزءا من روحها التي أحست أنها تسحب من جسدها وأنها لن تعود إليه إلا إذا عاد هو.

مسح منصور دموعها بلطف وقال مبتسما في وداعة:

- ماتفقديش ثقتك فيا يا يارا تاني أرجوكي، اللي حصل كان غلطة وأنا هاصلحها، مافيش حد فيكم هيحصل له أي حاجة، صدقيني أنا أعرف أوقف الناس دول كويس وأخليهم يسكتوا ويبعدوا عنكم طول عمرهم، وأعرف كمان أقفل القضية دي كلها ولا كأن فيه حد بلغ البوليس أصلا، صدقيني كله عشان مصلحتكم.

عادت دموعها تنزلق في هدوء وهي تتساءل متوسلة بصوت متحشرج:

- طب ويحيى؟ يحيى لو جرى له حاجة أنا ممكن أموت.

- بعد الشر عنك يا حبيبتي، إحنا كلنا قاعدين جنبه وهندعي له يشفيه ويرجعه بالسلامة، ولو حكمت أبعته آخر الدنيا يتعالج أو أجيب له كل دكاترة العالم لحد هنا. بس صدقيني، يحي محتاجك دلوقتي قوية، تقفي جنب عيلته وتدعي له وتحسسيه إنك محتاجاه ومستنياه، صدقيني هو حاسس بيكي، مش إنتي بتحبيه بجد؟

ازداد تحشرج صوتها وهي تهتف وقد ضاق تنفسها وعلا بكاؤها:

- من ساعة اللي حصل وأنا حاسة إني مش قادرة آخد نفسي، كأن روحي متعلقة بروحه والاتنين متعلقين بين إيدين ربنا.

فابتسم منصور في ألم وهو يقول:

- يبقى هو حاسس بيكي دلوقتي، حسسيه إنك محتاجاه ومستنياه. ادعي له من كل قلبك، إن شاء الله هيرجع لك طول ما إنتي قادرة تواجهي الموقف بقوة.

ولكن من أين لها بالقوة وهي بهذا الجسد الخائر المفكك المترنح تحت رحمة يد تعتصر باطنه وتتركه بنصف قوة ونصف روح معلقة مع هذا الحبيب في غيبوبته المجهولة تلك؟ كان هو مصدر قوتها فمن أين لها بالقوة الآن؟

وجدت نفسها تسند جبهتها على إحدى ركبتيه كأنها بالتصاقها به تستمد منه شيئا من تلك القوة. أغمضت عينيها وتركت دموعها تسيل وهي تقول متوسلة:

- أنا محتاجة لك قوي يا بابا. أنا ماليش غيرك في الدنيا دلوقتي.

أحست بكفه تربت على شعرها في حنان وهو يقول بنبرة صادقة طالما تاقت لأن تسمعها من بين شفتي هذا الأب وبتلك الدرجة من الحنان:

- ولا أنا ليا غيرك، ولا أنا.

## (٦٢)

لماذا أتت معهم إلى غرفة مكتب الطبيب وجلست بينهم تنتظر حضوره والتوتر يكاد يقتلها مثلهم؟ لا إنها حتى لا تجلس بينهم، إنها تجلس بعيدا منكمشة في المقعد الجلدي الأسود الملاصق للباب، تكاد تلتف حول نفسها لتختفي بين طياته حتى لا يروها أو يشعروا بوجودها، الحرج يكاد يفتك بها. تشعر أنها لا تنتمي لتلك الأسرة بأي صلة. غريبة هي عنهم تلتصق بهم أينما ذهبوا دون حتى أن يلتفتوا إليها وتحمد الله على ذلك فهي تخشى أن يشعروا بوجودها فيروا في عينيها شعور الذنب القاتل الذي تشعر به نحوهم أو يكيلوا إليها اتهامات تقتلها عندما ترددها بينها وبين نفسها فكيف إذا سمعتها منهم؟

و لكن يبدو أن كل تلك الخواطر تدور في رأسها هي فقط، لم ولن يلتفت إليها أي منهم، فعايدة الوحيدة التي تعرفها جالسة أمام مكتب الطبيب تسند رأسها بيدها وتخفي وجهها الممتقع خلفها لا تشعر بأي شيء أو أي شخص ولا حتى ببناتها، وفي المقعد المقابل لها كان يجلس "علاء" زوج يمنى الذي حضر مسرعا من الغردقة بعدما علم بما حدث، وعلى الأريكة القريبة منها جلست يمنى وأختها الكبيرة يسرا التي أصرت على الحضور من دبي تاركة خلفها زوجها وأبناءها وكل شيء حتى تكون هنا في تلك اللحظة. كلهم – باستثناء عايدة المصابة بشبه انهيار- لا يعرفونها ولن يولوها اهتماما ما دامت المصيبة قائمة بهذا العنف الذي يكاد يمزق أعصابهم من التوتر والرعب.

لماذا إذا تجلس بجانبهم وتلتصق بهم دون وجه حق كأنها متسولة أو دخيلة تفرض نفسها عليهم؟ متسولة أو دخيلة أو أي شيء آخر، لا يهمها، ستتحمل وتبتلع أي اهانة تشعرها حتى ولو بينها وبين نفسها، سترضى بما هو أدنى من ذلك حتى لو وطئت كرامتها بقدميها، كل شيء يصبح بلا أي قيمة أمام أن تسمع كلمة واحدة فقط تطمئن بها عليه، أمام أن تعرف تفاصيل حالته المبهمة تلك من الطبيب الذي سيأتي الآن ليشرح لهم كل شيء، يا رب، كلمة واحدة أطمئن بها عليه، قلبي معلق بتلك الكلمة وروحي معلقة بروحه التي بين يديك الآن فردها إلي يا رب.

وصلها صوت حديث خافت متوتر يدور بين الأختين اللتين تمنت من قبل أن تتعرف بهما ولم يخطر ببالها أن أول مرة ستراهما فيها ستكون خائفة من أن تشعرا بوجودها.

كانت يسرا في قمة العصبية والتوتر بينما يمنى تكاد تتوسلها قائلة:

- يسرا أرجوكي تهدي، ماما مش ناقصة كفاية اللي هي فيه.

- أنا مش فاهمة إزاي يسيبونا كل ده من غير ما يشرحوا لنا الحالة ولا يقولوا لنا أي حاجة؟ والله لأفرج الدكتور ده بس أما ييجي؟

- أبوس إيدك يا يسرا بلاش توتر أكتر من اللي إحنا فيه.

- لا مافيش توتر ولا حاجة بس أنا بقى هاعرف أتصرف معاهم، والله لأكلم سامح وأخليه ييجي يوريهم.

صمتت عندما انفتح الباب ودخل الطبيب مسرعا نحو مكتبه، تعلقت عيونهم به في قلق ورجاء ولكن يسرا كانت أسرعهم حيث وقفت بسرعة وهتفت محاولة كتم عصبيتها:

- لو سمحت يا دكتور، أنا يسرا صالح أخت يحيى ومرات الدكتور سامح مختار استشاري جراحة الأطفال في المستشفى الأمريكي في دبي.

أسرع الطبيب يجيب في هدوء:

- أيوه يا فندم عارف، أنا لسه قافل مع دكتور سامح قبل ما آجي.

هدأت يسرا قليلا وهي تتساءل مترددة:

- إنت تعرف سامح؟

- أيوه طبعا يا فندم دكتور سامح يبقى أستاذنا كلنا.

أسرعت عايدة مقاطعة هذا الحديث وهي تهتف في توسل:

- أرجوك يا دكتور طمني على يحيى، أنا أمه، أرجوك تقول لي يحيى حالته إيه؟

التفت علاء نحو يسرا وقال حاسما في هدوء:

- اقعدي يا يسرا لو سمحتي خلينا نسمع الدكتور هيقول إيه؟

لم تجد يسرا بدا من العودة إلى مكانها في هدوء بين يدي يمنى التي جذبتها برفق خاصة بعدما تأكدت من أن الطبيب يعرف بصلة القرابة بينهم وبين سامح زوجها وبعدما قاله لها علاء.

جلس الطبيب خلف المكتب وقد بدا الحرج واضحا على وجهه، زفر ليتخلص من توتره فزادهم توترا، كانت أعينهم متعلقة بشفتيه تستجدي منهما أي كلمة تطفئ النار المشتعلة بداخلهم عندما نطق أخيرا محاولا تنسيق كلماته:

- الأستاذ يحيى وصل الطوارئ إمبارح في حالة سيئة، الرصاصة اللي اتضربت عليه أصابت صدره واخترقت الرئة والحجاب الحاجز وأصابت الكبد وشريان مهم تسبب في نزيف حاد في الغشاء البريتوني، إحنا قدرنا نستخرج الرصاصة وننقل له دم ونسيطر على الحالة قدر الإمكان وهو دلوقتي تحت تأثير مخدر مؤقتا وتحت الملاحظة الدقيقة في العناية المركزة لحد أما فترة الألم دي تعدي.

علا صوت نحيب عايدة التي لم تستطع تحمل كل هذه الحقائق البشعة التي سمعتها عن ابنها بينما ألجمت الصدمة الباقين كلهم، ظلوا صامتين لثوانٍ غير قادرين حتى على استيعاب أن ما قاله هذا الطبيب قد حدث ليحيى الذي يعرفونه، هل حقا هذا الحجاب الحاجز وتلك الرئة وهذا الكبد الذي يتحدث عنهم هم نفس الأعضاء المتوارية خلف صدر هذا الكيان القوي الحنون القريب إلى قلوبهم أكثر من أي شيء آخر في الدنيا؟ هل الراقد في العناية المركزة هذا هو نفس الإنسان الصلب الذي لم تهتز له شعرة من قبل؟ أنى لهم أن يصدقوا أن هذا الحديث كله يدور عنه، عن يحيى، كيف؟!

تحدث علاء محاولا التغلب على توتره والتظاهر بالتماسك:

- يعني هو حالته إيه دلوقتي بالضبط يا دكتور؟

بدا الحرج على وجه الطبيب وهو يقول في استسلام:

- مش هاخبي عليكم، الحالة لسه سيئة والخطر قائم، أهم حاجة إن الأيام الجاية تفوت على خير والحالة تستقر من غير أي مضاعفات، كل الممكن عملناه ومافيش قدامنا غير المتابعة الدقيقة، ادعوا له.

انتفضت فجأة يسرا واقفة وهي تصرخ في عصبية:

- يعني إيه مافيش قدامنا غير المتابعة الدقيقة؟! يعني إنتم هتقفوا تتفرجوا عليه وهو بيموت من غير ما تعملوا حاجة؟ لو مش عارفين تتصرفوا قولوا، ننقله مستشفى تانية.

أجاب الطبيب في هدوء متفهما حالتها النفسية:

- صدقيني يا فندم مافيش أي حاجة ممكن تتعمل أكتر من كده، وماينفعش إننا نحركه من العناية المركزة في الوقت الحرج ده.

ازدادت عصبيتها وهي تهتف صارخة غير عابئة بيمنى التي أمسكت بذراعها محاولة تهدئتها:

- أناماينفعنيش الكلام ده، أنا هاكلم سامح يبجي يتصرف معاكم.

- صدقيني يا فندم الحالة كلها أنا شرحتها لدكتور سامح وهو هيقول لحضرتك نفس الكلام اللي أنا قلته.

قالت في غيظ مكتوم وقلة حيلة:

- والله لأكلمه بنفسي.

التفتت وخرجت مسرعة من الغرفة في خطوات غاضبة تتبعها يمنى محاولة تهدئتها والسيطرة عليها بينما أخذت عايدة تنتفض في بكاء حاد وقد شحب وجهها وعلا صوت نشيجها. جلس علاء أمامها على ركبتيه وأخذ يربت عليها محاولا تهدئتها والسيطرة على جسدها الذي أخذ يرتجف بشدة.

كانت يارا تتابع كل شيء بعينين زائغتين، صراخ يسرا، توسلات يمنى، ارتجاف عايدة، كأنه حلم، لا يمكن أن يكون كل هذا إلا حلما، نعم حلم مخيف لكنه حلم، غير حقيقي، غير واقعي، هذا أقصى ما يمكن أن تفعله إزاء ما يحدث، أن تشعر به كحلم يدور حولها وهي واقفة تشاهده دون أن يكون لها يد في أي شيء، هذا هو أقصى ما لديها، أن تستوعبه كحلم وليس كحقيقة، لا لا يمكن أن يكون كل ما يحدث وكل ما سمعته حقيقة، هل يمكن حقا أن يكون يحيى راقدا في العناية المركزة في حالة خطيرة كتلك التي وصفها الطبيب يصارع الموت وحده، لا يسانده أحد أمام تلك القوة الهائلة، هل حقا اخترق هذا الشيء الصلب صدره؟ وطنها الصغير اخترقته رصاصة، هل هذا الحجاب الحاجز وهذه الرئة وهذا الكبد الذين تحدث عنهم الطبيب يكمنون بداخله؟ قريبا من قلبه، وهذا النزيف حدث من دمائه؟ مالت بجذعها إلى الأمام ودفنت وجهها في راحتي يديها وأخذت تضغط بهما على عينيها وملامحها عليها تستطيع إفاقة نفسها من هذا الحلم المخيف الذي يضغط على ضلوعها ويكاد يقتلع ما تبقى من روحها. مسحت بيديها حول رأسها وشعرها قبل أن تنهض بوهن مستندة على يد المقعد، حاولت أن تتغلب على الدوار الذي أصاب رأسها، رمقت عايدة بطرف عينها فوجدتها تكاد تفقد قدرتها على التنفس من شدة ارتجافها بينما علاء ينظر نحوها بإشفاق وحزن عاجزا عن تهدئتها، فكرت أن تقترب منها لتواسيها لكنها لم تستطع، باتت تخشى الاقتراب من كل أفراد تلك الأسرة وخاصة عايدة، إحساس الذنب يقف حائلا بينهما، تخشى أن تقترب منها فترى في عينيها نظرات اتهام، بكاؤها هذا وحده يضرب خنجرا حادا في جذور قلبها الممزق

لمزيد من الكتب العصرية

على تلك الأم التي عوضتها عن أمها الحقيقية وشملتها باهتمام لم تحظ بمثله منذ سنوات ولم تجد منها في المقابل إلا أن تكون هي السبب فيما حدث لابنها. التفتت وخرجت من الغرفة في خطوات بطيئة مترنحة. توقفت في الخارج والتفتت نحو اليسار حيث سمعت صوت يسرا تنتحب بشدة ويمنى تحاول تهدئتها بلا جدوى. أول مرة ترى يسرا منهارة هكذا فهي منذ أن وصلت لا تكف عن مداراة ألمها خلف صراخ غاضب. كانت تنتفض قائلة في توسل:

- يا جماعة حسوا بيا. يحيى ده مش أخويا. ده ابني أنا اللي مربياه.

قالت يمنى في صوت متحشرج محاولة كتم دموعها:

- أنا عارفة ومقدرة. بس أرجوكي اهدي. لازم كلنا نبقى هاديين قدام ماما. إنتي مش شايفة هي منهارة إزاي؟ محتاجانا كلنا نهدا عشانها. هي مش مستحملة.

يبدو أن يسرا لم تجد ما تقوله، أو منعها بكاؤها من التفوه بأي شيء، فقط انخرطت في بكاء حاد احتضنتها يمنى على إثره محاولة تهدئتها.

التفتت يارا وابتعدت في هدوء منكسر. جلست منكمشة على المقعد المواجه لغرفة العناية المركزة. أغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى الخلف محاولة السيطرة على نزيف آخر تتسلل دماؤه من حول خنجر جديد طعنتها به يسرا بكلماتها تلك فأضحت تنزف من جرح جديد إلى جانب جرح قلبها على عايدة وجرح روحها التي انفصلت عنها وتعلقت بروح يحيى بين يدي الله.

(٦٣)

لا تعلم متى غفت في جلستها تلك لكنها انتفضت فجأة عندما أحست بحركة سريعة حولها، طار النوم من عينيها، وقفت والفزع يكاد يفتك بقلبها عندما أدركت أن تلك الحركة التي أحست بها لم تكن إلا أطباء وممرضات يدلفون بسرعة في توتر داخل العناية المركزة حيث يرقد يحيى. التفتت نحو اليسار حيث رأت أسرته جالسة قبل أن تغفو منذ قليل، وجدتهم كلهم وقد انتفضوا مثلها يرقبون ما يحدث في رعب بينما وضعت عايدة يديها على صدرها وهي تنظر نحو باب الغرفة بعينين زائغتين لاح فيهما عنف دقات قلبها الذي يبدو أنه يكاد أن يتوقف في تلك اللحظة.

التفتت نحو باب الغرفة حينما أحست بصوت ارتطام يليه صراخ، كان الممرضات يدفعون بفراش عليه جسد مغطى تماما ولا يبدو منه شيء من موقعها هذا عندما اصطدم الفراش بالحائط أثناء خروجهم من الغرفة فصرخ الطبيب لينبه الممرضات وقد سادت حالة غير طبيعية من التوتر. كان كل شيء يحدث بسرعة، صرخة من يسارها فالتفتت لتجد عايدة تسقط مغشيا عليها عندما أدركت أن هذا الراقد على الفراش المتحرك ليس إلا ابنها وقد تجمع حولها ابنتاها وعلاء يحاولون إسنادها وقد تضاعف رعبهم، التفتت نحو اليمين فوجدتهم يبتعدون بالفراش وفوقه يحيى وقد بدا واضحا من حالة التوتر أن الحالة غير المستقرة تفاجئهم الآن بنوبة خطرة لا تعلم مداها ولا تستطيع تحمل حتى تخيل ما ستنتهي إليه.

ظلت واقفة مكانها لحظات وعقلها عاجز تماما عن التفكير أو اتخاذ أي اقرار، تلتفت نحو عايدة المغشي عليها وقد التف ثلاثتهم حولها يحاولون إفاقتها ثم تلتفت نحو الفراش وهو يبتعد عنها بسرعة ساحبا ما تبقى من روحها.

أخيرا تحركت، عقلها لا يزال عاجزا عن العمل، لكنها لم تستطع ألا تستمع إلى قلبها الذي دفعها لأن تلحق بما تبقى من روحها التي كانت الممرضات يدفعنها بعيدا عنها فلم يسعها إلا أن تسرع لتلحق بها قبل أن تفقد قدرتها على التنفس.

ركضت مسرعة حتى لحقت بهم بصعوبة، كادت تسقط وهي تترنح أثناء ركضها وقد تملكها الذعر حتى فقدت الإحساس بأطرافها أو التحكم بهم، أمسكت بطرف الفراش حتى تستطيع أن تركض بنفس سرعتهم دون أن تسقط. وقع نظرها من أعلى على رأس الفراش، رأته، أول مرة تراه منذ أن

منعوه عنها وحجزوه خلف جدران العمليات ثم العناية المركزة لا يصلها به إلا أخبار مروعة عنه وروحها المعلقة بروحه.

يا الله! كيف استطاعت تحمل ما رأته؟! لولا روحها التي تدفعها خلفه لما استطاعت متابعة الركض، لأفلتت يدها وسقطت على الأرض ذاهلة عما حولها.

كان فاقدا للوعي، لا يعي أيا مما يجري حوله، وجهه شاحب وشفتاه بيضاوان مطبقتان في سكون مخيف، هالات سوداء حول عينيه المغمضتين المستسلمتين لدنيا أخرى تائها فيها تاركا إياها وحدها بدونه في دنياها، تلك التي أصبحت قاتمة منذ أن انفصل هو عنها وأصبحت الآن أشد قتامة بعدما رأت وجهه بهذا الشكل وأحست بعجزها أمام هذا الكيان بكل ما يمثله لها وهو راقدا هكذا تحت رحمة قوة غاشمة تريد أن تنتزعه منها الآن.

منعوها من دخول غرفة العمليات، اختفوا به خلف أبوابها تاركين إياها وحدها أمام هذا الرعب الذي احتل كل خلاياها وأصابها بذهول عن كل شيء إلا هذا العزيز الذي ينازع وحده شيئا لا تعلمه ولا قدرة لها على مساندته أمامه.

ظلت تتحرك يمينا ويسارا في خطوات قلقة وهي تفرك يديها الباردتين وقلبها يرتجف بداخلها، حاولت أن تتذكر أي دعاء أو سورة من القرآن لتتضرع بها إلى الله ولكنها فوجئت بذاكرتها قد تبخرت، لا تتذكر أي شيء، ولا حتى فاتحة الكتاب، لم تجد أمامها سوى نداء "يا رب". أخذت تردده بصوت مبحوح ونبرة متوترة وهي لا تزال تدور حول نفسها ذاهلة عن كل شيء.

لا تعلم كم مضى من الوقت عندما أخيرا رأت الطبيب يخرج من غرفة العمليات وعلى وجهه بعض آثار الارتياح، أسرعت تتعلق بذراعه وهي تهتف في لهفة وذعر دون حتى أن تنسق كلامها:

- دكتور.. يحيى.. عامل إيه؟

ربت الطبيب على يدها ليهدئها قائلا:

- ماتخافيش، هو حصل له نزيف داخلي عشان جرح الشريان فتح تاني بس الحمد لله لحقناه، هو دلوقتي كويس وهيرجع الرعاية تاني.

تخلص من يدها المتمسكة به في رفق وذهب من أمامها، التفتت فوجدت يمنى تركض نحوها ممتقعة الوجه حتى سقطت بين يدي يارا التي أمسكتها من ذراعيها وهي تهتف مطمئنة إياها:

- ماتخافيش. ده كان نزيف بس الحمد لله يحيى كويس دلوقتي.

استندت يمنى على الحائط وأخذت تستنشق الهواء وتزفره في عنف وسرعة محاولة التخفيف من خفقان قلبها والسيطرة على الارتجاف الذي تملكها. ما إن تمالكت نفسها حتى أجهشت في بكاء حاد وهي تهتف في يأس:

- أنا تعبت. ماما ضغطها في السما، ويحيى حالته خطيرة، حتى يسرا اللي كانت طول عمرها ناشفة وهي اللي بتقويني، منهارة وتعبانة وأنا اللي مطلوب مني إني أبقى قوية وناشفة عشان أعرف أقوم بدور أنا عمري ما قمت بيه وأول مرة أقوم بيه يبقى في ظروف صعبة زي دي. صحيح يحيى يبقى ابن ماما ويسرا هي اللي ربته بس أنا كمان ليا فيه زيهم بالضبط. يحيى مش مجرد أخويا. يحيى ده يبقى صاحبي، أعز أصحابي وأقربهم ليا. الراجل الوحيد اللي كنت باحكيله كل حاجة في حياتي من أول خناقات البنات بيني وبين أصحابي في المدرسة لحد قصتي مع علاء. أنا كمان تعبانة ومنهارة. أنا كمان مش مستحملة فكرة الخطر اللي هو فيه. مش مستحملة فكرة إنه يروح مننا. أنا تعبت.

عادت تنخرط في البكاء وقد اعتصر وجهها ألم أحست يارا أن ألمها أمامه لا يساوي شيئا. لأول مرة تدرك أن عايدة وابنتيها لا يبكين أي عزيز بل يبكين ابنا تعاونّ على تربيته حتى أصبح رجلا يحملهن بعد أن كنّ يحملنه. فكيف لهن إذا باحتمال فقدان من كان ابنا وأبا في آن واحد خاصة بعدما فقدن الأب الحقيقي منذ زمن ولم يتبق لديهن رجل تجري في عروقه ما تجري في عروقهن من دماء سواه.

احتضنتها وأخذت تربت عليها محاولة تهدئتها. كتمت دموعها. أحست في تلك اللحظة ألا حق لها في بكائه مثلهن. لا تمتلك فيه مثلما يمتلكن هن. آلمتها تلك الحقيقة. أحقا لا يحق لها حتى بكاؤه؟ ألا يوجد أي شيء في الدنيا يعطيها حق بكائه مثلهن ولا حتى روحها المعلقة بعينيه المغمضتين المستسلمتين لدنيا أخرى غير تلك الدنيا القائمة بدونه؟

لمزيد من الكتب العصرية

(٦٤)

لكم يؤلمه بكاؤها، يشعره بالعجز، يذكره بوقاحته عندما تركها هي وشريفة منذ خمسة وعشرين عاما، يذكره بأنانيته التي لم يدفع أحد ثمنها سواها، هي التي ظلت طوال سنوات عمرها محرومة منه ومن إحساسها بحبه لها وحنوه عليها، هي التي عانت بسبب فقدانها لإحساس الأمان والثقة دون أي ذنب سوى أنها خلقت في الدنيا ابنته.

وعندما عاد إليها وأراد أن يعوضها عن كل ما عانت منه، عندما أراد أن يعيد إليها إحساس الأمان والسكينة اللتين افتقدتهما طوال عمرها وجد نفسه عاجزا عن منحها الشيء الوحيد الذي تريده في تلك اللحظة.

لقد استطاع أن يحميها كما وعدها، استطاع أن يسوي الأمر في الخارج مستعينا بنفوذه وخبرته الطويلة في هذا العالم القذر وضمن أنهم لن يتعرضوا لابنته أو أي ممن يعرفون أي شيء عن الموضوع إلى الأبد، واستطاع أن يسويه في الداخل حيث أغلق بنفوذه تلك القضية كأن أحدا لم يقم بالابلاغ عما أصاب يحيى في منزل يارا، نعم استطاع أن يفي بوعده ويحميها ويمنع عنها هذا الخطر الذي كادت أن تتعرض له، لكنه يشعر بنفسه عاجزا الآن أمام دموعها تلك التي جلست تذرفها أمامه في قهر.

كان صوت يارا يتقطع بنشيج البكاء وهي تهتف في حرقة وندم:

- أنا السبب يا بابا أنا السبب، أنا السبب في اللي حصل ليحيى واللي بيحصل لطنط عايدة وأخواته، يا ريته ما عرفني ولا ساعدني، يا ريته ما وقف جنبي، يا ريته ما كان راح الشقة اليوم ده، يا ريتني كنت أنا اللي روحت واتضربت بالرصاص بداله.

كان منصور يجلس بجانبها على الأريكة في غرفته بالمستشفى يرقب حرقتها وقهرها بنظرات ضعيفة عاجزة، أجابها متوسلا:

- كفاية يا يارا يا حبيبتي، إنتي مش قلتي إنه الحمد لله بقى كويس؟

- أيوه بس لسه حالته خطر، وبعدين...

صمتت ثواني تلتقط أنفاسها وتتغلب على ألمها وهي تسترجع شكله قبل أن تستطرد وقد ازداد بكاؤها:

- وبعدين، إنت ماشفتش شكله يا بابا، ماشفتش شكله وهو نايم كده مش حاسس بأي حاجة، وشه أصفر وشفايفه بيضا كأن مافيهمش نقطة دم، عينيه اللي حوالها أسود حسسوني إنه تعبان قوي يا بابا وماحدش واقف جنبه. يحيى القوي اللي كنت كل ما أضعف أو أتعب أو أحتاج مساعدة أجري عليه ومالاقيش الأمان إلا عنده يبقى عامل كده؟ يحيى يبقى نايم كده مستسلم والدكاترة بينقلوه من مكان لمكان وهو مش حاسس ومش قادر يعمل حاجة؟ أنا من ساعة ما شفته وأنا حاسة إني هاتجنن.

أجهشت في البكاء فاقترب منها منصور وهو يهتف في قلق:

- يارا، أنا قلقان عليكي، أنا من ساعة ما قلت لك إنك لازم تبقي قوية في مواجهة الموقف وأنا شايف إنك عمالة تضعفي أكتر وأكتر.

أغمضت عينيها وأخذت تعتصر رأسها محاولة التغلب على الألم العنيف الذي يضربها بسبب البكاء. أمالت رأسها وهي ما زالت مغمضة العينين حتى استقرت على طرف رجل منصور محاولة الاستعانة به لإراحتها، هتفت في صوت خافت مستسلم:

- مش قادرة يا بابا، غصب عني.

أخذ يربت على رأسها في حنان وإحساس العجز يعتصر قلبه، كأن الله يعاقبه على أنانيته معها، فعندما يجمعه بها بعد كل هذا الوقت وعندما يكسب ثقتها ويصبح قادرا على حمايتها وإراحتها، تقع هي في محنة لا يستطيع تخليصها منها سوى الله سبحانه وتعالى، فمهما بلغت قوته ونفوذه فهو لا يستطيع أن يعيد إليها هذا الذي تتعلق روحها به وهو هكذا بين يدي الله.

كم هو مؤلم هذا الإحساس، إحساس العجز عن تخفيف هذا الألم عن تلك التي خلقها الله منه وتعذبت كثيرا بسببه، لكنه لا يعلم أن مجرد وجوده بجانبها الآن هو أقصى ما تريد، مجرد إحساسها بأن هناك من تعود إليه لتبكي له وتفرغ همها أمامه فيستمع لها بكل ما أوتي من صبر ويخاف عليها ويغدق عليها حنانه مثلما يفعل الآن هو أقصى ما تحتاجه، كانت تلتصق به كأنها تحتمي بقوته من هذا الضعف الذي يسيطر عليها، إنها تحتاجه بكل ذرة دم تجري في عروقها، تحتاج وجود هذا الأب بكل ما يمثله من أمان وسكينة في حياتها حتى ولو كان عاجزا عن إنقاذها مما هي فيه، يكفي إحساسها بأن لها وطنا تعود إليه، مصدرا للأمان يربت على قلبها المكلوم

فيخفف من وطأة لوعته. كان يمكن أن تمر سنون قبل أن تغفر لأبيها وسنون أخرى حتى تثق فيه وتتقرب منه. لكن تلك المحنة اختصرت أعواما طويلة في بضعة أيام. وجدت نفسها تغفر كل شيء، تلتصق به. تنشد رعايته وحنانه وإحساسا بالأمان أصبحت لا تشعر به إلا وهي في معيته.

إنها تحتاج إليه في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى، حتى عندما تركها كريم وعندما فقدت أمها. كانت أكثر قدرة على اجتياز المحنة بمفردها لأنها ببساطة كانت أول تجارب الفقد في حياتها. كان قلبها قادرا على الصمود. أما الآن فهي تشعر كأن قلبها قد شاخ بين جوانحها. أصبح ضعيفا ومهترئا من كثرة ما أصيب وفقد. امتدت يدها لتمسك بيده الموضوعة على كتفها. ضغطت عليها بشدة كأنها تتأكد من وجوده بجانبها وتتوسل إليه ألا يتركها وحدها في مواجهة هذا الطوفان الذي يكاد يفقدها من لا تتحمل فقدانه أبدا.

(٦٥)

مضى يومان، يحيى في العناية المركزة تحت تأثير المخدر حتى تمر مرحلة الخطر دون أن يشعر بأي ألم. منع الطبيب دخول أي منهم عليه تلبية لطلب سامح زوج يسرا الذي وجد أنه من الأفضل ألا تراه عايدة أو أي من أختيه وهو في تلك الحالة. وهو أمر تفهمته يارا خاصة بعد الانهيار الذي أصابها بعدما رأته فاقدا للوعي وشاحبا شحوب الموتى.

عايدة ترقد في غرفة قريبة من غرفة يحيى حتى تبقى تحت الملاحظة بعد تدهور حالتها الصحية بينما يتناوب كل من يسرا ويمنى وعلاء الجلوس بجانبها أو أمام العناية المركزة لمتابعة حالة يحيى والاطمئنان عليه.

يارا لم تبرح المستشفي خلال اليومين، تغفو سويعات قليلة على الأريكة في غرفة منصور بينما تقضي بقية اليوم أمام غرفة العناية تتلو في مصحف أحضرته لها داليا. تكثر من قراءة سورة مريم التي يرد فيها ذكر نبي الله يحيى عليه السلام فيمتلئ قلبها بالسكينة كلما مرت عيناها على الاسم وتحاول أن تستمد من العذراء شيئا من تجلدها. علها تستطيع مواصلة الصبر على فجيعتها دون أن تفقد الأمل في رحمة الله فهي تعلم جيدا أن لا شيء سوى رحمته يستطيع إنقاذها مما تجزع حتى عن تخيله.

كانت تجلس منكمشة في الصالون القريب من غرفة الرعاية مستغرقة في التلاوة، يخفت صوتها حينما يغلب الحزن بداخلها ويعلو حينما يغلب الخوف كأنه شيطان تشهر في وجهه الآيات لتحرقه بها. وعلى مقربة منها كانت تجلس ليديا التي خرجت أخيرا من عزلتها وعادت إلى العمل لتباشر أمور المكتب في غياب كل من تولوا رئاسة مجلس الإدارة من قبل، ثم تعرج في نهاية اليوم على المستشفى لتطمئن على يارا قبل أن تعود إلى منزلها لتتناول العشاء في هدوء مع أسرتها التي تنفست الصعداء منذ خرجت ابنتهم من حالتها تلك وعادت إلى ما يشبه طبيعتها.

بجانبها كان يجلس رأفت، مستغرقا في ذهوله بعدما انهار كل شيء من حوله، مشروع سفره، مستقبله، علاقته بأمه، احترام من يحيطون به، وحتى احترامه لنفسه ولذكائه بعدما اكتشف كم كان مغفلا طوال الشهور الماضية، وبعدما احتله شعور قاتل بالذنب عندما أحس أنه بشكل أو بآخر قد يكون أحد المتسببين فيما حدث ليحيى.

كان يريد أن يتحدث، أن يدافع عن نفسه أمام أحد بعدما عجز عن الدفاع عنها بداخله. ولدهشته وجد نفسه يفكر في أن أول شخص يريد أن يدافع عن نفسه أمامه هي ليديا. لعن وقاحته عندما مرت بخاطره تلك الفكرة لكنه عاد وتذكر أنه لا مجال للوقاحة الآن. من قبل كان وقحا عندما كان يجعلها تتعلق بأمل يعلم هو أنه لن يتحقق لأنه سيترك البلد برمتها ويرحل. لكنه لن يرحل الآن فلماذا إذا يفكر فيها؟ لماذا يريد أن يدافع عن نفسه أمامها؟ لماذا ذهب إلى عمله مسرعا عندما علم بعودتها ومضى اليوم كله يختلق أسبابا ليتحدث معها وهي تجيب باقتضاب وبرود حقيقي ليس مثل هذا البرود الذي كانت تتظاهر به في الماضي؟ لماذا حضر إلى المستشفى عندما علم أنها ذهبت على الرغم من أنه كان رافضا لفكرة أن يذهب إلى حيث يرقد يحيى في حالته الخطيرة تلك، حتى لا يتفاقم إحساسه بالذنب وحتى لا يرى نظرات الكراهية أو الاتهام في عيني يارا؟ يكفيه ما يراه في عيني أمه وهذا اللاشيء القاتل الذي يراه في عيني ليديا. لماذا أتى؟ لماذا جلس بجانبها ذاهلا عن كل شيء إلا إصراره على ألا يفقد تلك الفرصة دون أن يدافع عن نفسه أمامها؟ لماذا؟ ألم يوقن بأنه لا يحبها؟ وبأنها لا تهمه؟ أكان غبيا إلى تلك الدرجة حتى يعجز عن فهم نفسه؟ أم كانت أنانيته اكبر من أي شيء آخر بداخله؟ أم أن ما يحدث الآن ليس إلا بقايا ساديته التي كان يمارسها عليها في الماضي؟ انتبه عندما أحس بمرور الوقت وباقتراب موعد ذهابها. ارتبك فجأة. لا يعلم من أين يبدأ حديثه. فوجئت به يهتف محملقا في الفراغ أمامه دون أن ينظر نحوها قائلا:

- أنا مش أول واحد يفكر يسافر ولا هابقى آخر واحد.

كانت تجلس بجانبه كتمثال، لم تهتز لها شعرة لوجوده بهذا القرب منها على الرغم من أنها تفاجأت عندما وجدته قد أتى إلى المستشفى بعد حضورها بدقائق قليلة. لكن هذا الحنق الذي ملأ شرايينها كان أقوى من أي شعور آخر وكان كفيلا بأن يجعلها تتحول إلى قطعة من الجليد كلما أصبح هو قريبا منها. تجيبه في برود وتتجاهله ببرود كأنها بالفعل تحاول أن تتحول إلى قطعة جليد كبيرة ملمسها بارد مؤلم وسطحها أملس تنعكس عليه صورته فيرى فيها مدى حقارته على ما فعله معها ومع أمه ومدى ما ارتكب من ذنوب.

تفاجأت عندما تفوه بتلك الجملة، لكنها اكتفت بأن رمقته بطرف عينها بلا مبالاة قبل أن تعود لتثبت عينها نحو الحائط دون أن تنظر نحوه أو تظهر أي اهتمام بما يقول، بينما استرسل هو قائلا في نبرة ترتفع حينما يحاول الدفاع عن نفسه وتخفت حينما يغزوها إحساسه بالندم:

- أنا ماأجرمتش لما فكرت أسافر، ممكن أكون غلطت لما خبيت عن الناس كلها وعن ماما، وممكن كمان أكون غلطت لما فكرت أسافر بالطريقة الحقيرة دي، أضحك على واحدة وأتجوزها عشان آخد الجنسية، ممكن أكون غبي ومغفل عشان طموحي عماني عن إني أفهم أو أفسر أي حاجة، وغروري صور لي إن مافيش حد يقدر يضحك عليا وأنا أصلا كنت عايش جاسوس لمدة خمس شهور ومن غير ما آخد بالي أو أشك، أنا ممكن أكون واطي وزبالة في ميت ألف حاجة إنما أنا ماغلطتش لما فكرت أسافر وأبدأ في مكان تاني.

صمت ليلتقط أنفاسه قبل أن يستطرد في حنق:

- من حقي إني أدور على مكان فيه فرص أحسن، مكان كل الناس فيه بتاخد كل الفرص زي بعض من غير تفرقة، من حقي أعيش عيشة أحسن وأشتغل شغلانة أحسن بفلوس أكتر، من حقي يبقى عندي طموح وإني أفكر أمتلك مشروع خاص مايمنعنيش عن تنفيذه غير إني أشتغل وأتعب مش أي حاجة تانية زي واسطة ورشوة وإحباط وقلة فلوس، من حقي أربي ولادي في مكان أحسن، من حقي إني مابقاش خايف طول الوقت، أنا هنا خايف طول الوقت ودايما حاسس إني مش واخد حقي وإني مهما عملت مش هاقدر آخده.

نظر نحوها محاولا اكتشاف ما تفكر فيه، فوجدها كما هي، صامتة باردة كقطعة جليد، لا تلتفت حتى لتنظر نحوه، وتستمع إليه بلا مبالاة أثارته فاستطرد قائلا في تحد:

- إنتي عارفة إن نص الناس اللي بتقابلهم في الكنيسة مقدمين على هجرة؟ يوسف وساندرا قابلتهم في السفارة وطلبوا مني ماقولش لحد إني شفتهم، بيقدموا على هجرة من ورا أهالهم، أمال إنتي فاكرة إنهم عاوزين يتمموا جوازهم بسرعة ليه؟ حتى أستاذ عماد اللي بيشتغل مدير ومدخل ولاده جامعات خاصة مقدم على هجرة لكندا.

صمت عندما وجدها تلتفت، رمقته وفي عينها تلك النظرة اللامبالية ذاتها ثم عادت لتنظر أمامها وهي تقول في برود:

لمزيد من الكتب العصرية

- لو كنت بتحاول تبررلي سبب رغبتك في السفر والهجرة فأنا مايهمنيش إني أعرف ومش فارق معايا كل اللي بتقوله ده، ولو كنت بتحاول تبرر لنفسك يبقى إنت كنت هتعمل حاجة إنت من جواك مش مقتنع بيها، يبقى ياريت تروح تحل مشاكلك بينك وبين نفسك يمكن لما تحلها تقدر تحل مشاكلك مع الناس اللي حواليك وتحس باللي عملته فيهم وإن فيه واحد دلوقتي راقد بين الحيا والموت بسببك.

نهضت وابتعدت مسرعة دون أن تنتظر إجابته، كانت تعلم أن اتهامها له بأنه السبب فيما حدث ليحيى يفتقد الموضوعية لكنها لم تجد سوى هذا الاتهام لتعاقبه به عما فعله بها ولا تستطيع مناقشته معه بجرأة. كان بداخلها دافع انتقامي لم تشعر به من قبل، أحست بمياه باردة تنسكب على النار المشتعلة بداخلها وهي تعاقبه بهذا الاتهام. فما أبشع أن ترتكب كثيرا عن قصد ثم تعاقب على ما لم تقصد. عندما يكون عقابك هو الشعور بالظلم تود لو أنهم عاقبوك عما ارتكبت حتى إن كان أعظم مما لم ترتكب وظلمت فيه. اقتربت ليديا من يارا ووضعت يدها على كتفها في هدوء، توقفت يارا عن التلاوة ونظرت نحوها فوجدتها تبتسم وهي تهتف في رقة:

- أنا لازم أمشي يا أستاذة دلوقتي عشان اتأخرت. عاوزة مني حاجة؟

جاهدت يارا لتبتسم قائلة:

- لا يا ليديا متشكرة. ربنا يخليكي.

- أنا هاعدي على حضرتك بكرة.

- مافيش داعي، ركزي في الشغل أهم. المكتب مافيهوش حد دلوقتي.

- لا ماتقلقيش، مستر هاشم شايل المجموعة وممشيها زي الأول ومافيش مشاكل خالص.

كان رأفت يتابعها بعينين ذاهلتين حتى أنهت حديثها ورحلت. ظل لدقائق جالسا مكانه غير قادر على استيعاب ما يحدث أو التفكير في أي شيء، نهض متثاقلا. نظر نحو يارا المستغرقة في التلاوة بعينين ذابلتين ووجه منهك. كان إحساس الذنب بداخله قاتلا فدفعه لأن يدير عينيه بعيدا عنها ويسرع في أروقة المستشفى، حتى خرج وركب سيارته وقادها مبتعدا في سرعة كأنه يهرب من كلمات ليديا وشكل يارا وذكرى يحيى الذي كان أول من عنفه على غبائه وحماقته كأنه كان يعلم أنه أول من سيؤذى بسبب ما فعله. سار بسيارته هائما في الشوارع دون أن تكون له وجهة محددة أو مكان

يذهب إليه. كان يشعر أن هناك جبالا تجثم على صدره، بدا تخنقه وتمنع عنه الهواء. ثقلا في رئتيه لن يتخفف منه إلا إذا تحدث وأفرغ كل ما بداخله وربما أيضا بكى. لا مانع عنده أن يبكي ويصرخ ويلعن نفسه ليتخلص من ذنبه ولكن أين يجد مستمعا لكل هذا. لقد آذى كل من كان حوله سواء بقصد أو بدون ولم يتبق لديه أي منهم ليستمع له ويخفف عنه. توقف فجأة عندما وجد نفسه أمام الكنيسة. الكنيسة التي لا يتذكر متى زارها لآخر مرة من دون أن يكون قداسا للعيد. الكنيسة التي طلبت منه ليديا أن يذهب إليها فوعدها ثم خذلها ولم يأت. هل يمكن أن يجد فيها من يستمع إليه؟ أم أن القطيعة التي قام بها أفقدته في داخل الكنيسة مثلما أفقدته في خارجها؟ دخل بخطوات مترددة خجلى، كأن كل ركن حوله يعاتبه على غيبته. تأمل الجدران الشاهقة والنوافذ الزجاجية العالية ذات الأيقونات الملونة بألوان داكنة يتخللها الضوء في هدوء فتلقي بظلال خافتة على الأرض والمقاعد. ظلال أشعرته برهبة تضاءل أمامها حتى كاد يفقد إحساسه بنفسه. انتبه على صوت يهتف بنبرة معاتبة:

- بقى لك كتير مابتجيش يا رأفت؟

التفت فوجد "أبونا" ينظر نحوه بلوم وإن لم تبرح ابتسامته الهادئة شفتيه. ارتبك ولم يجد ما يجيب به. إنه مطالب بالدفاع عن نفسه في عدة جهات فهل سيجد من يساعده في حربه تلك؟

زفر "أبونا" في إشفاق عليه عندما وجده في تلك الحالة المزرية. وضع يده على كتفه وسحبه نحو أحد المقاعد وهو يقول:

- تعالى يا رأفت.

ذهب معه وقد امتلأ بسكينة عجيبة عندما أيقن فجأة أنه مهما طالت غيبته عن هذا المكان، دائما سيجد من يستمع إليه.

(٦٦)

تمر الساعات بطيئة كئيبة مملة وهي لاتبرح مكانها في المستشفى، جالسة على المقعد المواجه لباب العناية المركزة، روحها لا تزال معلقة بروحه التي تنازع وحدها في الداخل دون أن يسمحوا لها بإلقاء نظرة عليه أو بأن تمسك يده بين يديها عله يشعر بوجودها بجانبه، عله يدرك أن الدنيا كلها معلقة بعينيه المغلقتين في استسلام مؤلم فيقاوم بشدة حتى يعود إليها وينقذها من على شفا انهيار الأعصاب المقدمة عليه، مضت الأيام الماضية بها وهي تقريبا لا تنام، حتى السويعات التي تقضيها على الأريكة في غرفة أبيها تفترسها فيها كوابيس تشبه تلك التي كانت تحلم بها بعد وفاة أمها فتنتفض مستيقظة، ويتحول النوم إلى فترات متقطعة بين أحلام مزعجة ويقظات فزعة تحرمها من نوم متواصل تريح به أعصابها المنهكة، نعم أعصابها منهكة وقواها باتت غير قادرة على التحمل، طوال الوقت جالسة في مكانها تتحاشى أسرة يحيى المنشغلة بين مصابها فيه ومصاب الأم الراقدة بسبب ارتفاع ضغط الدم، لا تتحدث مع أي إنسان سوى الكلمات القليلة التي تتبادلها مع ليديا أو داليا عندما تزورها إحداهن لتطمئن عليها وتواسيها، أما بقية الوقت فهي تتفرغ تماما للقراءة في المصحف أو للاستسلام للأفكار السوداء التي تنخر في بقايا روحها وتفتت أعصابها المنهارة بسبب الخوف المتواصل.

كانت في جلستها تلك وقد أسندت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها الذابلتين عندما فجأة تذكرت ريما، كانت قد نسيتها في غمار ما يحدث لها، سامحيني يا ريما، لقد حاولت أن أنفذ مبدأك، حاولت أن أكون مثلك، حاولت أن أؤمن بوجود هذا التسائل الحلو خلف القشرة الداكنة الخشنة الصلبة التي تدهسني الآن، حاولت أن أكون متفائلة لكنني فشلت، التفاؤل في حالتي تلك يحتاج إلى شجاعة لا تقدر قواي المنهكة على تحملها، حتى التشاؤم لا أقدر عليه، التشاؤم رفاهية لا أمتلكها، التشاؤم يعني أن أتقبل فكرة فقدان يحيى وهي فكرة يتمزق بسببها قلبي هلعا ألف مرة في اليوم، أنا معلقة في منطقة وسطى بين شجاعة التفاؤل ورفاهية التشاؤم، معلقة في منطقة لا ملامح لها ولا يؤدي وقوفي فيها إلا إلى مزيد من الضغط على أعصابي المنهكة.

لقد تخلصت من عقدتها نحو ريما وعقدتها نحو أبيها لتجد نفسها حبيسة عقدة ذنب جديدة نحو يحيى وأسرته، كأنه واجب عليها أن تشعر بإحساس الذنب هذا نحو كل إنسان ترتبط به ارتباطا

جينيا أو روحيا، ولكن أكثر ما يؤلمها في تلك العقدة الجديدة هو هذا الإحساس القاسي بالذنب نحوه هو. ليس فقط لأنها بشكل أو بآخر متسببة فيما حدث له ولكن لأن تعلقها في تلك المنطقة الغامضة التي لا تشعر فيها بشيء سوى أنها مهددة بفقدانه ساعدها لأن تدرك أنه على الرغم من أنها مذ عرفته لم تفعل شيئا سوى الاستعانة به والاستناد إليه والثقة فيه لكنها لم تشعره بأي من ذلك، بل لقد تمادت في ظلمه حتى أنها كانت تتهرب من الاعتراف بحبها له ومن الموافقة على ربط مصيرها بمصيره، نعم كانت تفعل كل ذلك لا إراديا وبدون قصد لكنها فعلته. نعم فعلت كل ذلك لأن نشأتها وتربيتها جعلاها تفقد إحساس الأمان والثقة مع كل الناس ولأن تجربتها مع كريم أفقدتها ما تبقى بداخلها من اطمئنان حتى مع أكثر من منحها إياه إلا أنها فعلت. هي معذورة، ظلت طوال عمرها تفتقد الأمان والثقة حتى أصبحت غير قادرة على اكتسابهما مرة أخرى، لكن إحساسها بالظلم الذي تعرضت له والذي يبرر شيئا مما كانت تفعل يختفي تماما حالما تمر بخاطرها فكرة أن الله يعاقب من لا يشكر نعمته ويتمسك بها بأن يسلبه إياها، فينتفض قلبها هلعا وتتضرع إلى الله بأن يغفر لها بينما الأفكار السوداء تلهبها بسياط كل ذكرياتها معه. تتذكر كل شيء بتفاصيله الدقيقة، عندما عرفته وتحدثت معه لأول مرة ثم وجدت نفسها تفكر فيه في سيارتها، عندما لجأت إليه ليساعدها عندما وصلها صندوق ربما، عندما استطاع أن يلتفت لإعجابها الخفي بهذا الخاتم الرقيق عند مسيو فايز الجواهرجي فأسرع ليحضره لها ويخبئه حتى يفاجئها به يوم عيد مولدها، عندما فاجأها في هذا اليوم بحضوره إلى منزلها مع والدته فقط ليحتفل بها ويهديها هذا الخاتم، القلم الفضي الذي أهداها إياه أول يوم لها في المجموعة، خوفه عليها وعصبيته الزائدة يوم أن فاجأتها الأزمة في منزله، عندما أخذها بين ذراعيه فأحست أن خلاياها كلها تنفصل وتلتحم مرة أخرى كأنها تولد من جديد على صدره وقرب قلبه. كم كانت غبية وجاحدة! كيف لم تستطع إدراك أن الله بعثه لها تعويضا عن كل ما عانته في حياتها؟ كيف بعد كل ذلك كانت تتهرب منه وتؤذيه بوجود كريم حتى وإن كان دون قصد منها.

يارب أعده إلي، أعده إلى الحياة حتى وإن عاد إليها كارها لي، حتى وإن كف عن صبره علي وقرر التخلي عني، لا يهمني، فقط أعده إلى الحياة، أراه مرة واحدة كما كنت أراه دائما ثم سأختفي من حياته تماما، فقط يكفيني أن أتيقن من أنه سيعيش حتى وإن لم يعش لي.

انتبهت عندما أحست بصوت بجانبها، كانت يسرا تقترب منها بخطوات عشوائية منشغلة بالتحدث في هاتفها، انكمشت يارا في مقعدها وهي تراها بهذا القرب، ودت لو نهضت وابتعدت واختفت تماما من أمامها لكنها لم تستطع أن تحرك أيا من أطرافها كأنها تجمدت في موضعها، كانت تدعو الله أن تنهي يسرا حديثها وتذهب دون أن تلتفت إليها لكنها ارتبكت عندما أحست بيسرا تنتبه لوجودها وتتأملها وقد تباطأت نبرتها قبل أن تنهي المكالمة دون أن تحول عينيها من عليها، كان قلبها يدق بعنف وهي تشعر بها تقترب منها حتى جلست بجانبها مباشرة، لم تستطع يارا أن تتجاهلها أكثر من ذلك، رفعت رأسها ببطء ونظرت نحوها في تردد ففوجئت بها ترقبها مبتسمة قبل أن تهتف في رقة:

- إزيك يا يارا؟

اندهشت من هذا السؤال الرقيق وتلك الابتسامة الوديعة، كان عقلها قد صور لها أن أول ما ستفعله يسرا إن انتبهت لها هو أن تصفعها على وجهها، حاولت إخفاء اندهاشها وهي تجيب بصوت خافت:

- الحمد لله.

اتسعت ابتسامة يسرا وهي تقول:

- إنتي عارفة إن أنا كان نفسي أشوفك من زمان؟

لم تستطع يارا إخفاء دهشتها وهي تهتف متسائلة:

- تشوفيني أنا؟

- أيوه، كان نفسي من زمان أشوف مين دي اللي هيحبها ابني الكبير.

ثم استدركت موضحة:

- ما هو يحيى ده يبقى ابني، لما اتولد كان عندي ١٢ سنة يعني أنا تقريبا اللي مربياه.

تشجعت يارا قليلا لتقول بابتسامة خجلى:

- ما أنا عارفة، يحيى حكى لي.

قلبت يسرا شفتيها وهي تهتف في غيظ:

- يعني كان بيحكيلك عننا ومابيحكيلناش عنك، ماشي، على العموم أنا كنت حاسة بكل حاجة، كنت لما باكلمه في التليفون كنت باحس إن فيه حاجة متغيرة، حاجة بتقول إنه أخيرا يحيى بيحب.

لم تستطع يارا أن تكتم دموعها أمام ما سمعته، سالت دموعها هادئة على وجنتيها عندما هتفت يسرا في عتاب رقيق:

- جرى إيه يا يارا؟ هو مش أونكل منصور قال لك إنك لازم تبقي قوية عشان يحيى يقدر يعدي المحنة دي؟

مسحت دموعها وهي تهتف في دهشة:

- إنتي عرفتي منين إنه قال لي الكلام ده؟

- هو جالنا النهارده الصبح وإنتي نايمة في أوضته عشان يتطمن علينا ويحكي لنا على كل حاجة ويقول لنا اللي حصل ده سببه إيه والبوليس ماكملش تحقيق ليه. كمان طلب مننا إننا مانزعلش منك وإن لو حبينا نلوم حد نلومه هو.

ثم صمتت قليلا قبل أن تستطرد مبتسمة:

- بس إحنا مانقدرش نزعل من واحد من كتر ما كان قريب من بابا الله يرحمه كنا بنعتبره زي عمنا وكمان مانقدرش نزعل من البنت اللي بيحبها يحيى.

تذكرت يارا أن منصور بك كان قد أخبرها أنه استغل استغراقها في النوم وذهب على مقعده المتحرك إلى أسرة يحيى ليشرح لهم ما حدث. بالطبع لم يقل لهم الحقيقة. فقط أخبرهم أن خلافات حول صفقة ما من صفقات مجموعة شركاته مع رجل أعمال أجنبي ذي نفوذ قوي دفعه ليحاول الانتقام من منصور بك عن طريق إيذاء يارا في منزلها، وأن يحيى كان هناك لأنه طلب منه أن يذهب ليحضر أوراق تلك الصفقة التي كانت يارا قد أخفتها في غرفتها، وأن القضية كلها سيتم إغلاقها تحاشيا لما قد يحدث من مشاكل جسيمة نتيجة مواجهة هذا الرجل ونفوذه. كما طمأنهم بأنه قد قام بتسوية خلافاته معه حتى لا يتكرر ما حدث مرة أخرى.

لم تجد يارا ما تجيبها به. فقط ابتسمت في ارتياح بعدما أزاحت يسرا عبئا ثقيلا كان يجثم على أنفاسها وأحست أن ما حدث لن يبعدها عنهم بل بالعكس زادها قربا لهم. انتبهت على صوت يسرا وهي تسأل:

- بتحبيه يا يارا؟

بوغتت بالسؤال، ولكنها قبل أن تجد فرصة لتجيب أو حتى تفكر استطردت يسرا قائلة:

لمزيد من الكتب المصرية

- سؤال غبي قوي، أنا مش محتاجة أسألك، أنا عارفة إنك بتحبيه، مش بس عشان قعدتك جنبه طول الوقت في المستشفى وعياطك وحزنك، إنما عشان حاجتين مهمين قوي، أولا الكلام اللي قاله لنا أونكل منصور عن اللي جرالك بعد ما شفتي يحيى لما جاله النزيف تاني، وثانيا شكلك وإنتي بتقري له في القرآن، اللي مايعرفش إن اللي جوا ده قرب يتم تلاتين سنة كان قال إنك أم واللي جوا ده ابنك.

تأملتها يارا بعينين دامعتين وقد مس هذا التشبيه شغاف قلبها، نعم هي تشعر أنه ابنها، عندما رأته في تلك الحالة السيئة ودت لو استطاعت أن تضمه إليها لتحميه من هذا المجهول الذي يستنزف روحه مثلما تضم الأم ابنها في وجه الخطر.

دفنت وجهها في راحتي يديها وانخرطت في بكاء لم تستطع كتمانه، أخذت يسرا تربت عليها في حنان دون أن تنطق بكلمة واحدة، رفعت رأسها عندما سمعت صوتا مألوفا يناديها، لم يكن هذا إلا صوت كريم، رمقته من خلف دموعها في دهشة شديدة بينما تململ هو قليلا متبادلا النظرات مع يسرا ومعها قبل أن يهتف في تردد:

- يارا، ممكن أتكلم معاكي شوية؟

مسحت يارا دموعها وهي تهتف بنبرة متلجلجة:

- آه، طبعا.

- هاستناكي في كافيتريا المستشفى.

التفت واختفى من أمامها بينما ظلت هي جالسة لدقائق حتى تمالكت نفسها قبل أن تستأذن من يسرا وتذهب خلفه، كانت خطواتها مترددة وقلبها يخفق بعنف، كأنها تخون يحيى لجلوسها مع كريم وتركها إياه في حالته تلك.

عندما دخلت الكافيتريا وجدته جالسا على مائدة قريبة يعبث بسلسلة مفاتيحه شاردا فيها وعلى وجهه شيء غريب، شيء صادق لا يشبه هذا التمثيل الذي توقعت أن يفتعله عندما يريد أن يتشاجر كما يفعل دائما، شيء مثل هذا الانكسار الذي رأته على وجهه عندما قص لها قصة وفاة زوجته وابنه.

جلست أمامه في توجس، بادرت بالحديث متسائلة:

- إنت عرفت منين إن أنا هنا؟

أجابها دون أن يرفع رأسه:

- البواب حكى لي على كل اللي حصل وقال لي على اسم المستشفى.

توقعت أن يسأل عن سبب ما حدث، أن يبدي دهشته، أو حتى يتشاجر معها لوجود يحيى في شقتها خاصة بعد ما قاله لها في المرة السابقة عندما أمضت الليل في بيت يحيى، إلا أنه لم يفعل. سادت فترة صمت لم يكف فيها كريم عن العبث بمفاتيحه شاردا وبارا ترقبه بنفس التوجس. أخيرا، ابتسم ساخرا وهو يتساءل دون أن ينظر نحوها:

- إنتي عارفة أنا كنت جاي لك ليه؟

تساءلت في نبرة مترددة:

- ليه؟

- عشان أفوقك.

- تفوقني.

- أيوه، كنت ناوي أقول لك الكلام الخايب ده زي إنتي إيه اللي مقعدك هنا؟ وهو بيبقى لك إيه يعني؟! وإن إنتي مابتحبيهوش وإن بيتهيأ لك والكلام الفاضي ده.

كانت تستمع إليه والدهشة تكسو ملامحها من تلك النبرة التي يتحدث بها عن نفسه. صمتت قليلا قبل أن تتساءل لتحثه على استكمال حديثه:

- و بعدين؟

رفع رأسه ونظر نحوها وهو يقول في نبرة منكسرة:

- و بعدين دخلت المستشفى وحسيت كأني رجعت عشر شهور لورا. كل اللي حصل وقت الحادثة شفته قدام عينيا من تاني. ولما شفتك افتكرت نفسي، افتكرت القعدة دي اللي كنت قاعدها مستني أي حد يطمني أو يقول لي كلمة عنهم. ساعتها حسيت إني مش عاوز يجرى لك اللي جرى لي، مش عاوزك تخسري اللي أنا خسرته ولا تخرجي من هنا زي ما أنا خرجت من المستشفى التانية من عشر شهور.

دمعت عيناها بعدما أدركت سبب هذا الانكسار الذي يحتل ملامحه. قالت مبتسمة في رقة:

لمزيد من الكتب العصرية

- عارف يا كريم، على الرغم من إنك تبان مش مختلف عن زمان إلا إنك فعلا اتغيرت من جواك.

جاهد ليبتسم وهو يقول مداعبا:

- وإنتي على الرغم من إنك تباني مختلفة قوي عن زمان إلا إنك ماتغيرتيش يا يارا.

تساءلت في دهشة:

- إزاي يعني؟!

- يعني بتحبي بنفس الطريقة، ومهما تحبي بيفضل فيه حتة جواكي بتهرب من اللي بتحبيه.

تأملته يارا مندهشة من حديثه الذي يشبه ما كانت تفكر فيه منذ قليل بينما استطرد هو قائلا:

- بس قلة الثقة دي ماكانش لها تأثير قوي على علاقتنا لأن اللي أنا عملته كان أقوى بكتير عشان كده تأثيرها مابانش.

أجابته في نبرة شبه نادمة:

- بس المرة دي تأثيرها كان واضح.

- يمكن عشان المرة دي مافيش مشكلة غيرها؟

نظرت نحوه مندهشة من إحساسها بأن كريم يحثها على التمسك بحبها ليحيى فاستطرد هو مبتسما ليؤكد لها ظنها:

- ماتضيعيش حد بتحبيه يا يارا عشان نقص الثقة اللا إرادي ده، لو ربنا رجعهولك بالسلامة ماتخسريهوش بإرادتك وإلا هتندمي أكتر من اللي ندموا عشان ماحسوش بقيمة ناس معينة إلا لما خسروهم غصب عنهم.

أحست بالاشفاق عليه عندما أيقنت أنه يتحدث عن نفسه، حاولت أن تجيبه لكن الكلام توقف في حلقها عندما رأت يسرا تركض نحوها، انتفضت واقفة وهي تهتف في فزع:

- فيه إيه يا يسرا؟

اختلطت دموع يسرا بنظراتها الراقصة وهي تكاد تصرخ من الفرحة:

- يحيى فاق يا يارا، والدكتور دخلنا نشوفه.

لم تصدق يارا ما سمعته، أمسكت يسرا من كتفها وهي تهتف متلعثمة:

- بجد؟! بجد يا يسرا؟!

- أيوه يحيى فاق وطلب يشوفك.

هتفت يارا شبه صارخة:

- هو اتكلم معاكم؟!

- لأ طبعا، هو شاور لنا وماما فهمت وأنا جيت بسرعة عشان أقول لك.

نهض كريم وهتف مبتسما:

- روحي يا يارا، وماتنسيش تعزميني على الفرح.

نظرت يارا نحوه في امتنان قبل أن تندفع راكضة خلف يسرا التي كانت تسبقها بخطوتين، كانت تركض وقلبها يكاد يتوقف من شدة الخفقان بفرحة كانت تخشى ألا تراها مرة أخرى، فرحة أوقفت عقلها عن إدراك أي شيء حتى أنها لم تشعر بأنفاسها وهي تكاد تتوقف من شدة الركض، كان كل ما يهمها هو أن تراه، أن تلمسه، أن تتأكد من أن هاتين العينين المغمضتين قد كفتا عن الاستسلام لدنيا أخرى وأنهما عادتا إلى دنياها التي كانت تنتظره.

توقفت عند عتبة الباب تلتقط أنفاسها المبهورة وهي تدير عينيها بتردد وخوف بين كل من كانوا يحيطون بفراشه رامقين إياها بابتسامة رضا وارتياح، خفتت أنفاسها عندما وقعت عيناها عليه، كان لا يزال راقدا في فراشه ومعظم وجهه الشاحب مختفي خلف قناع الأكسجين، التقت عيناها بعينيه، رأت فيهما ابتسامة خافتة، تلك الابتسامة التي طالما ابتسمها لها والتي ظلت طوال الأيام الماضية تتوق لها لكنها هذه المرة كانت أضعف وأكثر شحوبا.

اقتربت نحوه في خطوات واهنة وقلبها يدق بعنف، عندما أصبحت بجانبه نسيت كل شيء حولها، نسيت العيون التي ترمقها، أحست أنها وحدها معه وأن الدنيا والزمن قد توقفا من حولهما، خفتت دقات قلبها حتى حسبت أنه قد توقف عن الخفقان.

ببساطة شديدة، وجدت نفسها تجثو على ركبتيها وتمسك بيده الموضوعة في وهن بجانبه على الفراش، ألصقت راحتها براحته وأحكمت قبضتها حول قبضته كأنها تتأكد من وجوده وتتشبث به حتى لا يضيع منها، انحنت وألصقت شفتيها بظهر يده فانسابت دموعها مبللة إياها كأنها بتلك القبلة تشكر الله على إعادته لها، كأنها بتلك القبلة تعتذر له عن أي شيء وتفصح له عن كل شيء.

(٦٧)

- وبعدين يا زوزو؟ سندريلا حصل لها إيه؟

كان يحيى جالسا على فراش غرفة المستشفى التي انتقل إليها بعد خروجه من العناية المركزة، يده اليسرى لا تزال المحاليل معلقة بها وذراعه اليمنى يحيط بها الطفلة ذات الخمس سنوات وقد أسندت رأسها على كتفه وتبعثر شعرها البني الناعم حولها بينما رفعت ذراعيها الصغيرتين نحو الأعلى ممسكة بكتاب طفولي ذي رسومات ملونة وأحرف كبيرة استغرقت فيهم بكل حواسها كأنها تحيا القصة بدلا من أبطالها.

سمعا طرقا انفتح على إثره الباب وأطلت يارا بوجه مشرق هادئ ومرتاح القسمات، تساءلت مبتسمة:

- ممكن أدخل؟

أجاب يحيى مبتسما:

- طبعا.

دخلت يارا بخطوات واثقة مرحة كأنها تطير فوق الأرض، كأنها بالفعل كانت معلقة الروح حتى عادت إليها الحياة مع عودته، جلست على المقعد المجاور للفراش بينما ساعد يحيى الطفلة على الاعتدال فجلست وهو لا يزال يحيطها بذراعه قبل أن يقول مشيرا نحوها برأسه ومبتسما:

- أحب أعرفك على زينة أو زوزو، آخر العنقود عند يمنى وأصغر حفيدة.

خاطبتها يارا وقد اتسعت ابتسامتها:

- إزيك يا زوزو؟

أخفت الطفلة وجهها خلف الكتاب الذي تمسك به بينما تركت عينيها فقط غير مخبأتين لتتأمل بهما يارا في ارتياب وخجل دون أن تجيبها. اتسعت ابتسامة يحيى وهو يبرر قائلا:

- أصل إحنا كنا بنحكي حكاية قبل ما تدخلي، مش هتكملي لي يا زوزو سندريلا حصل لها إيه؟

وضعت زينة الكتاب أمامها وهي تقول في تلقائية:

- ما خلاص، سندريلا اتجوزت الأمير والقصة خلصت.

فغمز يحيى ليارا وهو يتساءل ممازحا:

- طب وانتي يا زوزو مش عاوزة تتجوزي إنتي كمان؟

قالت عاقدة حاجبيها:

-ماينفعش.

- ليه؟

- عشان ماما قالت لي إن أنا لسه صغيرة، الكبار بس هما اللي بيتجوزوا.

فتساءل يحيى متخابثا:

- يعني أنا بنفع أتجوز؟

تأملته زينة قليلا غير قادرة على الاستيعاب، كأنها فوجئت لتوها أن خالها رجل كبير يمكن أن يفعل ما يفعله هؤلاء الذين تقرأ عنهم في قصصها الصغيرة. أجابته في نبرة مترددة:

- آه، ممكن.

فتساءل مقربا فمه من أذنها وموجها نظراته نحو يارا التي كانت تتابع الحديث مبتسمة وقد احمرت وجنتاها قليلا:

- طب إيه رأيك؟ أتجوز مين؟

صمتت الطفلة قليلا ولا تزال الدهشة تحتل قسماتها قبل أن تقول في بساطة:

- اتجوز ماما.

أخذا يضحكان بشدة على ردها البسيط التلقائي قبل أن يقول يحيى من وسط ضحكاته المتقطعة:

- ماينفعش يا زوزو، أولا عشان ماما يمنى متجوزة بابا علاء وثانيا عشان ماما تبقى أختي وماينفعش حد يتجوز أخته.

صمتت زينة قليلا مفكرة قبل أن تتساءل مكونة سؤالها بصعوبة:

- يعني كل حد المفروض يتجوز واحدة مش أخته ومش متجوزة حد تاني؟

- أيوه بالضبط. إيه رأيك بقى أتجوز مين؟

فأجابته متضجرة:

- مش عارفة.

قلب يحيى شفتيه متضايقا قبل أن يقرب شفتيه مرة أخرى من أذنها وتساءل بصوت خفيض مثبتا عينيه في عيني يارا:

- طب إيه رأيك لو أتجوز يارا؟

حاولت يارا مغالبة ابتسامتها الخجلى والسيطرة على دقات قلبها المضطربة وزينة ترمقها بنظرات متفحصة قبل أن تقول في بساطة نهائية:

- لأ ماينفعش.

حاولت يارا كتم ضحكتها من هذا النفي التلقائي الذي لم تتوقعاه بينما تساءل يحيى مستعطفا:

- ليه بس يا زوزو؟

- عشان سندريلا والأمير اتجوزوا في القصة عشان كانوا بيحبوا بعض.

ثم رفعت حاجبها متسائلة في استنكار:

- إنتوا بتحبوا بعض؟

أجابها يحيى بينما نظراته موجهة نحو يارا:

- أنا عن نفسي باحبها جدا جدا جدا..

- وهي؟

- اسألها.

نظرت زينة نحو يارا وتساءلت مستنكرة:

- إنتي بتحبي خالو يحيى؟

حاولت يارا كتم ابتسامتها الخجلى واقتربت قليلا من زينة وهي تتساءل بصوت خفيض:

- لازم يعني أجاوب على السؤال ده يا زوزو؟

فهتفت الطفلة في استنكار:

- أيوه طبعا، أمال هاوافق إزاي؟

ضغطت يارا شفتيها محاولة السيطرة على دقات قلبها بينما كان يحيى يرمقها بنظرة منتصرة بعدما نجح في وضعها في هذا الموقف دون أن تستطيع الهروب من الإجابة، أخذت يارا نفسا عميقا ونظرت نحو يحيى وهي تقول مستسلمة:

- أيوه باحبه جدا جدا جدا.

رفعت زينة كفيها الصغيرتين وهي تقول في بساطة:

- يبقى ممكن تتجوزوا.

نظر يحيى نحوها مبتسما في انتصار بينما رمقته يارا في غيظ وإن ظلت الابتسامة عالقة بشفتيها وقلبها يدق بشدة.

لم يقطع حبل نظراتهما سوى دخول يمنى التي أقبلت نحوهما وهي تهتف مبتسمة:

- رغي وشقاوة ووجع دماغ تبقى زوزو طبعا اللي عاملة الدوشة.

أجابها يحيى مبتسما:

- بالعكس، زوزو دي هي اللي جابت التايهة.

تساءلت يمنى مستنكرة:

- تايهة إيه؟

أسرعت يارا لتجيب مغيرة دفة الحوار:

- ربنا يخليها لك يا يمنى.

- أنا ماكنتش عاوزاها تيجي المستشفى بس هي الوحيدة اللي خدت الأجازة في أخواتها وكانت عمالة تعيط عاوزاني فاتكسفت أسيبها عند جارتي هناك، خليت علاء راح جابها.

ثم التفتت نحو زينة ورفعتها بين يديها وهي تهتف قائلة:

- يلا بينا بقى عشان تاكلي، بابا جاب لك الHappy meal.

هتفت زينة في تذمر ويمنى تبتعد بها نحو الباب:

- أنا عاوزة أقعد مع خالو يحيى تاني.

- لأ لازم نسيبه يقعد مع ضيوفه.

- دي مش ضيوف، دي يارا.

- طنط يارا يا بنت.

خرجت يمنى ولا يزال النقاش دائرا مع زينة، التفت يحيى نحو يارا وقال والابتسامة المنتصرة لا تزال عالقة بشفتيه:

- يعني لازم أتضرب بالنار وأرقد في المستشفى وأموت عشان حضرتك تنطقي؟

فركت يديها وهي تقول مبتسمة في خجل:

- ما خلاص بقى ما أنا قلتها.

أمال رأسه نحوها وهو يتساءل بابتسامة متخابثة:

- هي إيه دي؟

أبعدت نظرها عنه وهي تقول وقد احمرت وجنتاها:

- اللي أنا قلتها.

- أيوه اللي هي إيه؟

زفرت محاولة التخلص من الحرارة التي احتلت وجهها ثم حاولت التغلب على الابتسام وهي تنظر نحوه وتقول في نبرة حاولت أن تكون جادة وإن ظل بعض الاحمرار الخفيف يطلي وجنتيها بينما يحيى يتأملها مبتسما:

- إني باحبك وإني طول الفترة اللي إنت كنت فيها في العناية المركزة كنت حاسة إن روحي مسحوبة مني وكل ما أفكر إني ممكن اكون أنا السبب في اللي حصل لك أبقى مش طايقة نفسي وأبقى مش مصدقة، إزاي ماخدتش بالي إن إنت كنت الحاجة الوحيدة اللي ربنا بعتها ليا عشان يعوضني بيها عن كل اللي حصل لي في حياتي؟

أمسك يدها الموضوعة بجانبه وثبت عينيه اللامعتين بداخل عينيها وهو يقول مبتسما:

- و أنا كمان باحبك وأظن إنتي عارفة كده كويس بس كنتي خايفة وقلقانة وعندك حق، اللي حصل لك ماكانش قليل، وأنا كنت محتار ومش عارف أعمل إيه، وأنا كمان معذور لأني لأول مرة في حياتي باحب.

صمت قليلا ليرمق ابتسامتها وعينيها الدامعتين ثم استطرد قائلا:

- ولو الرصاصة دي جات فيا بدالك فعلا زي ما بتقولي يبقى كويس قوي إن ده حصل، لو إنتي قدرتي تستحملي يومين العناية المركزة دول أنا ماكنتش هاقدر أستحمل يومين زي دول لو لا قدر الله كانت جات فيكي.

ظلت تتأمله بعينين دامعتين، كيف كانت ولو حتى لا إراديا تخاف منه كما كانت تخاف كل الناس؟ كيف كانت تضعه في منزلة واحدة مع كل من عرفتهم من قبل وخذلوها؟ إنه يكاد يفديها بروحه، لم تتخيل في يوم من الأيام أنها يمكن أن تقابل شخصا يحبها بتلك الطريقة وتشعر معه بكل هذا الأمان.

مسحت دموعها قبل أن تنزلق وأسرعت تفتح حقيبتها وهي تقول لتغير مجرى الحديث:

- إنت نسيتني حاجة مهمة قوي، أنا جبت لك هدية.

عقد حاجبيه وتساءل مستنكرا:

- بمناسبة إيه؟

- بمناسبة إن أنا اكتشفت إن إنت جبت لي هدايا كتير وأنا ماجبتلكش هدايا قبل كده خالص.

فقال ضاحكا:

- فيه حد يقول كده برضو؟

- استنى بس.

أخرجت علبة على شكل مستطيل صغير من القطيفة الزرقاء، رمقته بعينين لامعتين قبل أن تفتحها ببطء أمام عينيه. تأمل يحيى ما في داخلها غير مستوعب في البداية ثم رفع رأسه ونظر نحوها مندهشا. اتسعت ابتسامتها من دهشته كأنها تنتقم من الموقف الذي وضعها فيه منذ قليل. تساءل بنبرة مستنكرة:

- دول دبلتين؟

حركت رأسها للأعلى وللأسفل وقد ازداد لمعان عينيها واتسعت ابتسامتها بشدة. ازدادت دهشته من تلقائيتها فهتف متسائلا في استنكار ومداعبا إياها:

- مش المفروض برضو إن أنا اللي أجيبهم؟ ولا حضرتك ناوية تخطبيني؟

ضيقت عينيها مستنكرة دعابته قبل أن تقول في ثقة:

- لا وإنت الصادق، إنت اللي كنت خطبتني قبل كده لما كنا في المكتب قبل ما نقابل نادر. أنا يادوب جبت الدبلتين.

مط شفتيه قبل إن يقول:

- إنتي مابتنسيش حاجة كده؟ طب جبتيهم ليه بقى؟ ليه ماستنيتيش لما أطلع أنا من المستشفى وأجيبهم؟

أخفضت عينيها كأنها تخجل من تذكر تلك المشاعر المؤلمة التي احتلتها عندما أحست ألا حق لها فيه، قالت بنبرة خفيضة مترددة:

- عشان على الرغم من كل الحاجات اللي حكيت لك إن أنا كنت حاسة بيها لما إنت كنت في العناية المركزة ماكانش واجعني أكتر من إحساسي باني مش من عيلتك. إني متطفلة. ماليش مكان واضح بين طنط عايدة وأخواتك. ماليش حق إني أروح أسأل الدكتور عليك. لازم يبقى حد منهم معايا لأن ماليش أي صفة بالنسبة لك وماليش أي حق فيك. ولا حتى إني أعيط قدام الناس عشانك.

ثم نظرت نحوه مبتسمة وهي تقول مداعبة:

- و بما إني مش ناوية أسيبكم خالص طول الفترة اللي جاية وناوية أفضل لازقة لكم لحد أما تتطمن عليك تماما. فقررت إني ماستناش وأجيب الدبل دلوقتي لأني بصراحة، ماليش نفس أحس الإحساس السخيف ده تاني. ماليش نفس أحس إن ماليش حق فيك وأنا تقريبا مالياش غيرك دلوقتي.

ابتسم يحيى وهو يتأملها متأثرا، دون أن يجيب مد يده وتناول منها العلبة الزرقاء، فتحها وأخرج منها الخاتم الذهبي ومد يده الأخرى ذات الخرطوم المعلق نحوها، مدت يدها ووضعتها في يده تلك. أدخل الخاتم في أصبعها ببطء حتى لامس منبته عند الكف كأنه يتلذذ بكل ثانية يمر فيها الخاتم بجزء من أصبعها. تأملت الخاتم في أصبعها مبتسمة وقلبها يدق مضطربا بسعادة لم تعرف لها مثيلا من قبل ولا حتى حين خطبها كريم. أخرجت الخاتم الاخر من العلبة وأمسكت بيده. نظرت نحوه لترى هذا الترقب في عينيه كأنه يخشى أن تتردد كما تفعل دائما. اتسعت ابتسامتها الواثقة وهي تتأمل أصابعه قبل أن تقوم بإدخال الخاتم في خنصره وقد فاق ما تشعر به في تلك اللحظة كل ما شعرت به طوال حياتها من ارتجافات للكيان.

عندما لامس الخاتم منبت أصبعه أسرع بمسك يدها قبل أن تبعدها، نظر داخل عينيها وهو يقول بانا إياها بصوته وعينيه أمانا يعلم أنها في أمس الحاجة إليه:

- إنتي ماكنتيش محتاجة الدبلة عشان يبقى لك حق فيا، حقك فيا إنتي بتاخديه كل يوم من ساعة ما ربنا قدر إنه يخلقك من ضلعي ويحافظ لي عليكي طول السنين الطويلة دي لحد أما يجمعني بيكي في الوقت المناسب.

كانت تتابعه بعينيها المسحورتين من هذا الذي تسمعه منه وتشعر بصدقه من نبض خلاياه الملامسة لخلاياها ويدها في يده عندما انفتح الباب ودخل منصور بك على مقعده المتحرك تدفعه إحدى الممرضات وعايدة خلفهما.

أخرجا نفسيهما بصعوبة مما كانا مستغرقين فيه ليجيبا تحياتهما ويتفاعلا معهما، تركت يارا مقعدها وذهبت لتجلس على مقعد عند الناحية الأخرى من الفراش لتكون بجانب يحيى وفي مواجهة منصور وعايدة اللذين استقرا مكانهما.

هتف منصور في حماس:

- جرى إيه يا يحيى إنت هتفضل قاعد هنا ولا إيه؟ أنا خلاص اتكتب لي على خروج وبقيت زي الحديد وإنت لسه قاعد، أنا صحيح لسه قدامي مشوار في العلاج الطبيعي بس إن شاء الله في خلال فترة بسيطة جدا هارجع زي الأول وأحسن كمان، الاسم بس إن أنا اللي عجوز وإنت اللي شباب.

ضحك يحيى قبل أن يقول مجاملا:

- لا عجوز إيه ده سعادتك أكتر واحد شباب فينا يا منصور بيه.

قلب منصور شفتيه وهو يهتف مستنكرا:

- بيه إيه بقى؟ في حد برضو يقول لحماه يا بيه؟

تبادل يحيى ويارا نظرات الدهشة قبل أن يلتفت يحيى نحو عايدة ويهتف في نبرة ذات معنى:

- عملتيها يا ماما؟

اتسعت ابتسامة عايدة وهي تقول في فخر:

- أيوه عملتها.

واستكمل منصور قائلا:

- خلاص أنا ووالدتك اتفقنا على كل حاجة.

غمز يحيى ليارا وهو يقول مداعبا:

- من غير ما تسألونا ولا تاخدوا رأينا؟

أسرعت عايدة قائلة في حسم:

- بص يا ولد، إنت وهي تعرفوا بعض بقالكوا قد كده ولا عملتوا حاجة، يبقى في الحالة دي الكبار هما الوحيدين اللي يقدروا يخلصوا الموضوع.

نظر يحيى ويارا إلى بعضهما مبتسمين في انتصار ثم التفتا نحوها حيث هتف يحيى بنفس النبرة المنتصرة:

- عشان تعرفوا بقى، إحنا طلعنا أجدع منكم.

ثم رفعا يديهما ليظهرا لهما خاتمي الخطبة المستقرين في أصبعيهما منذ دقائق، صرخت عايدة في سعادة وأسرعت لتقبل ابنها وتقبل يارا ثم خرجت مسرعة لتبلغ يسرا ويمنى بينما التفت منصور نحوهما وتساءل في سعادة ممزوجة بدهشة:

- عملتوها إزاي وامتى؟

قال يحيى مبتسما وهو ينظر نحو يارا:

- عشان تعرفوا إن الصغيرين أجدع من الكبار.

بادلته يارا النظرات مبتسمة وعندما التفتت نحو أبيها صدمتها نظراته نحوها، كان يتأملها مبتسما في تأثر، في عينيه تلك النظرة التي تمنت يوم خطبتها لكريم أن يرمقها بها، لكن ما بها اضطربت هكذا وأخفضت عينيها سريعا متحاشية إياه؟ الموقف كله غريب عليها، أبوها ينظر نحوها متأثرا بخطبتها كما يفعل كل الآباء مع بناتهم، طالما تمنت أن يحدث لها مثلما حدث لكل صديقاتها ولكنه عندما حدث الآن اضطربت وتوقف عقلها عن العمل، متى ستعتاده بكل تفاصيل أبوته لها؟

استطرد منصور قائلا:

- بس برضو هتنفذوا باقي الاتفاق اللي اتفقته مع عايدة هانم، أول ما تتطمن عليك خالص هنعمل كتب كتاب صغير وبعدين فرح كبير في الفيلا عندي بعدها تسافروا تلفوا شوية في أوروبا قبل ما تطلعوا على نيودلهي عشان سعادتك تستلم شغلك وتستقروا هناك.

اختفت ابتسامة يحيى، تنحنح قبل أن يقول مترددا:

- بس أنا عندي تعديل واحد على الكلام ده عشان فيه قرار مهم أخدته هيغير شوية في الخطة دي.

نظرت يارا نحوه مستنكرة نبرته بينما عقد منصور حاجبيه متسائلا:

- قرار إيه؟

لم يكد يفتح فمه ليجيب حتى قاطعه دخول عايدة وابنتها مهللات لخبر الخطبة. انشغل جميعهم في تبادل المباركات والتهاني ونسوا الحديث الذي كانوا بصدده وهو ما أراح يحيى الذي أيقن في تلك اللحظة أنه من الأفضل أن ينفذ قراره ثم يخبرهم به بعد تنفيذه وليس العكس.

(٦٨)

عندما أذن له بالدخول تقدم يحيى مبتسما ابتسامة هادئة من مكتب الوزير الذي نهض مبتسما هو الآخر وخرج من خلف المكتب ليصافحه بشيء من الحميمية قائلا:

- حمد الله على السلامة يا بطل.

- الله يسلم معاليك.

- اتفضل اقعد يا يحيى.

جلس الوزير خلف مكتبه بينما جلس يحيى على المقعد أمامه مستطردا:

- ماما بتشكر معاليك على زيارة سعادتك والهانم ليا في المستشفى.

أغلق الوزير ما في يده من أوراق وهو يقول بابتسامة هادئة:

- تشكرني على إيه بس، إنت ناسي إن مراد الله يرحمه كان من أقرب أصدقائي ولا إيه؟ المهم، قول لي إنت طلبت تقابلني ليه؟

زفر يحيى ليتخلص من الحرج الذي انتابه عندما اقترب من هذا الذي أتى من أجله، دون أن يتكلم مد يده بملف مغلق يحوي ورقة واحدة تناوله منه الوزير في هدوء، فتحه وألقى نظرة سريعة على ما بداخله، كدبلوماسي محنك لم يبد على وجهه أي انفعال أو آثار دهشة بل نظر نحوه وقال في هدوء:

- يا راجل ده أنا كنت فاكر إنك جاي تعزمني على فرحك، استقالة مرة واحدة؟!

أجاب يحيى محاولا إخفاء حرجه:

- أنا عارف إني كان لازم أقدمها لمديري المباشر بس أنا استأذنته إني أقدمها لمعاليك لأن زي ما سعادتك قلت إن صداقة سعادتك لوالدي الله يرحمه بتخليني أعتبر نفسي زي ابن سعادتك وده شرف ليا طبعا.

ابتسم الوزير قائلا:

- و طبعا تلاقيه وافق إنك تقدمها لي على أمل إني أرفضها أو أقدر أقنعك إنك تتراجع عنها.

مط يحيى شفتيه قائلا:

- يمكن معاليك.

عقد الوزير يديه أمامه قائلا في نبرة شبه ساخرة:

- و ناوي تشتغل إيه بعد ما تسيبنا؟ هتعمل مشروع خاص ولا هتشتغل مع منصور به في مجموعته؟ ولا ناوي تكمل دراسات عليا وتشتغل دكتور في الجامعة؟

صمت يحى حائرا فهو لم يفكر في أي بدائل، لم يفكر سوى في القرار ودوافعه فقط. عندما طال صمته وحيرته استطرد الوزير مبتسما في شبه انتصار:

- يا ابني إنت ماتعرفش تشتغل حاجة تانية غير هنا في الخارجية. إنت اتخلقت عشان تبقى دبلوماسي. هتسيبنا وتروح فين؟

لم يعرف يحى بم يجيب؟ الرجل محق في كل ما قال. ماذا سيفعل إن ترك هذا المكان الذي تربى في أجوائه وأجواء مشابهة له بحكم عمل والده فيه ثم عمله هو شخصيا فيه من بعده. إنه لا يجيد أي شيء آخر سوى عمله هذا الذي يحبه أكثر من أي شيء آخر في حياته؟ ولكن قراره هذا كيف يمكن العدول عنه بعد كل ما حدث وبعدما اقتنع تماما بدوافعه؟

انتبه على صوت الوزير الذي استطرد في نبرة جادة:

- شوف يا يحى، إنت يمكن تكون اعتمدت على مساعدة والدك في أول حياتك العملية بس ده مايمنعش إنك أثبت كفاءتك في شغلك بمجهودك وشطارتك وتفوقك من غير مساعدة حد. إنت من أكفأ الدبلوماسيين في الوزارة وإنت فعلا بتحب شغلك وماتعرفش تشتغل غيره. يبقى إيه الحاجة اللي ممكن تخليك تستغني عنه بالسهولة دي؟

- يا فندم القرار ماكانش سهل، بس أنا اضطريت أخده لأن اللي واجهته خلى من الصعب إني أستمر في التعامل مع الناس دول بعد كده.

عاد الوزير بجذعه إلى الخلف وهو يهتف في لا مبالاة:

- ليه؟

تململ يحى قليلا قبل أن يجيب قائلا:

- سعادتك أكيد عرفت كل اللي حصل، اللي شفته وعرفته عن الناس دول والإطار اللي احتكيت من خلاله بيهم يخليني من الصعب إني أتعامل معاهم بشكل طبيعي بعد كده. أنا كنت هاموت على إيدهم.

زفر الوزير وهو يفرك جبينه استعدادا للكثير الذي سيقوله والذي بدأه قائلا:

- بص يا يحيى، أنا هاكلمك زي ابني بالضبط. أنا هاسألك سؤال واحد وفكر فيه كويس. تفتكر لو كان والدك الله يرحمه عايش دلوقتي كان هيوافقك على قرارك ده؟

بوغت يحيى بالسؤال. تذكر والده وهدوءه ورزانته وحكمته في مواجهة المواقف الصعبة. تخيل نفسه وهو يناقشه في قراره هذا. تفاجأ عندما اكتشف أن والده لو كان على قيد الحياة الآن لما تجرأ حتى على التفكير في مثل هذا القرار، ليس فقط لارتباط أسرته بالعمل الدبلوماسي ولكن أيضا لخشيته من أن يرى والده في هذا القرار شيئا من التخاذل أو الجبن. أصابته أفكاره بشيء من الخيبة في نفسه. هل هو حقا متخاذل؟ أجاب الوزير على أفكاره تلك حين استطرد قائلا:

- القرار الغريب ده كان رد فعل طبيعي للي حصل، مش عشان إنت جبان لا سمح الله إنما عشان إنت إنسان، وإنسان نضيف كمان. عشان كده ماستحملتش اللي شفته مع إنك لو كنت فكرت شوية كمان كنت خدت بالك إن اللي عرفته ده مش جديد عليك ولا على أي حد طبيعي ماشي في الشارع، مش دبلوماسي معاه بكالوريوس علوم سياسية من إنجلترا ومثقف وفاهم الدنيا دي ماشية إزاي.

صمت الوزير مبتسما بعدما ظهر شيء من الاقتناع على ملامح يحيى قبل أن يستكمل قائلا:

- احتكاكك بالناس دول بالطريقة دي يمكن يكون ليه عيوبه بس برضو ليه مميزاته. اللي عرفته مش جديد بس السياق اللي اتحطيت فيه جديد وأكيد اتعلمت منه كتير واللي اتعلمته ده هيفيدك في شغلك هنا أكتر من أي مكان تاني. الموضوع كله خلاص خلص. إحنا ومنصور بيه عرفنا نخلصه بطريقتنا وماحدش هيتعرض لكم تاني أبدا ومش هيحصل أي تأثير على شغلك مع الناس دي لأن زي ما قلت لك اللي تعرفه مش جديد والموضوع خلص وماقيش أي خطر لا عليهم ولا عليك. وكده ولا كده شغلنا مليان من القرف ده وقربك من حقيقة زي دي مش هيفرق كتير ومش هيخليك مختلف قوي عن الباقي بس على الأقل إنت هتبقى فاهم أكتر منهم.

عاد يصمت مرة أخرى ليتأكد من آثار الاقتناع على وجه يحيى ثم قال خاتما حديثه في ود:

- إنت الحمد لله ربنا سترها معاك وأنقذك من الخطر. لازم ترجع لحياتك الطبيعية وتركز في شغلك ومستقبلك والبلد الجديدة اللي إنت رايح لها. فيه ناس كتير بتخاف أو بتتحاشى إنها تعرف

الحقيقة بس إحنا أكتر ناس لازم نبقى عارفينها كويس حتى لو ماقدرناش ناخد منها موقف مباشر بس معرفتنا لها هيخلينا نعرف نشتغل كويس في مكاننا، وخليك فاكر كلمة مهمة قوي كان مراد الله يرحمه بيقولها، فاكرها؟

أجاب يحيى وهو يومئ برأسه شاردا كأنه يتذكر شكل أبيه وهو يتحدث معه:

- لو ماعرفتش تضرب في الحلبة اضرب من مكانك.

فقال الوزير مبتسما:

- طب ما إنت لسه فاكر أهو، قول لي، إنت قلت لوالدتك على القرار ده.

فحرك يحيى رأسه نافيا فاستطرد الوزير متسائلا:

- ولا خطيبتك؟

فابتسم يحيى قائلا:

- ماقلتش لأي حد.

فأجابه ضاحكا:

- لا مش مهم تقول لأي حد، المهم والدتك وخطيبتك، عارف أنا لو رحت قلت لهم إن إنت كنت هتستقيل من وراهم وتحطهم قدام الأمر الواقع، you will be in big trouble ...

ضحك يحيى متسائلا:

- للدرجة دي؟

- طبعا يا ابني، إنت أصلك طيب وعلى نياتك.

مد يده نحو يحيى بالملف الذي يحوي استقالته قائلا في نبرة أبوية صادقة:

- شيل يا يحيى الكلام الفارغ ده من دماغك، ركز في شغلك ومستقبلك وخطيبتك، ماتخليش أي حاجة أو أي حد يبعدك عن هدفك أو عن طريقك أو يأثر على ثقتك في سلامك النفسي.

تناول يحيى الملف ونهض واستدار ليواجه الوزير الذي نهض هو الآخر واقترب منه مصافحا وهو يتساءل مبتسما:

- صحيح إنت ماعزمتنيش على فرحك ليه؟

ابتسم يحيى قائلا:

- قريب إن شاء الله، ومعاليك أول المدعوين طبعا.

فوضع الوزير يده الأخرى على كتف يحيى وشد عليه قائلا:

- يلا شد حيلك عاوزين نفرح بيك إنت ويارا، هي مش اسمها يارا برضو؟

فأومأ يحيى مؤمنا والابتسامة لا تزال عالقة بشفتيه وهو يحمد الله في قلبه أن صديق والده قد ساعده على التراجع عن قرار كان يمكن أن يندم عليه طوال عمره.

(٦٩)

كاد رأفت يقوم بإدخال المفتاح في الثقب عندما انفتح باب الشقة فجأة وظهرت ليديا أمامه. بوغت برؤيتها أمامه في تلك اللحظة على غير توقع وبوغت أكثر عندما أدرك أنها كانت في منزله. تفاجأت ليديا عندما رأته لكنها تمالكت نفسها وتجاوزته مسرعة دون أن تنظر نحوه هاربة من الموقف برمته. استوقفها صوته عندما وصلت إلى الدرج:

- ليديا.

توقفت لثوان، أغمضت عينيها وزفرت لتتخلص مما بداخلها من شحنات تتزايد كلما رأته. استدارت ببطء ونظرت في عينيه بنفس الجمود الذي أضحى يملأ نظراتها في كل مرة يجمعها به أي لقاء. فشل في السيطرة على ما أصابه من اضطراب وهو يهتف قائلا في نبرة مترددة:

- ممكن، نقعد نتكلم مع بعض شوية؟

ضغطت ليديا شفتيها قبل أن تجيبه بنفس النبرة الباردة:

- مش وقته يا رأفت، اتكلم مع مامتك الأول، هي أهم.

أخفض عينيه وهو يجيب في حرج:

- ماما مش عاوزة تتكلم معايا خالص.

- لو دخلت لها دلوقتي هتتكلم معاك، أنا أقنعتها تسمع لك ولو لآخر مرة، يمكن تقدر تصالحها.

رفع رأسه ونظر نحوها في دهشة شديدة من موقفها المتناقض هذا، أحس بسعادة من مجرد بارقة أمل بأن يعود كل شيء كما كان مع والدته، هتف بنبرة متقطعة غير مصدقة:

- ليديا.. أنا.. إنتي..

قاطعته قائلة في حسم:

- ماتقولش حاجة يا رأفت، أنا سمعت كتير زمان، وماعدتش قادرة أسمع أي حاجة تاني.

صمت متململا في حرج قبل أن يهتف مستعطفا:

- طب، إحنا مش هنقعد نتكلم مع بعض؟

زفرت ليديا وقد تملكتها رغبة شديدة في التخلص من الموقف برمته. هتفت في نبرة أقل جمودا كأنها تحايل طفلا عنيدا:

- ادخل اتكلم مع مامتك أهم يا رأفت، اعمل أي حاجة عشان ترضى تصالحك، بعدها يبقى ربنا يسهل.

لم تنتظر منه إجابة، استدارت وهبطت الدرج مسرعة تاركة إياه غارقا في ضياعه وإن بدا شيء من أمل يلوح له بسببها، دخل الشقة بخطوات مترددة، وجد والدته جالسة على الأريكة في مواجهة الباب، لأول مرة منذ مواجهتهما الأخيرة تبقى معه في نفس الغرفة دون أن تنتفض وتذهب مسرعة متحاشية النظر نحوه، رفعت رأسها ونظرت نحوه محاولة التغلب على ما في قلبها نحوه بينما لم يجرؤ هو على رفع رأسه، سمع حفيف ثوبها وهي تنهض في تثاقل ثم هتفت في نبرة هادئة:

- ادخل غير هدومك واستحمى يا رأفت وحصلني على أوضتي.

كأنها تطلب منه التطهر حتى يحق له الدخول في محراب غفرانها حيث ستقبل منه توبته، تركته ودخلت غرفتها، انصاع رأفت ودخل غرفته لينفذ أوامرها في هدوء ورضا وقد انتعش بداخله أمل استعادتها أو ربما أمل استعادتهما.

كان المترو منطلقا كالسهم، الهواء المقتحم نوافذه يعبث بخصلات شعرها والأفكار الصاخبة تعبث برأسها، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا ذهبت إلى والدته لتقنعها بالاستماع إلى دفاعه الذي لم تقتنع هي به وقبول اعتذاره الذي يمنعها قلبها من قبوله على الأقل في الوقت الحالي؟ لماذا رجتها أن تتقبله مرة أخرى في كنف رحمتها وهي لاتزال تشعر بنفور نحوه؟

ربما تحسبا لبداية أخرى؟ تقلص قلبها عندما مرت هذه الفكرة بخاطرها، بداية أخرى مع رأفت بعد كل ما حدث هو أكثر ما يصيبها بالنفور الآن، هو أكثر ما تتجنبه في تلك المرحلة التي تعقب خروجها من أزمة تساقط فيها إيمانها بكل شيء ولم يعظم بداخلها سوى إيمانها بالله وحتمية إيمانها بنفسها، الأيام التي قضتها متوحدة في غرفتها كشفت لها أشياء فاجأتها عندما تجردت مما كانت تجملها به في الماضي فرأتها على حقيقتها، اكتشفت أنها ظلت سنوات تحيا مثل كويكب يدور في فلك شخص واحد، تختلف حياتها باختلاف قطر المدار، يرتفع إيمانها بنفسها عندما يضيق القطر وتقترب منه، ويضيع هذا الإيمان عندما يتسع المدار وتبتعد عنه، وفي كل الحالات هي مهددة بفقدانه وفقدان إيمانها بنفسها إن قرر هو أن يضرب بتلك القوة المغناطيسية التي تربطها به عرض الحائط فتصبح فجأة تائهة في فراغ موحش مثل كويكب تائه بلا مدار، والأنكى من ذلك أنها

كانت مستسلمة لتلك الحياة بلا أدنى رغبة في التغيير، بلا أي محاولة للاقتناع بأن إيمانها بنفسها يجب ألا يعتمد على أي شيء أو أي شخص سوى نفسها.

اكتشفت أنها ستحتاج كثيرا من الوقت لتصالح نفسها وتكتسب رضاها مرة أخرى، ستحتاج كثيرا من الجهد والعمل لتستعيد هذا الإيمان وتعيد بناءه على أسسه السليمة، على عملها وتفكيرها وسلامها الداخلي، ستحتاج إلى وقت طويل تتفرغ فيه للعمل على نفسها دون مساعدة أي إنسان أو التفكير في أي إنسان سوى نفسها.

لماذا إذا فعلت ما فعلته إذا كان هذا هو قرارها بالفعل؟ لا يوجد سوى ما فكرت به من قبل: بداية أخرى، هل تفكر حقا ولو على استحياء في بداية أخرى مع رأفت؟ نعم، إنها تفكر في بداية أخرى ولكن تلك المرة ستكون بداية مختلفة، بداية سيسبقها فترة إعداد عنيفة لنفسها وله هو أيضا، لن تطلب منه أي شيء، فقط فتحت له بابا جديدا وقادته برفق لطريق آخر ليسير فيه ويقوم ببناء نفسه كما ستفعل هي، إذا أحسن استغلال تلك الفترة التي ستنشغل هي خلالها بنفسها سينجح في اجتياز ما سيلي تلك الفترة من اختبارات، ليست اختباراتها هي بل اختبارات الحياة واختباراته لنفسه، أما هي فلا تملك له سوى اختبار واحد: أن تستعيد ثقة قلبها فيه، قد يبدو أصعب الاختبارات بعد كل ما أصاب قلبها هذا بسببه، لكنها الآن تعلم أنه لا يوجد اختبار أصعب من أن يستعيد الإنسان ثقته بنفسه، إن فعل، امتلك القدرة على اجتياز أي اختبار آخر.

ستحتاج وقتا طويلا وسيحتاج هو وقتا أطول، ربما نجح وربما فشل، ربما استطاعت أن تغفر له وربما لا، كل هذا يتوقف على الفترة القادمة، تلك الفترة التي صممت هي على اجتيازها والتي وضعته على أول طريقها على أمل أن يستطيع اجتيازها هو الآخر.

تركت أفكارها في المترو وهي خارجة من محطة حدائق القبة، أول ما بدأت تتعلمه هو أن تتوقف عن التفكير في أي شخص عندما تكون في مهمة خاصة بها، لماذا تشغل نفسها بأي أفكار الآن؟ أمامها الكثير لتفكر به وتفعله، يجب أن تجد عنوان تلك الخياطة الجديدة التي وصفتها لها صديقتها، أن تكون بكامل تركيزها عندما تتفاوض معها في التصميمات والأسعار، أن تتفرغ للاستمتاع بالتفكير في أي لون ستختار وأي أقمشة ستبتاعها للثوب؟ كيف ستصفف شعرها

وأين؟ حتى أدق التفاصيل يجب أن تستمتع أثناء التفكير فيها. لا يجب أن تكون فقط جميلة ولكن يجب أن تستمتع بإيمانها بجمالها.

كما أن الثوب وكل ما يحيط به من تفاصيل لا يكتسبون أهميتهم فقط من متعة شرائها لشيء جديد وإنما أيضا من تلك المناسبة الجميلة التي ستحضرها وهي مرتدية هذا الثوب.

(٧٠)

تزينت سرايا منصور أبو بلاط بفروع من مصابيح بيضاء صغيرة تتدلى من السطح حتى قرب الأرض بقليل كأنها أعقاد من لؤلؤ تعبث بها نسمات تلك الليلة الصيفية وتنعكس أشعتها الرقيقة على جدران السرايا من الخارج.

أمام الدرج الرخامي الكبير للباب الداخلي المفضي إلى بهو السرايا ينتصب قوس من الورود البيضاء أعلاه غلالة حريرية من نفس اللون في منتصفها منقوش حرف ال ٧ باللون الذهبي، علي يمينه نقش بقية اسم يحي وعلى يساره بقية اسم يارا بنفس الحروف الأجنبية ذات اللون الذهبي تتلألأ مثل المصابيح المتوهجة خلفها على الجدران.

كان الناس يدلفون من تحت قوس الورود، يتأملون الفروع المتلألئة على الجدران من الخارج قبل أن يدخلوا الصالة الكبيرة المزدانة أركانها بنفس الورود البيضاء والشرائط الحريرية المعقودة في رقة ومنتشرة في الأنحاء.

الموسيقى الهادئة تصدح أنغامها في الصالة والحديقة حيث تم إعداد كل شيء حول حمام السباحة في رقي بالغ يتناسب مع أرستقراطية منزل منصور أبو بلاط وأهمية حفل زواج ابنته، والناس يرفلون في ثياب السهرة ويتنقلون في هدوء بين أنحاء الحديقة والصالة حيث كان يحيى يستقبل المدعوين بابتسامة هادئة يحاول استخدامها لمداراة ما بداخله من صخب تزداد وتيرته كلما اقترب موعد ظهور يارا، قلبه يضطرب بعنف من اقتراب تلك اللحظة التي عجز عن تخيلها من كثرة ما فعل، فترك نفسه ينتظرها دون أن يرسم لها حدودا معينة وهو يتحرق شوقا لها وخوفا منها في آن واحد.

منصور كان يستقبل التهاني والمباركات ويرد عليها في سعادة حقيقية، يتغلب بصعوبة على تلك العرجة المتبقية من أثر فترة العلاج الطبيعي المكثفة ليتنقل بين المدعوين بحماس شديد كأنه لا يصدق أن ما يحدث حقيقة، في الماضي كان غاية أمله هو أن يرى ابنته يوم زفافها من بعيد أما أن يحضر حفل الزفاف وأن يقام هذا الحفل في منزله ويقوم بإيصالها بنفسه لزوجها فهو أمر لم يكن ليتجرأ حتى على تخيله بينه وبين نفسه.

استأذن منصور ممن كان يتحدث معهم عندما استدعته الفتاة المسؤولة عن تنظيم الحفل ليصعد الدرج استعدادا لبدء الزفة.

تأكدت من استعداد الفرقة الموسيقية، أوقفت يحيى أسفل الدرج، ثم صعدت مسرعة وخلفها منصور حتى أول الدرج حيث لا يتمكن المدعوون من رؤية يارا وحولها داليا وليديا وعايدة ويسرا ومنى يتزاحمن على وضع اللمسات الأخيرة على ثوبها وطرحتها البيضاوين قبل أن يتركنها تحت إلحاح الفتاة المسؤولة عن تنظيم الحفل ويهبطن الدرج مسرعات للانضمام إلى باقي المدعوين.

هتفت الفتاة موجهة حديثها ليارا ومنصور:

- أنا واقف في وسط السلم عشان تعرفوا تشوفوني، أول ما أشاور لكم ابتدوا انزلوا بالراحة.

تركتهم لتقف على إحدى الدرجات في المنتصف بينما وضعت يارا ذراعها في ذراع منصور الذي نظر نحوها مبتسما وقال في نبرة مشجعة بعدما رأى بعض آثار الاضطراب البادية على وجهها:

- جاهزة يا أستاذة؟

أومأت بنصف ابتسامة قلقة، تأملته وقد انتقل عقلها فجأة إلى أفكار شتى حول هذا الذي وهبها حياة بلا أمان ثم عاد لتعويضها الآن بعدما فقد كل شيء، تعلم أنه لولا محنتها الأخيرة ما حدث هذا التقارب بينهما بتلك السرعة وما استطاعت أن تغفر له كل شيء بهذه السهولة. كانت محتاجة إليه لدرجة جعلتها تسامح بملء قلبها ولا يزال غفرانها له ساريا لأنها أيقنت أن فراغه لن يملأه أحد سواه وأنها لن تستطيع التعود مرة أخرى على وجود هذا الفراغ في حياتها بعدما جربت سلاما نفسيا عجيبا لا يتأتى إلا عندما يسد هو تلك الثغرة في روحها بيديه. ولكن، عندما انتهت المحنة وعادت أفكارها القديمة، وجدت نفسها غير قادرة على النسيان، نعم غفرت، لكن النسيان شيء آخر، وجدت نفسها تتساءل هل يمكن أن يأتي اليوم الذي تتعامل فيه معه بطبيعية شديدة دون أن تتذكر شيئا مما فعله معها ومع أمها أو شيئا من تلك الجريمة التي ظل يرتكبها طوال الخمسة وعشرين عاما الماضية وتركهن من أجلها؟ هل يمكن أن تعتاد أبوته لها والتي يبدو أنه استطاع الانخراط فيها سريعا دون أن يواجه الصعوبات التي تواجهها هي بينها وبين نفسها؟ لا تعرف إلى أين ستصل علاقتها بأبيها ولكنها متأكدة من أن حياتها به على الرغم من كل تلك الصعوبات أفضل وأجمل بكثير من حياتها بدونه.

تبعها منصور إلى إشارة الفتاة التي تلت بدء عزف الفرقة الموسيقية مباشرة، تمسكت بذراعه بشدة لتستمد منه ما يطمئن اضطرابها وهي تهبط الدرجات المفضية إلى بهو السرايا.

أخذت أطراف ثوبها الأبيض تظهر شيئا فشيئا. وكلما هبطت درجة ازداد اضطراب روحه بسعادة فاقت كل ما تخيل أنه يمكن أن يشعر به في تلك اللحظة التي عجز عن تخيلها. تلك اللحظة التي توقفت فيها الدنيا كلها عندما ظهرت يارا كاملة أمامه بثوبها الأبيض وطرحتها الرقيقة المثبتة في رأسها بطوق من ورود بيضاء صغيرة وقد انسدل من تحتهما شعرها الأسود الفاحم.

في البداية لم تكن يارا تنظر نحوه. كانت منشغلة بنظرات كل هؤلاء المدعوين لها. بحثت بينهم عن أناس تمنت أن يكونوا موجودين في تلك اللحظة. بحثت عن أمها. أكثر من افتقدت في هذا اليوم. بحثت عن ريما. أكثر من تدين لها بسعادتها تلك. كادت تصاب بالخيبة عندما أدركت أنها لن تجد أيهما مهما بحثت بين المدعوين. لكنها تجاوزت تلك الخيبة التي حل محلها سعادة أدركتها عندما تذكرت أن الله قد عوضها بالكثيرين أولهم هذا الذي تستند على ذراعه وبينهم عايدة ويسرا ويمنى ورأفت وليديا وداليا. هؤلاء الذين يتأملونها بفرحة فاقت حتى فرحتها بنفسها.

وآخرهم وأهمهم هذا الذي يبعد عنها درجتين. هذا الذي بعثه الله لها ليعوضها به عن كل شيء. يحيى. الرجل الوحيد الذي أحبته بملء قلبها وعقلها وإرادتها والرجل الوحيد الذي يملؤها أمانا واطمئنانا بمجرد وجوده. لم تدرك قدر حبها له إلا عندما كادت أن تفقده وبلغ يقينها مداه عندما التقت عينيها بعينيه في تلك اللحظة. وبينها وبين أن تكون له درجتان فقط.

كان واقفا عاقدا يديه أمامه في اعتداد كما ينبغي لرجل أن يكون. يتأملها وهي تقترب منه بعينين لامعتين وابتسامة هادئة جميلة. الدنيا متوقفة من حوله منذ أن ظهرت أمامه كاملة بثوبها الأبيض، ولم تعد إلى الدوران مرة أخرى إلا عندما التقت عيناه بعينيها وبينه وبين أن تكون له درجتان فقط.

تمت في الخامس والعشرين من مارس ٢٠١٤

والحمد لله

لمزيد من الكتب المصرية

## تنويه هام

هذه الرواية لا تعد مصدرا لأي من الموضوعات المطروحة فيها وقد تم إدراج المصادر التي قمت باستخدامها لسببين:

أولا: الحفاظ على أدنى قدر من المهنية والمرجعية العلمية.

ثانيا: مساعدة القارئ على إيجاد مصادر تساعده على التعمق في أي من الموضوعات أو القضايا إن أحس بنفسه ميلا لذلك

## المصادر


- تجارة السلاح

كتب

The Shadow world: inside Global arms trade by Andrew Feinstein

كتاب تجارة السلاح والأمن القومي العربي. د. سامي منصور – مكتبة مدبولي ١٩٩١

أفلام وثائقية:

Merchants of war

https://www.youtube.com/watch?v=KN9em40q8-c

Lebanon's illegal arms trade

https://www.youtube.com/watch?v=XxumsOQMxLE

- إجراءات شحن جثمان مصري مات بالخارج وشؤون وزارة الخارجية – الموقع الرسمي لوزارة الخارجية المصرية

http://www.mfa.gov.eg/Arabic/ConsularServices/Pages/ServicesProvidedByMFA.aspx

القانون رقم ٤٥ لسنة ١٩٨٢ الخاص بنظام السلك الدبلوماسي والقنصلي والمعدل بالقانون رقم ٦٩ لسنة ٢٠٠٩

القرار الجمهوري رقم ١٤٦ لسنة ١٩٥٨ الخاص باللائحة التنظيمية للخدمة بوزارة الخارجية والقرارات المعدلة له اللائحة التنفيذية للقانون رقم ٦٩ لسنة ٢٠٠٩ بتعديل بعض أحكام القانون

لمزيد من الكتب العصرية

رقم ٤٥ لسنة ١٩٨٢ الصادرة بقرار وزير الخارجية رقم ٤٠١٤ لسنة ٢٠٠٩.

- قصة منزل Winchester mystery house: الموقع الرسمي للمنزل

http://www.winchestermysteryhouse.com/sarahwinchester.cfm

موقع ويكيبيديا:

Winchester mystery house http://en.wikipedia.org/wiki/Winchester_Mystery_House

Oliver Winchester http://en.wikipedia.org/wiki/Oliver_Winchester

حلقات وأفلام وثائقية:

https://www.youtube.com/watch?v=rgxXdJ-E5Cw Weird US - Winchester Mystery House

https://www.youtube.com/watch?v=DAzVmJOLHas "Mrs. Winchester's House" (1963) ((Winchester Mansion Documentary

لمزيد من الكتب العصرية

## شكر خاص جدا

إلى الدكتورة أسماء إسماعيل للمساعدة القيمة في الاستشارات الطبية (استحملت جهلي وأنا بافاصل معاها في التفاصيل الطبية)

وأيضا شكر خاص إلى

آية لبيب عبد الرحمن وخالد نبيل للمساعدة في التفاصيل القانونية

ياسمين مصطفى شعلان ومحمد عطية للمساعدة في التفاصيل الصيدلية

عمر الجندي وأسرته والسيد كريم حسين للمساعدة في شؤون الخارجية وإجراءا

كريستين فرحات للمساعدة في إحضار جزء من المادة العلمية

مريم رزق لتعليقاتها القيمة

وأيضا شكر كبير إلى

نهى حسن ولميس شريف لمراجعة المخطوطة عدة مرات أثناء وبعد كتابتها

وشكر إلى كل من ساعدني أو أبدى استعدادا للمساعدة أثناء رحلة الكتابة

# طردٌ يصلُ متأخِراً

تبدأ أحداث الرواية برجل يقطن بلندن يرى من نافذة شقته أربعة رجال يحملون فتاة ويلقونها من فوق العمارة المقابلة له. ثم تنتقل الاحداث الي القاهرة حيث تحاول "يارا" فك لغز حادث الموت، تتشابك الخيوط غير أن طردا يصل به i pad وكارت معايدة ومجموعة أشياء أخرى يغير كل تفاصيل القضية.

بين تجارة السلاح والحب، بين الألم وصناعة الأمل، بين نشوة الوصول الي حل لغز قديم، ومرارة البحث عن الجاني، بين كل ذلك يبقى أبطال الرواية يحاولون كشف ما حدث.

N 978-977-6426-94-8
789776426948 >